الفصل الثالث والاربعون

مصلحون قبل الاصلاح!

فتحت الفترة المضطربة للسبي البابلي في افنيون، والانشقاق الغربي (تعدد البابوات)، المجال امام تفتح الهرطقات: وحال ضعف الهيبة البابوية، وعدم معرفة من هو البابا الشرعي، ايام الانشقاق البابوي، القضاء عليها في مهدها.

وكان عدم القيام بالاصلاح الكنسي، كما رأينا، احدى المواضيع الكبيرة، التي كانت تثير الاستياء في النفوس. وللقيام بهذه المهمة، قام بعض الاشخاص، اتقياء وذوي اخلاق وسير حميدة، امثال جون ويكليف، وجون هوس، وجيرولامو سفنرولا، بمحاولة تحقيق هذا الاصلاح، ولكن لانهم حاولوا فعل ذلك خارج، وايضا ضد السلطة البابوية، عملوا ايضا على هدم اسس ونُظم الكنسية والدولة.

فتح جون ويكليف وجون هوس، بنزعتهم الى الاستقلالية، وبمبادئهم الهدامة، الطريق الى البروتستنتية، وكانوا اجدادها الحقيقيين، لدرجة ان ما كان لزعماء ما يُدعى بالاصلاح، قرنا ونصف لاحقا، الا ان يغرفوا من عندهم كل عناصر تعاليمهم.

اثنان من رجال الكنيسة في القرن الرابع عشر يستحقان التفاتا خاصا: **جون ويكليف** من انجلترا **وجون هس** من بوهميا. كانا نوعا ما من سابقي ما يدعى بالاصلاح حين ذهبا ابعد من أي من الاخرين في اثارة اسئلة اساسية، وتحديا البابوية في امور تتعلق باللاهوت والسلطة، فدفعا ثمن موقفهما باصدار الحرمان على ويكليف وبالموت حرقا على جون هس.

1- جون ويكليف John Wyclif 1320-1384

ولد جون ويكليف في هبسول القريبة من قرية ويكليف، من اعمال مقاطعة يوركشير في حوالي سنة 1320. ودرس الفلسفة واللاهوت في جامعة اكسفورد – التي كانت تنافس جامعة باريس على الاولوية الثقافية وكان اساتذتها مشهورين بالجسارة حتى التهور في كثير من المواضيع– واصبح فيها استاذا للاهوت، ثم رسم كاهنا، وظل يدرس في الجامعة. وبدأ ويكليف عمله بداية سيئة، اذ تبنى مبدأ الاوغسطينية المتطرف وبنى عقيدته على مبدأ الجبرية الخطير Predestination. وفي ذلك يقول ويكليف:

> "ان الله يمنح بركته ورحمته لمن يشاء، وقد كتب على كل انسان مصيره المحتوم في الازل قبل مولده، كتب عليه الخسران او النجاة الى الابد. وليست الاعمال الصالحة هي التي تنجي صاحبها، بل انها تدل على ان من يعملها قد تلقى رحمة الله ونعمته وانه ممن اختارهم وخصهم بهذه النعمة ..."(قصة الحضارة).

وتبنى ويكيلف في عام 1356 ابضا اراء جماعة Joachim de Flore الرؤاوية Apocalyptique، واصدر كتابه الاول "عن آخر ازمنة الكنيسة The last age of the Church"، وفيه يدعو الكنيسة الى الاصلاح بالعودة الى الفقر الانجيلي. وانضم في عام 1360 الى جامعة اكسفورد والى الاكليروس العلماني في نزاعهما مع الرهبانيات المتسولة التي اتهموها باستيلائها على مرافق الحياة في الكنيسة، وعلى الاستحواذ على الكثير من الشباب، فهاجم ويكليف جمعية الفرنسيسكان واصفا اياها بطريقة لا ترضيهم متهما اياهم انهم "يدعون الى التمسك بالتقى، في حين انهم يجمعون المال ويكدسونه، وكان يرى ان بعض الاديرة ما هي الا مأوى للصوص، عششا للافاعي، وبيوتا للاحياء من الشياطين". وسئم رئيس اساقفة كونتربري ISLIP في عام 1365، النزاعات المستمرة مع جمعية الفرنسيسكان، فطردهم من جامعة Canterbury Hall التي انشأها في اكسفورد، ووضع ويكليف مكانهم على رأس هذه الكلية. ولكن خليفة ISLIP اعاد الرهبان في السنة التالية واعفى ويكليف من الرئاسة، مما اثار غضب ويكليف الذي رفع امره الى البابا في افنيون، حيث خسر ويكليف دعوته في عام 1370. مما دفعه الى اخذ مواقف معادي للبابوية وللرهبان.

الاخوة الفقراء The Lollards

ظلوكليف يصدر المنشور تلو المنشور ضد الكنيسة، وانشأ طائفة من "الكهنة الوعاظ الفقراء" لينشروا اصلاحاته بين الشعب. وكان من هؤلاء "الاتباع" من لم يتلقوا من العلم الا اقله، كما كان منهم رجال من جامعة اكسفورد، وكانوا جميعا يرتدون اثوابا من الصوف الاسود ويمشون حفاة، كما كان يفعل "الاخون الاقدمون"، كما كانوا كلهم تعمر قلوبهم حماسة الرجال الذين تكشفت لهم من جديد حقيقة المسيح. وكانت عقيدتهم المتأصلة في نفوسهم هي ان الكتاب المقدس لا يأتيه الباطل بخلاف تقاليد الكنيسة وعقائدها المعرضة للخطأ، وكانوا يصرون على ان يعظوا الناس بلغتهم

القومية لا بالطقوس الغامضة التي تتلى عليهم بلغة اجنبية. وكتب ويكليف الى هؤلاء الكهنة العلمانيين والى من يستمعون اليهم من المتعلمين بلغة انجليزية سهلة قوية خالية من التنميق ثلثمائة موعظة، وكثيرا من المقالات الدينية. وقد عرفوا هؤلاء فيما بعد باسم Lollards.

الكنيسة تقاوم

وقرر كورتناي اسقف لندن ان يقاوم، فاتهم ويكليف بانه مارق خارج على الدين. واستدعى الواعظ للمثول امام مجلس من الاحبار في كنيسة القديس بولس في شهر شباط عام 1377. واطاع الامر، ولكنه جاء ومعه حاشية مسلحة. ونشب نزاع بين الجنود وبعض مؤيدي ويكليف، قام على اثره شغب، فرأى الاسقف ان من الحكمة تأجيل المحاكمة، وعاد ويكليف الى اكسفورد دون ان يمسه سوء. الا انه واصل هجومه وتعليمه متكلا على دعم البلاط الملكي وبالخصوص عم الملك ادوارد الثالث، دوق دي لانكستر Duc of Lancaster.

فارسل كورتناي الى روما تقريرا نقل فيه اثنتين وخمسين عبارة من كتب ويكليف ومن تعاليمه الشفوية الغير كاثوليكية. لما كان شهر ايار 1377 اصدر البابا غرغوريوس الحادي عشر مراسيم بابوية يطعن فيها على ثمانية عشر من اقوال ويكليف، معظمها من رسالته "عن الحكم المدني"، وامر سدبري كبير الاساقفة والاسقف كورتناي ان يبحثا الامر ليعرفا هل لا يزال ويكليف معتنقا هذه الاراء، فاذا تبينا انه لا يزال يعتنقها فعليهما ان يلقيا القبض عليه ويحتفظا به في الاغلال حتى تصدر اليهما تعليمات اخرى. الا انه بسبب دعم البلاط الملكي بقيت هذه الاوامر حبرا على ورق.

ويكليف انكلترا والسلطة البابوية

وكان ويكليف في هذه الاثناء قد كسب تأييد طائفة كبيرة من الرأي وخصوصا من الطبقة النبيلة. وكان البرلمان الذي اجتمع في شهر تشرين اول مناهضا للكنيسة اشد المناهضة. وكانت فرنسا وقتئذ تستعد لغزو انجلترا، وكانت الخزانة الانجليزية تكاد تكون خاوية، وبدا ان من الحمق ان يسمح لوكلاء البابا ان يجمعوا الاموال من الابرشيات الانجليزية لبابا فرنسي ولمجلس من الكرادلة كثرته من الفرنسيين. وسأل مستشارو الملك ويكليف:

> "هل يحق لمملكة انجلترا شرعا، اذا كانت الضرورة تحتم عليها ان تعمل لصد ما يتهددها من الغزو الفرنسي، ان تمنع اموال الدولة من الوصول الى البلاد الاجنبية، وان طلبها البابا وهدد من يمنعها بالعقاب معتمدا في ذلك على وجوب طاعة اوامره؟"

واجاب ويكليف عن هذا الاستفتاء بمنشور كان في الواقع دعوة لفصل الكنيسة الانجليزية عن البابوية وقد جاء في هذا المنشور:

> "ان البابا لا يستطيع ان يطلب هذا المال الا على سبيل الصدقة... ولما كانت اهل البلاد اولى من غيرهم بهذه الصدقات، فان توجيه صدقات الدولة الى البلاد الخارجية اذا كانت البلاد نفسها في حاجة اليها، يخرج بها عن نطاق الصدقات ويجعلها حماقة وبلاهة".

ورد ويكليف على الدعوة القائلة ان الكنيسة الانجليزي جزء من الكنيسة العالمية الكاثوليكية وان من واجب الكنيسة الانجليزية لهذا السبب ان تطيعها وتخضع لاوامرها، رد ويكليف على هذه الدعوى ان اوصى باستقلال انجلترا الكنسي وقال:

> "ان الدولة الانجليزية، بنص الكتاب المقدس، يجب ان تكون هيئة واحدة، وان يكون رجال الدين واللوردات، والسكان العاديون اعضا في هذه الهيئة".

وقد بلغت هذه الدعوى، التي استبق بها هنري الثامن من الجرأة حدا جعل مستشاري الملك يطلبون الى ويكليف ان يمتنع من الادلاء بآراء جديدة في هذا الموضوع.

وكان عام 1378 عاما مميزا في حياة ويكليف، اذ انتقل في صراعه مع البابوية من المجال السياسي الى المجال الديني.

ويكيليف يهاجم البابوية

هاجم ويكليف البابوية هجوما مباشرا، وقال ان الكنيسة ليست متمركزة في البابا والكرادلة، لكن في شركة المختارين يكون المسيح بالتاكيد راسها الوحيد، "ليس للبابا قوة في الربط والحل اكثر من أي كاهن". وقال: "انه عندي

مسألة ايمان انه لا يجب على أي انسان ان يتبع البابا او حتى احد القديسين في السماء، الا عندما يقتدون بالمسيح". في كتاباته اللاحقة استخدم لغة عنيفة لدرجة انه سمى البابا عدو المسيح.

ويكليف يترجم الكتاب المقدس

واذ كان يحث الناس الى العودة الى المسيحية كما جاءت في كتاب العهد الجديد، فقد شرع هو ومساعدوه يترجمون الكتاب المقدس ليكون هو المرشد الوحيد المنزه عن الخطأ الى الدين الحق. اراد يكليف ان يكون الكتاب المقدس في متناول كل انجليزي يستطيع القراءة. ويبدو انه هو نفسه قد ترجم اسفار العهد الجديد، وترك ترجمة العهد القديم لنقولاس هيرفور وجوبيرفي وقد تمت هذه التراجم كلها بعد عشر سنين من موت ويكليف. وكان الاصل الذي ترجم الكتابان عنه هو ترجمة جيروم اللاتينية، لا الترجمة العبرية للعهد القديم او اليونانية للعهد الجديد. ولم تكن الترجمة نموذجا يحتذى في النثر الانجليزي، لكنها كانت حدثا خطيرا في التاريخ الانجليزي.

ويكليف وسري الافخارستيا والاعتراف

اختلف ويكليف عن الموقف الكاثوليكي بالنسبة **لسر الافخارستيا** مستبقا بذلك ما قام به لوثر وكالفن وتصدر اثنا عشرة بندا، ينكرا فيهما فكرة الاستحالة الجوهرية (transsubstantion)، وان الخبز والخمر يتحولان الى جسد الرب ودمه. امن ويكليف ان الجسد والدم كانا حاضرين حقا، لكن لم يكن هنا تحويل وتغيير في الخبز والخمر. ويقول ان المسيح كان يحضر حضورا روحيا، حقيقيا، صادقا، قوي الاثر، ولكن حضوره هذا كان مع الخبز والنبيذ اللذين لم ينعدم وجودهما كما تدعي الكنيسة. اما كيف يكون ذلك فهو سر غامض. ودعى الى وجوب الشك بوجه عام في صحة العشاء الرباني الذي يقدمه الكاهن الآثم او الخارج على الدين، كما ان الكاهن، صالحا كان، او طالحا، لا يستطيع ان يحيل الخبز المقدس الى جسم المسيح ودمه. ولم يكن شيء يبدو ابشع في نظر ويكليف من تفكيره في ان بعض من يعرفهم من الكهنة يستطيعون ان يأتوا بهذه المعجزة التي هي من صنع الله وحده.

وانكر **ضرورة الاعتراف** الجهري امام الكاهن، ونادى بالعودة الى الاعتراف الاختياري العام الذي كان يفضله المسيحيون الاولون،.

رد الفعل على تعاليم ويكليف

اثارت افكار وتعاليم ويكلف هذه الخوف في بعض انصاره، فاسرع جون جونت الى اكسفورد، والح على صديقه ان يخفف من هجومه وخصوصا على القربان الاقدس (1381)، ورفض ويكليف نصيحته، وعاد فاكد آراءه في اعتراف له اصدره بتاريخ 10 ايار سنة 1381، مما اثار مشاعر كثير من مؤيده. واسرعت جامعة اكسفورد وألفت لجنة لدراسة تعاليم ويكليف، واعلنتها انها هرطوقية، فمنعت تعليمها في جامعتها. فرفع ويكليف قضيتها ليس للاسقف ولا للبابا وانما للملك، الا ان الوصي على العرش وحامي ويكليف اللورد لانكستر، رأى انه الدفاع عن ويكليف الذي حامى عن حقوق المدنية للبلاد ضد البابا شيء والدفاع عن من يهاجم العقائد شيء اخر، فرفع عنه حمايته.

ثورة الفلاحين

واندلعت نيران ثورة اجتماعية "ثورة الفلاحين" في انجلترا بعد شهر من ذلك التاريخ 1381، كان سببها كثرة الضرائب التي فرضت على الشعب وحالة البؤس التي كان يعيشها فلاحي القرى. ورأى الحكام في هذه الثورة من تأثير تعاليم ويكيليف. وارتبك ويكليف وتحير بما ابداه من اعجاب به زعيم الثورة، فاصدر عنه منشورات يتنحى فيها عن العصاة، ويتبرأ فيها من كل آراء اشتراكية، فقام يفسر شيوعيته على انها يجب ان تؤخذ بمعناها المثالي، وان السلطات التي تقوم بمقتضاها هي التي نادى بها القديس بولس والتي امر بها الله ومن ثم كانت واجبة الطاعة.

ويكليف يفقد التأييد

ارتاع كل ذوي الاملاك من هذه المبادىء، وجعلتهم يقاومون كل مذهب فيه خطر على الملكية ايا كان شكلها، كنيسة كانت او علمانية. وخسر ويكليف اذ ذاك معظم ما كانت تنفحه به الحكومة من تأييد، وكان اغتيال

سدبري كبير الاساقفة على يد الثوار سببا في ارتقاء الاسقف كورتناي الد اعدائه الى منصب كبير اساقفة انجلترا بدلا منه. فدعا في شهر ايار من عام 1381 مجلسا من رجال. واقنع كبير الاساقفة هذه الجمعية بان تستنكر اربعة وعشرين من آراء ويكليف قرأها هو من مؤلفاته، ثم بعث بأمر عاجل الى مدير جامعة اكسفورد ليمنع مؤلف هذه الكتب من الاستمرار في التعليم او الوعظ الا بعد ان يثبت تمسكه باصول الدين القويم. واضاف الملك رتشارد الثاني الى هذا امرا اصدره الى مدير الجامعة ان يطرد منها ويكليف وجميع مؤيديه، وكان ذلك جزءا من الخطة التي انتهجها لمقاومة الفتنة التي كادت ان تطوح به عن عرشه. فما كان من ويكليف الا ان انسحب الى املاكه في لتروورث.

موت ويكليف

قضى ويكليف في لتروورث اخر سنتين من حياته، وفيها كتب كتابه Trialogus وفيه نشر اراءه بشكل كامل ولكن باعتدال، واعلن انه بوحدة مع الكنيسة. وفي عام 1384 دعا البابا اربان السادس ويكليف للمثول بين يديه في روما، الا انه اصيب في الثامن والعشرين من شهر كانون اول عام 1384 بضربة شلل وقت ان كان يقوم بالقداس ثم وافته المنية بعد ثلاثة ايام من تلك الاصابة. ودفن في لتروورث. وبناء على قرار من مجلس كنستانس (4 ايار 1415) اخرجت عظامه من القبر والقيت في مجرى ماء قريب، ودار البحث عن كتاباته وابيد ما عثر عليها منها.

2- جون هس JOHN HUSS 1373-1415

المسألة البوهيميا

لكي نفهم حركة جون هس، من المهم ان نتعرف اولا على البيئة البوهيميا التي ولدت فيها هذه الحركة. ومن المعروف ان بوهيميا ارتدت الى الدين المسيحي عل يد القديس متوديوس في القرن التاسع، وبأذن من روما ادخل الى هذه الكنيسة الجديدة الليتورجية البيزنطية مترجمة الى اللغة السلافية.

سريعا ما اثارت هذه الخصوصية حسد ومعارضة المرسلين الالمان، اثناء الاحتلال الالماني لبوهيميا، وطلبوا من روما منع هذه الليتورجية بحجة ان اللغات المقدسة هي العبرية واليونانية واللاتينية. فربحوا الدعوة، واضطرا السلاف مرغمين على قبول الليتورجية اللاتينية. وكان هذا احد الاسباب في نشر بعض الاضطرابات في بوهيميا، وزيادة المقاومة للسلطة البابوية من قبل مؤيدي الليتورجية البيزنطية.

هذه المعارضة من قبل السلاف زادت حدتها عندما بدأت جماعات الفودوا وغيرها من الحركات الهرطوقية، الهاربين من فرنسا تصل الى بوهيميا للحماية، وجلبت معها بجانب ما تبنته من كره السلاف للالمان وللبابوية، افكارها التي تتخلص بثلاث نقاط:

- اصلاح الكنيسة بعودتها الى الفقر الانجيلي
- رفض معظم اسرار الكنيسة
- الحقد على البابوية

وصلت هذه المعارضة اوجها واثارت قلق المسؤولين، في بداية القرن الرابع عشر، اضطر على اثرها رئيس اساقفة براغ، استنادا الى قرارات مجمع فينا (1311-1312) على اقامة محاكم التفتيش الدينية. واصدرت هذه المحكمة اربعة عشرة حكما بالحرق على الوالدنيين، الا ان تعاليمهم وهرطقتهم لم تختفي، بل وقام وعلى مدى القرن الرابع عشر – ابان وجود البابوية في افنيون والانشقاق الكبير – عدد كبير من وعاظهم بالتجول في المدن والقرى، مبشرين بعودة المسيح الدجال، وداعين الى اصلاح الكنيسة. ومن اشهر هؤلاء الوعاظ :

يوحنا ميلكز Jean Milicz de Kremsier راع كاتدرائية براغ، الذي استقال من عمله للقيام بخدمة الوعظ بين الفقراء، وقد احرز عمله بينهم نجاحا كبيرا. وقد هاجم بلغة عنيفة نقائص الاكليروس. وفي عام 1367، توجه الى روما، وحاول ان يقنع البابا اربان الخامس، بان ضد المسيح قد جاء، وان المجيء الثاني للسيد المسيح قد بات وشيكا، لكن البابا طرده. ودُعي للمثول في افنيون امام البابا غريغوريوس الحادي عشر بتهمة الهرطقة، وفيها مات عام 1374 قبل ان ينتهي التحقيق.

متياس اف جانو Mathias de Janow، وكان تلميذا لميلكز، وحل محله في براغ. كان واعظا بليغا، وفي عظاته، كان يوجه انتقادا مرا لرجال الدين والرهبان، ويعرض بحالة الفساد الذي كان متفشيا بكافة المجالات، سواء في الاخلاق او العبادات.

تأثير ويكليف في بوهيميا

تزوجت الاميرة "انا" ابنة شارل الرابع ملك بوهيميا من رتشارد الثاني ملك انجلترا، واصبحت مغرمة بكتابات ويكليف. وجذبت جامعة اكسفورد الطلبة البوهيميون، وجاؤا للدراسة فيها، وعند عودتهم جلبوا معهم بآراء ويكليف الى جامعة "براغ". كما واعدّ جو الحماس الوطني والانتعاش الديني في بوهيميا البلاد الى قبول وتبني تعاليم جون هس.

جون هس

بدأ حياته في قرية هوسينتز Hussinecz في بوهيميا (حاليا في سلوفكيا)، حيث وُلد حوالي عام 1369، وعُرف باسم جون الهوسينتزي الذي اختصره فيما بعد الى هس. وجاء حوالي عام 1390 الى براغ وهو طالب فقير وكسب عيشه بالخدمة في الكنيسة، وكان أمله ان ينخرط في سلك الكهنة. وحصل عام 1396 على اجازة استاذ في الآداب، وبدأ يدرس في الجامعة، ورسم كاهنا عام 1401، وامتاز، بسبب علمه وتقواه وصلاح حياته، سمعة جيدة، جعلته يرتقي بسرعة الى المناصب العليا، فاختير عام 1402 عميدا لكلية الآداب، او بعبارة اخرى عميدا للدراسات الانسانية، وعيّن راعي لكنيسة بيت لحم، واصبح اشهر واعظ في براغ، وكان بين المستمعين اليه كثيرون من رجال البلاط، وقد عينته الملكة صوفيا واعظا ومعرفا لها. واخذ يلقي عظاته باللغة التشيكية، وعلم رجال كنيسته ان يسهموا بنصيب ايجابي في الصلاة بترتيل الاناشيد الدينية.

دخلت في هذه الفترة، وعلى اثر زواج الاميرة "آنا" ابنة ملك بوهيميا من رتشارد الثاني ملك انجلترا، اراء ويكليف وانتشرت انتشارا سريعا، وكان لها الكثير من الانصار ومنهم جون هس. مع انه لم يوافق ويكليف في ارائه المتطرفة حول الافخارتسيا، الا انه تحمس ليس فقط لكثير من ارائه الفلسفية التي يستشف منها الحلولية، والجبرية، وانما ايضا لارائه حول الكنيسة الروحية، وضرورة الاصلاح. فاستغل مركزه كراع لكنيسة بيت لحم وكاستاذ في جامعة براغ لنشر اراء ويكليف، لدرجة جعلت القائمون على الادارة الكهنوتية في الكتدرائية يتقدمون الى اساتذة الجامعة بخمسة واربعين نصا مختارا من كتابات ويكليف متسائلين: هل تمنع الجامعة هذه الاقوال؟ — فاجاب عدد من الاساتذة بينهم هس بالنفي، ولكن الاغلبية حكمت انه لا يجوز منذ ذلك الحين لاي عضو من اعضاء هيئة التدريس بالجامعة، ان يدافع او يؤيد بصورة علنية او سرية لقول من هذه الاقوال الخمسة والاربعين.

ولا بد ان يكون هس قد تجاهل هذا التحريم، بل قام بترجمة كتاب ويكليف Trialogus الى اللغة التشكية، مما اضطر رجال الدين في براغ الالتماس عام 1408 من كبير الاساقفة ان يبحث الموضوع ويضع حدا له. فاستجاب لهم كبير الاساقفة بحذر لانه كان وقتذاك على خلاف مع الملك. ولكن هس وبحماية الملك ونسلاوس والملكة صوفيا، استمر في عطفه على اراء ويكليف. ثم انقسمت جامعة براغ الى احزاب بين بوهيميين والمان، انفصل على اثرها الحزب الالماني ليكوّن جامعة ليبزغ ويسحب معه 2000 من الطلاب الالمان، واصبح هس رئيسا لجامعة براغ التي اصبحت الان جامعة صغيرة وضعيفة. وتابع وعظه وهجومه على السلطة الكنسية، الا انه هذه المرة، وبسبب تضافر جهود رجال الدين، واستاذة الجامعة الالمانية، وبرجوازية براغ الذين تأثروا بانفصال الجامعة وخروج الطلاب الالمان، اصدر عليه رئيس الاساقفة وعلى عدد من زملائه قرار بمنع الوعظ باراء ويكليف (1409)، وامر بأن تسلم اليه كل ما يوجد من كتابات ويكليف في بوهيميا، واحضرت اليه مائتا مخطوطة، فاحرقها في ساحة قصره. فاستأنف هس القرار الى البابا المنتخب حديثا يوحنا الثالث والعشرين، واستمر في وعظه وهجومه على مفاسد على رجال الدين وضد منع حرية الوعظ. فاستدعاه ليمثل امام المحكمة البابوية، فابى ان يذهب، فصدر ضده الحرمان عام 1411، ونشر في جميع كنائس براغ.

جون هس والغفرانات

ورغب البابا يوحنا الثالث والعشرون (بيزا)، في عام 1411 في الحصول على اموال للقيام بحملة صليبية على لاديسلاس ملك نابولي، الذي كان يناصر منافسه البابا غريغوريوس الثاني عشر، والذي خلعه مجلس بيزا. فاعلن عرضا

آخر لصكوك الغفران. ولما اذيع ذلك في براغ اثار ذلك تمردا وفوضى في جامعة براغ بين مؤيدي ومعارضي الغفرانات. وادعى هس "ان البابا لا يملك الحق ان يرفع الحسام باسم الكنيسة في وجه اعدائه، بل عليه ان يصلي من اجلهم وان يبارك لاعنيه... وان على الانسان ان يحصل على غفران خطاياه بندامة حقيقية وتوبة صادقة وليس بالنقود، وعلى كل، فاذا لم يكن الانسان من المختارين، فلا الغفرانات ولا التوبة ستساعده...". وناقش وجود المطهر، واحتج على جمع الكنيسة للاموال لاهراق الدم المسيحي. وهبط هس الى القدح فوصف البابا بأنه "نابش الاموال" وزاد على ذلك بأنه ضد المسيح. وشارك جانب كبير من الشعب هس في ارائه وعرض عمال البابا للسخرية والانتقاص، وحدثت بعض الاضطرابات الى حد جعل الملك يحرم كل دعوة او عمل بعد ذلك ضد صكوك الغفران. وخرج ثلاثة من الفتيان على هذا المرسوم، فاستدعوا الى مجلس المدينة، ودافع هس عنهم، واعترف ان دعوته اثارتهم، فادينوا وقُطعت رؤوسهم.

وعمل البابا في تلك الفترة على توجيه حرمانه الى هس. ولما تجاهل الرجل القرار اصدر البابا يوحنا قرارا بحرمان أي مدينة يأوي اليها (1411). ورحل هس عن براغ مستجيبا لنصيحة الملك وظل معتزلا بالريف عامين. وكتب في هذين العامين اهم مؤلفاته، بعضها باللاتينية، وبعضها بالتشيكية وتكاد كلها تنطق بوحى ويكليف. وانكر تكريم الصور والاعتراف السمعي. واعطى حركته صفة شعبية وقومية بالانتقاص من قدر الالمان والدفاع عن الصقالبة، وادان الاتجار بالمقدسات ونعى على الكهنة اخذ اجرا على العماد والقداس والزواج والدفن، واتهم بعض رجال الدين في براغ ببيع الزيت المقدس، واخذ برأى ويكليف في ان الكاهن الذي اقترف بيع المقدسات لا يجوز له شرعا ان يناول السر المقدس، اما رسالته De Ecclesia فقد اصبحت بمثابة دفاعه وسبب هلاكه في وقت واحد فان من صفحاتها نقلت الهرطقة التي احرق من اجلها.

اتبع ويكليف في القول بالجبر، وايد ويكليف في ان الكنيسة يجب الا يكون لها ممتلكات دنيوية وعرّف الكنيسة مثل كالفن من بعده بانها ليست هيئة رجال الدين ولا الجمع المسيحي باسره، ولكنها المختارين في السماء او على الارض الناجين من الخطيئة، وليس البابا رأس الكنيسة، ويجب ان يكون الانجيل لا البابا مرشد المسيحي. وليس البابا معصوما، حتى في العقيدة او الاخلاق، وقد يكون البابا نفسه خاطئا معتادا للخطيئة او هرطقيا. وختم هس كلامه انه لا طاعة للبابا الا اذا اتفقت اوامره مع شريعة المسيح، "وعصيان البابا الخاطىء انما هو طاعة للمسيح".

الحكم على هس

رفع هس دعواه الى المجمع العام، ولما اجتمع مجلس عام في كنستانس عام 1414 لكي يخلع ثلاثة بابوات متنافسين ويضع برنامجا لاصلاح الكنيسة، بدا للعيان ان فرصة قد سنحت لاعادة الوئام بين الهسيين والكنيسة، فاقترح ان يتوجه هس الى كنستانس ويبدأ الصلح من ناحيته. منح هس من اجل هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر جواز الامان ال كنستانس وابداء رأيه على الملأ امام المجلس وحرية العودة في امان الى بوهيميا اذا رفض هس حكم المجلس. على الرغم من التحذير الملح من معاونيه فقد رحل الى كنستانس (اكتوبر 1414) يصحبه ثلاثة من النبلاء التشيكيين وعدد من الاصدقاء. وذهب الى كنستانس في الوقت نفسه تقريبا فريق من المعارضين البوهيميين لهس لاتهامه امام المجلس.

ولما وصل، عومل اول الامر بحفاوة وتُرك حرا، ورفع عنه البابا يوحنا الثالث والعشرون الحرمان، الا انه منعه من اقامة ذبيحة القداس والوعظ. ولكن ما ان عرض معارضوه امام المجلس بيانا بهرطقته، حتى استدعاه اعضاء المجلس واستجوبوه واقتنعوا من اجاباته، بأنه هرطوقي كبير، امروا بزجه في السجن، فاعتلت صحته، واشرف في وقت من الاوقات على الموت، وارسل البابا يوحنا الثالث والعشرون اطباء من قبله لمعالجته. وفي نيسان نقل هس الى حصن جوتليبن على نهر الراين ووضع هناك في الاصفاد.

وفي الخامس من تموز، سيق هس مكبلا بعد ان قضى في السجن سبعة اشهر امام المجلس، ومثل كذلك في السابع والثامن من الشهر نفسه. وسئل عن الآراء الخمسة والاربعين التي سبق ان اتهمت من مؤلفات ويكليف فانكر معظمها وايد بعضها. ولما وجيه بفقرات من كتابه "عن الكنيسة" عبر عن رغبته في حذف ما ينكره الكتاب المقدس (وهو بالضبط نفس الموقف الذي اتخذه لوثر في ورمس) واحتج المجلس ان الكتاب المقدس يجب ان يفسر بواسطة رؤوساء الكنيسة لا بواسطة اجتهاد الافراد وطالب هس ان يسحب جميع تلك الاراء التي استشهد بها دون تحفظ. وناشده اصدقاؤه ومتهموه ان يوافق ولكنه ابى وبعد ثلاثة ايام من الاستجواب والجهود التي بذلها الامبراطور والكرادلة لكي يسحب هس اراءه، اعيد الى محبسه وسمح المجلس له ولاعضائه باربعة اسابيع لدراسة الامر الذي كان معقدا النسبة للمجلس اكثر منه بالنسبة لهس.

وبذلت محاولات اخرى للحصول على شبهة عدول هس عن ارائه واوفد الامبراطور رسلا من لدنه للالحاح عليه. وكانت اجابته واحدة دائما، انه يتنازل، عن أي رأى من ارأئه لا يؤيده الكتاب المقدس. وفي السادس من تموز عام 1415، اجتمع المجلس في كاتدرائية كنستانس وادان كلا من ويكليف وهس، وامر باحراق كتابات هس وسلمه للسلطة الزمنية وجرد لتوه من منصبه الديني وسيق خارج المدينة الى موضع اعدت فيه اكداس من الحطب وطلب اليه للمرة الاخيرة ان ينقذ نفسه بكلمة تنبيء عن تنازله عن آرائه، ولكنه ابى، واكلته النار وهو يرتل الاناشيد[1].

وبعد موته اصبح بطلا قوميا، واعلنت جامعة براغ انه شهيد، وجعلت يوم وفاته عيد احتفالي. وثارت ثورة شعبية من بعده، استمرت عدة سنين.

3- هراطقة اخرون من القرن الرابع عشر

بجانب اتباع ويكليف وهوس، ظهرت في تلك الفترة ايضا، شيع اقل اهمية وخطورة، الا انها بتعاليمها ومبادئها ومهاجمتها للكنيسة والعقيدة المسيحية، حملت في ذاتها بذور مبادىء ما يُدعى بالاصلاح البروتستنتي. من بين هذه الشيع نكتفي بذكر شيعة "المجالدين Flagellants" وشيعة "اصدقاء الله Les Amis de Dieu".

شيعة "المجالدين Flagellants"

كانت فكرة تكفير الخطايا بالالم فكرة مسيحية اصيلة. الم يكفر المسيح عنا ويفتدينا بالعذاب والالام؟ لذلك، فليس من العجب، بانه ومنذ القرون الاولى للكنيسة، اخذ المتصوفون ونساك الشرق والغرب، بالفرض على انفسهم بعقوبات لضبط جسدهم وللتعويض للعدل الالهي عن خطاياهم. وكانت احدى الوسائل التي استعملوها لترويض اجسادهم والتكفير عن خطاياهم هي الجلد، أي اما بجلد انفسهم بانفسهم، او بالطلب من الاخرين بجلدهم بالسياط[2].

وحتى منتصف القرن الثالث عشر، بقيت هذه الممارسات، تمارس في خفية الاديرة البيوت، الا انه وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر، بدأت تظهر في ايطاليا، مسيرات المجالدين processions de Flagellants، كانت تقوم خلالها جماعات التائبين بجلد انفسهم علنيا بالسياط.

لم يكن لهذه الجمعيات من ناحية المبدأ، أي عداء للكنيسة؛ ولكن رويدا رويدا، تحولت هذه الجمعيات الى شيع متطرفة، لم تكتفي فقط باظهار احتقارها للاكليروس، ولكن رفضوا ايضا الاسرار، وتكريم الصليب والصور المقدسة والقديسين، وادّعوا ان وحده الجلد وهو معمودية الدم، يمكن ان يمنح الخلاص. وادّعى بعض هؤلاء، وخصوصا من منطقة ويستفليا، الذين تطرفوا في تصوفهم، بانهم استلموا بواسطة ملاك، رسالة من العذراء مريم، جاء فيها انه لولا ممارستهم الجلد، لكان انتهى امر المسيحية.

وقام المجالدون ايضا باعمال ابشع من كلامهم. من ذلك، ان الشعب، امام وباء الطاعون وكوارثه، نسبوا الى اليهود سبب هذا الغضب الالهي، فقامت جماعة المجالدين بقتل الالاف منهم. ومن ناحية اخرى اثارت عليهم، تصرفتهم المتطرفة: كالنهب، والاعمال المشينة، التي مارسوها اثناء اجتماعاتهم المختلطة، اثارت الشك في صحة ممارساتهم. لذلك، ومنذ عام 1349، اصدر البابا كليمنضوس السادس مرسوما، امر فيه البابا الاساقفة بالقضاء على هذه الجمعيات. فلاحقتهم محاكم التفتيش، فاختفت هذه الجمعيات، ما عدا في منطقة التورانج Thuringe وفي ساكس Saxe، واستمرت حتى مجيء الاصلاح البروتستنتي.

شيعة "اصدقاء الله Les Amis de Dieu".

تألف في النصف الاول من القرن الرابع، في بعض مدن نهر الرين: كولونيا، ستراسبورغ وبازل الخ... جمعيات تقوية من العلمانيين، مارست بجانب حياة التأمل والتوبة، المساعدة والعون المادي والروحي، للشعوب التي كانت تعاني من الاضطراب الذي سببته الحروب في المانيا. واستجابة لقول المسيح: "لا ادعوكم بعد عبيدا، بل احباء" (يوحنا 15:

---

[1] يوجد قول مشهور منسوب الى هس في يومه الاخير: "اليوم تشوون اوزة، لكن بعد مائة عام من الآن سوف تقوم من رماد جثتي بجعة لن تقدروا على شوويها". سواء قالها لو لم يقلها، فانها نبؤة مناسبة لما كان سيأتي في القرن السادس عشر.

[2] عكذا مثلا، كانت القديس اليزابيت الهنغارية تطلب من معرفها بجلدها على اكتافها. ومثلها القديس ونسلاس الاول، شفيع بوهيميا، والملك لويس كانوا يجلدون انفسهم. وكان القديس لويس يطلب ايضا من مرشده بجلده بالسيط، وعندما كان هذا يحاول ان يخفف من الضربة، كان يطلب منه بضربه باقسى.

15)، اخذوا لانفسهم اسم "اصدقاء الله". خلق تطرف البعض منهم، في هذه الحركة نوعا من الكيتيزم quiétisme، مشابها للذي سيظهر في القرن السابع عشر. كانوا يتوقون الى اصلاح الكنيسة المنشود، ولكن امام عدم تحقيق هذا الاصلاح، ارادوا تحقيقه على طريقتهم: فانكروا كل تمييز بين الاكليروس والعلمانيين، وعلّموا بأن المؤمن المتحد بالله، ما عليه سوى ان يسلم نفسه لارادة الله، دون ان يطلب ان يحصل على السماء او النجاة من جهنم.

3- مصلحون اخرون من القرن الخامس

لم يكن جون ويكليف وجون هس الوحيدين، سابقي للاصلاح. يمكن ان نذكر ايضا، ومن هولندة، جون دي غوش Jean de Goch (+ 1475)، الذي لم يقبل، هو ايضا، من الحقائق الدينية الا ما جاء في الكتاب المقدس؛ وايضا جون ويسل Jean Wessel (+ 1481)، الذي حارب الغفرانات، واولوية اسقف روما ومسحة المرضى.

الفصل الرابع والاربعون

الاصلاح البروتستنتي

La Réforme Protestante

مقدمة

عدة قرون سنة تفصلنا عن عام 1500 الذي يخيل الينا انه ماض بعيد، ومع ذلك فالواقع يظهر ان الكثير من حوادث ذاك العصر لا تزال مستمرة في يومنا هذا: الاتحاد الاوربي، ايرلندة الشمالية، صربيا، البوسنة، حودث واخبار تحتل الصفحات الاولى من الجرائد والمجلات ونشرات الاخبار.

كان اتحاد اوروبا حلم شارل الخامس Charles Quint في القرن السادس عشر، الذي اراد ان يعيد الحياة الى الامبراطورية الرومانية. يزداد الصراع الايرلندي الانكليزي حدة في هذه الايام، متخذا شكل حرب دينية بين الكاثوليك والبروتستنت. واحتلال صربيا من قبل الاتراك تم حوالي ذلك التاريخ ومشكلة صربيا تحتل اليوم صدر الاخبار.

لفهم هذه الحوادث، مهم ان نرجع الى ذلك الماضي، ولا سيما لنا نحن المسيحيين، الذين لهم سبب خاص للاهتمام بذاك العصر. فالمسيحيون، كاثوليك وبروتستنت وارثوذكس، لا يزالون يعيشون منفصلين، حتى وان ظهر مؤخرا بينهم روحا من الشوق الى معرفة الآخر وفهمه والتعاون معه على طريق العدل والسلام.

فنحن مدعوون الى رحلة، رحلة الى الماضي، لنوضح الحاضر ولنكتشف جذورنا وغنى بعضنا البعض، ولنفتح مستقبلا جديدا. سَفَرٌ يتطلب اغترابا وتوقا الى الالتقاء، ويتطلب جهد للدخول في عالم غير عالمنا وعقليات غير عقليتنا ومشاكل ليست مشاكلنا.

الاطلاع على ما اعتقده البعض في القرن السادس عشر امر مهم لدرجة انه دفعهم الى الدخول في مغامرة خطيرة دون معرفة النتائج. وما ظهر خطيرا لبعضهم لدرجة انهم لم يقبلوا اي تنازل او أي اتفاق او مساومة. في السير مع اولئك او هؤلاء، سنتعرف على رجال – كما يقول بعض المؤرخون اليوم – امتلكهم شغف الكنيسة، جمهرة من الرجال والنساء التزموا وعلى طول ذلك العصر ان يعطوا للكنيسة قوة جديدة وشبابا جديدا، لانهم آمنوا وفهموا وعرفوا ان في هذا فقط يتم خلاص البشر. وهذا لم يكن عمل بعض الشخصيات غير العادية، وانما ثمرة حركة عميقة يغذيها نفس الشغف.

ويقول مؤرخون اخرون اليوم – ان ما سبب هذه الحركة الكبيرة من الاصلاح، اولا الاصلاح البروتستنتي ومن ثم الاصلاح الكاثوليكي لم يكن، كما كان يعتقد الكثيرون، الفساد والشكوك والمساوىء التي ظهرت في اواخر كنيسة العصور الوسطى. فهذه المفاسد او الشكوك كانت موجودة منذ عدة قرون، ولم تسبب أي ردة فعل ثابتة ومستمرة. ومما يفسر الثورة التي بدأت ملامحها تظهر في ذاك الوقت، هو الايمان العميق لاشخاص تملكهم شغف الكنيسة. بدونهم لا نستطيع ان نفهم هذا الانقلاب. كرسوا حياتهم لتجديد واصلاح الكنيسة التي ارادوها امينة لمسيح الاناجيل. بدون هذا الشغف ما كان يمكن لما حدث ان يحدث.

لا نريد في هذا الفصل ان نبحث من كان على حق ومن كان على باطل. سنحاول ان فهم، بقدر المستطاع من الداخل، ما الذي كان يحرك هؤلاء الاشخاص ليخاطروا هكذا على طريق غير معبدة حيث وضع البعض منهم حياته في خطر. انها لحظات من التاريخ تعج بالعنف، وبالعنف الكبير في بعض الساعات، كانوا يبحثون اثناءها، على ضوء الانجيل، عن معنى لوجودهم وحياتهم. كما اختبروا ساعات من الخوف والهموم والطموحات، التي جاءت تعترض او تهدم اجمل مشاريعهم.

بدأ هذا كله مع مارتن لوثر. وهو الذي اعطى اشارة البدء، وظهر كصوت نبوي والقى بكل ما يملك من ادراك وحدس، من اندفاع، من قوة تفكير وحتى تهوره في سبيل الاصلاح. انه الولد الرهيب الذي ما ان تملكته هذه الحركة حتى لم يستطع احد ان يصرعه، ونفث فيها روحه القوية.

1– اسباب ما يدعى بالاصلاح البروتستنتي

الاسباب

لم يفهم المؤرخون بنوع عام اسباب ما يدعى بالاصلاح البروتستنتي.

اعتقد البعض — *كما تقول النظرية البروتستنتية* – ان المساويء التي انتشرت في الكنيسة هي التي اثارت استياء بعض محرضي الجماهير. الا ان محرضي الجماهير هؤلاء امثال لوثر وزفنجلي وكالفن لم يروا الامور بهذ المنظار، فلم تكن الشكوك والمساوىء التي كانت قد انتشرت في اواخر كنيسة العصور الوسطى، والتي كانت موجودة منذ عدة قرون والتي لم تسبب أي ردة فعل ثابتة ومستمرة. انما السبب يعود، الى الانحرافات العقائدية الاساسية وغير المقبولة حول الخطيئة الاصلية والفداء والخلاص والنعمة وعلاقة الانسان الخاطىء والله، وحول وسائل تقديس النفس التي استحقها المسيح للعالم، وحول موقع عمل الانسان في المخطط الالهي في تحديد النفس الخاطئة والمقطوعة عن مصيرها الابدي. اذن هي عدم امانة Infidélité عامة وقديمة من قِبل الكنيسة تجاه رسالتها الالهية التي اجبرت ودفعت رجال ايمان — هكذا سيدعون انفسهم به، وعلى الايمان سيبنون كل مبادئهم — الى التمرد ضد التجديدات البشرية، لاعادة البراءة والنقاوة الاصلية لوحي ورسالة المسيح، من كل ما تراكم عليها على مر العصور الجهل من انحطاط وانحراف. وسيحاول المصلحون — وهذا ايضا ما سيدعون انفسهم به ايضا — اقناع العالم المسيحي انهم استلموا هم وحدهم، من الروح القدس المتكلم من خلال الكتاب المقدس، هذه المهمة السامية التي هي تقويم، واعادة ترميم العقيدة الخلاصية للمسيح من كل ما علق فيها وزيد عليها عبر القرون.

امام هذه الفرضية البروتستنتية – انحراف العقائدي – *سيقف مجمع الترديتني*، 1) وسيرفض ويدين نظرية الانحراف العقائدي في الكنيسة 2) وسيقبل الاصلاح في المساوىء وفي النظم القانونية وليس في العقيدة.

البحوث الحديثة التي قامت بالتعمق في اسباب ما يدعى بالاصلاح، عرضت هاذين الطرحين: 1) الانحراف العقائدي 2) والانحراف المسلكي الاخلاقي، في اطار اسباب اكثر شمولا، ونسبوا حركة الاصلاح الى 1) اسباب ثقافية Intellectuelles 2) اسباب سياسية، 3) اسباب اقتصادية Economiques 4) اسباب اجتماعية Sociales 5) واسباب دينية Religieuses.

1) الاسباب الثقافية Intellectuelles

أ) الاوكامية: المذهب الاسمي Nominalisme وفرضية الكليات Les Universeaux

هل الكليات: الجنس، الالوهية، الانسانية، غير المتناهي، الحق، الجمال، الخير، هي موجودة حقيقة ام مجرد تعابير؟

الاسمية تقول انها مجرد تعابير ولا ترتبط بحقيقة، بل هي مجرد استنتاجات ذهنية. وذهب اوكهام بهذا المذهب الى ابعد ما يكون، حيث نفى وجود كليات في الاشياء، وحتى لو وجد لا يستطيع العقل ادركها ولا ان يعرفها. فالعقل لا يستوعب الا المحسوس. من هنا اصبحت الميتفيزقا التي هي علم الكليات بلا فائدة.

وبالتالي فان العقل لا يستطيع ان يقول لنا شيئا عن وجود الله، والنفس، والحرية، والخلود، بينما علّم توما الاكويني ان العقل والايمان هما طريقان يقودان الى الحقيقة، وانكر اوكهام على العقل ان يوصلنا الى الايمان، لانه لا يعلمنا شيء عن حقائق التي يعلمها الايمان: الله والنفس...

كيف الوصول الى الايمان؟ فقط بواسطة الارادة. نؤمن بدون اثبات، دون تفكير. وعندها يصبح الايمان عملا شخصيا، غير مثبّت، وغير قابل للاتصال. نستطيع ان نرذل الايمان دون ان نخون العقل.

وفي الاخلاق: حسب الاوكامية الخير والشر لا يوجدان في جوهر الاشياء، بل يتعلقان بارادة الله الاعتباطية. بمعنى اخر لا يوجد شيء جيد او شيء سيء في ذاته وانما يصبح جيدا او سيئا حسب قبول الله له . من هنا لا ضرورة للنعمة لكي تغير فينا وتجعلنا اهلا للحياة الابدية، يكفي ان يقبل الله ان يجعلنا من المخلَّصين.

هذا المذهب وَجَدَ له في القرن الرابع عشر والخامس عشر الكثير من الاتباع ومنهم اساتذة في اشهر جامعات المانيا في بداية القرن السادس عشر. وعلى يد هؤلاء الاساتذة تعلّم لوثر.

من هنا سيسند لوثر كل شيء على الايمان فقط. ومذهب لوثر الخلاص بالايمان وليس بالاعمال، انبثق ايضا من هذه الخلفية الثقافية: اعمالنا لا خير فيها، لانها بحد ذاتها ليست جيدة او سيئة، وانما يتعلق كل شيء بقبول الله لها. وزيادة على ذلك سيقول لوثر ان العقل والارادة تمت افسادتها الخطيئة الاصلية، ولا يستطيعان ان يعملا الخير. ماذا يبقى لنا ليدلّنا على الحقائق الالهية؟ الوحي المبني على الكتاب المقدس، المفَسر ليس من قِبَل الكنيسة وانما حسب الهامات الروح القدس للافراد.

ب) النزعة الانسانية Humanisme

فلسفة النزعة الانسانية

ستلعب "الحركة الانسانية" ابتداء من القرن الرابع عشر، واكثر قوة في القرن الخامس عشر لتزدهر في السادس عشر، دورا هاما في الاعداد للاصلاح. و"النزعة الانسانية" كفلسفة تعتبر الكائن الانساني مركزا لكل الدراسات. انها تضع الثقة في قوة الطبيعة الانسانية والامكانات التي لا حد لها في الانجاز الانساني. و "النزعة الانسانية العصرية" تعتبر الله بلا مغزى وفي معظم المناسبات تنكر وجوده. ان النزعة الانسانية المتعلقة بالعصور الوسطى لم تكن ملحدة لكنها سارت يدا في يد مع "النهضة" معظِمّة ومعجَبَة بانجازات الرسامين، والمثالين، والموسيقيين والمهندسين. كانت فترة اعادة اكتشاف العلوم اليونانية، وأفلاطون بنوع خاص، والكتّاب من امثال "بيترارك" و "دانتى" القائلين أن هناك افاقا جديدة للانسانية في الفن والموسيقى والادب. اما "بيكو ديلا ميراندولا Picco della Mirandola" من فلورنسا بايطاليا فقد رأى في انتعاش الافلاطونية وسيلة لتوحيد كل الاديان في البحث الازلي عن الله. طبيعي جدا ان يجد فلاسفة النزعة الانسانية في الكنيسة عائقا لتقدم الفلسفة الجديدة

المسيحيون من ذوي النزعة الانسانية

لكن هناك فريق من ذوي النزعة الانسانية لم يقاوموا الكنيسة، بل سعوا الى اصلاحها من الداخل. آمنوا "بنزعة انسانية مسيحية" يمكنها بواسطة البحوث الدراسية والتعليم ان تأتي بنور جديد وحياة جديدة لمؤسسة قديمة. ويعبر عن ذلك احد الكتاب بقوله: "كانوا مهتمين بسلامة الاخلاق اكثر منهم باللاهوت، وبالتعليم اكثر من الايمان، وبالطبيعية اكثر من النعمة. ومع ذلك لم يجادلوا في العقيدة الاساسية للكنيسة. ولكي يحافظوا على تماسك المجتمع المسيحي في العصر الوسيط رفض معظمهم (اتباع النزعة الانسانية) ان يتبعوا البروتستانت في انفصالهم عن الكاثوليك"[1]

تأكيدات النزعة الانسانية

كان لهذه الحركة الثقافية الجديدة "للنزعة الانسانية" تأكيدات عديدة: المعرفة والتعليم لكل انسان – اكتشاف الكتاب المقدس من جديد واستخدامه بشكل مسؤول – انتقاد الكنيسة الكاثوليكية على ضوء الكتاب المقدس الذي يؤدي الى الاصلاح، والاخلاق العالية المبنية على حياة تكريسية عميقة. ويضعها كاتب آخر بالنسبة لهم على هذا النحو: الجهل يتطابق مع الخطيئة، والمعرفة مع الاصلاح. يمكن التعبير عن العقيدة بطرق عديدة بالكشف عن الوثائق المزورة، بإنشاء نصوص كاملة الدقة ومصدق عليها، باعادة فحص هذه النصوص في نور المعرفة لاكتشاف معناها الكامل، وبأن تنزع من حياة الكنيسة وانشطتها كل المعتقدات والممارسات التي تنقصها سلطة الكتاب المقدس او مصادقة الكنيسة الاولى[2].

2) السبب السياسي

مما يلفت النظر ان لا البابا ولا الامبراطور استطاعوا ان يخنقوا حركة التمرد هذه في مهدها، دلالة على ان سلطتهم فقدت من قوتها وهيبتها. وسيجد لوثر العون والمعاضدة القوية من قبل الطبقة البروجوازية ومن ثم من طبقة الامراء، وخصوصا، امير ساكسونيا، الذي سيواجه سلطة الامبراطور ويحمي لوثر حتى آخر حياته. بينما ستحمى المجالس البلدية والسلطات المحلية لبعض المدن زفنجلي وكالفن وبوسر وغيرهما من من يدعون بالمصلحين.

3) السبب الاقتصادي

ستمثل ممتلكات وثروات الاديرة فريسة شهية لاقتصاد البلاد السيء وللأمراء والسلطات المحلية التي ستدعم حركة التمرد هذه والقائمين عليها.

4) الاسباب الدينية

من اهم الاسباب الدينية التي اليها يعزى نجاح الاصلاح البروتستنتي، كانت الحالة التي وصلت اليها كنيسة ذلك العصر والمساوىء المؤسفة التي انتشرت بين الاكليروس. نفس المساوىء التي حاربها البابا غريغوريوس السابع في اواخر القرن الحادي عشر، هي نفسها انتشرت في كنيسة القرن السادس عشر وبصورة اكثر بشاعة. فالى السيمونية، والزنى، وفساد الاخلاق، اضيفت التجارة المخجلة لكل ما هو مقدس، حيث لم يكن يتم اعطاء سر من الاسرار الكنيسة او القيام بأي احتفال ديني الا مقابل مالي. كان الشعب يدفع لطلب قداديس لكل المناسبات: قداديس الموتى، لاستمطار نعم القديسين، للحصاد، لقطعان الماشية، لابعاد عين الحسد او الشر او الشيطان الخ... لذلك يعزو المؤرخون سبب كل مساوىء الكنيسة الى الغنى الفاحش الذي انتشر في الكنيسة من الرأس وحتى اخر الاعضاء.

حالة الكنيسة:

بعد قراءة الكتاب المقدس وانتشاره، بدأ الناس يلاحظون الفرق بين كنيسة العهد الجديد وبدايات الكنيسة، وبين الكنيسة في ذلك العصر. فقد انتشر الفساد في الرأس كما في اعضاء النظام الرئاسي في الكنيسة.

– *الاساقفة* – كانوا يشترون ويبيعون المناصب بلا ضوابط، بل ان الكثير منهم تمتعوا بمزايا ومناصب نالوا منها مرتبات مجزية دون ان يقوموا بأي من الواجبات او الاعمال المرتبطة بتلك الوظائف. بل ان بعضهم كان يشغل عدة مناصب مثل البرت دي ماينس Albert de Mayence رئيس اساقفة ماينس، الذي سيلعب دورا كبيرا في مشكلة

[1] (Grimm, H.J., The Reformation Era, 1500-1650, p. 53).
[2] (Johnson, Paul – A History of Christianity, P. 269).

صكوك الغفران والذي سيقاومه لوثر. وكان الاسقف يهمل ابناء ابرشيته، ولم يكن يقوم بالزيارات الاسقفية اللازمة للاشراف على رجال الكهنوت الخاضعين له.

– *الكهنة:* عاش الكثير من الكهنة في الخطيئة دون خجل واحتفظ البعض منهم بمحظية خاصة. واهمل الكثير منهم خدمات الوعظ او الزيارات مكتفين بتلاوة صلوات القداس وكأنها طقس سحري يأتي بالبركة والنعمة على الاسخاص، واصبح تكريم الذخائر وبقايا القديسين نوعا من العبادة، وأصبحت الغفرانات سلعة تباع.

2- مارتن لوثر

Martin Luther

مارتن لوثر

ولد مارتن لوثر في 10 تشرين ثاني عام 1483، في ايسلبان Eisleben بمقاطعة ساكسوني بالمانيا. وكان والده هانز يشتغل عاملا في مناجم النحاس، لم يترك له والده ورثة الا طبع "فلاح سكاسوني قاس"، كما كان يقول لوثر نفسه. اما مرجريت زيكلر فكانت سيدة بيت عاملة ونشيطة، فاضلة تقية. الا ان تقواها صبغت وتأثرت تأثرا عميقا بالخرافات والعقائد التي انتشرت في عصرها. فكانت تؤمن كما كان يؤمن الكثيرون من ابناء عصرها بالقوات الشيطانية والحسد "العين"، والارواح الشريرة، والاماكن المسكونة. وكانت تخشى من السحر وسلطانه، حتى انه يقال نها نسبت موت ابنها الثاني الى سحر جارة من جاراتها!.

نشأ لوثر وتربى في جو صارم كان نموذج التربية في ذلك الزمان. فكان هانز وماجريت، وعلى مثال العادات والمفاهيم التربوية المنتشرة في ذلك العصر، يؤمنان بالعصا والشدة والقسوة كوسيلة لتربية الاطفال وتقويم الاخلاق. ويذكر لوثر في كتاباته العقوبات التأديبية التي ذاقها فيقول: *"لقد عاقبني ابي عقابا شديدا في يوم ما لدرجة اني هربت من امامه واختفيت، ولم استطع ان آنس اليه الا بعد وقت طويل"* . ثم يقول عن امه: *"في يوم من الايام ضربتني أمي بالسياط حتى انفجر الدم من جسمي بسبب حبة جوز بائسة"* .

مما لا شك فيه، ان قسوة والديه في الطريقة التي اتبعاها لتهذيبه وتعليمه تركت انطباعات كثيرة وتأثيرات نفسية عميقة في شخصية مارتن لوثر المرهف الحس، والرقيق الشعور، بل دفعت به ايضا الى نوع من الانطوائية ولاجل هذا كتب يقول: *"كان والدي في غاية القسوة معي، الامر الذي خلق مني انسانا خجولا . كانت قسوتهما عاملا دفعني الى الالتجاء الى الدير لاصبح راهبا"* .

لا من شك ايضا ان صورة الرب التي نقلها له والداه عكست مزاجهما الخاص. اب قاس وقاض صارم يطالب بفضيلة، عبوس ويطلب استرضاءه دائما ويلعن الجانب الاكبر من البشر، ويدعو عليهم ان يخلدوا في النار. وكان والداه يؤمنان بوجود سحرة وعفاريت وملائكة وشياطين من فصائل متعددة وتخصصات متنوعة، وحمل مارتن معه حتى النهاية معظم هذه الخرافات.

وهكذا اسهم دين قام على الخوف في بيت صارم في تكوين شباب لوثر وعقيدته الدينية. اما الى اية درجة اثرت هذه الاختبارات فيما بعد على حياته الروحية، وتمرده ضد السلطات... هذه كلها كانت موضوع مناقشات ومساجلات كثيرة عند الدارسين والعلماء.

شباب مارتن لوثر ودراسته

التحق مارتن لوثر في مدرسة المدينة مانسفيلد، وعلى ما يبدو فان حياته في هذه المدرسة كانت قاسية، نظرا الى ان نظام التدريس في ذلك العصر كان جافا قاسيا. كان الطلبة يتلقون فيها مزيدا من العصي وكثيرا من الوعظ، وجُلد فيها مارتن خمس عشرة جلدة في يوم واحد لانه اخطأ في اعراب اسم. وانتقل وهو في الرابعة عشرة من عمره الى مدرسة مجدبورج، حيث درس في مدرسة "اخوة الحياة المشتركة". ومع انه لم يمكث في هذه المدرسة الا عدة شهور، لانه اصيب بمرض اضطره للعودة الى مانسفيلد. الا ان اقامته في هذه المدرسة كان لها تأثير عميق جدا في حياته ومستقبله، ولعبت دورا هاما جدا في حياته الروحية. وفي عام 1498 تحول الى مدرسة سنت جورج في ايزيناخ Eisenach، وامضى ثلاث سنوات سعيدة نسبيا اقام فيها بمنزل السيدة كوتا. تعلم فيها في جو التقوى الكاثوليكي التقليدي. في هذه المدينة اكتُشفت قدرات مارتن في الترنيم.

وبعد ثلاث سنوات في ايزيناخ ارسله والده الذي اصبح غنيا عام 1501 الى جامعة ايرفورت Erfurt ليتخصص في دراسة القانون. فدرس اولا فيها الفلسفة على ايدي اساتذة مشهورين كانوا من اتباع المدرسة الاسمية. ثم حصل على درجة "ليسانس" في الآداب سنة 1502. ثم ابتدأ يعلم قواعد اللغة والمنطق، وفي نفس الوقت استمر في التحضير لدرجة الماجستير التي حصل عليها سنة 1505. ثم يبدو انه نزولا على رغبات والده التحق بكلية الحقوق. وفجأة، وبعد شهرين من هذه الدراسة، قرر الشاب ان يصبح راهبا.

لوثر يدخل الدير

بينما كان عائدا يوما من بيت ابيه في ارفورت واجهته عاصفة رهيبة، ولمع البرق حوله، واصابت الصاعقة شجرة قريبة منه. وخُيِّل للوثر ان هذا انذارا من الله وانه ما لم يكرس نفسه للخلاص فسوف يفاجئه الموت ويلقى حتفه دون ان يسمع اعترافه وتطارده اللعنة. وفي رعبه استغاث بالقديسة آن Ste Anne واقسم اذا نجا بحياته ان يدخل الدير. وكان هناك عشرون ديرا في ارفورت فاختار واحدا عرف بالاخلاص في مراعاة قواعد الاديرة، وهو دير الرهبان الاوغسطينيين، ودعا اصدقاءه جميعا وشرب وغنى معهم في حقل قال لهم انه يقوم به لآخر مرة، وفي اليوم التالي استقبل في خلوة بدير كمبتدىء في الرهبنة.

لماذا دخل لوثر الدير

حاول المتخصصون في الدراسات اللوثرية ان يجدوا جوابا لهذا السؤال، فقدموا نظريات كثيرة معقدة، اكتفى بعرض البعض منها:

1) يقول البعض ان قرار لوثر بدخول الدير يعبرَ عن التناقض في خلقه، فقد كان قويا يفيض بالحيوية الى حد الانغماس في الشهوات، وكان من الواضح انه خلق لحياة يرضى فيها الغرائز الطبيعية، مع انه لقن في البيت والمدرسة عن اقتناع ان الانسان آثم بطبعه، وان الاثم اهانة لاله قادر على كل شيء، شديد العقاب، فانه لم يوفق قط، في الفكر والسلوك، بين غرائزه الطبيعية وبين معتقداته المكتسبة. وكان مفهومه الذي لقنه عن الله لا يكاد يشمل أي عنصر من الحنان، ولم يكن لصورة مريم المواسية موضع كبير في اللاهوت القائم على الخوف، ولم يكن يسوع الابن المحب الذي لا يستطيع ان يرفض طلبا لامه، بل كان المسيح الديان.

2) يعتقد البعض الاخر ان قرار لوثر دخول الدير لم يكن ابن يوم وليلة، بل كان نتيجة تفكير طويل وصلاة مستمرة وعميقة. الن يتأثر مارتن الشاب بحياة مدرسة مجد بورج؟ الم يترك ايضا الراهب الامير انطباعات عميقة في تأثيرها في فاعليتها على نفس الشاب المرهف الاحساس عندما كان يراه يجول متسولا في ثياب رثة وجسم نحيل ذلك كله لكي ينال الحياة الابدية عن طريق الرهبنة؟ فلم يدخل الدير اذن الا بعد ان فكر تفكيرا جديا عميقا.

3) يعتقد اصحاب النظرية الثالثة ان لوثر اتخذ هذا القرار بطريقة فجائية وبدون ترو او دراسة او تفكير. ففي اللحظة التي سقطت فيها الشجرة امام قدميه، وكادت ان تقضي على حياته، رأى ان حياته بلا قيمة وفي نفس الوقت راى انه معرض للموت، فصرخ مدفوعا بهذا التأثير الوقتي قائلا: "يا قديسة حنة اذا انقذتني ساكون راهبا بقية حياتي". فان هذا النذر الذي نطق به مارتن لم يكن نذرا مدروسا بطريقة واعية مدركة بل كان نذرا اضطراريا في ظرف يناسب بأي حال من الاحوال اتخاذ هذا القرار الذي كان يجب ان يتخذ في ظرف هادىء وعلى غير عجلة. ولتأييد فكرتهم هذه يرجعون الى كتب لوثر نفسه يقولون ان لوثر كان مضطرا، رغما عنه تحت ضغط الخوف من الموت لان ينطق بهذا النذر. ففي كتاب كتبه سنة 1521 وقد اهداه الى ابيه حاول لوثر ان يشرح في مقدمته السبب الذي من اجله نطق بهذا النذر فقال: "اتذكر.. اني قلت لك ان دعوة مخيفة من السماء قد وجهت الي، فلم اصر راهبا رغبة مني او مسرة في الرهبنة بل دفعت بطريقة لا تقاوم للنطق بهذا النذر". والى ما كتبه في سنة 1539 عن حادث الصاعقة حيث قال انه ندم على هذا النذر. من هذه الشواهد السابقة يعتقد البعض ان لوثر اتخذ هذا القرار تحت تأثير الخوف من الموت الذي اثارته الصاعقة في نفسه. وبناء على ذلك كان يعتقد انه اضطر ان يوفي هذا النذر بلا رغبة ولا اقتناع.

4) يعتقد البعض الاخر ان لوثر لم يأخذ هذا القرار بطريقة عشوائية وبدون تفكير. صحيح انه نذر الترهب امام الصاعقة، ولكن لو كان لوثر لم يفكر قط قبل ذلك في حياة الترهب، ولو كان فعلا ندم على نذره الذي نذره تحت تأثير الخوف من الموت، لكان في استطاعته قانونيا ان يسحب هذا الوعد الذي وعد به، لان فترة الاختبار التي كانت تسبق الرسامة خُصِّصت لهذا الامر.

كان لوثر ابن عصره، ولقد اعتقد اهل ذلك العصر ان اسلم واضمن طريقة للحصول على الخلاص هي الترهب. وكان الناس في القرون الوسطى ينظرون الى الرهبان بكثير من الاحترام والتقدير، وخاصة الرهبان الذين اختاروا نظما قاسية للرهبنة. وبما ان لوثر كان يبحث عن الخلاص والهروب من غضب الله، فلا بد وانه فكر مرارا في موضوع الرهبنة قبل حادث الصاعقة، وهذه الاخيرة لم تكن هي السبب الاول والاساسي الذي دفعه لاتخاذ هذا القرار، بل كانت العامل الذي ساعده على ان يقرر قرارا لم يستطع حتى الآن ان يخرجه الى حيز الوجود. فراى في حادث الصاعقة دعوة من الله، وشعر ايضا انه مرغم على ان يلبي هذه الدعوة ولاجل هذا يقول في خطابه لابيه: "ان دعوة مخيفة من السماء قد وجهت اليّ فلم اصر راهبا رغبة مني او مسرة فيها".

لوثر راهب امين

وفي فترة الرهبنة كان مارتن راهبا مثاليا، وقام باحقر الاعمال في تواضع لا يخلو من الاعتزاز بالنفس، وتلا صلوات مرارا وتكرارا كمن نوَّم نفسه تنويما مغناطيسيا، وتجمد جسده في مضجع بارد وصام وعذب نفسه، املا في ان يطرد من جسده الشياطين قال: *"كنت راهبا ورعا اراعي احكام الجمعية التي انتمي اليها بشدة الى حد انه اذ قدر لراهب ان يدخل الجنة عن طريق الرهبنة فاني ادخلها لا محالة ... ولو ان هذا الامر طال اكثر من هذا لكنت عذبت نفسي حتى الموت بالسهر والصلاة والقراءة وغيرها من الاعمال"*.

ولكن مهما كانت قسوة اختباراه لم يستطع ان يجد سلام الروح: *"لقد حاولت بكل جهدي ان احافظ على القوانين. تعودت ان اكون منسحق القلب واجهز قائمة بخطاياي. اعترفت بها المرة بعد المرة بكل حرص، نفذت العقوبات الدينية التي عينوها لي. ومع كل ذلك ظل ضميري يدق ويقلقني، ظل يخبرني: انت قصرت هناك، انت لم تندم بما يكفي، لقد خصمت تلك الخطيئة من قائمة خطاياك"*.

لوثر يرسم كاهنا

وفي سنة 1507 رسم كاهنا وقام بخدمة القداس لاول مرة. وكان هذا اختبارا مرعبا للوثر، لحمله بين يديه جسد ودم الرب المصلوب، فطغى عليه احساس بعدم استحقاقه الشخصي. لكنه وجد بعض المساعدة في توجيهات رئيس الجمعية جوهان ستوبيتز Staupitz الذي اصبح مرشدا روحيا له، ناصحا اياه في قلقه واضطرابه بان اله البر هو ايضا اله المحبة، وحول فكر لوثر من خطاياه الى مراحم المسيح، ومن الناموس الى الصليب، ومن الفلسفات اللاهوتية الى دراسة الاسفار المقدسة. وفي وقت لاحق كتب لوثر الى ستوبيتز يقول: *"انت قبل أي شخص آخر الانسان الذي جعل نور الانجيل يضيء في ظلام قلبي"* ...

شخصية لوثر

– يعتبر لوثر من الشخصيات القوية في التاريخ، وقد وضع في خدمة افكاره ومبادئه، ذكاء لامعا، ومخيلة غنية، وحساسية مرهفة، وبلاغة حماسية خلابة، وجلدا للعمل.

– كما كان لوثر يملك مجموعة من الفضائل الروحية: روح دينية مؤمنة ايمانا عميقا بعظمة الله، وثقة عظيمة بعمل المسيح الخلاصي.

_ ومن ناحية اخرى، اتصف ايضا بنقائص كانت ظاهرة للجميع: خفة او بذاءة في اللغة، مما جعل احد مؤرخي البروتستنت يقول عنه: "اكبر الكتّاب بذاءة gras في عصره" (Hausrath). يضاف الى ذلك حبه للاكل والمشروبات الكحولية.

_ تعرض لوثر في فترات عديدة من حياته الى اكثر من ازمة داخلية، جاءت بالخصوص من شدة شعوره بالقلق، وتأنيب الضمير، وكثرة التجارب. كتب الى احد اصدقائه يقول: *"كم ارغب بان اتحرق بعواطف الروح، واذ بي احترق بالجسد، بالترف، والكسل والنعاس... لا اعلم اذا كان الله قد ابتعد عني، لانك لا تصلي كفاية من اجلي"*.

_ ولايجاد السلام والهدوء الداخلي، التجأ لوثر الى الصلاة، كما والى بعض الوسائل الغريبة كما قال هو "كأس بيرة un bon coup de bière"، او الى توجيه المسبات والشتائم ضد البابا: *"كان هذا يبرد الدم في عروقي، وتعود الحيوية الى نفسي، وتضعف التجارب"*.

_ اظهرت تصرفات لوثر لديه نوعا من الانحراف النفسي، بميله الى الوسوسة والتشائم التي زادت فيه القلق والاضطراب. وهذه النقطة مهمة لفهم مأساة لوثر.

_ كما يجب اضافة عنصرين هامين الى طباع لوثر اثرت على مواقفه:

1) اهماله لواجباته الرهبنية دون ان يكون راهبا فاسدا.

2) روح الكبرياء والعجب بالنفس، والاكتفاء الذاتي، وروح المعارضة والمناقضة. كان مقتنعا انه يتكلم باسم الله ، وكثيرا ما نجد في كتاباته تعابير مثل: "الله اوحي لي هذا التعليم". لعب الايحاء الذاتي دورا كبيرا في حياة لوثر.

_ بالرغم من ذكائه الحاد، كان لوثر شديد الحاسية، منغلقا، دائم التحليل، اراد ان يشعر ويحس الاشياء التي لا يمكن معرفتها الا بالايمان: حضور الله، مغفرة الخطايا... وكان الاعتراف يجلب له نوعا من الاحساس انه تخلص من خطاياه، مما دفعه الى الاعتراف المتواتر.

_ كما دفعته طبيعته المندفعة Bouillante، الى الكثير من المبالغة والتجسيم والتضخيم في التعبير عن ازماته وفي قول الحقيقة.

2- نحو الهرطقة (1510-1515)

لوثر استاذ للدين

اثناء شتاء عام 1508 عُيِّنَ لوثر مدرسا للفلسفة في الجامعة الجديدة في وتنبرج، واستمر ايضا في دراساته. خلال تلك السنة حاز على درجة البكالوريوس في الدراسات الكتابية التي اهلته لتدريس الكتاب المقدس بدلا من الفلسفة. الا ان هذه الدراسات لم تفده الا في زيادة حدة صراعه الروحي. ثم وقعت في يده رسالة بقلم جون هس، فساورته شكوك عقائدية زادت من اضطرابه الروحي. وتساءل قائلا: *"ترى لماذا احرق رجل استطاع ان يكتب بمثل هذه الروح المسيحية وبهذه القوة؟ لقد اغلقت الكتاب واشحت بوجهي وقلبي جريح"*.

لوثر في روما

في سنة 1510 اختير لوثر عضوا في وفد مرسل الى روما لعلاج مشكلة تتصل بالنظام الاوغسطيني. وانتظر لوثر ليحل مشاكله الروحية الشخصية بكنيسة ما، توقع ان يجد في روما المركز الحقيقي للكنيسة عمقا في الروحانية لم يكن موجودا في المانيا. وكان اول رد فعل عنده لدى مشاهدته المدينة رهبة مشوبة بالورع، فسجد ورفع يديه وهتف يقول: "سلاما عليك يا روما المقدسة!". وقام بكثير من الشعائر شأنه شأن أي حاج، وانحنى في اجلال امام ذخائر القديسين وصعد على السلم المقدس Scala Sancta وهو يسير على ركبتيه، وزار عشرين كنيسة وظفر بكثير من صكوك الغفران. وظل سنوات عديدة بعد القيام بهذه الرحلة دون ان يقوم بتعليق واضح جلى على حياة البابوات ورجال الدين الذي وجدها في روما، الا انه بعد عشر سنوات وصف روما بانها "تدعو للمقت" لم يجد الا العالميات والرسميات وعدم الاكتراث الديني. لقد افزعه عدم كفاءة الكاهن الذي اعترف امامه، وصدم لاهمال الكهنة والسرعة التي تسابق بها الكهنة الايطاليون في اقامة القداس. رأى لوثر ايضا القوة الدنيوية في الادارة البابوية. عندئذ تحقق ان الامر كان اكثر جدا من اخطاء الكهنة الفردية التي كان يلزم تصحيحها انما النظام باكمله هو الذي كان يجب ان يجري اصلاحه.

لوثر يدّرس في ويتنبرج

ارتقى لوثر بسرعة في المناصب التعليمية بعد عودته الى ويتنبرج سنة 1511، ومُنح درجة الدكتوراة في اللاهوت. قام بالوعظ بانتظام في كنيسة الابرشية، والقى محاضرات في الكتاب المقدس جذبت الانتباه. تقاطر الطلبة واحتشدوا ليسمعوه، لانه ترك الاساليب المجازية المنتشرة وقتئذ، مقدما التعليم البسيط للكتاب المقدس بقواعده اللغوية وتاريخه.

مشكلة "التبرير"

كانت اكبر اهتمامات لوثر وفي كل فترات حياته هي حل المعضلة اللاهوتية "التبرير La Justification"، وبمعنى آخر قضية الخلاص. كان لوثر منذ طفولته يتمثل الله "كمعلم يحمل عصا"، وفكرة الحساب الذي عليه ان يؤديه يوما ما لهذا الاله، اقلقت مضجعه وجعلته يعيش في نوع من القلق القاتل.

وعندما اصبح راهبا ليوفى نذرا اتخذه في لحظة من لحظات هذا الخوف والارهاب، عمل على تهدئة غضب هذا الاله الديان عديم الرحمة بالتكثير من اعمال التقوى والتوبة، متعديا كل ما كان يفرضه القانون، الى ممارسات تقشفية قاسية، كان يقضي خلالها اياما دون ان يأكل او يشرب. سيقول في هذا لاحقا: *"كانت حياتي عبارة عن صوم وسهر وصلاة وعرق، فقد كدت ان اقتل نفسي بالسهر وبالدراسة وبالصلاة وبالاعمال الكثيرة الاخرى"*[3].

[3] Greiner p. 25

يعتقد بعض المؤرخين ان لوثر بالغ في وصف هذه المرحلة من حياته تتوافق ومواقفه، الا انهم يقرون انه فاق جميع رفقائه الرهبان بم في ممارسة اعمال التقوى والتقشف.

بالرغم من الارادة الحسنة التي اظهرها، وبرغم الاماتات والتضحيات والاعمال الصالحة، لم يكن لوثر على يقين من خلاصه، ولم يجد راحة النفس التي كان يبحث عنها. وكلما زاد من اعمال التقشف زاد معها قلقه واضطرابه وشكوكه في الخلاص. وخيم على روحه الخوف الدائم من حكم الله. وكان هذا السبب وراء شعوره بالحزن. وكان يشعر دائما ان الله في ثورة ضده. وكانت تتراءى له مرارا، وحوش مخيفة، وكان يعتقد انها مرسلة من الشيطان لتجربته. وعلى حد قول صديق وكاتب سيرة حياته ملانكتون.

امام عدم قدرته على السيطرة على اهوائه وتجاربه، تساءل لوثر اذا ما كان الانسان الذي افسدته الخطيئة الاصلية، يملك حرية الاختيار Libre arbitre، ويستطيع ان يتمم الشريعة. قادته قراءته ودراساته الفلسفية واللاهوتية منذ عام 1510، ومنها بالخصوص كتابات اوكهام، وجابريل بيل، والقديس اغوسطينوس وخصوصا الكتابات التي حارب فيها اغوسطينوس البلاجيا، والتي فيها خفض من قيمة الارادة البشرية، كل هذه قادته الى نوع من الغنوصية. ثم جاء التطور الثاني بعد ان اكتشف مخطوطة المانية مجهولة المؤلف ايد ما فيها من التقوى الصوفية رأيه في اعتماد الروح الكلي في الخلاص على رحمة الله على حساب الاعمال الخارجية، الى حد انه اعدها للنشر وطبعها باسم "لاهوت الماني Theologia Germanica"، كل هذه قادته تدريجيا الى ان يشك ثم الى ان ينفي قدرة الارادة والاختيار الحر.

3- لوثر يتحدى البابوية: بيع صكوك الغفران

جلس البابا ليون العاشر على كرسي القديس بطرس سنة 1513 ونظرا لأنه كان من عائلة آل مديتشي العريقة فقد تمسك بحياة الرفاهية والبذخ وتعظم المعيشة والاسراف كما انه كانت شغوفا ايضا بالفن والعمارة، ولذلك فقد عزم على اجراء بعض المباني والاصلاحات في كنيسة القديس بطرس. ولتمويل هذا المشروع الضخم اصدر قرارا في 31 اذار سنة 1515 ببيع صكوك غفران كاملة. ولما رفضت بعض الولايات الالمانية هذا المشروع، عرضه البابا على البرت رئيس اساقفة ماينس Mayence ووعده بنصف ثمن الصكوك. وكان البرت يمر في هذ الوقت بأزمة مالية شديدة لكثرة الديون التي تراكمت عليه. فقد كان طموحا يحاول الوصول الى المناصب الدينية والدنيوية في آن واحد. وقد استطاع فعلا ان يكون رئيس اساقفة لثلاثة ابرشيات ومنتخبا لمقاطعة ماينس. وقد وصل الى بعض هذه المناصب بطرق غير قانونية وبدون حق. ووصل الى البعض الآخر عن طريق الرشوة. ودفع المبالغ الكبيرة من المال ولذلك فقد لجأ الى بنك فوجر Fugger الذي اقرضه المال بفائدة تبلغ 20%. لذلك قبل البرت عقد الصفقة مع البابا ليون العاشر في الرابع والعشرين من نيسان سنة 1516. واتفقا على ان توزع الاموال المجموعة من بيع صكوك الغفران بالطريقة الاتية: النصف للبابا في ايطاليا لبناء كنيسة القديس بطرس والنصف الباقي يدفع مباشرة لبنك فوجر لتسديد القرض وفوائده.

في يناير سنة 1517 اوكل البرخت مهمة الدعاية لصكوك الغفران الى "يوهانز تيتزل"، راهب دومنيكاني. بدأ تيتزل الرحلة في منطقة مجدبرج مقدما عرضا عظيما لصكوك الغفران. جماهير غفيرة من الناس كانوا يتجمعون ويتبعونه في الشوارع، حيث يتكون موكب مهيب بالاعلام، والاجراس، والشموع تتقدمه الى الكنيسة. هناك يعرض المرسوم البابوي على وسادة على المذبح العالي ومن تحتها الخزانة الحديدية لجمع النقود. وكان تيتزل يباشر مواعظه مثيرا لعواطف الشعب نحو الاقرباء الراحلين ومؤكدا لهم "انه بمجرد ان ترن العملة النقدية في الصندوق تقفز الروح من المطهر".

لوثر ينتقد بيع صكوك الغفران

اعتبر لوثر بيع صكوك الغفران عملا خاطئا قائلا: "انه بسبب صكوك الغفران تعلم الناس شيئا واحدا هو ان يخافوا عقاب الخطيئة اكثر من الخطيئة نفسها". "وان صكوك الغفران تقف في طريق التوبة الداخلية الصادقة". ووجه اللوم الى المبشرين بصكوك الغفران لاستغلالهم سذاجة الفقراء. وفي رسالة عن صكوك الغفران نادى بان صكوك الغفران يجب رفضها ونبذها اذا كانت فقط للأمان الكاذب والخمول الروحي :"علينا ان نبحث عن نعمة الله الشافية بدون انقطاع".

القضايا الخمس والتسعون

وفي 31 تشرين اول سنة 1517 اعدَّ لوثر تقريرا من خمسة وتسعين احتجاجا ضد بيع صكوك الغفران وسمرها على بابا كاتدرائية ويتنبرج. ويعتبر هذا التاريخ فعلا بداية تاريخ ما يدعى بالاصلاح.

ونكتفي باشارة الى بعض هذه الاحتجاجات او الاعتراضات:

الاعتراض الاول : "عندما قال ربنا وسيدنا يسوع المسيح "توبوا" اراد بذلك ان تكون حياة المؤمن كلها توبة مستمرة وقد قال لوثر في مكان آخر : "المؤمن هو البار الخاطىء".

الاعتراض الخامس: "لا يستطيع البابا – حتى لو اراد – ان ينقذ الانسان من عقوبة قانون الا ما سنه هو نفسه بمحض ارادته".

الاعتراض السادس: "ليس في سلطان البابا ان يزيح او يلاشي عن الانسان عقاب خطيئته او يغفرها له، وانما يعلن للخاطىء ان خطاياه قد غفرت".

الاعتراض الحادي والعشرون: "يضل الذين يقولون ان صكوك البابا تخلص الانسان من كل عقاب".

الاعتراض السابع والعشرون: "ضل الذين يقولون انه متى رنت النقود في صندوق الجمع تخلص النفس من المطهر منطلقة نحو السماء".

الاعتراض الثاني والثلاثون: "ضل الذين يتوهمون انهم في أمان بسبب الغفران، فانهم مع تعاليمهم هالكون".

الاعتراض السادس والثلاثون: "ان المسيحي الحقيقي، الذي يترك خطاياه بقلب منسحق نادم تغفر خطاياه ولا حاجة له الى صكوك الغفران".

الاعتراض الثالث والاربعون: "على المسيحي ان يفهم حقيقة ان الذي يحسن الى مسكين او يقرض محتاجا يقوم بعمل افضل من شراء صك غفران".

الاعتراض الثاني والستون: "ان كنز الكنيسة الثمين هو انجيل نعمة الله ومجده المقدس".

ويمكننا ان نلخص محتويات هذه الاحتجاجات في الآتي:

الاحتجاجات من 1-29: مجموعة من الاحتجاجات ضد صكوك الغفران للنفوس المطهرية، حاول لوثر ان يبين فيها ان سلطان البابا لا يمتد لابعد من الارض وليس له سلطان على الارواح في المطهر، ثم يرجع الى متى 16: 19 ليبين ان سلطان الحل والربط نافذ المفعول هنا على الارض فقد وليس في السماء.

الاحتجاجات من 3-68: مجموعة اخرى يتكلم فيها عن الصكوك الخاصة بالاحياء، ويشرح ان الشرط الاساسي للحصول على الغفران هو التوبة الحقيقية.

الاحتجاجات من 79-90: يحذر المصلح الذين يرتكبون الخطايا والموبقات بدعوى انهم حصلوا على صكوك غفران، كما يتكلم عن المبالغة في سلطان البابا.

الاحتجاجات من 91-95: يختم هذه الاحتجاجات بتحذير الشعب من الانبياء الكذبة الذين ينادون الشعب بالسلام، ولا سلام حقيقي، ويعلن للشعب ان دخول السماء او الحصول على الخلاص ليس طريقا سهلا هينا لينا، يشترى ويباع بالمال، بل كما هو مكتوب "انه بضيقات كثيرة ينبغي ان ندخل ملكوت السموات (اع 14: 22). ان دخول ملكوت السموات لا يتم بالوعود الكاذبة وغير الحقيقية، بل بالتوبة الحقيقية وانسحاق القلب وقبول الرب يسوع المسيح كمخلص.

محاكمة لوثر (1518)

كانت غاية لوثر من كتابة "القرارات Résolutions" الدفاع عن وجهات نظره الشخصية والاعتراض على استعمال السيء للغفرانات. لم تكن غاية لوثر الانفصال عن الكنيسة او الخروج عنها، اذ ارسل الى روما بواسطة ستوبيتز Staupitz رسالته عن الغفرانات مع رسالة ملىء بالخضوع، ويطلب من روما ان تحقق في الموضوع وتصدر حكمها مؤكدا للبابا انه سيقبل هذا الحكم كأنه من المسيح: *"ايها الاب الاقدس انني القى نفسي امام قداستكم خاضعا بكل ما لي بكل حالي، احيوني او اقتلوني، ارفضوا او اقبلوا قضيتي، واحكموا بخطأي او بصوابي كما تشاءون وانني اقبل صوتكم كما لو كان صوت المسيح متكلما عاملا فليكم. فان كنت استحق الموت فلن ارفضه.. لان للرب الارض وملؤها، فليكن اسم الرب مباركا، وليحفظكم الرب للابد، امين"*.

ارسل رئيس اساقفة ماينز هذه الاحتجاجات الى روما، كما ان الراهب تتزل، طلب من جامعة فرانكفورت ان تدرس هذه الاحتجاجات. وبعد دراستها اقروا انها تحتوي على 116 خطأ عقائديا، وبناء عليه رُفع الامر الى روما بان لوثر هرطوقي يجب محاكمته.

ولما استلم البابا ليون العاشر رسالة رئيس الاساقفة مرفقة بالبنود ال 95 للوثر، اعتقد على اثرها وفي البداية الى انها "معارك رهبان سكارى"، الا انه ادرك بعدها خطورة الموقف. واراد انهاء الموضوع بهدوء وسلام. فطلب من الرئيس العام للجمعية الاوغسطينية ان يصدر امره الى نائبه في المانيا ستوبيتز المسؤول المباشر عن لوثر، ان يقوم لوثر بالتراجع عن ارآئه وان يعلن طاعته وخضوعه والا فلا بد من محاكمته في روما.

مجمع هيدلبرج

أَطلع ستوبيتز لوثر على طلب روما، فرد عليه لوثر في 31 اذار سنة 1518 بانه لن يتخلى عن ارائه ما لم يقتنع بعدم صحتها على اساس الكتاب المقدس. وبناء عليه كان سوبيتز مضطرا ان يدعو لوثر للمثول امام مجمع من الرهبان، وتحدد تاريخ الاجتماع في 25 نيسان 1518 ومكانه في مدينة هيدلبرج.

انتهز لوثر هذه الفرصة ليشرح افكاره العقائدية ليس فقد فيما يخص صكوك الغفران والمطهر بل في مواضيع اخرى، ودعم حديثه باقتباسات من كتابات القديس بولس الرسول ومن كتابات القديس اغسطينوس الذي كان يعتبره المفسر الامين لبولس.

انتهى المجمع في جو هادى، ولم يستطيع لوثر ان يقنع معارضيه من الدومينكان، الا انه ترك تأثيرا عميقا في نفوس الرهبان الشباب، وكان مما تأثروا منه من الحاضرين مارتن بيسر Martin Bucer الذي سيصبح ايضا من المصلحين الكبار في ستراسبورج.

وكتب ستوبيتز تقريرا عن ما حدث في مجمع هيدلبرج وارسل الملف الى روما، فوصل اليها في نصف حزيران عام 1518، واحيل الى الكردينال بريرياس Priearias المسؤول عن الشؤون القانونية والمالية وقدم المسؤول القانوني تقريره الاتي: "كل من يدعي ان الكنيسة ليس لها الحق في ان تتصرف وان تسلك بالطريقة التي سلكت فيها فيما يختص بموضوع صكوك الغفران فهو هرطوقي ويجب محاكمته". وبناء على هذا التقرير اصدرت روما في الاول من تموز امرها الى لوثر لكي يحضر للمحاكمة في خلال ستين يوما من استلامه الرسالة.

لوثر امام الكردينال كاجيتان

كان البابا ليون ميالا للتسامح، حتى ان مؤرخا بروتستنيا عزا انتصار الاصلاح الديني الى تسامح واعتدال البابا. ورفض لوثر الذهاب الى روما، وطلب من الامير المنتخب، بواسطة صديقه، امين سر الامير سبالاتن، ان يحمي الامير المواطنين الالمان من تسليمهم الى روما. ولما استبعد البابا مثول لوثر امام محكمة روما، رضي ان يمثل امام الكاردينال كاجتان الموجود في اوسبورج. واصدر البابا تعليماته الى مبعوثه ان يعرض على لوثر صفحا كاملا اذا تراجع عن اقواله والا فانه سوف يطلب من السلطات الزمنية ارساله الى روما.

قابل لوثر كاجتان ودخل الكاردينال في صلب الموضوع رافضا ان يناقش صحة اراء لوثر او خطاءها، وطالبا من لوثر فقط ان يسحب اقواله، وان يعد بالا يعلم مستقبلا مثل هذا التعليم وان يتعهد بالا يعكر صفو الكنيسة.

طلب لوثر من الكردينال ان يبين له اخطاءه حتى يستطيع ان يتراجع عنها، فاعطاه الكاردينال بندين هما: انكاره كنز الكنيسة، أي ان الكنيسة ليس من حقها ان تتصرف في استحقاقات المسيح والقديسين الزائدة، ثم تمسكه بفكرة ان فاعلية الاسرار المقدسة متوقفة على ايمان الشخص الذي يقبلها، وليس على السر في حد ذاته. واعترض كاجتان ايضا على مفهوم لوثر لعصمة البابا. فطلب لوثر امهاله يوما للتفكير.

وفي يوم الاربعاء 13 تشرين الاول، جاء لوثر يصاحبه رئيسه ستوبيتز، واربعة من النواب واثنان من المحامين، وكاتب قانوني. قرأ الكاتب اقرار لوثر بانه مستعد ان يتراجع اذا ما أُقنع باخطاءه على اساس الكتاب المقدس. وشدد الكردينال على انه لا يريد الا تراجع لوثر واعترافه بانه مخطىء. واما لوثر فكرر بدوره ان لا يريد هو ايضا الا شيئا واحدا وهو ان يقتنع باخطائه قبل ان يعترف بها. وقال لوثر انه على استعداد لان يقبل حكم جامعة بازل او فريبورج او لوفان او باريس. وعندما سمع كاجتان هذا الاقتراح لم يستطع ان يضبط نفسه ولا ان يحكم غيظه من هذا الراهب المتمرد العنيد، وصرخ فيه قائلا: "انه لا يريد ان يتناقش معه، وانه لم يأت الى هنا لكي يتناقش بل لكي يسمع اعترافا ويرى ندما، وسأله ان كان مستعدا ان يعترف باخطائه؟". وخشى ستوبيتز ان تتطور الامور فتدخل واقترح على الكاردينال ان يمنح لوثر فرصة اخرى يكتب فيها اعتقاداته ثم يفحصها. فقبل الكردينال اقتراح ستوبيتز.

وفي يوم الجمعة 15 تشرين اول 1518، جاء لوثر وقدم للكردينال كاجتان اجابته مكتوبة. وفيها اجاب على النقاط التي اثارها الكردينال 1) بالنسبة الى كنوز استحقاقات المسيح، اعترف لوثر ان كنز الكنيسة هذا مكون من

استحقاقات المسيح الذي تكفي منه قطرة واحدة للتكفير عن خطايا البشري كلها، الا انه انكر ان هذا الكنز موضع تحت تصرف البابا. 2) وحول قضية التبرير، كرر لوثر مقولته المفضلة، ان الخاطىء يتبرر بالايمان فقط وليس بالاعمال، وعرض ان يبرهن ذلك استنادا الى اقوال الكتاب المقدس، وكتابات القديس اغوسطينوس والقديس برناردس. فالقى الكردينال نظرة سريعة واعاد طلبه الى لوثر ان كان مستعدا ان يسحب اقواله واحتجاجاته ويعترف باخطائه؟ وكان رد لوثر ان لم يثبت له من الكتاب المقدس ومن اقوال الآباء اخطاءه فلن يتراجع. فصرخ الكاردينال في وجه لوثر قائل: "اختف من هنا ولا تريني وجهك الا اذا قررت الخضوع والاعتراف باخطائك".

وفي مساء نفس اليوم طلب الكاردينال من ستزبيتز ان يستعمل كل سلطته وتأثيره على لوثر لكي يتراجع. وطلب ستوبيتز الاب الروحي من لوثر الاعتدال وعدم المخاطرة واظهار روح الخضوع. وقَبِل لوثر ارضاء لاستوبيتز ان يكتب خطابا في 17 تشرين اول الى الكاردينال واعدا بالا يتكلم فيما بعد عن مشكلة صكوك الغفران بشرط ان يلتزم معارضيه بنفس الشرط. ثم اعلن ايضا استعداده بسحب كل ما كتب او علم، بشرط ان يقنعوه من الكتب المقدسة ومن اقوال الآباء بخطأ ما كتب او علم.

كان سوبيتز حائرا متألما بخصوص لوثر وكان يفكر كيف يمكن ان يخرجه من هذا المأزق، وقرر اخيرا ان يحله من نذوره ويطلقه... وهكذا فعل.

اما الكردينال كاجتان فقد كتب خطابا الى الملك فريدريك يشرح فيه تفاصيل مقابلته مع لوثر ويلتمس منه ان يسلمه الى روما او يطرده من مقاطعته.

اما لوثر فقد وصل الى فيتمبرج في نهاية شهر تشرين اول. وكان قد مضى سنة على تعليق الاحتجاجات. وبالرغم من هذه المشاكل واصل لوثر نشاطه في التدريس ودراسة الكتاب المقدس بل اراد ان يتعمق في دراسته اكثر فاكثر. فبدأ يدرس اللغة اليونانية مع شاب اسمه ملانكتون الذي اصبح فيما بعد الذراع الايمن للوثر.

وبينما كان لوثر في طريقه الى فتبمرج وصله خطابا من صديقه سبالاتن سكرتير الملك فريدريك يخبره ان الامر قد صدر بالقبض عليه وتسليمه الى روما، وعرف ان ميلتيتز Miltitz في طريقه للحصول على اذن بالقبض عليه وتسليمه الى روما. وهنا نشر لوثر عريضة يدعو الى عقد مجمع عام للنظر في قضيته.

لوثر امام ميلتيتز

كان كارل ميلتيتز الماني الجنسية، وكان ذكيا وسياسيا محنكا ودبلوماسيا ماهرا بالرغم من صغر سنه، وقد كلف من قبل البلاط الروماني ان يذهب الى المانيا لاحضار لوثر للمحاكمة. وقابل ميلتيتز فردريك بخصوص تسليم لوثر، فنبه الملك الى ان خطر لوثر سيصبح اكبر اذا ما هرب الى بوهيميا وجدد الصراع العقائدي والسياسي القديم. فاقتنع ميلتيتز بهذا الرأي. ولاحظ الملك رغبة الشاب في النجاح في مهمته فاوحى اليه ان لوثر لا يطلب الا الاقتناع باخطائه، وربما اذا وجد رجلا حكيما يمكن ان يقتنع. فطلب ميلتيتز مقابلة لوثر وهذا ما كان يسعى الامير اليه، اذ انه كان يريد ان يثبت ان لوثر كان وما زال محقا في طلبه للمناقشة وليس الخضوع دون اقتناع.

تقابل الرجلان في 6/5 كانون ثاني 1519 في مدينة التنبرج وخرج ميلتيتز بانطباعات طيبة من هذه المقابلة. ونتيجة لهذه المقابلة قبل لوثر الا يتكلم فيما بعد عن صكوك الغفران شريطة الا يهاجم. وطلب ميلتيتز الى البابا دون ان يستشير كاجتان ان يسند هذه القضية الى قضاة المان للحكم فيها. لكن جون آك نشر هجوما في 29 كانون اول 1518 ضد احد زملاء لوثر وهو الدكتور كارلستادت. وفي حقيقة الامر لم يكن هو المقصود بهذا النقد بل لوثر نفسه، ولم يعرف لوثر بموضوع آك الا بعد اجتماعه مع ملتيتز، فرأى لوثر في هذا الهجوم حلا من عهده الذي قطعه مع ملتيتز واصبح حرا في الدفاع عن ارائه ضد هذا الهجوم.

ثم جاء موت الامبراطور ماكسيمليان في يوم 11 كانون ثاني بمثابة هدنة مؤقته لوقف هذا الصراع بين الطرفين. فقد احتل موت الامبراطور وانتخاب امبراطورا جديدا المكانة الاولى في عقول الناس وانقسم امراء وملوك الامبراطورية، فقد أيد بعضهم شارل الاسباني بينما ايد الاخرون فرانسوا الاول. اما البلاط البابوي فكان في حيرة يميل تارة الى الواحد وتارة الى الاخر. وانتهت هذه المعارك السياسية بانتخاب شارل الاول ملك اسبانيا والذي حكم المانيا باسم شارل الخامس. وهو حفيد الامبراطور ماكسيمليان. وعندما تربع الامبراطور الجديد على عرش هذه الامبراطورية المترامية الاطراف كان في التاسعة عشر من عمره. وقد انتخب في يوم 28 تموز عام 1519.

حوار ليبزج Leipzig

ظهر في ذلك الوقت منافس جديد للوثر في شخص جون آك Jean ECK، وكان كاتبا وواعظا بليغا، ذا صوت قوي وذاكرة قوية، وكان يعد من افضل لاهوتي المانيا، وندا قويا لا يستهان به.

وفي الوقت نفسه الذي وعد به لوثر الالتزام بالصمت، حيث اعتُقِد ان الازمة على وشك الانتهاء، ظهر كتاب جون آيك Obelisci، وفيه يهاجم نظريات وآراء لوثر، قام الدكتور كارلستادت بتقديمه بصورة مشوهة، ودافع عن تعاليم لوثر في 406 قضية. وقام لوثر من جهته بكتابة كتابه Asterici ردا على كتاب جون آيك.

فتحدى آيك كارلستادت ولوثر ان يدخلا معه في مناظرة علانية، فوافقا. وحدد يوم 27 حزيران 1519 تاريخا لبدء المناظرة ومدينة ليبزج مكانا لها. وانطلق لوثر وكالستادت في 19 حزيران 1519 الى ليبزج يصحبهما ملانكتون وستة اساتذة اخرون، يرافقهما 200 طالب من فيتنبرج في عربات ومسلحون ومتسربلون بالدروع، مع جمهور كبير من الهسيين جاؤوا من بوهيميا لمناصرة لوثر.

بدأ الحوار في الاسبوع الاول وفي القاعة الكبيرة المفروشة بالسجاد في قلعة بلايسينبورج وتحت رئاسة الامير البرت بين الدكتور آيك وكارلستادت حول "حرية الارادة او الاختيار Le Libre arbitre". كان آيك قوي الذاكرة، حاد الذكاء، عليم باقوال الآباء وتعاليمهم، متبحرا في دراسة قرارات المجامع. اما كارلستادت فقد تميز بمعرفته للكتب المقدسة، الا انه كان قليل الخبرة في المناقشة، ضعيف الصوت والذاكرة، كان يضطر الى التوقف المستمر للعودة والبحث في المراجع الذي كدسها امامه. واستمر الحوار بين آيك وكارلستادت طيلة الاسبوع الاول مع ان تفوق آيك ورجحان كفته كان ظاهرا.

بدأت مناقشات الاسبوع الثاني في 4 تموز بين آك ولوثر حول "اولوية السلطة البابوية La Primauté du pape". واحتج لوثر ان اولوية البابا لا ترتكز الا على بعض القرارات البابوية، فيما يقف ضدها الكتاب المقدس وقرارات مجامع نيقية وكونستانس. وعندها هاجم ايك لوثر متهما اياه انه يردد وجهة نظر هس التي ادانها مجمع كونستانس. وسأله آيك ان كان من اتباع هس، فثارت ثائرة لوثر، وبدأ يرد بعصبية، ويتهرب من بعض الاسئلة بكثرة التمييز ''Distinguo''، وبالخروج عن التعاليم الصائبة، مما اثار ملل الحاضرين، وجعل الامير جورج يقول عنه "ان هذا الراهب مجنون".

شيئا فشيئا استطاع آيك الضغط على لوثر وسأله ان كان "جون هس" الذي أُحرق كهرطوقي، كان على صواب احيانا، وان مجمع كونستانس الذي ادانه كان مخطئا! اجاب لوثر: "بين معتقدات جون هس التي ادينت، يوجد الكثير الذي يعتبر اعتقادا مسيحيا وانجيليا، والذي لا يمكن ان تنكره الكنيسة الكاثوليكية"، واصبح لوثر في موقف حرج، اذ بدأ بانكار عصمة البابا والان انكر عصمة المجامع. اين اذن يمكن ان توجد العصمة؟ واجاب لوثر على ذلك السؤال بكلمات اصبحت شعارا للاصلاح هي "Sola Scriptura" أي " الكتاب المقدس وحده".

استمر الحوار في الاسبوع الثالث بين آيك وكارلستادت حول "حرية الارادة" و"التبرير بالايمان"، وانتهت المناظرة في 16 تموز، وكان لوثر قد ترك ليبزج قبل ذلك لعدم رضاه عن نتائج هذه المناظرة.

كان من المقرر ان تقوم جامعات اوروبا باعطاء تقريرها عن هذه المناظرة. اعطت جامعة باريس جوابها في عام 1521، ومع انها اعلنت وقوفها مع آيك، الا انها لم توافقه على جميع ارائه حول سلطة البابا المطلقة. اما جامعة لوفان وكولوني فقد قدمتا تقريرا تحكمان فيه بهرطقة لوثر، اما جامعة وتنبرج فقد ايدت لوثر.

اعتبر آيك حوار ليبزج نجاحا عظيما، وانطلق الى روما وبدأ تحريك الامور لاصدار حكم ضد لوثر. فاستقبله البابا ليون العاشر وهنأه على نجاحه، وكوّن لجنة لفحص كتابات لوثر وتعاليمه مؤلفة من اكوليتي وكاجتان وأيك نفسه. وفي يوم 15 حزيران 1520، اصدر البابا ليون قراره Exurge Domine الذي فيه يهدد بحرمان لوثر اذا لم يقم بتدمير كتاباته التي تحتوي على التعاليم الخاطئة، والامتناع عن الوعظ والتعليم، والتراجع عن اخطائه في مهلة اقصاها 60 يوما، وتطبيق هذا القرار على كل من يعترض على تنفيذه.

4- نحو الحرمان

كانت نتيجة حوار ليبزج تقسيم المانيا الى معسكرين. ناصر الدوق جورج السكسوني جون آيك، ونشر سكرتيره جيروم امزر Jerome Emsr عدة منشورات ضد لوثر. وكسب لوثر من ناحيته انصاراً كثيرين: الانسانيون من جميع جامعات الالمانية اخذوا يشجعونه على المضي قدما في مقاومته لروما. من ناحية اخرى اظهر الفرسان الالمان الذين رأوا في الحركة اللوثرية مناسبة لقلب النظام السياسي لمصلحتهم، تأييداً قويا للوثر في تمرده ضد السلطة البابوية. وكتب

له اليرخ فون هاتن، الذراع المحرك لهذا الحزب، في 4 حزيران 1520، يحثه على اتخاذ موقف اكثر ثابتا وحزما ضد البابوية، مؤكدا له ان كل الفرسان، وخصوصا زعيمهم Franz de Sickingen سيقدمون له التأييد والحماية. وعُرِض عليه ارسال مئة فارس لحمايته.

ورأى الامراء من ناحيتهم ايضا بعين الرضى تهجم لوثر على البابوية. كان الامير فردريك السكسوني، مع حفاظه على بعض الحذر، يرأى في لوثر مجد جامعة وتنبرج، وكان يميل الى الكثير من ارائه. ولم يسمح ان يحاكم لوثر دون ان يسمع دفاعه. ولم يظهر رئيس اساقفة ماينز Albert de Brandeburg، الذي كان يطمح ان يصبح رئيسا اعلى للكنيسة الالمانية بعد انفصالها، أي اجراء حازم تجاه هذا الراهب المتمرد.

واستعدت المدن الحرة في الامبراطورية، التي كثيرا ما كانت في صراع مع الاساقفة بسبب فساد المحاكم الكنسية، او مع اديرة الرهبان بسبب ما كانوا يتمتعون به من الامتيازات، لقبول الانجيل الجديد.

زد على ذلك ان الشعب انجذب لنمط حياة لوثر البسيطة وبلاغته القوية، واعتبروه نوعا ما نبيا مرسلا من الله ضد فساد وثراء وترف رجال الدين، وليعيد العقيدة الى براءتها الاصلية.

تشجع لوثر امام كل هذه المناصرة، وبدأ من سنة 1520، يتطرف في موقفه من السلطة البابوية. حتى ذلك التاريخ لم يعمل لوثر سوى اظهار خضوعه للبابا. ولكن الان وامام تشجيع وتأييد مختلف طبقات المجتمع الالماني، سيبدأ الحرب ضد البابوية. كتب في 11 حزيران 1520 الى صديقه سبالاتان: *"لقد أُلقِيَت النرد، وانا احتقر الان غضب الرومان بقدر ما احتقر رضاهم. ولن اهادنهم الى الابد... فليدنوا يحرقوا كل ما يمت لي بصلة وانا في مقابل هذا سوف افعل لهم الكثير. سوف ادين واحرق علنا كل الكتب والمراسيم والقرارات البابوية... فتأييد سلسفستر Sylvester de Schaumbourg وفرانس Franz de Sockingen حرريني من كل خوف..."*.

وكتب ايضا الى أحد رفاقه الرهبان: *"انني في صدد نشر كتاب في اللغة الالمانية عن البابا والاصلاح المسيحي، وفيه اهاجم البابا بلهجة عنيفة كما لو كنت اهاجم المسيح الدجال"*.

5- كتابات لوثر

لم يكف لوثر عن القيام بالتدريس والكتابة، بل قام في ذلك العام بكتابة ثلاث كتيبات تدعى "كتابات المصلح العظمى".

1) الى الأمة المسيحية الالمانية النبيلة Manifeste à la noblesse chrétienne de la nation allemande touchant la réforme de la chrétienté: خرج هذا الكتيب من المطبعة في شهر آب 1520 أي بعد انتهاء الحوار اللاهوتي في ليبيزج، وبعد انتخاب الامبراطور الجديد شارل الخامس. كتب هذا الكتاب باللغة الالمانية لغة الشعب وتخاطفه القُراء حال ظهوره، لدرجة ان ال 4000 نسخة التي ظهرت منه اختفت خلال الستة ايام الاولى من ظهورها.

دعا لوثر في هذا الكتيب الامة الالمانية كلها، وعلى رأسها الامبراطور الجديد والملوك والامراء الى القيام بواجباتهم ليس تجاه المدينة التي انتخبوا لها فحسب، بل ايضا تجاه اصلاح الكنيسة التي يقوم الشيطان على تخريبها بواسطة البابوات منذ خمسة عشر قرنا، ويدعوهم للقيام بواجباتهم الروحية التي تتطلب اصلاحا جذريا عجز المسؤولون (الاكليروس) عن القيام به. ويستعمل لوثر في هذا الكتاب لهجة وطنية مناشدا الشعب ان ينفض عن كاهله التدخل الاجنبي في شؤون الامة الالمانية، وان يحمل بنفسه المسؤولية في قيادة الامة والكنيسة. ولذلك يجب هدم الحواجز الثلاث التي – حسب رأيه – وضعتها الكنيسة الرومانية لتحتفظ بالسلطان في المانيا وهي:

1) *الحاجز الاول هو ان السلطان الروحي فوق السلطان الزمني.* وقد فرضته كنيسة روما لخضوع الاباطرة والملوك والامراء للسلطة الروحية العليا الا وهي سلطة البابا وسلطة الكنيسة. يرفض لوثر هذا المفهوم ويقول انه لا يوجد امام الله اكليروس وعلمانيون. فان مجيء المسيح غيّر اوضاع كاهن العهد القديم لأن المسيح هو كاهن العهد الجديد: وهو الكاهن والذبيحة في نفس الوقت كما انه دعا ايضا جميع المؤمنين الذين يقبلونه بالايمان ان يكونوا كهنة مثله. فليس الكاهن المرسوم وحده هو الكاهن الحقيقي بل ان الكاهن الحقيقي هو الذي يقبل المسيح يسوع مخلصا وفاديا. وهذا ما يدعى بكهنوت جميع المؤمنين. ولقد اقتبس عدة فصول كتابية لكي يثبت فكرته هذه (رؤ 1: 6، 5: 10، 20: 6، ا بط 2: 9). ويقول ان عبارة كاهن تساوي تماما في المفهوم الكتابي مؤمن او معمد (رو 12: 1، عب 13: 5، ابط 1: 5، 9). فلا يوجد اذن فرق بين الاكليروس والشعب ولا توجد طبقة كهنوتية حاكمة مسيطرة وطبقة علمانية مسيطر عليها. كلنا ملوك وكهنة لله ابينا، لنا نفس الامتيازات وعلينا نفس الواجبات. وعلى كل مؤمن ان يقوم بالعمل الموكل اليه، فالخادم يعمل كخادم والمدبر يعمل كمدبر والحاكم كحاكم... الخ.

2) الحاجز الثاني: الاحتفاظ بتفسير الكتاب للاكليروس فقط. نادت الكنيسة ان رجال الاكليروس فقط هم الذين لهم حق تفسير الكتاب المقدس. اما لوثر فينادي ان تفسير الكتاب المقدس لا يجب ان يكون حكرا على الاكليروس فقط، بل للجميع، لان روح الله هو الذي يعمل في القارىء كاهنا كان ام علمانيا او عاميا لكي يفهم المكتوب. ان الله الذي جعل حمارا يتكلم لكي يوبخ نبيه الا يمكنه ان يتكلم على فم انسان تقي لكي يوبخ البابا؟ يدعو لوثر الجميع الى فتح الكتاب المقدس ليس فقد لقراءته بل لتفسيره ايضا.

3) الحاجز الثالث: الادعاء ان البابا وحده له الحق في دعوة المجمع للانعقاد. يقول لوثر ان الذي دعى لانعقاد اول مجمع في التاريخ هم الرسل كلهم وليس بطرس وحده، كما ان البابا لم يكن هو الذي دعى لعقد مجمع نيقية او صدق على قراراته. لذلك تعود دعوة المجمع الى السلطة الزمنية، وهي وحدها القادرة على دعوة مجمع محايد ومستقل، والعمل خصوصا في هذا الظرف.

وفي الختام يدعو لوثر الى بناء مجتمع جديد، والى اصلاح الادارة العامة في روما، وينادي ايضا باصلاح التعليم وتنظيم المساعدات الاجتماعية والعمل على تنظيم الكنيسة بطريقة اخرى. واذا كان البابا يهدد بالحرمان من الكنيسة او التحريم ان يمنع عقد مجمع: "*فاننا يجب ان نستخف بتصرفه كأنه تصرف رجل مجنون ونقذفه بحرمانه معتمدين في ذلك على الله ونقمته بقدر الامكان*".

2) الكتيب الثاني: الاسر البابلي للكنيسة Prélude sur la captivité babylonienne de l'Eglise: كان الكتيب الاول موجها الى الامة الالمانية كلها وكتبه بلغة الشعب، اما هذا الكتيب فوجهه الى اللاهوتيين والمثقفين، فكتبه باللغة اللاتينية. ظهر هذا الكتيب في 6 تشرين اول عام 1520. يبين لوثر فيه انه كما قاسى اليهود طويلا في الاسر في بابل، فان الكنيسة كما انشأها المسيح، وكما نص عليها العهد الجديد، قد تعرضت للاسر ما يزيد على الف عام تحت حكم البابوية في روما. وفي خلال تلك الفترة تعرض دين المسيح الى الفساد في الايمان والاخلاقيات والشعائر. ثم يبين لوثر ان سلطة البابا مؤسسة على مفهوم خاطى لعقيدة الاسرار، ولم يقبل من هذه الاسرار التي علمت بها الكنيسة الا اثنين: الافخارتسيا والمعمودية، كما انه سمح بقبول سر التوبة كسر ضروري ومقبول.

تعرض لوثر خصوصا في هذا الكتيب لمسألة الافخارستيا. فقد تمسك بحضور المسيح فعليا في الخبز والخمر، وعلم بطريقة واضحة وصريحة ان الخبز والخمر يحملان فيهما حقيقة وفعلا وليس بطريقة رمزية او استعارية جسد ودم المسيح. فعندما نطق المسيح قائلا: هذا هو جسدي، وهذا هو دمي، فان جسد الرب ودمه حلا فعلا في الخبز والخمر، والمؤمن عندما يأكل الخبز ويشرب الخمر، انما يأكل ويشرب جسد الرب ودمه. الا ان لوثر رفض كليا عقيدة التحول اوالاستحالة Transsubstantiation، اذ قال عنها انها فكرة غير كتابية. الا انه يميل لاستعمال بعض المصطلحات الاخرى مثل: Impanation او Conssubstatntiation بمعنى الحضور المزدوج او وجود شيئين في وقت واحد. فلوثر يعتقد بحلول المسيح في الخبز والخمر، وهذا الحلول هو حلول ازدواجي وليس بدلي: بمعنى ان جسد المسيح لا يحل محل الخبز والخمر بعد ان يختفي هذان العنصران عندما ينطق الكاهن بالكلام الجوهري، بل الخبز والخمر يظلان كما هما بدون تغير او تحول والمسيح يحل فيهما. وهذه العملية تشبه عملية التجسد، فكما ان اللاهوت لم يلاش الناسوت عندما حل فيه لكن حل كل ملء اللاهوت في الناسوت واحتفظ كل منهما بطبيعته. وبنفس الطريقة فان الخبز يظل خبزا والخمر يظل خمرا، ويحل فيهما المسيح الذي نتناوله بالايمان عند ممارسة سر الافخارستيا او العشاء السري.

يحاول لوثر ايضا في هذا الكتيب ان يبرز بطريقة واضحة وصريحة ان فاعلية السريين لا تنتج من ممارسة هذه الاسرار في حد ذاتها: أي ان الافخارتسيا لا تحمل في حد ذاتها النعمة او الخلاص لكن فاعلية هذه الاسرار متوقفة على موقف الشخص نفسه الذي يشترك في الافخارستيا او في العماد. فان الاسرار لا تمنح الخلاص ولا هي ضرورية له بل ان هذه الاسرار تمارس كدليل على ان الانسان الذي يمارسها ينبغي ان يكون قد حصل على الخلاص. ويرفض لوثر الطريقة المتبعة في الكنيسة الكاثوليكية وهي تقديم الخبز فقط للشعب وحرمانه من الكأس. ويطالب ان يشترك الشعب ايضا في تناول دم المسيح

والزواج بالنسبة الى لوثر ليس عهدا مقدسا لأن المسيح لم يقطع على نفسه عهدا بان يبث فيه الرحمة الالهية وقال "ان زيجات الاقدمين لم تكن تقل قداسة عن زيجاتنا كما ان زيجات الكفار ليست اقل صحة من زيجاتنا". وعلى ذلك يجب الا يحرم الزواج بين المسيحيين وغير المسيحيين: "*فكما اكل واشرب وانام وامشي... واتعامل مع وثني او يهودي او تركي او هرطوقي فان في وسعي ان اتزوج من أي واحدة من نسائهم، فلا تبالوا بالقانون الذي سنه الاحمق لتحريم هذا.. ان الشخص الوثني سواء كان رجلا او امرأة خلقه الله كما خلق القديس بطرس والقديس بولس او القديسة لوسي*". واي امرأة تتزوج من رجل عنين يجب ان يسمح لها، اذا وافق زوجها، ان تضاجع رجلا آخر لكي تنجب منه طفلا ويجب ان يسمح لها بان تدعى ان الطفل هو ابن زوجها. واذا ابى الزوج فانها تستطيع بحق ان تطلق منه. ومع ذلك فان الطلاق مأساة لا نهاية لها، ولعل تعدد الزوجات خيرا منه.

3) الكتيب الثالث: الحرية المسيحية De la liberté chrétienne: ذكرنا ان ميلتيتز اراد مصالحة البابا مع لوثر ولم يفلح، وتألم جدا لتطور الامور بينهما، على انه لم ييأس، لذلك نراه يحاول مرة اخيرة إجراء المصالحة، ليقنعه ان يرسل خطابا للبابا وبه نبذة صغيرة يشرح فيها ايمانه وعقيدته، ثم اخلاصه وولاءه. وانتهز لوثر هذه الفرصة وكتب فعلا هذا الكتيب الذي يدعى الحرية المسيحية. ظهر هذا الكتيب باللغة الالمانية واللاتينية ويشرح فيه لوثر مبدأين متناقضين هما: 1) المسيحي المؤمن انسان حر وسيد لكل الاشياء 2) المسيحي المؤمن خادم مطيع للجميع.

حاول لوثر ان يشرح ان الانسان الذي حرره المسيح يسوع من كل خطاياه واثامه اصبح حرا من الخطيئة واصبح حرا ايضا من القلق والاضطرابات ومن الموت ومن الجحيم. والايمان بالمسيح يحرر الانسان بل يجعله ملكا. والانسان الذي حررته نعمة الله اصبح انسانا جديدا وخليقة جديدة. وهذه الخليقة الجديدة تثمر ثمارا صالحة. لا يرفض لوثر الاعمال الصالحة، بل بالعكس يشدد عليها وعلى ضرورتها في الحياة العملية واليومية، لكنه يرفضها عندما يلتجىء اليها الانسان لكي يخلص بها، فيقول: "اننا لا نرفض الاعمال الصالحة ولكننا نرفض فكرة ان الانسان في استطاعته ان يخلص باعماله الصالحة". فليست الاعمال الشريرة هي التي تجعل من الانسان شريرا او رديئا بل ان الانسان الشرير او الرديء هو الذي يصنع الاشياء الرديئة. وهذا يمكن تطبيقه ايضا في موضوع البر والخلاص فليست الاعمال الصالحة هي التي تخلق من الانسان انسانا صالحا وقديسا، بل ان القديس هو الذي يعمل اعمالا صالحة. وهذا يعني ان الانسان الذي لمسته نعمة الله وتبرر بالايمان مجانا يصبح انسانا جديدا عاملا وليس خاملا.

وارسل لوثر كتابه الى البابا مع خطاب شخصي لم يتضمن أي اعتذر بل نصيحة ابوية تقريبا من لوثر الى خليفة بطرس، اعرب فيه عن احترامه للبابا كفرد ولكنه استنكر في غير هوادة فساد البابوية في الماضي والمحكمة البابوية في الحاضر: *"ان ما تتمتع به من سمعة وشهرة في حياتك الطاهرة الذيل امر معروف تماما واسمى من ان يكون مجالا للهجوم.. ولكن سدتك البابوية التي تسمى المحكمة الرومانية والتي لا يمكنك انت او أي انسان ان تنكر انها اكثر فسادا مما كان عليه اهل بابل او سدوم والتي بقدر ما استطيع ان ارى، تتسم بخبث غوى لا امل فيه قبيح الصيت – فهذه السدة انا ازدريها.. ولقد اصبحت الكنيسة الرومانية اكبر وكر داعر للصوص واعظم المواخير التي يندي لها الجبين ومملكة الاثم والموت والجحيم.. ولطالما ساءني يا صاحب المقام السامي ليو انك تنصب بابا في هذه العهود لانك خليق بايام خير منها.. لذلك ارجو يا عزيزي ليو الا تستمع الى تلك الاقوال المعسولة التي لا تجعلك بشرا سويا وترفعك الى مصاف انصاف الالهة لكي تأمر بما تشاء. فانت خادم الاجراء وبعد كل الرجال الاخرين في مركز خطير يرثى له. فلا يخدعك هؤلاء الذين يدعون انك سيد العالم... الذين يدعونبان لك سلطانا على السماء والجحيم والمطهر.. ان الذين يعلون قدرك فوق المجلس وفوق الكنيسة العالمية يخطئون.. والذين ينسبون اليك الحق في تفسير الكتاب المقدس يخطئون لانهم ينشدون تحت ستار اسمك ان يرسو قواعد خبثهم في الكنيسة، ومما يؤسف له ان الشيطان من خلالهم قد احرز نجاحا تحت حكم اسلافك. والخلاصة لا تصدق احدا يعلي من قدرك، وصدق هؤلاء الذين يضعون من شأنك".*

6- حرمان لوثر

اعتبر جون آيك حوار ليبزج نجاحا عظيما، وانطلق الى روما وبدأ بتحريك الامور لاصدار حكم ضد لوثر. فاستقبله البابا ليون العاشر وهنأه على نجاحه، وكوّن لجنة من افضل الاهوتيين، بما فيهم الكردينال كاجتان وجون آيك نفسه، لفحص كتابات لوثر وتعاليمه. واصدر البابا في 5 حزيران 1520 المرسوم "قم ايها الرب Exsurge Domine" فيه يدين 41 بندا من تعاليم لوثر الخاطئة ويهدد بحرمان لوثر اذا لم يقم بتدمير كتاباته التي تحتوي على التعاليم الخاطئة، والامتناع عن الوعظ والتعليم، والتراجع عن اخطائه في مهلة اقصاها 60 يوما وتطبيق هذا القرار على كل من يعترض على تنفيذه.

وارسل البابا مندوبين لنشر المرسوم في كل اوروبا، لكنهم وجدوا معارضة متزايدة عند اقترابهم من المناطق الالمانية. وفي ليبزج رفض الحكام الاعلان عن المرسوم. في امكنة اخرى ابادوها وشيعوا المندوبين باغاني ساخرة، ورفض مجلس جامعة وتنبرج ان ينشر المرسوم.

اما في بعض المدن الاخرى فقد قام الكاثوليك بجمع كتابات لوثر والقوها في النار. فقرر لوثر ان يرد عليهم بالمثل. وفي 10 كانون اول 1520 دعت هيئة التدريس في جامعة وتنبرج الاساتذة والاصدقاء وكل الذين يهمهم الامر الى اجتماع عام وهام. وخرجوا جميعا الى مكان خارج مدينة ويتنبرج، كانت تحرق فيه عادة ملابس مرضى الطاعون. وهناك تقدم لوثر امام النيران المشتعلة والقى فيها كتب القانون الكنسي وبعض كتابات فلاسفة القرون الوسطى ومنهم توما الاكويني، واخيرا القى مرسوم التهديد بالحرمان وقال: "بما انك احزنت الروح القدس لتلتهمك النيران".

ردا على هذا العمل وعند انتهاء المهلة الممنوحة للوثر ليتراجع عن تعاليمه، اصدر البابا ليون العاشر في 30 كانون الثاني 1521 مرسومه Decet Romanum Pontificem وفيه اعلن لوثر هرطوقيا عنيدا، ومحروما هو واتباعه وجميع الاماكن التي تستضيفه.

7– لوثر امام مجلس الدايت Diète (مجلس الامة)

بدأ مجلس الامة اجتماعاته في 27 كانون ثاني 1521. وخطب القاصد الرسولي في المجلس لمدة ثلاث ساعات مبينا للمجلس انه ليس من حق مجلس امة زمني التدخل في شؤون الكنيسة الروحية، وليس من حقه ولا من اختصاصاته التدخل في الحكم على هرطوقي، اذ انه غير مؤهل علميا للقيام بهذا العمل. وبعد ان قدم قائمة طويلة يصف فيها الهرطقات العديدة التي نادى بها لوثر. قدم قائمة اخرى يصف بها الاعمال الثورية التي تبينها اتجاهات هذا الراهب وتبين مدى خطورته لا من الناحية الدينية فقط بل من الناحية السياسية ايضا. وقال انه يريد قلب الاوضاع القائمة. اذ انه لا يقبل سلطان البابا او سلطان المجامع، انه يوحنا هس الجديد. وطلب من مجلس الامة الا يضيع وقته الثمين في مناقشة هذا الامر الذي سبق البابا ليون العاشر واصدر حكمه فيه بحرق كتب هذا الهرطوقي وحرمان كل من يتبع مذهبه.

انقسم المجلس بعد هذا الخطاب بين مؤيد لارسال لوثر الى روما وبين معارض، وقرر المجلس بعد ستة ايام الطلب من لوثر ان يحضر الى ورمس لكي يحاكم امام مجلس الدايت. وطلب الامبراطور من فريدريك ان يرسل دعوة للوثر، اذا انه واحد من رعاياه. على ان الملك التمس من الامبراطور ان يقدم هو نفسه الدعوة بصفته رأس الامبراطورية مع ارسال ضمان الامان في الذهاب والعودة. فكتب له الامبراطور يقول: "لا حاجة بك الى الخوف من التعرض لاي عنف او ازعاج لاننا اعطيناك جواز الامان".

وصل لوثر الى ورمس في 16 نيسان، وفي يوم 17 نيسان مَثُلَ لوثر امام المجلس النيابي، اكبر هيئة حاكمة في ذلك الوقت. فقد وجد نفسه امام الامبراطور شارل الخامس واخيه فرديناند رئيس الامراء وستة من الملوك المنتخبين واربعة وعشرين دوقا.. وثمانية من الشرفاء وثلاثين من رؤساء الاساقفة والاساقفة ورؤساء الاديرة وسبعة من السفراء من بينهم مندوبي البابا. وضعت مجموعة من الكتب على منضدة قريبة من لوثر. ووقف جون آيك كاتب رئيس اساقفة تريف Trèves – وهو غير جون آيك اللاهوتي – وسأله هل هذه الكتب من تأليفه وهل هو على استعداد لانكار كل هذه الهرطقات التي تتضمنها؟. ومرت لحظة على لوثر وهو واقف امام هذا الجمع الذي يمثل هيئة الامبراطورية والسلطة النيابية وجلال الكنيسة، فخانته شجاعته واجاب بصوت خافت ان الكتب من تأليفه. واما بالنسبة للسؤال الثاني فان هذا الامر في غاية الخطورة ويحتاج الى تفكير والتمس مهلة للتفكير. فامهله شارل يوما. وعندما عاد الى مسكنه تلقى رسالة من هوتن تناشده فيها الثبات في موقفه. واقبل كثير من اعضاء المجلس النيابي لزيارته لتشجيعه.

وفي يوم 18 نيسان واجه المجلس النيابي بثقة كاملة، وكانت قاعة المجلس تموج بالحاضرين الى حد ان الامراء المختارين وجدوا صعوبة بالغة في الوصول الى مقاعدهم. وسأله ايك عما اذا كان على استعداد لانكار المؤلفات التي كان قد كتبها كليا او جزئيا. فاجاب لوثر ان الكتب التي الفها تنقسم الى ثلاثة انواع: النوع الاول، كتب عالجت مواضيع خاصة بالايمان المسيحي والاخلاقيات وقد قبلها الكثيرون من اصدقائه ومن ممن يخالفونه الرأى، فلا يمكنه ان ينكر ما اعترف بفائدتها العدو والصديق. النوع الثاني: هي الكتب التي هاجم فيها البابوية والباباويين الذين افسدوا المسيحية وان الكثيرين شهود لذلك بل ضحية لهم. فان تراجع عن هذه الكتب فانه يشجع على المزيد من الظلم والطغيان. والنوع الثالث: كتب احتوت على نقد شديد ضد الاشخاص الذين اشتركوا في اعمال الظلم والعدوان ، واعترف انه كان شديدا في اسلوبه قاسيا في نقده، واعتذر عن ذلك، وتذرع بانه انما كان يدافع عن عقائد هامة، وعن الحق الالهي، فهل يمكنه ان يتراجع عن الحق الالهي؟ ثم قال انه مستعد للتراجع عن أي فقرة عقائدية اذا ثبت انها تخالف ما جاء في الكتاب المقدس. وبعد ان انهى خطابه قال له جون آيك: "ايها الاخ مارتن لقد تكلمت كثيرا، وفي كلامك تمسكت بهرطقات قد سبقت الكنيسة وحكمت ببطلانها. وهذه الهرطقات التي تكلمت عنها سببت مأسي كثيرة للشعب الالماني واننا على أي حال لا نريد النقاش هنا. ولكن كل ما نطلبه منك باسم الامبراطور: هل انت مستعد ان تتراجع عن تعاليمك المذكورة في هذه الكتب. اننا نريد منك جوابا واضحا وصريحا" . عندئذ قال لوثر:

"بما انكم تطلبون مني اجابة واضحة وصريحة فهذه هي اجابتي: ان لم تقنعوني من الكتب المقدسة، لا يمكنني ان اتراجع لان ضميري لم يعد يخضع بعد، لا للبابوات الذين حكم بعضهم على بعض، ولا للمجامع التي ارتكبت

اخطاءا وحكما بعضهما على بعض ايضا. فان ضميري لا يخضع الا للكتب المقدسة. ولذلك لا يمكنني ان اتراجع لانه ما اخطر ان يتصرف الانسان ضد ضميره. وهذا ما اؤمن به فليعني الرب".

فواجهه جون آك انه لا يمكن اثبات أي خطأ في المراسيم العقائدية التي اصدرتها المجامع، فرد عليه لوثر انه على استعداد لاثبات مثل هذه الاخطاء. ولكن الامبراطور اعترض قائلا بلهجة قاطعة: "هذا يكفي، ما دام انه انكر المجامع فاننا لا نود سماع كلمة اخرى". وعاد لوثر الى مسكنه وقد انهكه الصراع، ولكنه كان واثقا انه قدم شهادة طيبة.

حاول الامبراطور ان يحسم هذا الامر بشدة وحزم، فاصدر في 19 نيسان منشوره الامبراطوري مكتوبا باللغة الفرنسية اعلن فيه انه حفيد الاباطرة وحفيد ملوك اسبانيا والنمسا وبورجوني العظماء الذين شهدوا بايمانهم وكثلكتهم في حياتهم، وانه سيسير على منوالهم مقاوما ومطاردا ومحاربا كل المبتدعين. واعطى لوثر صك الامان للعودة الى فيتمبرج ولكن أمر بالقبض عليه بعد انتهاء مدة هذا الصك، وان يسلم الى السلطات المختصة لكي يحاكم.

غادر لوثر مدينة ورمس في 26 نيسان عائدا الى وتنبرج، ولكنه لم يصل اليها. ففي الطريق، وبالتحديد بالقرب من التنشتاين Altenstein هجمت عليه ومن معه جماعة مكونة من خمسة فرسان، وقبضوا عليه ووضعوه على فرس واختفوا به في الغابات الكثيفة. وكان فردريك قد دبر هذا الكمين لاختطاف لوثر خوفا من ان يقبض عليه واخفاه في قلعة فارتبورج متخفيا في شكل الفارس جورج.

8- لوثر في فارتبورج

كانت قلعة فارتبورج تجثم على قمة جبل على مسيرة ميل من ايزنباخ، وكانت مخفية عن انظار العالم. واقام لوثر هناك مدة تقرب من عشرة اشهر (4 ايار 1521 الى 3 اذار 1522)، في غرفة مظلمة، مجهزة بفراش ومنضدة وموقد وجذع شجرة يستخدم كمقعد. كان يحرس القلعة بضعة جنود ويعني بالاراضي حارس، ويقوم بخدمة لوثر صبيان يعملان وصيفيين له.

ورأى لوثر انه من الافضل له من قَبيل التنكر ان يخلع الثوب الرهباني، ولبس رداء فارس، واطلق لحيته واصبح يعرف باسم الفارس جورج، وخرج للصيد، واسقمه الكسل وكثرة الطعام وشرب الجعة واصيب بالبدانة واخذ يشتم ويلعن كما يفعل أي فارس الماني شاب.

وراودت الشكوك لوثر في خلوته، وتساءل ايمكن ان يكون على حق وان يكون مثل هؤلاء الاحبار على ضلال؟ واذ كنا نصدق القصة كما رواها في اواخر ايامه، فان اصواتا غريبة كانت تزعجه، اصواتا لم يستطع تفسيرها الا بانها من صنع الشياطين، واكد انه رأى الشيطان في مناسبات عديدة، وقال ان الشيطان رجمه يوما بالجوز، ويقال ايضا ان لوثر قذفه بزجاجة حبر ولكنها اخطأته. يظهر كل هذا من كتاباته الى اصدقائه سبلاتان وملانكتون حيث وصف لهم الالام الجسدية والنفسية التي يتعرض لها. ويظهر لنا لوثر في هذه الفترة، كمهوس مريض جسدا وروحا.

الا انه بالرغم من حالته النفسية السيئة التي كان يمر بها فقد قام في هذه الفترة بنشاط تأليفي غير عادي. لم يكتف فقط بدراسة العبرية واليونانية بهمة ليفهم الكتاب المقدس بشكل افضل، وانما قام ايضا بتأليف عدة كتب منها: كتاب حول "الاعتراف السمعي La Confession auriculaire" اهداه الى صديقه فرانس Franz Stickengen زعيم الفرسان، وفيه يدعو الى ترك الاعتراف واعطاء الافضلية للاعتراف الى علماني بسيط بدلا من الكهنة. وفي ربيع عام 1521 وجه الى الرهبان الاوغسطينيين في وتنبرج كتابا اخر حول "حذف القداس الخاص De abroganda missa privata" حيث وصف القداس بانه خرافة بغيضة "abominable superstitutions" "واختراع جهنم"، وفيه يوافق ما قام به رفقاؤه الرهبان من حذف القداس الخاص (Privée). وفي تشرين ثاني 1521 اهدى الى والِدِهِ كتابه "حول النذور الرهبانية De votis monasticis judicio"، وفيه يتخذ موقفا مؤيدا لالغاء النذور الرهبانية والعزوبية. كما وكتب عدة تفاسير حول المزامير.

الا ان اهم عمل قام به لوثر في هذه الفترة هو ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة الالمانية العامية التي يتكلمها الشعب. عندما تبنى لوثر الكتاب المقدس كاساس الوحيد للايمان، كان الطبيعي ان يهتم بجعله متاحا لجميع من تبعوا الاصلاح. وكان هذا بحق مهمة صعبه، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان الدراسات الشرقية كانت لا تزال في بدايتها، ومن جهة اخرى فقر اللغة الالمانية التي كانت هي ايضا لا تزال في مهدها، وكان ينقصها الكلمات للتعبير عن الافكار المتافزيقية التي حتى ذلك الوقت كانت تستعمل باللاتينية. وبمساعدة من افضل الانسانيين في ذلك الوقت وخصوصا بمساعدة ملانكتون، استطاع لوثر ان ينجز هذه المهمة بالرغم من كل الصعوبات... وظهر العهد الجديد منذ 1522،

وظهرت ترجمة العهد القديم على اقسام من عام 1523 وحتى عام 1534. واخيرا ظهرت الطبعة الكاملة للكتاب المقدس عام 1541.

لم تكن هذه الترجمة تخلو من الاخطاء، اذ لم يفهم لوثر دائما المعنى الحقيقي لبعض النصوص، وخصوصا في سفر ايوب والانبياء ورسائل بولس، كما ولاهتمامه ايجاد تطابق بين تعاليمه والنصوص المقدسة ، لم يجد لوثر حرجا في بعض المرات بتعديل المعنى بزيادة بعض الكلمات او بملاحظات هامشية. فمثلا في اية 28 من الفصل الثالث من رسالة بولس الى اهل روما: "Arbitramur enim justificari hominem per fidem, sine operibus legis"، زاد لوثر كلمة "فقط Solam" بعد كلمة "Fidem". وعندما واجهه اللاهوتيون الكاثوليك بهذا نعتهم بالحمير.

لم يكتف لوثر بهذا بل عمد ايضا الى حذف بعض الاسفار الكاملة والتي لم تتلاءم وتعاليمه بل وعاكستها مثل رسالة القديس يعقوب، والرسالة الى العبرانيين وسفر الرؤيا. بالرغم من كل ذلك، فان ترجمة لوثر للكتاب المقدس تعد حدثا تاريخيا كان له الاثر الكبير في تاريخ المانيا. فمن الناحية اللغوية اصبحت هذه الترجمة اساسا للغة الالمانية لغنى الكلمات والتعابير وسلاسة الاسلوب ووضوحه. اما من الناحية الدينية، فقد اصبحت هذه الترجمة كتاب البروتستنت الاول. فقد كان لوضعه بين يدي الوعاظ اساسا لتعاليمهم وعقائدهم، ولدخوله لكل كنيسة ومدرسة وبيت الفاعلية الكبرى لنشر الاصلاح.

9- عودة لوثر الى وتنبرج Wittenberg(6 اذار 1522)

بينما كان لوثر في قلعة وارتبورج يكتب ويؤلف، وقف على رأس حركته بعض تلامذته، امثال كارلستادت Carlstadt، وجابرييل زويلنج Gabriel Zwilling، وملانكتون Mélanchton، واخذوا يترجمون تعاليمه الى افعال. وكان كارلستادت يعتبر نفسه الرئيس الروحي لمدينة وتنبرج بعد غياب لوثر، وكان على عكس لوثر يريد تغييرا سريعا وجذريا، دون مراعاة للظروف. ولكي يعطوا مثلا على تحررهم وتحرر الكثير من الكهنة من عبودية بابل ، قام كارلستادت بالزواج في كانون اول 1521، وتبعه الكثير من كهنة الرعايا، وخرج الكثير من الرهبان والراهبات من الاديرة معلنين ان نذورهم باطلة، وفي كثير من الاماكن الغيت القداديس الخاصة. وفي عيد الميلاد لعام 1521، اقام كارلستادت قداسا انجيليا في اللغة الالمانية وبدون الثياب الليتورجية، والاكثر خطورة انه حذف كثيرا من الاجزاء المهمة في القداس، ووزع المناولة تحت الشكلين، لكل من تقدم من المناولة دون اعتراف او صيام. بل ذهب ابعد من ذلك، عندما بدأ يفكر في الغاء الاديرة، واغلقت فعلا جمعية الرهبان الاوغسطينية في وتنبرج في كانون ثاني 1522، ووزعت ممتلكات الاديرة لمساعدة الكنائس واستخدامها في المشاريع العامة. والبعض الاخر وُزع على بعض الامراء.

ولم تجر كل هذه التغييرات دون ان تثير بعض الفوضى. ففي الثالث من كانون اول دخل بعض الطلبة وسكان المدينة وهم مسلحون بالمدى كنيسة الابرشية في وتنبورج وطردوا الكهنة عن المذبح ورجموا بعض المصلين الذين كانوا يؤدون الصلاة امام تمثال العذراء. ودعا جابرييل زويلنج، وهو احد روؤساء الجمعية الاوغسطينية، مستميعه الى احراق الصور الدينية وهدم المذابح حيثما وجدت.

الا ان اكثر الحركات خطورة كانت ظهور بما يعرف بحركة اللامعمدانيين Les Anabaptistes.

حركة اللامعمدانيين Les Anabaptistes

دعيوا بالمعمدانيين لانهم كانون يعلمون ان الايمان يجب ان يسبق العماد، وبالتالي، فان الاطفال، الذين قبلوا سر العماد قبل بلوغهم سن الرشد، يجب اعادة تعميدهم عند بلوغهم هذا السن. وكانوا يقدمون انفسهم كانبياء ملهمين مباشرة من الروح القدس.

بما انهم لم يكونوا يعترفون بسلطة او قانون الا بما يوحي به الروح القدس ولكل واحد منهم، فقد رفضوا كل سلطة دينية او زمنية. وارادوا تأسيس مجتمع مبنى على "الاخوة المسيحية Fraternité Chrétienne"، حيث يكون فيها كل الاعضاء متساوين واحرارا، وفي اشتراكية كاملة، ويعيشوا على هواهم بحسب ما يمليهم عليهم ضميرهم. ان تحقيق مثل هذه المدينة المثالية، لن يتم الا بتبديل النظم القائمة، لذلك يجب اعلان الحرب على رؤوساء المجتمع اكليروسا او امراء او اسيادا.

تأسست هذه الحركة المتطرفة الثورية في مدينة زوكاو Zwickau الالماني، على يد احد النساجين واسمه نيقولا ستورك Nicolas Storch، وراهب فرانسيسكاني، توماس منزر Thomas Munzer، الذي، على مثال المسيح جمعوا حولهم اثني عشرة رسولا واثنين وسبعين تلميذا. امر مجلس مدنية زوكاو بطردهم فهربوا والتجاؤا الى مدينة وتنبرج، حيث بدأوا بنشر تعاليمهم، واثروا على زعماء الحركة اللوثرية، ملانكتون وامسدورف، بينما تحمس لهم كارلستادت. وبالتعاون معهم بدأ كارلستادت بتغييرات ثورية في وتنبرج. فلم يكتف بالغاء القداس والاسرار، بل قاد مجموعات من حثالة الشعب، اغارت على الكنائس، وهدمت الهياكل، والقوا بالصلبان ارضا، وحطموا التماثيل والصور. وبعد الكنائس والاديرة، وجه كارلستادت وانبياء زوكاو حربهم على الثقافة والتعليم، معتبرين ان العلوم لم تعد مهمة وضرورية لفهم الكتاب المقدس. فترك الكثير من الطلاب مدارسهم وجامعاتهم، واصبحت جامعتا ارفورت ووتنبرج شبه خاليتين.

حمل هؤلاء المتطرفون حركة الاصلاح الى ابعد ما كان يريده لها مؤسسها لوثر، وجعلوا منها ثورة دينية واجتماعية، زرعت البلبة والفوضى في كل مكان.

وعندما سمع لوثر بهذه الاحداث، غادر قلعته وعاد الى ارتداء مسوح الرهبان ، وحلق شعر رأسه واسرع بالعودة الى وتنبرج. وفي يوم 9 اذارا عام 1522 بدأ سلسلة مؤلفة من ثماني عظات تدعو بشدة الجامعة والكنائس والمواطنين الى مراعاة النظام. وطلب منهم ان يقتفوا اثره في عملية تحرير الكنيسة قائلا: *"اتبعوني فانا اول من اختصه الله بهذا الامر والرجل الذي كشف له سبحانه وتعالى عن كلمته التي لا بد ان ابشركم بها. ولذلك اقول انكم قد ارتكبتم خطأ بشروعكم في القيام بهذا العمل دون ان تستشروني اولا. امهلوني بعض الوقت، لا تظنوا ان المظالم تمحى بتدمير الهدف الذي يساء التصرف فيه. ان الناس يمكن ان يضلوا بالنبيذ والنساء، فهل نحرم شرب النبيذ ونقضي على النساء؟ لقد عبد الناس الشمس والقمر والنجوم، فهل ننتزعها من السماء؟..."*.

ونجح لوثر في كسب وتنبرج والعودة بها الى حظيرة الاعتدال. وامر انبياء زوكاو بمغادرة المدينة، وفصل كارلستادت من وظائفه بقرار من مجلس المدينة الذي اعاد تكوينه، انتقل كارلستادت الى مدينة اورلاموند، حيث اصبح كاهن رعية فيها، ونددا من فوق المنبر بلوثر ووصفه بانه: "كاهن نهم... وبابا فيتنبرج الجديد". وتخلى كارلستادت عن كل الثياب الكهنوتية وارتدى معطفا رماديا بسيطا واستغنى عن الالقاب وطلب ان يدعى "الاخ اندرياس". ورفض قبول مرتب عن قيامه بالخدمة الدينية، وعمل على كسب عيشه بالمحراث، ورفض كل استخدام للعقاقير وفضل الصلاة على الدواء. ودافع عن تعدد الزوجات باعتباره امر لم يحرمه الانجيل، وتبنى وجهة نظر رمزية محضة فيما يختص بالقربان الاقدس. وذهب لوثر بناء على طلب الامير المختار الى اورلاموند ليعظ ضد كارلستادت، ولكنه اخرج من المدنية ورجم بالحجارة والطين.

10- ثورة الفرسان 1523

عندما سعى بعض الاساقفة الى اسكات لوثر واتباعه، اطلق صرخة مدوية غاضبة كانت تقريبا بمثابة الناقوس المنذر بالثورة، ففي كتيب "ضد النظام الذي يطلق عليه بهتانا اسم النظام الروحي للبابا والاساقفة Contre l'état faussement appelé ecclésiastique du Pape et des évêques" (تموز 1522)، وصف فيه الاساقفة بانهم "اكبر الذئاب" جميعا وناشد كل الالمان الصالحين ان يطردوهم بالقوة.

وفي هذا الوقت انتقد لوثر الدولة انتقاده للكنيسة، فقد آلمه تحريم بيع عهده الجديد او حيازته في المناطق التي تخضع لحكام من المحافظين فكتب في خريف عام 1522 رسالة عنوانها "عن السلطة الزمنية: الى أي حد يجب ان تطاع De l'autorité temporelle et de l'obéissance qui lui est due". وبدأها باسلوب ودي للغاية فأقر عقيدة القديس بولس عن الخضوع المدني والاصل الالهي للدولة. ومن الواضح ان هذا كان يتناقض مع تعاليمه الخاصة التي تقول بالحرية الكاملة للمسيحي. واوضح لوثر انه على الرغم من ان المسيحيين المخلصين ليسوا في حاجة الى قانون، ومع ان احدا منهم لن يواجه الاخر بالقانون او القوة فانهم يجب ان يطيعوا القانون وان يكونوا قدوة لغالبية الناس من غير المسيحيين المخلصين لان فطرة الانسان التي تجنح للاثم في غيبة القانون سوف تمزق المجتمع اربا. ومع ذلك فان سلطة الدولة يجب ان تنتهي حيث يبدأ ملكوت الروح. من هم هؤلاء الامراء الذين يأخذون على عواتقهم ان يفرضوا على الناس ما يقرأونه او ما يعتقدونه؟

كان الفرسان وقليلو الثروة منهم ينتظرون في صبر نافذ فرصة مواتية للثورة على الامراء والاساقفة والمموليين. وكان شارل الخامس بعيدا عن البلاد في اسبانيا عام 1522، وفرق سيكينجن Franz Sickingen ينتابها القلق بسبب تعطلها

عن العمل، وكانت الاراضي الغنية التي تمتلكها الكنيسة مباحة وكان يمكن الاستيلاء عليها بسهولة. وكان هوتن Ulrich de Huttenيدعو للعمل، وكان لوثر قد دعا الشعب الالماني الى تطهير الارض من مضطهديه.

وفي الثالث عشر من اب وقّع عدد من الفرسان في لانداو تعهدا بالعمل الموحد، وحاصر سيكينجن مدينة تريفز Trèves وقذفها بمنشورات تحرض الناس على الانضمام اليه لخلع كبير الاساقفة الحاكم، ولكنهم لم يحركوا ساكنا، وجمع كبير الاساقفة فرقا، وقادها بنفسه، ثم قام بخمس هجمات مضادة، فرفع سيكينجن الحصار عن المدينة وتراجع الى قلعته في لاندشتول. وهاجم كبير الاساقفة القلعة بعنف، واصيب سيكينجن بجرح قاتل وهو يدافع عنها، ثم استسلم في اليوم السادس من ايار عام 1523 ومات في اليوم السابع من ايار. وخضع الفرسان للامراء وسرحوا الجنود العاملين بجيوشهم الخاصة وتشبثوا في قسوة يائسة بالضرائب الاقطاعية المفروضة على الفلاحين التي كانوا يعتمدون عليها في معاشهم.

وتنبأ لوثر لهذا التصدع فتنصل من الثورة قبل فوات الاوان (19 كانون ثاني سنة 1522) واستمر نجمه في صعود. وكتب الارشيدوق فرديناند لاخيه الامبراطور (1522) "ان قضية لوثر تمتد جذورها عميقة في الامبراطورية باسرها الى حد انه ليس هناك شخص واحد من كل الف في عصمة منها".

11- مجلس نورمبرج 1522-1524

ارسل البابا ادريان السادس (1521) مبعوثه الكردينال جيرغاتي Chieregati ، الى مجلس النواب المنعقد في نورمبرج (1522)، من اجل تدارس الوسائل لوقف تقدم الاتراك، فقدم للمجمع رسالة بابوية اعترف بها بصدق بالاخطاء التي تردّت فيها الكنيسة: "اننا نعلم تمام العلم ان امورا كثيرة تستحق المقت قد تجمعت حول منصب البابا منذ سنين عديدة. وقد اسيء استخدام الاشياء المقدسة واعتدى على القوانين حتى انه في كل شيء كان هناك تغيير الى الاسواء، فلا عجب اذا كان المرض قد زحف من الرأس الى الاعضاء، من البابوات الى من يلونهم في المناصب. لقد حُدنا نحن جميعا، من اساقفة ورجال الدين، عن الطريق المستقيم، ومنذ عهد بعيد لم يعمل واحد منا عملا صالحا. ولذلك فاننا سوف نبذل كل ما في طاقتنا من جهد لاصلاح المحكمة الرومانية قبل كل شيء آخر، وهي التي ربما كانت سببا في كل هذه الشرور.. ان العالم بأسره يتوق الى مثل هذا الاصلاح". ثم لفت البابا نظر المجتمعين الى النتائج المؤسفة التي سببتها الدعاية اللوثرية.

ووافق المجلس على ان يطلب من الامير المختار فردريك كبح جماح لوثر، ولكنه تساءل لماذا يجب ان يدان لوثر لانه اشار الى المظالم التي ارتكبها رجال الدين والتي ايدتها السلطات وقتذاك. وعندما وجد المجلس ان اعتراف البابا ليس فيه ما يكفي من التفاصيل ارسل اليه قائمة خاصة ضمنها مائة مظلمة من المانيا ضد الكنيسة واقترح ان ينظر بعين الاعتبار الى هذه الشكاوي، وعلاجها بوساطة مجمع عام يعقد في المانيا برئاسة الامبراطور.

وارسل كلمينت السابع، البابا الجديد، الى الجلسة الثانية للمجلس النيابي (كانون ثاني 1524) الكردينال لورزو كامبيجيو Campeggio ومعه مطالب جديدة بالقبض على لوثر، وسخرت الجماهير من القاصد الرسولي في اوجسبورج واضطر الى دخول نورمبرج سرا حتى يتجنب المظاهرات المعادية، وكان من حظه الاذلال عندما رأى 3000 شخص من بينهم شقيقة الامبراطور يتلقون القربان المقدس تحت الشكلين من راع من اتباع لوثر. فحذر المجلس النيابي من ان الثورة الدينية اذا لم تقمع في مهدها فانها سوف تقوض دعائم السلطة المدنية وتهدم النظام، ولكن المجلس النيابي رد عليه ان اية محاولة لقمع الحركة اللوثرية بالقوة سوف تنتهي بثورة وعصيان ومذبحة ودمار شامل. واعاد دعوته الى عقد مجمع عام في مدنية سباير Speyer، وحدد تاريخ 11 تشرين ثاني 1524، حيث يقوم رجال علماء ببحث شكاوي الامة الالمانية ضد روما وبدراسة كتابات لوثر، وفي هذه الاثناء اصدر المجلس امرا بتفسير الانجيل والوعظ به حسب الطريقة الكاثوليكية.

لم يرضى عن قرارات المجلس لا اللوثريون الذين استاؤوا أن يُمنعوا من تفسير الانجيل حسب طريقتهم، ولا البابا لانها لم تضع حدا للدعاية اللوثرية، ولاستيائه من دعوة المجلس الى اعادة دراسة كتابات لوثر التي تم دراستها والحكم عليها كهرطوقية.

وبالرغم من فشل مهمته، لم يترك الكردينال كامبجيو الا بعد ان توصل الى تأليف حلف بين الامراء الكاثوليك في جنوب المانيا، والارشيدوق فرديناند دوتريش، ودوقات بفاريا، رئيس اساقفة سالزبورج، واسقف ترنت، للعمل في مناطقهم على تنفيذ مقررات مجمع ورمس والحفاظ على الايمان الكاثوليكي.

12- مجلس سباير Speyer 1524

انعقد هذا المجمع في عام 1524، واثار فيه مندوبو البابا موضوع تنفيذ مرسوم ورمز، واتخاذ اقسى الاجراءات ضد لوثر وهرطقته. الا ان هذا اصبح مستحيلا، فقد تغيرت الظروف، واصبح حزب منتخب سكسكونيا الجديد في ملء قوته، كما ان القطيعة بين الامبراطور والبابا، على اثر تأييد البابا لملك فرنسا، وعقد معاهدة سرية معه، كان لها اثرها على سير المجلس. وهكذا انتهى مجلس سباير الى القرار الاتي:

"بمقتضى قرار مجمع سباير، تستطيع كل ولاية او دوقية، ان تعيش وتحكم وتتحمل وتعتقد، بالطريقة التي تعتقد انها يمكن ان تتفق مع امر الله والامبراطور".وكان معنى هذا، هو اطلاق الحرية السياسية والدينية. ومعناه ايضا، ان حزب لوثر والامراء الذين الى جانبه، اصبحوا احرارا في التصرف كما يرون. وفسر البروتستانت هذا القرار بانه اباح تأسيس الكنائس اللوثرية، ووفر السيادة الدينية لكل امير في اقليمه، وحرم اقامة القداس في المناطق التي تدين بمذهب لوثر. ورفض الكاثوليك التسليم بهذا القرار، ولكن الامبراطور، قبلها مؤقتا. ومنذ صدور هذا القرار، انقسمت المانيا قسمين، جانب يناصر البابا، والاخر يناصر لوثر.

13- نهب روما

اغتنم الامراء اللوثريون هذه الهدنة، وعزموا على اتخاذ خطوة ضد البابا، وتحت امرة قائد متعصب، يعرف باسم فرندزبرج، التأم جيش الماني كبير، يدين بمبادىء اللوثرية، ومن بقايا ضحايا ثورة الفلاحين، يُلهبه الحقد والحماسة، وتغذيه روح الانتقام. وعبر هذا الجيش جبال الالب، من معابر سرية، تقل فيها الحراسة، وهبط الى سهول لومبارديا، حيث انضم اليه جيش اسبانيا (1527). ولم تمض اسابيع، حتى كان الجيش المتحد، الذي يبلغ قوامه عشرين الف مقاتل، يدق ابواب روما. واستطاع الجند ان يفتحوا ثغرة في الجدار المنيع، ويصلوا الى الداخل. فهرب البابا والكرادلة الى حصن سان انجيلو، تاركين روما وقصورها، بتحفها وروائعها للنهب والسلب.

14- حرب الفلاح 1524-1526

اتاحت الثورة الدينية للكادحين في الحقول ايديولوجية تستهوي الافئدة وتعبر عن مطالبهم بالحصول على نصيب اكبر في رخاء المانيا المتزايد. وتنبأت التقاويم وطائفة المنجمين بقيام ثورة عام 1524 وكأنها كانت بهذا تعطي اشارة البدء في العمل. ومما يذكر ان يوهانس كوكلايوس وهو عالم انسانيات كاثوليكي حذر لوثر عام 1523 ان "عامة الناس في المدن والفلاحين في الاقاليم سوف يقومون لا محالة بثورة اذ سممت افكارهم الكتيبات والخطب التي لا تحصى والحافلة بالسباب والتي نشرت او اعلنت بينهم بفصاحة واطناب ضد السلطة البابوية والسلطة الزمنية على السواء".

وفي اذار 1525 صاغ في ميمينجن مندوبوهم، بارشاد البروتستانت من اتباع تسفينجلي او بتأثيره، البنود الاثنى عشر التي اشعلت النار في نصف المانيا.

وتشجع زعماء الفلاحين بتصريحات لوثر نصف الثورية وبعثوا اليه نسخة من البنود وطلبوا منه ان يناصرهم، فرد عليهم بكتيب نشر في نيسان عام 1525 وعنوانه: "تنبيه الى السلام" وثنى على عرض الفلاحين بالخضوع لاي قصاص ينص عليه الكتاب المقدس، وتعرض للاتهامات التي وجهت وقتذاك الى خطبه ومقالاته بانها قد اشعلت نار الثورة فانكر مسؤوليته عنها، وأشار الى انه كان يحث الناس على الخضوع للسلطة الدينية ولكنه لم يسحب نقده للطبقة الحاكمة.

ونصح الامراء والسادة الاقطاعيين بان يعترفوا بعدالة كثير من البنود وحثهم على انتهاج سياسة تتسم بالرأفة، ووجه الى الفلاحين خطابا صريحا اقر فيه بما اصابهم من اضرار، ولكنه توسل اليهم ان يحجموا عن استخدام العنف وعن الانتقام. ومهما يكن من امر فان زعماء الفلاحين شعروا بان الاوان قد فات للتراجع عما اعتزموا فعله لانهم سيتعرضون للعقاب عاجلا او اجلا في اية مصالحة. واحزنهم هذا التحول من لوثر وعدوه خائنا واستمروا في الثورة.

كانت عصابات الفلاحين تثير الشغب في كل ارجاء المانيا تقريبا. ونهبت الاديرة او اكرهت على دفع مبالغ كبيرة على سبيل الفدية.واستولوا على كثير من المدن.

وفي وسط هذا السيل من الاحداث اصدر لوثر من مطبعة فيتنبرج نحو منتصف ايار 1525 كتيبا عنوانه "معارضة لجموع الفلاحين التي تقوم بالسلب والقتل". وافزعت لهجته الحادة الامير والفلاح والاسقف وعالم الانسانيات على السواء. فقد راع لوثر تزايد العصاة الساخطين وخشى وقوع انقلاب ضد كل سلطة شرعية وحكومة في المانيا

وآلمته الاتهامات التي تقول ان تعاليمه الخاصة قد اطلقت الفيضان من عقاله، فتحول وقتذاك دون تحفظ الى جانب السادة المعرضين للخطر. وكان من سوء حظ لوثر ان تصل هذه الرسالة الغاضبة الى قرائها في الوقت الذي بدأت فيه الطبقات المالكة في اخضاع الثورة. وتلقى المصلح ثناءا لا يستحقه على طلبه بالقضاء على الارهاب بالقمع. ومن غير المحتمل ان يكون السادة المعرضون للخطر قد تأثروا بالكتيب اذ كانوا بطبعهم يميلون الى معاملة العصاة بقسوة تكون رادعا لهم، ولا تمحى ذكراها من اذهانهم. وقد اخذوا يعللون الفلاحين البسطاء بعض الوقت بالوعود والاماني وبهذا اغروا الكثير من العصابات بالتفرق وفي غضون ذلك نظم السادة جيوشهم وسلحوها واغاروا على الثوار وهزموهم في اكثر المواقع.

15- زواج لوثر

بعد كارثة ثورة الفلاحين بشهر واحد، أي في الثالث عشر من حزيران عام 1525، تزوج لوثر من كاترين دي بورا، الراهبة الكرتوزية.

قررت اثنتا عشرة راهبة من دير نيمبتش Nimptsch في ساكسونيا في عام 1523، وبعد قراءة كتابات لوثر، العودة الى عائلاتهن. ولما رفضت العائلات قبولهن، كتبن الى بعض المصلحين في مدينة نورمبرج Nuremberg، فنظم ليونار كوب وابن اخيه عملية اخطاف هؤلاء الراهبات من الدير، وتم ذلك فعلا في احدى ليالي نيسان عام 1523، واحضرهن الى فيتنبرج Wetenberg. واستطاع لوثر ان يقنع بعض العائلات باسترجاع بناتهن، كما وجد عملا للاخريات. ولم يبق في اخر الامر واحدة لم تتزوج الا كاترين فون بورا، وكانت قد وضعت انظارها على طالب من فيتنبرج، الا ان هذا الحب لم يدم طويلا اذ عاد هذا الشاب الى مدينته وتزوج من فتاة اخرى، فعملت مربية لكي تكسب عيشها. واقترح لوثر ان تتزوج من الدكتور كلاتز، فرفضت، وردت عليه انها لا تقبل هذا الزواج، ولكن ليس لديها مانع من الزواج من امسدورف Amsdorf او لوثر. وكان لوثر في الثانية والاربعين من عمره وقتذاك، بينما كانت كاترين في السادسة والعشرين، ورأى ان التفاوت في السن يحرم عليه هذا الزواج، غير ان اباه حثه على ان يحافظ على اسم الاسرة، وهكذا تزوج الراهب السابق في 13حزيران 1525 من الراهبة السابقة. وقام بمراسيم الزواج صديقاه يونان وبوجنهاجن ، وشهد على زواجه كل من المحامي آبل وصديقه الرسام لوقاس كراناس. وفي 27 من نفس الشهر دعى العروسان اصدقاءهما الى حفل عشاء بمناسبة زواجهما. ومنحهما الامير المنتخب الدير الاغوسطيني مقرا لهما، ورفع مرتب لوثر الى 300 جيلد في العام. واشترى لوثر مزرعة ادرتها كاترين واختها، وانجبت له ستة اطفال.

اثار هذا الزواج ضجة كبرى لا في الاوساط الكاثوليكية فحسب بل حتى بين المصلحين لدرجة ان صديقه المحبوب وذراعه الايمن الشاب ملانكتون لم يحضر حفل الزواج، على ان هذه القطيعة لم تستمر طويلا بينهما.

وكان لوثر يقضي اوقاتا طويلة مع اطفاله في الحديث معهم والاصغاء اليهم. وقد كتب لهم بعض القصص المسلية وجمع 489 مثلا وقصة. وما زالت مكتبة اكسفورد تحتفظ بهذه المخطوطات.

لكن وفاة ابنتيه اليزابيت ومجدولين ملأت قلب الاب والام حزنا عميقا. وعندما اصاب المرض ابنته مجدولين كان لوثر يصارع مع الله في الصلاة من اجل شفائها، لانه كا يحبها حبا عميقا. وعندما ماتت ترتكت في قلبه جرحا عميقا جدا .

16- اجتماع مجلس سباير

بعد ان حقق شارل السلام بينه وبين ملك فرنسا، وتصالح مع البابا كلمينضوس السابع، عاد الى سياسة المحافظين، وامر المجلس النيابي في سبير ان يعود الى الانعقاد يوم اول شباط عام 1529. وقام المجلس الجديد تحت تأثير الارشيدوق، الذي تولى رئاسته، والامبراطور الذي تغيب عن الحضور، باصدر مرسوما يقرر فيه:

1) الغاء قرارات مجلس الامة التي صدرت سنة التي كانت تمنح كل امير الحرية الكاملة في حكم ولايته بالطريقة التي يراها.

2) منع تقدم الاصلاح في المناطق الكاثوليكية وذلك بمنع الوعظ في تلك المناطق، ومنع اقامة كنائس لوثرية في أي مكان فيه كنيسة كاثوليكية.

3) منح الحرية للكاثوليك للعبادة سواء في المناطق الكاثوليكية او في المناطق التي شملها الاصلاح.

كما وايد المجلس تنفيذ مرسوم ورمس، واعتبار الطوائف الزونجلية واللامعمدانية في كل مكان خارجة على القانون. وفي 15 نيسان عام 1529، نشرت الاقلية اللوثرية احتجاجها ضد هذا القرار الذي اتخذته الاغلبية في مجلس الامة، قائلين: "نحن نحتج We protest" ، واعلنوا ان الضمير يحرم عليهم قبول هذا المرسوم، والتمسوا من الامبراطور عقد مجلسا عاما.

17- اجتماع ماربورج ومشكلة الافخارستيا

بعد ان احتج الامراء ضد الاغلبية الكاثوليكية في مجلس سبير، حاول الامير فيليب حاكم مقاطعة هس ان يجمع صفوف المصلحين وان يقوي روابط الوحدة بينهم. ولذلك فكر في عمل معاهدة مع بعض الامارات السويسرية التي قبلت الاصلاح في بعض الدويلات السويسرية هم زوينجلي Zwingli واكولامباد Cecolampade وبولانجر Bullinger، وكان هؤلاء لا يكفون عن توجيه الانتقادات اللاذعة في كتاباتهم ضد لوثر وتعاليمه. فقد اتهموه انه احتفظ بالكثير من الخرافات الرومانية. كما انتقدهم لوثر ايضا مشبها اياهم مرة بجماعة العقليين ومرة اخرى "بالدراويش". ولكن بالرغم من هذه الصعوبات استطاع فيليب امير هس ان يختار ممثلين لهذين التيارين المصلحين لكي يناقشوا بعض المشاكل العقائدية التي تفرق صفوفهم. وفي 29 ايلول 1529 وفي مدينة ماربورج، جاء من سويسرا ومن منطقة الالزاس بعض قادة حركة الاصلاح وعلى رأسهم زوينجلي، ومن المانيا جماعة اخرى وعلى رأسها لوثر وملانكتون.

ناقش المجتمعون بعض المشاكل العقائدية، ولكن المشكلة الكبرى التي وقفوا امامها وقتا طويلا والتي لم يستطيعوا حتى في نهاية الاجتماع ان يجدوا لها حلا نهائيا وكاملا، كانت مشكلة العشاء السري او الافخارستيا. فقد عُرف عن لوثر حدة الطبع وصلابة الرأي، منذ ان وصل الى ماربورج كتب امامه تحت غطاء المائدة التي جلسوا حولها كلمات المسيح "هذا هو جسدي". فعندما كان يتكلم زوينجلي عن معنى رمزي او استعاري كان لوثر يرفع غطاء المائدة فيتذكر ما تعهد به من التمسك بوجود جسد الرب حقيقة في الخبز وفي الخمر. ولقد اعلن انه لا يجب بأي حال من الاحوال التضحية بالحق الكتابي لحل المشكلة السياسية. ولقد تمسك كل طرف من الطرفين بآرائه. فان زوينجلي واتباعه رأوا في الافخارستيا مجرد ذكرى لموت المسيح، ومسؤولية نشر البشارة الى ان يجيء. اما لوثر وبعض اتباعه فقد تمسكوا بعقيدة ان المسيح موجود حقيقة لحما ودما في الخبز وفي الخمر. رفض لوثر العقيدة الكاثوليكية التي تعلم بالتحول او التغيير الكلي والجزئي للخبز والخمر، لكنه لم يقبل ان يكون العشاء الرباني مجرد ذكرى. اشتد النزاع بين الفريقين لدرجة ان لوثر لم يقبل حتى ان يدعو الفريق الاخر اخوة ما لم يقبلوا عقيدة حلول جسد المسيح كاملا في الخبز وفي الخمر. وبالرغم من ذلك فقد استطاعوا ان يتفقوا على النقاط الاتية:

1) العشاء الرباني ليس ذبيحة
2) ان العناصر لا تتحول الى جسد ودم المسيح.
3) الاستفادة الحقيقية للعشاء الرباني تكون بالايمان.
4) العشاء الرباني هو اعلان للخبر السار

اما النقاط التي اختلفوا عليها :

1) اعتقاد لوثر في الحضور الحرفي والحقيقي لجسد ودم المسيح في الخبز والخمر.
2) اعتقاد زوينجلي ان حضور الرب يتحقق في اجتماع الجماعة حول العناصر.

18- مجمع اوغسبورغ 1530 Diète et Confession d'Augsbourg

عملت مقررات مجمع سبير على تقسيم الامة الالمانية، وبدأت شقة الخلاف تتسع، وحاول كل من الطرفين المتنازعين ان يجمع شمله ويحصن مدنه. واصبح شبح الحرب يرفرف من جديد . فادرك الامبراطور انه لا يزال في حاجة الى اتحاد المانيا ضد الاتراك، لذلك عقد العزم على ان يصفي المشكلة السياسية والدينية التي كانت تنخر عظام الامة، وذلك بالقيام بمشروع للسلام يجمع شمل هذه البلاد الممزقة ويعيد السلام لالمانيا. لذلك عاد الى الاقتراح القديم الذي تردد اكثر من مرة وهو عقد مجمع على مستوى الدولة والكنيسة، يحضره الكاثوليك والبروتستانت، وان يقدم فيه قادة الحزبين اعتقاداتهم الدينية لبحثها والوصول الى حل يرضى الطرفين. ودعى الامبراطور شارل الخامس الملوك والامراء والمسؤولين الى مدينة اوغسبورج ابتداء من 8 نيسان 1530.

كان من المفروض ان تقدم كل كنيسة عقيدتها وافكارها الدينية لكي تناقش. فكان من الطبيعي ان ترسل كل كنيسة خيرة رجالها لتمثلها وتعرض عقيدتها. وطبعا كان لوثر المرشح الاول لحضور هذا المؤتمر لتمثيل البروتستانت،

ولكنه لم يستطع لوثر الذهاب الى هذا المؤتمر: اولا، لانه محكوم عليه بالحرمان ولا يمكنه ان يخرج من منطقة ساكسونيا. وثانيا، لان لوثر كان حاد الطبع صلب الرأي صعب الاقناع لا يعرف اللين او المرونة في نقاشه. وقد اعترف هو نفسه بذلك. ولهذا فقد اتفق ان يرأس وفد اللوثريين ملانكتون. وكان الكردينال كامبجيو رئيسا للوفد الكاثوليكي.

قدم ملانكتون اقرار ايمان مكتوب، وقام الكاتب الاول للمنتخب كريستيا باير، بقراءة النص. ومع ان لوثر كان وراء هذا النص، الا انه ملانكتون استطاع ان يقدمه بطريقة جذابة، ظهرت فيها روح المحبة والرغبة العميقة في الاتحاد. ولقد احتوى اقرار الايمان الذي يدعى "باقرار اوغسبورج" على 28 بندا. واتفق الفريقان على قبول 21 بندا منه. وشرح ملانكتون انه لا يتمسك بالبنود السبعة الباقية – التي كانت موضوع خلاف – لانه يعتقد انه ليس لها اساس كتابي. وحاول ملانكتون ان يتجنب ذكر بعض العقائد التي تثير المشاكل وتوسع شق الخلاف. فلم يذكر المطهر او البابوات او رسامة الكهنة وبعض العقائد الاخرى المختلف فيها.

بعد هذا العرض بدأ الوفدان في مناقشة هذه البنود بالتفصيل، وهنا ظهرت الخلافات. كان ملانكتون والوفد الذي حضر معه يرسلون الى لوثر أي تغيير يحدث في النص او أي اقتراح جديد، لكي يستشيروه. وكان لوثر يعيش مضطرب الاعصاب وقلق البال اثناء فترة الحوار لانه كان يود لو استطاع الاشتراك في هذه المناقشات. وقد هدد عدة مرات بحضور الاجتماع، لكنه لم يذهب واكتفى بالاخبار التي كانت تصل اليه عن طريق الرسائل. ولقد عرف لوثر من احدى هذه الرسائل ان الكاثوليك رفضوا اقرار الايمان الذي قدمه ملانكتون، ثم قدموا هم قانون ايمان او اقرار ايمان شرحوا فيه ما يؤمنون به وما يرفضونه. عندئذ كتب لوثر من مدينة كوبروج التي كان ينتظر فيها، طالبا منه بان لا يتزحزح قيد انملة عن موقفه وان لا يتنازل عن شيء بعد ما قدمه من تنازلات كثيرة وهدده بالحضور اذا تنازل عن شيء اخر.

رفض الامبراطور اقرار الايمان الذي قدمه اللوثريون. وكتب الى البابا يقول "لن ينفع الا العنف وهو الذي سيؤتي اثماره". وخشى لوثر على اصدقائه، فطلب منهم الرجوع سريعا. وفي التاسع عشر من شهر تشرين ثاني، اصدر المجلس النيابي، مرسومه النهائي، وادان فيه كل وجوه البروتستانتية، ونص على تنفيذ مرسوم ورمس، وعلى مجلس العدالة الامبراطوري ان يبدأ في اتخاذ الاجراءات القانونية ضد جميع الذين انتزعوا املاك الكنيسة، واعطى البروتستانت مهلة تنتهي في 15 نيسان عام 1531 ليغيروا ويرجعوا عن موقفهم.

19– حلف سمالكالد Ligue de Smalkalde 1531

لم يرضى البروتستانت عن مرسوم الامبراطور ورفضوا اعادة ممتلكات الكنيسة المسلوبة، ورأوا فيه نذيرا للحرب. فنظم الامراء البروتستانت والمدن البروتستانتية حلفا في 29 اذار 1531، سمي حلف سمالكالد نسبة الى المدينة التي عقد فيها هذا الحلف. وطلبوا عقد مجمع عام ليتسنى لهم ان يثبتوا صحة اعتراف ايمان اوغسبورغ واسناده الى الكتاب المقدس.

20– هدنة نورمبرج La Paix de Nuremberg 1532

في هذه الاثناء كان الاتراك يتهيأون لمهاجمة هنغاريا وفيينا، يضاف الى ذلك ان فرانسوا ملك فرنسا – حليف الاتراك – كان يتأهب للانقضاض على ميلانو في اللحظة التي يتورط فيها شارل في حرب اهلية بالمانيا. فاضطر الامبراطور الالتجاء الى الامراء البروتستانت طلبا للمساعدة، فرفضوا الا اذا منحهم وضمن لهم الامبراطور حرية العبادة بسحب مرسومه الاخير. واستجاب الامبراطور مكرها لطلبهم ووقع البروتستانت والكاثوليك معاهدة سلام في نورمبرج في 23 تموز 1532، وتعهدوا بتقديم العون الى فرديناند، والتسامح الديني فيما بينهما الى ان ينعقد مجلس ديني عام. واحتشد جيش كبير من الالمان البروتستانت والكاثوليك، ومن الاسبان والايطاليين، تحت لواء الامبراطور في فينا، فوجد الاتراك ان الظروف غير مواتية، فعادوا ادراجهم الى القسطنطينية، بينما انتشى الجيش المسيحي بخمرة النصر، الذي خلا من اراقة الدماء، واعمل يد السلب والنهب في المدن والبيوت، وقال شاهد عيان هو توماس كرانمر الانجليزي: "اوقع بالبلاد كارثة اعظم مما جلبه الاتراك انفسهم".

21– من سلام نورمبرج الى حوار راتسبون

اتاحت العشر سنوات من السلام بعد معاهدة نورمبرج للبروتستانت فترة من التطور والتوسع والانتشار. عاملان رئيسيان ساهما في هذا الانتشار: 1) انشغال الامبراطور شارل الخامس من جديد بحربة ضد فرنسا والاتراك. 2) المجمع

الموعود والمنتظر لم يتم عقده، ولم يكن يُنتظر عقده لا في القريب العاجل ولا البعيد. فانضمت الى البروتستنتية كل من ورتنبرج Wurtenberg، وبومراني Poméranie عام 1532، والساكس Saxe ducale عام 1535.

22- محاولا للوحدة – حوار راتسبون 29 حزيران 1541

كان هم الامبراطور شارل الخامس اعادة الوحدة والسلام في الامبراطورية. وبالرغم من انشغاله بالحروب الا ان هذا الهدف لم يغيب عن باله، وكان يعتقد انه يمكن اما بعقد مجمع عام، او على الاقل عن طريق محاورات بين لاهوتي الطرفين الكاثوليكي والبروتستانتي.

كانت فكرة عقد مجمع، ومنذ عام 1530، على جدول اعمال البابوية. الا انه لسوء الحظ، كانت العوائق سواء من المجلس البابوية، او من البروتستانت تعترض سبيل انعقاده.

مع ايمانه ان البروتستانت لا يرغبون بعقد المجمع، خصوصا، وانهم رفضوا مقررات المجامع الاخرى التي لم تتوافق مع تعاليمهم، الا ان البابا كليمنضوس السابع، اراد ان يظهر استعداده لعقد هذا المجمع، بان سمح للامبراطور ان يعرض على البروتستانت فكرة عقد المجمع شريطة ان يتقيد البروتستانت بمقرراته. وارسل في عام 1533، مبعوثين، واجتمع هؤلاء في وايمار Weimar، مع جون فردريك دي ساكس. فاستشار هذا الامراء البروتستانت المجتمعين في سمالكلد، فرفضوا الشروط التي عرضها مبعوثو البابا، وادعوا ان الكتاب المقدس هو وحده مصدر الايمان، وطلبوا ان يعقد المجمع في المانيا وليس في احدى المدن التي اختارها البابا.

اعاد البابا بولس الثالث الكرة، بعد وفاة البابا اكليمنضوس السابع في عام 1534، مع عزمه على النجاح في مسعاه هذه المرة، وارسل مبعوثه الكردينال بيير فرجريوس Pierre Vergerius، ومنحه كامل الصلاحيات. وطمأن المبعوث امير جون فردريك ان البابا لن يحدّ من حرية المجمع. وبنفس الوقت اجتمع البابا مع الامبراطور بهذا الخصوص اثناء مروره بروما في عام 1536. وبعد كل هذه المداولات اعلن البابا بولس الثالث انعقاد المجمع في مدينة مانتو Mantoue في الثالث والعشرين من عام 1537، مع ان هذا الاختيار كان سيئا، لمعرفته ان البروتستانت لن يقبلوا بعقده في مدينة غير المانيا. ولما تحقق البروتستانت ان البابا جاد في عقد المجمع، رفضوا عقد مجمع جديد، بحجة انهم لم يعودوا بحاجة اليه. وكتب لوثر بنود سمالكالد الثلاثة والعشرين، وفيها وسّع الفجوة بين الكاثوليك والبروتستانت، واوسع للقداس والمطهر وتكريم القديسين وخصوصا البابا شتائم واهانات.

لم يتراجع البابا عن عزمه بالرغم من اعتراض البروتستانت، وبما ان مدينة مانتوا رُفضت من الجميع تقريبا، عرض مدينة فيشنسا Vicence مكانا له، وحدد الاول من ايار عام 1538 موعدا لانعقاده. الا ان الظروف لم تسمح بانعقاد المجمع في ذلك التاريخ.

وامام تقدم البروتستانت وحلف سمالكالد، اقترح امين سر الامبراطور ماتياس هلد Mathias Held، على الامراء الكاثوليك المجتمعين في نورمبرج (10 حزيران 1538) بعقد حلف دفاعي دعوه "الحلف المقدس La Sainte Alliance". واصبحت الحرب بين الطرفين لا محالة منها.

امام فشل عقد المجمع، فكر الامبراطور ان يحقق فكرة الوحدة بتنازلات متبادلة. وتم الاتفاق على عقد محاورات دينية، بهدف الوصول الى اتفاق. وبدأت هذه المحادثات اولا في مدينة Haguenau في حزيران 1540، وتواصلت في مدينة ورمس Worms في تشرين الثاني، ثم أُجلت الى اجتماع مجلس الامة الذي كان مزمعا ان يعقد في السنة التالية في راتسبون.

حوار راتسبون الاول

ارسل البابا الى مجلس الامة المنعقد في راتسبون في نيسان 1541، وفدا مؤلفا من رئاسة الكردينال كونتاريني Contarini، والكردينال مورنونه Morrone وعضوية جون آك Jean Eck، وجيل بفلج Jules Pflu، وجون غروبر Jean Gropper، ومثّلَ الجانب البروتستنتي ملانكتون وبوسر ونيدا Nidda. واستطاع المجتمعون الاتفاق تقريبا على معظم قضايا الايمان: الخطيئة الاصلية والتبرير. وملح الامبراطور للبروتستانت انه من الممكن التنازل لهم عن المناولة تحت الشكلين، وزواج الكهنة، وتخفيف في قوانين الصيام. الا انهم لم يستطيعوا التوصل الى أي اتفاق حول الافخارستيا والاعتراف.

تحقق الامبراطور ان الوقت ليس بعد مناسبا للوحدة، وخصوصا ان الامراء البروتستانت لم يكونوا فعلا يريدون التوصل الى اتفاق، كما ان ملك فرنسا، كان يرى في نجاح هذا الحوار تقوية لسلطان الامبراطور شارل الخامس، وهذا ما لم يكن يريده، فعمل جاهدا على افشال اللقاء.

واخيرا اضطر الامبراطور امام الخطر التركي الزاحف، ان ينهي الاجتماع بعد ان جعل الطرفين يوقعون على نقاط الاتفاق التي توصلوا اليها، وارجأ متابعة الموضوع إما الى مجمع عام مسكوني جديد، وإما الى مجمع محلي الماني، او الى مجلس الامة القادم. وقرر الامبراطور أن على البروتستانت احترام معاهدة سلام نورمبرج (1532) والامتناع عن الاستيلاء وهدم الاديرة. وبما ان البروتستانت اعترضوا على القرار الاخير، سمح لهم الامبراطور باصلاح او هدم الاديرة الواقعة في المدن اللوثرية. ولم يكتف لوثر بهذا بل تمادى بان طلب من الكاثوليك التراجع عن موقفهم من التبرير.

حوار راتسون الثاني

لم يأبه البروتستانت كثيرا لمقررات حوار راتسبون، واستمروا في توسعهم وانتشارهم. وبعد هدنة كرسبي Crespy بين الامبراطور وفرنسا، تفرغ الامبراطور من جديد الى مواصلة عمله من اجل اعادة الوحدة الدينية. وكان البابا بولس الثالث قد اغتنم هذه الفترة من السلام، للدعوة لانعقاد المجمع في مدينة ترانت Trente، وحدد موعدا له الخامس عشر من اذار 1545، ودعى اليه البروتستانت. الا انهم رفضوا الدعوة بحجة ان مجمعا برئاسة البابا لن يكون مجمعا حرا. فدعاهم الامبراطور الاجتماع في كانون ثاني عام 1546، والى مواصلة حوار راتسبون مع الكاثوليك. الا ان المجتمعين من الطرفين لم يستطيعوا التوصل الى أي اتفاق، لا حول الامور العقائدية ولا التنظيمية. عندها لم يرى الامبراطور بدا الا في الرجوع الى السلاح لاعادة الوحدة الى الامبراطورية.

23– معاهدة باساو

انضم موريس الامير المختار فانضم سرا الى الامراء البروتستانت، ووقع معهم معاهدة شامبورد (كانون ثاني 1552). ووعده هنري الثاني ملك فرنسا بتقديم العون لطرد شارل من المانيا. وفي الوقت الذي غزا فيه هنري اللورين، واستولى على ميتز وتول وفردن، زحف موريس وحلفاؤه من البروتستانت جنوبا على رأس جيش قوامه 30000 رجل. وكان شارل قد سرح جنوده بعد انتصاره، ولم يكن ما يدافع به عن نفسه سوى الدبلوماسية. واقترح فرديناند اخو شارل عقد هدنة، فاطال موريس المفاوضات مستخدما كل ما أُوتي من لباقة، وفي غضون ذلك اخذ يتقدم نحو انزبروك. وفي يوم 9 ايار انتقل شارل بصعوبة بعربة يصحبه بضع نفر من اتباعه، تحت المطر والجليد، متسربلا بظلام الليل. وعبر ممر برينر الى فيلاخ. وهكذا حولت ضربة واحدة من ضربات الحظ سيد اوروبا الى شريد.

والتقى موريس والبروتستانت الظافرون يوم 26 ايار بفرديناند وبعض زعماء الكاثوليك في باساو. ووافق شارل على ان يوقع فرديناند معاهدة (20 اب 1552) وتنص على تسريح الجيوش البروتستانتية، وان يتمتع البروتستانت والكاثوليك على السواء بحرية العبادة الى ان يجتمع مجلس نيابي جديد.

24– مجلس اوغسبورغ 5 شباط – 25 ايلول 1555

ورأَسَ فرديناند المجلس النيابي التاريخي في اوغسبورغ، الذي منح اخيرا المانيا سلاما دام نصف قرن. وكان النواب الكاثوليك يمثلون اغلبية المجلس النيابي، غير ان البروتستانت كانوا يفوقونهم في القوة العسكرية، فتشبثوا بكل مادة وردت في اقرار اوغسبورغ عام 1530، وادرك الكاثوليك ان عليهم ان يخضعوا. وتوصلوا في الخامس والعشرين من ايلول عام 1555، الى اتفاق عُرف باسم "سلام اوغسبورغ الديني La Paix Religieuse d'Augsbourg". وكان الاتفاق يحتوي على 22 بندا اهمها:

1. يعترف انفاق اوغسبورج بوجود الطائفتين الكاثوليكية والبروتستانتية – على الاقل الذين يتبعون اعتراف اوغسبورغ، ولا يضم الزونجليين ولا اللامعمداين او الشيع الاخرى – ويمنحهم حرية ممارسة طقوسهم الدينية والتعبير عن معتقداتهم.
2. لن تتم مستقبلا تصفية اخلافات الا عن طريق الوسائل السلمية.
3. لا يحق للاكليروس الكاثوليكي ان يدّعي أي حق روحي على الولايات البروتستانتية.
4. يمنح سلام اوغسبورغ الامراء حق اصلاح res reformandi، بمعنى انه يستطيع ان يفرض الاصلاح او لا. وعلى التابعين له ان يتبعوا ديانة ملكهم او اميرهم، او عليهم ان يرحلوا عن البلاد مع عائلاتهم، دون أي

تعويض عن ممتلكاتهم. وهذا ما دعي بمبدأ "دين الراعي دين الراعية cuius regio eius religio". واستنادا الى هذا المبدأ، غيرت مقاطعة بلاتينا Palatinat انتمائها اربع مرات في مدة اربعين عاما.

5. تبقى الممتلكات الكنسية التي صودرت واستملكت منذ بداية الاصلاح في حوزة البروتستانت دون ان تتم ملاحقتهم.
6. اما مستقبلا فان أي رجل دين كاثوليكي ينضم الى البروتستانت، عليه ان يتخلى عن منصبه وعن ممتلكاته وامتيازات منصبه، وتعطى لرجل دين كاثوليكي اخر. وهذا ما دُعي ب "Reservatum ecclesiasticum".

لم يلق سلام اوغسبورغ الرضى من كلا الطرفين الكاثوليكي والبروتستانتي. فقد تشكى وتذمر الكاثوليك من الخسارة التي اصابتهم من جراء هذا الاتفاق على الصعيد الديني والزمني. واعتبره البابا بولس الرابع اتفاقا وخيم العواقب، واعلنه باطلا وغير شرعي. واعترض البروتستانت – بالرغم مما حصلوا فيه من حقوق وفوائد وامتيازات – على مبدأ "Reservatum ecclesiasticum"، الذي يمنعهم من الاستيلاء على المزيد من الاراضي الجديدة.

احتوى سلام اوغسبورغ في طياته على بذور الحرب والاقتتال الاخوي، وذلك بتقسيم المانيا الى معسكرين دينيين، يملأهما الحقد والضغينة، وسيظهر ذلك سريعا بما سمي "بحرب الثلاثين عاما".

ويئس الامبراطور شارل الخامس من تحقيق الوحدة المنشودة والتي كان يحلم بها طيلة ملكه، فسلم الحكم في اسبانيا الى ابنه فيليب الثاني، وتاج الامبراطورية لاخيه فرديناند، وانسحب في عام 1556 الى دير سان جوست .St Juste، حيث مات في 22 ايلول على عمر ثماني وخمسين عاما.

25– موت لوثر

تابع لوثر بعد عودته الى وتنبرج، حيث كان يقيم، الوعظ في الكنيسة والتدريس في الجامعة وفي تأليف ونشر كتبه. اقام لوثر في دير للاوغسطينيين، دعى بالدير الاسود، وقد وضعه تحت تصرفه الامير المنتخب بعد ان خلى من الرهبان، وعاش لوثر فيه مع زوجته وابناءه الستة، مع بعض طلاب الجامعة الذين استضافتهم ربة البيت مقابل اجر بسيط للمساعدة في مصاريف البيت، وهؤلاء الطلاب هم الذين جمعوا ما سيدعى فيما بعد "بكلام المائدة" Propos de Table"، حيث اختلطت المواضيع السخيفة، والتعلقيات اللاذعة، والكلمات البذيئة بالمناظرات اللاهوتية العالية.

سادت الالام الجسدية والنفسية السنين الاخيرة من حياة لوثر. فقد كان يعاني من مرض الكلى "الحصو" وبعض الامراض الاخرى. الا انه ايضا كان يتألم ويتخوف ويتشكك في مستقبل العمل الذي بدأه. فالكنيسة الكاثوليكية التي اراده ان يدمرها، والبابا الذي اراد ان يحل مكانه، لا يزالان باقيان بل واصلب من قبل. وهو نفسه "بابا وتنبرج" بابا الكنيسة الجديدة الا يمر في ازمة من المتناقضات؟ انه لا يستطيع ان يفرض اراءه ونظرياته لا على المتعصبين من انصاره كالمعمدانيين، او على اتباع زونجلي الذين لا يتفقون معه في كثير من النقاط ولا سيما حول الافخارستيا؟ ألم يختلف هو مع اصدقائه ايضا امثال ملانكتون الصديق الوفي الامين، ولكن الضعيف المستعد للتنازلات لاعدائه او الذي يظهر بعض الميل الى اراء زونجلي حول الافخارستيا.

ومن الناحية الاخلاقية، ايستطيع ان يفتخر من النتائج التي حصل عليها من خلال عمله الاصلاحي؟ الم يعترف ان الانحلال الاخلاقي الذي عيّر به الكنيسة الكاثوليكية، قد اخذ يظهر بصورة ابشع في الكنيسة التي اسسها، لدرجة انه اراد ان يبتعد عن ويتنبرج التي دعاها "بسدوم وبابل".

سافر لوثر في الثالث والعشرين من كانون ثاني عام 1546، الى مسقط رأسه اسلبين، ليحكم في نزاع شب بين الكونت مانسفلدي البرت والكونت ادجارت مانسفيلد حول ملكية بعض مناجم النحاس.

اقترح لوثر على زوجته ان يصطحب معه اولاده لكي ينتهزوا هذه الفرصة لزيارة عمهم يعقوب في مانسفيلد. وبعد رحلة طويلة متعبة شاقة في فصل الشتاء القارس البرودة، وصل الموكب في 31 كانون ثاني اسلبين. وهناك قام لوثر يوم الاحد بخدمة الوعظ في نفس الكنيسة التي عمد فيها قبل 62 سنة، كما قام بسيامة خادميين جديديين.

وفي يوم 16 شباط وصل الى حل النزاع بين العائلات المنقسمة ووقع الجميع على عقد الاتفاق والصلح. وفي نفس اليوم شعر لوثر بحالة ضعف عام في جسده، ذهب على اثره الى حجرته ليستريح. وتناول عشاءه يوم 17 شباط في مرح. وفي الصباح المبكر من اليوم التالي استيقظ على آثار الام شديدة في المعدة، وضعف جسده بسرعة، وادرك اصدقاؤه الذين تجمعوا حوله مع اولاده انه يحتضر. اقترب منه جاست يونان وسأله قائلا: "ايها الاب الموقر، هل تريد ان تموت وانت معتمد على يسوع المسيح ومتمسك بالتعاليم التي علمت بها". فرد عليه قائلا: "نعم". ثم اصيب بنوبة

فالج افقدته النطق، مات على اثرها في 18 شباط عام 1546. ونقل الجثمان الى فتنبرج ودفن في كنيسة القصر، التي كان قد علق على بابها مقالاته منذ ستة وعشرين عاما.

26- موقف الكنيسة الكاثوليكية والعلماء الكاثوليك من لوثر الآن؟

(من كتاب القس حنا جرجس الخضري صز 175-186) (من الجدير معرفته ان الكاتب بروتستنتي)

اصدر البابا ليون العاشر في يوم 15 حزيران عام 1520 مرسوما يهدد لوثر بالحرمان. وفي يوم 3 كانون الثاني عام 1521، اصدر فعلا صك الحرمان ضد لوثر واصبح الراهب لوثر من هذا التاريخ محروما. فما موقف الكنيسة الكاثوليكية حاليا من المصلح لوثر؟

يسجل لنا التاريخ موقفين على الاقل للكنيسة الكاثوليكية ازاء لوثر والاصلاح:

1) موقف النقد اللاذع والرفض الكامل: الابتعاد.
2) موقف الدارس المحايد والباحث الامين: التقارب.

(1) موقف النقد اللاذع والرفض الكامل: الابتعاد

ظهرت بعض الكتب التي هاجمت لوثر وتعاليمه في حياته وبعد موته، واهمها كتاب كتبه كاهن كاثوليكي الماني يدعى يوحنا كوكلاوس Jean Cochleaus، وظهر هذا الكتاب سنة 1549 أي بعد ثلاث سنوات من موت لوثر. وكان هذا الكاهن من اتباع مذهب "الانسانية". تعاطف مع لوثر في بداية الامر، الا انه سريعا ما انقلب ضده وانضم الى واحد من الد اعدائه وهو يوحنا آك. لاحظ كوكلاوس ان عددا كبيرا من الكاثوليك يؤمنون ان لوثر كان رجلا تقيا وصالحا. ولهذا السبب كتب كتابه هذا Commentaria de Acatis et scriptis Martini Luther، لكي يعطي صورة اخرى عن المصلح. واستخدم فيه الاسلوب الذي كان يستخدمه اهل عصره، أي اسلوب الهجاء اللاذع القاسي غير اللائق ادبيا. فقال قال فيه:

> "... ابن شيطان ويسكن فيه ابليس، وقد امتلأ بالكذب والكبرياء، كان حقده وغيرته على تتزل Titzel هما السبب في احتجاجاته وثورته... كان سكيرا وشهوانيا، كان مجردا ايضا من الضمير وبناء عليه فقد استخدم كل الوسائل واستحسنها... فهو رجل كذاب... مرائي... جبان... مشاغب... وليس فيه نقطة واحدة من الدم الالماني"[4].

استطاع كوكلاوس بهذا الكتاب لا ان يصحح الصورة في اذهان معاصريه، بل ان يعطي صورة سوداء مشوهة غير حقيقية لصقت في اذهانهم واذهان الاجيال التالية ضد لوثر، كما يتضح ذلك من الاثر الذي تركه هذا الكتاب على مر العصور والاجيال على الكنيسة الكاثوليكية.

بما ان هذه الدراسة لا تسمح بان نتبع تطور موقف الكنيسة الكاثوليكية منذ عصر الاصلاح الى اليوم، فانني اكتفي بتحليل موقف الكنيسة من لوثر في القرن العشرين.

- هنريش دانيفل Heinrich Denifle: سبق الاشارة ان كتاب كوكلاوس ترك في الكنيسة الكاثوليكية تأثيرا عميقا وعداوة مستديمة ضد لوثر، واستمرت هذه العداوة اجيالا طويلة. وهنا يظهر من جديد تلميذ متحمس لكوكلاوس وعدو لدود للوثر وهو هنريش دانيفل Heinrich Denifle، وهو عالم دومينيكاني كتب مجلدا ضخما (حوالي 860 صفحة)، ظهر في مدنية مانيس في المانيا سنة 1904، ثم ترجم الى اللغة الفرنسية سنة (1910-1913)، تحت عنوان "لوثر واللوثرية Luther et le Lutheranisme". وفي معرض كلامه عن المصلح اتبع نفس الاسلوب الذي نهجه كوكلاوس. ويمكننا ان نلخص افكاره في نقطتين: الاول هي ان لوثر شخص مغامر مخاطر، والثانية انه لم يكتشف أي شيء جديد. ثم وصفه بانه "بهلوان" جاهل، متكبر... مضطرب نفسيا... مرائي... سيء الاخلاق... ولم يستطيع ان يقوم بواجباته كراهب، فترك الدير والقى بنفسه في هذه المغامرة البائسة. وبهذا جدد دانيفل ثورة كوكلاوس ضد لوثر. ولقد خاطب لوثر قائلا: "لا يوجد فيك أي شيء الهي..." ثم حث الشعب الكاثوليكي بالقول: "تخلصوا من لوثر وارجعوا الى الكنيسة".

ترك هذا الكتاب تأثيرا سيئا جدا في الاوساط البروتستانتية.

---

[4] (cité par J. Lortz, Die Reformation in Deutschland, Tome I, p. 193-262)

– ***هارتمان جريزار Hartman Grisar:*** وجاء بعد دانيفل مناضل اخر مضاد للوثر هو هارتمان جريزار .H Grisar، وهو يسوعي وكان استاذا في جامعة انسبروك بالمانيا من سنة 1871 الى سنة 1895، والف ثلاثة مجلدات تزيد على 2600 صفحة بعنوان "لوثر". ولم يستعمل الاسلوب الجاف القاسي في هجومه على لوثر، بل حاول ان يستخدم اسلوبا معسولا، لكن هذا الاسلوب كان يخفي سما قاتلا في داخله، فهو يؤيد دانيفل في نظريته ان لوثر لجأ الى عقيدة التبرير بالايمان لانه لا يستطيع ان ينظم حياته بالطريقة التي تتيح له الحصول على هذا البر، لانه يعيش حياة الفساد. ولذلك اختلق عقيدة التبرير بالايمان بعد ان فشل في تنفذ نذوره الرهبانية.

– ***الاب كريستياني Cristiani:*** وجاء بعد دانيفل وجرايزر الاب كريستياني Cristiani، الذي جمع ابحاثه عن لوثر في كتابه "لوثر واللوثرية"، كما فعل دانيفل. وبعد ثلاث سنوات من ظهور هذا الكتاب اعد رسالة للماجستير بعنوان "من اللوثرية الى البروتستانتية"، وفي كلاهما يقدم لوثر كشخص ضل السبيل وانقطع عن الصلاة، فصار شقيا تعسا في حياته، كما انه كان السبب في بؤس وشقاء الشعب الالماني، اذ انه دفع هذا الشعب في معارك اهلية مريعة مثل حرب الفلاحين. ووصفه بنفس الصفات التي وصفه بها سابقوه، وهي التكبر وحب المال والخلل النفسي والكذب والمراءة.

– ***باكييه Paquier:*** قام تلميذ اخر من تلاميذ دانيقل هو باكييه Paquier، ضد لوثر وتعاليمه، وهو يعتبر من اكبر المتخصصين في دراسة عصر الاصلاح في الكنيسة الكاثوليكية. قام باكييه بترجمة المجلد الاول من كتب دانيفل من اللغة الالمانية الى الفرنسية (1910-1913)، وسلك مسلك الذي اتبعه سابقوه في نقد لوثر وتعاليمه.

– ***ف. أ. هار F.O. Hare:*** ولم ينتشر تأثير دانيفل في المانيا وفي فرنسا فحسب بل امتد ايضا الى البلاد التي تتكلم الانجليزية. فظهر تأثيره في بعض الكتب والمقالات الانجليزية. يصف ف. أ. هار F.O. Hare في كتابه المعنون "حقائق لوثر" بانه كان يعاني من مرض نفسي منذ صباه، وقد التحق بالدير دون دعوة حقيقية وانه كان فاسد الاخلاق والايمان، ويصف هار الفترة التي قضاها في قلعة وارتبورج بانها لم تكن فترة مثمرة بل فترة فراغ وبؤس ومحاربات جنسية. وقال ان لوثر كان على اتصال مستمر بالشيطان، زان، وبطل كاذب، نبي كاذب ومصلح كاذب، يهدم ولا يبني، كان مشوها وليس مصلحا "He was a de Former, not a Re former"، فهو يهوذا وهو عدو المسيح وخادم الشيطان...

هؤلاء الذين ذكرنا اسماءهم وآخرين ايضا ينعتون الاصلاح ولوثر باوصاف مشينة مؤلمة، ذلك لانهم لم يروا في لوثر المصلح بل المفسد، بل ان البعض ذهب ابعد من ذلك، فاعتقد ان واجبه ليس محاربة لوثر واتباعه فقط بل ومحاربة حتى الكاثوليك الذين يسعون الى الوحدة. وهذا ما نادى به الاسقف ليفيفر، الذي قام بمعارضة شديدة ضد المجمع الفاتيكاني الثاني وضد البابا بولس السادس.

(2) موقف الدارس المحايد والباحث الامين: التقارب

من العرض السابق يتضح ان بعض الكتاب الكاثوليك وقفوا وقفة المعارضين والرافضين. يمكننا القول ان هذه الجماعة لم تكن تمثل الكنيسة الكاثوليكية كلها. وقد تطور الموقف في الخمسين سنة الماضية.

– ***كيفل F.X.Kiefl:*** يرجع الفضل في هذا التطور الى عمل الروح اولا، ثم ثانيا الى استاذ العقائد الالماني كيفل F.X.Kiefl، وكان استاذ في جامعة فرتزبورج. وقد بادر بدعوة الكاثوليك الى تفهم افضل لشخصية وتعاليم لوثر. فعندما كانت الكنائس اللوثرية تحتفل بمرور اربعمائة سنة على تاريخ تعليق لوثر لاحتجاجاته الخمسة والتسعين، كتب كيفل مقالا عن مارتن لوثر، اعلن فيه بصراحة ووضوح انه لا يتفق مع دانيفل ولا مع جرايزر في مفهومهما لشخصية وتعاليم لوثر، بل يعتقد ان لوثر كان اسيرا فعلا للكتب المقدسة وللقوة الالهية. كما انه كان يؤمن ان اكتشافه لعقيدة التبرير بالايمان كان اكتشافا عظيما بحق. ويقول انه من الخطأ وصف هذا الراهب بصفات لم تكن فيه، فقد كان لوثر مسيحيا حقيقيا فهم المسيحية بطريقة عظيمة كما انه كان رجلا متعلما ومتعمقا يتمتع بعبقرية فذة وقد اختاره الله لكي يعلم كنيسته.

– ***الفرد فون مارتن Alfred Von Martin:*** وبعد مرور اثنى عشر عاما على هذا المقال جاء الفرد فون مارتن Alfred Von Martin، وطلب من حوالي عشرين استاذا لاهوتيا معاصرا من الكاثوليك والبروتستانت، ان يكتبوا عن لوثر. ولا يمكن بحث كل ما كتبه هؤلاء العلماء، ولكن نكتفي بان نلقي نظرة سريعة على ما كتبه اثنان من الكاثوليك في هذا المجال:

1– سباستيان مركل Sebastian Merkle: كان مركل استاذا في جامعة فورتزبورج من سنة 1898–1933، وقد عرف كمؤرخ وعالم. وكان يعتقد ان المؤرخ النزيه هو الشخص الذي يستطيع ان ينظر الى الامور بطريقة موضوعية. وعلى هذا فقد طالب المؤرخين ان يعالجوا موضوع الاصلاح بهذه الطريقة وبهذه الموضوعية. فلا يجب التقليل من مكانة لوثر وتحقيره على اسس غير سليمة. ويضيف قائلا انه من غير الممكن ان نثبت انه كان واحدا من الاباحيين او الثوريين، فان الحركة التي قام بها لم يكن لها أي هدف اخر غير الهدف الديني.

2– انطون فيشر Antoine Fisher: رأى انطون فيشر ان لوثر رجل مكافح ورجل صلاة. يعلمنا ان الله يظهر في كلمته المكتوبة، وقد كان يلتهم هذه الكلمة التهاما. ومنها تعلم ويعلمنا ايضا الصلاة. ويدعونا لوثر لدراسة الكتاب المقدس بعهديه والتغذي به.

كتّاب اخرون

– هيبرت جيدن Hubert Jedin: هيبرت جيدن Hubert Jedin، استاذ جامعة بون من 1933–1949. قام هذا الاستاذ بتقديم عرض تاريخي تحليل لمعظم المؤلفات الكاثوليكية التي ظهرت من ايام جانسن Janssen في سنة 1876 الى الثلث الاول من القرن العشرين. ثم انتقد كتابات دانيفل وجريزر نقدا لاذعا، ونفى وجود أي مؤرخ الماني يشاركهما الرأي فيما ادعياه من فساد وانحطاط اخلاق لوثر. كما انه اشار باسف شديد الى التأثير السيء الذي تركه هذان الكاتبان خاصة كتاب دانيفل على العلاقات المسكونية. واخيرا اشار الى ان الكاثوليكي الذي يريد ان يفهم لوثر على حقيقته عليه ان يترك الصورة التي قدمتها كنيسته عنه ويحاول درس شخصيته وتعاليمه بطريقة موضوعية محايدة وعلمية.

– جوزيف لورتز J. Lortz: ان ما ذكرناه سابقا من ظهور كيفل الى جيدن لا يعد الا محاولات تفسيرية. فبعد كل هذه المجهودات والدراسات ظهر كاتب اخر يعتبر حجة في التاريخ خاصة في فترة الاصلاح، وهو الاستاذ جوزيف لورتز. وقد الف مجلدين (حوالي 750 صفحة) ظهرا سنة 1940، تحت عنوان "الاصلاح في المانيا Die Reformation in DeutschLand". ومع ان البلاد كانت تمر في هذا الوقت بفترة عصيبة مؤلمة وهي فترة الحرب، الا ان لورتز استطاع ان يفرض نفسه على الناس. فكان تأثيره في بعض الاوساط اقوى من تأثير الحرب. فقرىء ونوقش في الاوساط الكاثوليكية والانجيلية. وحث الشعب على الحوار المسكوني. وفي سنة 1948 حاول ان يلخص ما قد كتبه سابقا، فلخصه في كتابه اسمه الاصلاح مشكلة اليوم The Reformation: a Problem for Today". ثم نشر له 4 محاضرات. وقد بدأ لورتز بالحديث عن الكنيسة المعاصرة، وكم هي في حاجة ايضا الى اصلاح ، قال انه اذا كان لوثر قد هجر كنيسة عصره فلذلك لانه لم يجد فيها ما كان يحتاج اليه من امور اعتبرها جوهرية ومهمة وخاصة الايمان الحقيقي. وكان لوثر رجلا تقيا وظهرت هذه التقوى في حياته وتعاليمه. وما لا شك فيه ان الكنيسة حكمت على لوثر بالهرطقة... رغم انه كان رجلا تقيا، مسيحيا حقيقيا. لقد عاش حياة الايمان العميق في شخص يسوع المسيح، معترفا ان يسوع المسيح هو ابن الله المولود من مريم العذراء مريم وصلب ومات وقام لاجل خلاصنا، وانه كان ايضا في كل حياته رجل الصلاة والواعظ المتحمس لكلمة الله وحمل لورتز الكنيسة الكاثوليكية جزءا كبيرا من مسؤولية الانشقاق الذي حدث في القرن السادس عشر[5].

كان لمؤلفات لورتز تأثير عميق جدا على الاوساط الكاثوليكية والبروتستانتية. عبر بكتاباته هذه عن مفهوم الكثيرين عن لوثر. ويجدر بنا ايضا ان نقول ان لورتز قد انتقد لوثر بالرغم من المدح العظيم الذي مدحه به. فهو يأخذ على المصلح انه لم يكن – في بعض الاحيان – سامعا ومصغيا لكلمة الله، كما انه لم يفهم المكتوب بطريقة صحيحة. ولعلنا نشترك جزئيا مع لورتز في هذا النقد، لان لوثر فعلا فهم بعض الفصول الكتابية بطريقة متأثرة بمفهومه الشخصي لبعض المشاكل العقائدية.

– ادولف هرت Adolfe Herte: بعد اربع سنوات من ظهور كتابات لورتز الاولى، نشر الاستاذ ادولف هرت بحثا في ثلاثة مجلدات (حوالي 1000 صفحة) Das Katholisch Lutherbild IM Bann der Luther Kommentare, des Coch Laus، مركزا على الصورة الرديئة التي خلقها وكونها تفسير كوكلاوس للوثر في الكنيسة الكاثوليكية. وخرج من بحثه بهذه النتيجة الرائعة وهي ان كل هؤلاء الكتاب الكاثوليك، الا قلة ضيئلة جدا، من الذين كتبوا عن لوثر وعن تعاليمه من القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين قد رجعوا في كتاباتهم الى الكتاب الذي نشره كوكلاوس في

[5] (راجع مجلة Concilium Revue (14) p. 29-32).

سنة 1549. وقد انتقد العالم هرت كتابات دانيفل وجرايزر وكريستياني وبوكييه، الذين تأثروا بكتاب كوكلاوس. وطلب من الكنيسة المصلحة اللوثرية والكنائس الانجيلية الاخرى ان تقوم من جانبها بعمل بحث دقيق لاكتشاف بعض الاخطاء التي ارتكبتها في التطرف في بعض الاحيان في حكمها على ظلم الكنيسة الرومانية. ودعى الى ان يدرس الجانبان الكاثوليكي والبروتستانتي لوثر وتعاليمه بطريقة علمية تستند على الاحداث التاريخية الموثوق في صحتها وحيادها.

– ***الاب فرانسوا بوت François Boit:*** اثناء انعقاد المجمع الفاتيكاني الثاني ظهر مجلدان للاب فرانسوا بوت "من الجدل الى الحوار De la Polémique au dialogue". قدم هذا المؤلف نقدا ذاتيا اتسم بالشجاعة والامانة، قال فيه ان كثيرين من الكاثوليك فهموا لوثر والاصلاح بطريقة خاطئة، الامر الذي يرجع الى الصورة الخاطئة التي قدمها كوكلاوس عنه وما زالت عالقة بالاذهان. وفي حقيقة الامر يعتبر اختبار لوثر الروحي اختبارا دينيا حقيقيا وانه من الخطأ ايضا الحكم عليه بالانفصال، اذ انه لم يفكر في الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية او ان يؤسس كنيسة جديدة. لقد كان يسعى جاهدا لا للخروج من الكنيسة بل لاصلاحها.

– ***يوحنا م تود Jean M. Todd:*** الف تود كتابا بعنوان "مارتن لوثر" صدر في لندن سنة 1964. كان تود يرى في لوثر طالبا جادا وعاملا مجتهدا وراهبا تقيا وذكيا مرهف الحس والشعور، تميز بالشجاعة مقدرا ومكرما من رؤسائه. وكان يتمتع بموهبة القائد الناجح. ويتفق تود مع بوبيه على ان عقيدة التبرير بالايمان لا تناقض العقيدة الكاثوليكية الرسولية. ومع ان لوثر قد ثار ضد التعاليم المدرسية الا انه ظل متمسكا بكثير من تعاليم القرون الوسطى. لذلك فانه لم يرد ان يضرب عرض الحائط بالتعاليم القديمة. وكان يرى ان التعاليم الجديدة التي اكتشفها في كلمة الله ستشع في الكنيسة فتنير الاخرين كما استنار هو ايضا بها، واراد ان يوصل هذا النور الالهي الى الانسان المتألم والخاطىء، لكي يتبرر بالايمان في شخص الرب يسوع المسيح. على ان تود له بعض المآخذ ضد لوثر. فانه لم يتفق معه في افكار ذبيحة القداس وسلطان البابا والمجامع.

عملت كل هذه الكتب على خلق روح التقارب والحوار المسكوني المبني على مفهوم حقيقي وعلمي لشخصية لوثر.

نكتفي بهذا القدر من بعض واهم ما كُتب حتى المجمع الفاتيكاني الثاني. كُتب اخرى كُتبت بعد المجمع تحتاج الى دراسة اخرى.

27- خاتمة

ان العصر الذي نعيش فيه الان يحتاج الى وحدة كاملة وترابط قوى وايمان عميق ومحبة صادقة بلا رياء لكي نستطيع معا ان نواجه تحديات المجتمعات المتنوعة من الحاد وكفر ومادية وتعصب.

ان المسيحية في جميع ارجاء العالم بجميع طوائفها، تجد نفسها الان امام هذه التحديات، رغبت ذلك او لم ترغب. واسلم طريق للتغلب على تحديات العصر هذه ايا كان لونها او نوعها، هو ان ننفذ بطريقة عملية وصادقة وامينة صلاة الرب الشفاعية: "ليكون الجميع واحدا كما انك انت ايها الاب فيّ وانا فيك، ليكونوا هم ايضا واحدا فينا ليؤمن العالم انك ارسلتني" (يو 17: 21).

الفصل الخامس والاربعون

الاصلاح في سويسرا

يوحنا كالفن

ميلاده والجو العائلي الذي نشأ فيه

ولد يوحنا (يوحنا) في العاشر من تموز عام 1509 في فرنسا في مدينة نويون (Noyon) في مقاطعة بيكاردي (Picardie).

كان جيرارد كالفن والده ذكيا طموحا، استطاع ان يجمع في فترة قصيرة عدة مناصب ووظائف في وقت واحد. فقد تعين في سنة 1481 كمسجل رسمي للعقود الخاصة بمدينة نويون، ووكيلا للاعمال الخاصة بالكنسية والكهنة، وسكرتيرا للاسقف، ومستشارا للاكليروس ونبلاء المدينة. وقُبِل جيرارد كالفن في طبقة البورجوازية في سنة 1497، وتزوج ابنة صاحب فنادق وتدعى جان ليفرانك، وكانت فتاة رائعة الجمال مثالية في اخلاقها ومتعبدة، وتعودت ان تصحب طفلها يوحنا لزيارة الاماكن المقدسة. وانجب جيرارد اربة اولاد وبنتين وهم: *شارل* وكان كاهنا في مدينة نويون ومات في سنة 1537 محروما من الكنيسة، ربما لانه اتبع افكار اخيه يوحنا. *وانطون* الذي انضم الى الاصلاح وساعد اخاه كثيرا في عمله الكتابي ومات سنة 1571، *وفرانسوا* الذي مات صغيرا، ثم *ماري* وبنت اخرى لم يسجل لنا التاريخ اسمها.

اختطف الموت جآن ليفرانك وهي في ريعان شبابها، وتركت يوحنا صغيرا بدون ذكريات عنها. وتزوج والده مرة اخرى من ارملة. ويعزو المؤرخون ان حرمان يوحنا من حنان امه وعيشه بين اب صارم وامرأة اب غير مهتمة، لعب دورا هاما في حياة وتصرفات وسلوك كالفن، وجعلت منه طفلا خجولا منطويا على نفسه في بعض الاحيان، قاسيا في احكامه على نفسه وعلى الآخرين.

دراساته الثانوية والجامعية

بدأ يوحنا مرحلته الدراسية في مدرسة المدينة Collège des Capettes ومكث فيها حتى بلغ الرابعة عشرة. وفي سن الثانية عشر (1521)، حصل جيرارد لابنه يوحنا على وظيفة كنسية امدته بدخل سنوي. والشخص الذي كان يتلقى دخلا من الكنيسة، يُنتظر منه تأدية خدمة للكنيسة، لكن هذا لم يكن يعني انه رسم لمنصب اكليريكي. وكان يوحنا تلميذا ذكيا نابها قادرا على تحصيل قدر هائل من العلوم التي كان تدرس في تلك الايام. ارسله من ثم ابوه الى

باريس عام 1523، وبدأ دراسته في مدرسة دي لا مارش سنة 1523. وكانت تعتبر هذه المدرسة حديثة في تعليمها ومناهجها وفيها التقى بمدرس اللغة اللاتينية ماتورين كورديه Mathurin Cordier . ترك هذا المعلم، بحياته المثالية وعلمه الغزير ومحبته للمسيح، تأثيرا عميقا على الشاب يوحنا. وبعد سنة قرر احد المفتشين نقل يوحنا الى مدرسة مونتجي Nontaigu، وقد عرفت هذه المدرسة بنظامها القاسي الصارم. فالطعام محدود، والعقوبة على أي خطأ قاسية، والمنتظر ان ينقل الطلبة اخبار بعضهم البعض. من هنا اكتسب كالفن سمعة كونه قاسيا على نفسه وعلى زملائه. وكانت مدرسة مونتيجي تسمى قلعة الارثوذكسية لانها كانت تناضل وتصارع ضد كل تعليم جديد مبتدع. وفيها انكب يوحنا على دراسة تعاليم الآباء، فدرس كتابات القديس اغسطينوس والقديس برنارد ويوحنا فم الذهب وبطرس لومبارد وآخرين. ولهذا السبب فان كتابات كالفن مليئة بالاقتباسات العديدة من كتب الآباء واقوالهم. ولقد شجعه على الدرس والبحث اساتذته الاكفاء الذين لاحظوا فيه ذكاء نادرا، ورغبة عميقة في الدرس والبحث.

ان الفترة التي اقامها يوحنا في مدينة باريس كانت غنية في ثمارها ونتائجها، وفي تكوين شخصيته واعداده للعمل الذي سيقوم فيه فيما بعد. ويعتقد المؤرخون ان يوحنا تعرف بباريس على حركة الاصلاح اللوثرية.

حصل يوحنا في سن التاسعة عشرة على درجة الليسانس في الفلسفة سنة 1528 من مدرسة مونتجي. وكانت هذه الدرجة تجيز له ان يواصل دراساته العالية في الجامعات. وكان والده ينوي ان يدرس ابنه العلوم الدينية كي يصبح كاهنا مثل اخيه الاكبر شارل، ولكنه غيّر رأيه ربما بسبب مشاجراته مع الاكليروس، ولاجل ذلك دفع ابنه الى دراسة الحقوق بدلا من اللاهوت. وكانت مدينة اورليان تعتبر من اهم المدن في فرنسا اشتهرت باساتذتها المتخصصين، في دراسة وتدريس القانون. فالتحق بها يوحنا، وفيها تقابل مع استاذ اخر نسب اليه كثير من المؤرخين دورا هاما في جر كالفن الى العقيدة الانجيلية وهو ملكيور فولمار استاذ اللغة اليونانية، وهو الماني لوثري، ويعتقد انه كان يمد يوحنا بالكتب والمقالات التي تنشر في المانيا عن اللوثرية وتعاليمها، وترجم بعضها الى الفرنسية. وشجع الاساتذة يوحنا لما رأوا فيه من الذكاء ان يتقدم للحصول على درجة الدكتواره، فانتقل الى جامعة بورج التي كانت تنافس جامعة اورليان.

موت جيرارد كالفن

انطلق يوحنا الى نويون عندما علم بمرض ابيه، ومكث معه الى ان فارق الحياة في يوم 26 ايار عام 1531، وكان قد بلغ السبعين من عمره. ان دفن جيرارد كان مشكلة: فقد كان محروما من الكنيسة من حوالي ثلاث سنوات. ولم يكن مسموحا دفن شخص حرمته الكنيسة في المدافن العادية، فكان على ابنه شارل، الذي كان كاهنا لكنيسة المجدلية في نويون، ان يبذل جهدا كبيرا واتصالات مكثفة متوسلا الى رؤسائه، ونجح في نهاية الامر في رفع الحرمان عن ابيه ودفن في مقبرة مسيحية.

ولكن بعد دفن الاب تجددت الخلافات بين الكاهن شارل كالفن والاكليروس في مدينة نويون. وفي ايار سنة 1534، قام احد الكهنة باستجواب شارل عن ايمانه وعقيدته واستنتج انه هرطوقي. ومات سنة 1537 بعد ان رفض المسحة الاخيرة ودفن ليلا سرا.

بعد موت والده عاد يوحنا الى باريس وفيها تابع دراسته في جامعة فورتية Fortet وانكب فيها على دراسة الآداب اللاتينية واليونانية واللغة العبرية. ثم رجع الى اورليان لانهاء دراسته في الحقوق، وحصل على درجة الدكتوراه في سنة 1533.

انضمام يوحنا كالفن الى الاصلاح

ان موضوع تحديد تاريخ معين والاسباب التي ادت الى انضمام كالفن الى الاصلاح ليس بالامر السهل، لانه مر باختبارات واحداث عديدة وطويلة ادت اخيرا الى انفصاله عن الكنيسة الكاثوليكية.

يعتقد بعض المؤرخين ان مقابلته مع ماتيرون كورديه عام 1523 في مدرسة دي لامارش كانت البذرة الخفية التي القيت في نفس هذا الشاب وجرته الى الانفصال. الا ان بعض المؤرخين الاخيرين يعتقدون ان السنوات الخمس 1523-1528 التي قضاها في باريس دفعته الى التفكير والبحث والنقاش في موضوع الاصلاح، وربما سوء التفاهم

الذي نشأ بين ابيه وبين جماعة الاكليروس، ثم بين اخيه الكاهن شارل وبين الكهنة، كان له تأثير عليه. كما لا ننسى ان الفترة التي قضاها في اورليان وبورج حيث تقابل مع فرلمار اللوثري الذي فتح امامه – على ما يُحتمل – باب الاصلاح. ويعتقد الكثير من المؤرخين ايضا ان روبرت اوليفتان – وهو قريب ليوحنا – قام بدور هام جدا في تغير كالفن بترجمته للكتاب المقدس الى الفرنسية.

هروب كالفن من باريس

كان كوب نيقولا المدير الجديد لجامعة السربون وهو ابن الطبيب جيوم الذي كان طبيبا خاصا للملك لويس الثاني عشر ثم فرانسوا الاول. كان كوب صديقا حميما للشاب يوحنا كالفن منذ ان كان طالبا في باريس. كان معتادا ان يلقي مدير جامعة السربون خطابا في اول تشرين ثاني بمناسبة عيد جميع القديسين. ففي اول تشرين ثاني سنة 1533 اجتمعت كليات جامعة السربون في كنيسة الماوريين، والقى العميد الجديد عظة تعد من العظات التي لها اهميتها في تاريخ الاصلاح الفرنسي.

اتخذ كوب موضوعا لتأمله قول المسيح: طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السماوات.. طوبى للمضطهدين من اجل البر، لان لهم ملكوت السموات.. (متى 5: 3، 10). وبدأ عظته بشرح الفلسفة المسيحية باعتباره استاذ الفلسفة في الجامعة، مستوحيا افكاره من اقوال ارازمزس ولوثر. على انه رجع الى التطويبات، مشددا على حقيقة ان الله قد احب العالم بمحبة لا تقاس، ولهذا فقد ارسل ابنه الوحيد الذي صار انسانا ومات لاجلنا. انه جاء لمغفرة الخطايا التي لا تتم الا عن طريق نعمة الله وحدها، والروح القدس هو الذي يمنح للجميع هذه النعمة، لانه هو مصدر القداسة. ان الحياة الابدية مقدمة للجميع، وان المسيح مات لاجل خطايانا لكي يبررنا بنعمته، فعلينا اذا ان نضحي ونموت من اجل الذي ضحى ومات من اجلنا. وان العالم اعتاد ان يطلق كلمات هراطقة ومضللون على هؤلاء الذين يعملون جاهدين في نشر الانجيل صافيا نقيا... فطوباهم وانهم يحسدون على ما يقومون به بشجاعة نادرة مباركين الههم بالرغم من الاضطهادات.

كانت هذه العظة عبارة عن قنبلة انفجرت في جامعة السربون التي كانت تعتبر كقلعة للارثوذكسية وحاميتها. الم تصدر جامعة السربون احكاما ضد تعاليم الهرطقة اللوثرية؟ الم تحكم ايضا بحرق وحرم تعاليم لففر دي تابل؟ فكيف ذا لعميد عمداء هذه الجامعة ان يعلن بهذه الصراحة وهذه الجرأة تأييده لحركة الاصلاح؟ صحيح انه اعلن في ختام عظته انه كاثوليكي متمسك بتعاليم الكنيسة معترفا بأمومة العذراء لله، ولكن التعليم الذي نادى به هو تعليم المصلحين.

استدعى كوب للمثول امام البرلمان، الا انه هرب والتجأ الى بازل مدينة عائلته. وذهبت الشرطة للقبض على المتهم الثاني يوحنا كالفن فعمل من ملآت سريره حبلا وتدلى به من الشباك الخلفي لكلية فورته حيث كان ساكنا، وتخفى بثياب كرَّام وحمل على ظهره قفة كبيرة من القفف التي يحملها الكرامون، منطلقا الى مدينة انجوليم Angoulème حيث نزل ضيفا على صديقه لويس دي تيليه كاهن كنيسة الكلية وواعظ في كاتدرائية انجوليم.

وجد كالفن في بيت صديقه مكتبه عامرة بالكتب والمخطوطات الثمينة والقديمة، وفيها انغمس في الدرس والبحث. وفي هذه المكتبة بدأ في مشروع كتابة كتابه الذي سيصبح فيما بعد "قرآنا او بلاحرى تلمودا للهرطقة" وهو كتاب "اسس الديانة المسيحية Institution de la Religion Chrétienne". وفي الرابع من ايار سنة 1534، قام كالفن بتسليم الاوراق الخاصة بالامتيازات المالية التي كان يحصل عليها من الكنيسة، واعلن بانه لا يريد ان يحصل على مساعدة من كنيسة اصبح لا يتفق معها على بعض تعاليمها وعقائدها. وبرفقة صديقة الكاهن لويس دي تليه، انطلق الى مدينة بواتييه، وفيها الف جماعة من الاتباع اخذت تجتمع في السر وفي المغاور وفي اماكن سرية. وفي احدى مغاراتها قام كالفن الذي لم يُسَم كاهنا ابدا بممارسة اول عشاء رباني على الطريقة الانجيلية.

حادثة المنشورات

حادثة مهمة في تاريخ الاصلاح الفرنسي. كان الملك فرانسوا الاول ضد جماعة البروتستانت، وكان ينوي التخلص منهم، ولكنه كان يخشى رد الفعل من الداخل ومن الخارج، وخاصة انه كان يبحث عن عمل معاهدة مع الامراء الالمان ضد الامبراطور شارل الخامس، وان عددا لا بأس به من هؤلاء الامراء كانوا بروتستانت.

يبدو ان بعض الافراد ارادوا ان ينتهزوا هذه الفرصة، ففكروا ان يقدموا الى الشعب ملخصا لتعاليم الكنيسة اللوثرية، وبناء عليه ارسلوا الى سويسرا ممثلا لهم لكي يناقش هذا الامر مع بعض اللوثريين في نيوساتل. فرجعوا ومعهم منشورات قام بكتابتها انطون ماركورت Antoine Marcourt. وعند وصول هذه المنشورات الى باريس قامت جماعة بتوزيعها. ففي ليلة 17-18 تشرين اول سنة 1534، علقت هذه المنشورات في باريس واورليان، حتى وصلت الجرأة بهم الى تعليق احد هذه المنشورات على باب مخدع الملك. وكان هذا المنشور يحتوي على نقد لاذع ضد الكنيسة الكاثوليكية ممثلة في البابا والكرادلة والاساقفة والكهنة، وضد مفهوم الكنيسة لعقيدة الافخارستيا، وبعض العقائد الاخرى. وقد كتب هذا المنشور باسلوب هجومي عنيف خال من الادب ومن اللياقة، مستعملا بعض الالفاظ غير المهذبة.

عندما اطلع الملك فرانسوا الاول على هذا المنشور ثار ثورة عارمة، معتبرا هذا الامر تحديا لشخصه وجلالته الملكية. فسن حملة اضطهادات عنيفة مريعة، واعدا بمكافأة مالية لكل من يعلن عن اسم وعنوان أي لوثري. وصلت بعض الشكاوي تحمل اسماء وعنوان بعض اللوثرين فقبض عليهم، والقى البعض منهم في السجون. وفي يوم 7 تشرين ثاني حكم بالموت على سبعة منهم.

ثم قام الملك مع الاكليروس واولاده الثلاثة بتطواف تكفيري في يوم 21 كانون ثاني 1535، وكان الملك في هذه المسيرة عاري الرأس مع اولاده الثلاثة ويمسك بيده شمعة مشتعلة. وفي عشية هذا اليوم، اعلن الملك اثناء العشاء امام الاكليروس وسفراء الدول الاجنبية، انه سيعامل كل هرطوقي بنفس المعاملة، حتى ولو كان من عائلته، واصدر الاوامر بالقبض على كل من ينتمي الى هذه الطائفة ومصادرة املاكه.

في هذه اللحظة شعر كالفن بعدم الاستقرار، وسئم التنقل بين انجوليم ونويون وباريس واورليان، فقرر ان ينطلق الى مدينة بازل في سويسرا في كانون اول عام 1534.

يوحنا كالفن في سويسرا

في بازل

وصل يوحنا كالفن وصديقه لويس دي تيليه الى مدينة بازل. وكانت هذه المدينة قد انضمت الى الاصلاح في سنة 1519، على يد الواعظ كابيتون ومن بعده الواعظ الشهير اكولامباد Occolampade، وهو الذي قام بادخال بعض الاصلاحات والتعديلات في القداس وفي نظام العبادة. وبازل هي ايضا المدينة التي كان يسكن فيها العالم الهولندي ارازموس وفيها سيقابل المصلح فيريي Viret. الى هذه المدينة جاء يوحنا تحت اسم مستعار لوقيانوس ونزل عند سيدة تدعى كاترين كالين.

بدأ كالفن في هذا الجو الهادىء في الدراسة والكتابة، وفيها عمل بجد ليتم كتابه "اسس الديانة المسيحية". بهذا الكتاب اراد كالفن ان يدافع عن الانجيل وعن اخوته الانجلييين المضطهدين. وكتب كالفن مقدمة هذا الكتاب، واهداها الى الملك فرانسوا الاول بتاريخ 23 اب 1535، وخرج الكتاب كله باللغة اللاتينية، وكان يحتوي على 6 فصول في 519 صفحة من الحجم الصغير.

في جنيف (اقامته الاولى)

جينيف قبل كالفن: طرد الكاثوليك من جينيف

من الضروري ان نوضح جانبا من تاريخ جينيف السابق لوصول كالفن. كانت المدينة القابعة في قلب الركن الجنوبي الغربي لسويسرا والقريبة جدا من فرنسا، غير مستقرة سياسيا. وكان يحكم جينيف في سنة 1530، دوق سافوى الكاثوليكي، لكن كثيرين من المواطنين كانوا قد انضموا الى البروتستنتية التي جاءت اليها من مدينة بيرن، التي كانت مهتمة بجلب الاصلاح الى جينيف وطرد الكاثوليك. ارغم دوق سافوى، ولاسباب سياسية، على التخلي عن اطماعه السياسية نحو جينيف. ووصل جيوم فاريل Gauillaume Farel، المصلح الفرنسي الذي بذل الكثير لكي يربح بيرن للاصلاح، الى جينيف في سنة 1532، وبدأ يبشر وفعل الكثير لاثارة الشعب ضد الاكليروس الكاثوليكي. وفي سنة 1534، ارغم الاسقف الكاثوليكي على المغادرة، تبعه الرهبان والراهبات وصودرت الاديرة.

التركيبة السياسية في جينيف

كانت جينيف مدينة مستقلة، وكانت تحكمها مجالس عديدة وعلى رأسها مجلس من اربعة اداريين كبار من الذين كانوا ايضا اعضاء في مجلس صغير مكون من 25 عضوا. كما وكان هناك مجلس من 60 عضوا يعينهم المجلس الصغير، ومجلس من المائتين، الذي كان يتم تعيينه بواسطة المجلس الصغير، لكن مجلس المائتين كان له الحق ترشيح اعضاء للمجلس الصغير. كما كان هناك مجلس عام من كل المواطنين، لكن نادرا ما كان يؤخذ برأيه. كان مجلس الاربعة المجلس الاقوى وكان يقود الحياة السياسية في جينيف. هذا كان الوضع الذي نشأ فيه الاصلاح في جينيف، وبدون الدعم العلني من المجالس لم يكن في استطاعة فاريل واصدقائه ان ينجحوا مطلقا. فالقيادة الدينية والسياسية في جينيف عملت جنبا الى جنب لتربح الحريتين الدينية والسياسية معا، وبهذه المناسبة اتخذت المدينة شعارها "بعد الظلام النور Post Tenebras Lux".

وفي تموز سنة 1535، الغي القداس في المدينة. وفي 21 ايار سنة 1536 دُعي الحفل العام للاجتماع ووافقوا بالاجماع على الاتي: "ان يعيشوا كما يحق للانجيل وكلمة الله... وان يتخلوا عن كل مظاهر العبادة والشعائر البابوية والانتهاكات الاخرى مثل الصور والتماثيل، ولكي يعيشوا في اتحاد وطاعة العدل".

نظام فاريل

كان جيوم فاريل المسؤول الرئيسي، فحث المجلس الصغير على ان يفرض نظاما صارما على كل المدينة. فحظر اللعب والرقص والاغاني العالمية، وعاقب الناس على لعب الورق والتجديف. ووضعت روابط على بيع الخمور. وكان كل المواطنون ملزمين بحضور الخدمة الالهية والوعظ.

كالفن في جينيف

وصل يوحنا كالفن الى مدينة جنيف في سنة 1536، لكي يقضي فيها ليلة واحدة فقط – كما يقول هو نفسه – في مقدمة شرحه لكتاب المزامير: "وبما ان الطريق المباشر الى ستراسبورغ التي كنت ذاهبا اليها كان مغلقا بسبب الحرب، فقد قررت ان امر بجنيف مرورا عاجلا، وكان في نيتي الا اقضي فيها كثر من ليلة واحدة فقط".

ولكن قبل ان يصل كالفن الى هذه المدينة وصل كتابه "اسس الديانة المسيحية" وانتشر بين الذين قبلوا الاصلاح، وخاصة المصلح جيوم فاريل Guillaume Farel. عندما عرف فاريل بخبر وصول كالفن جاء مسرعا الى الفندق الذي كان نازلا فيه كالفن وشرح له الظروف التي تمر بها الكنيسة الناشئة والصعوبات الكبار التي تعترض طريقهم في السير الى الاصلاح، وانهم في حاجة ماسة الى معلمين وانه هو المعلم الذي يبحث عنه. رفض كالفن بشدة، الا انه امام اصرار فاريل قبل ان يبقى ويتسلم بعض المسؤوليات. ومكث في جنيف، وبدأ خدمته في كنيستها كمحاضر في الكتب المقدسة.

لم يُدخل كالفن الاصلاح في سويسرا، انما دخل المقاطعات السويسرية بعد ان غزاها الاصلاح وانتشر في معظم مدنها. وبدأ كالفن في تنظيم الكنيسة في جنيف، بدأ اولا بالوعظ والتعليم في كاتدرائية القديس بطرس كمساعد لفاريل.

وكان يسيطر على كنيسة مدينة جنيف المصلحة القلق والاضطراب من جميع النواحي. ولتنظيم هذه الكنيسة والمدينة، كان من المحتم اصدار بعض القوانين والشرائع التي كان على الشعب احترامها وتنفيذها. وقام كالفن الرجل الذي درس القانون، بتأليف هذه التشريعات او الاوامر او اللوائح والدساتير الكنيسة (Ordonnances).

كان كالفن ايضا مكلفا بالاهتمام برعاية الشباب وبتفسير الكتب المقدسة. فكتب لذلك كتيبا صغيرا بعنوان "التعليم المسيحي" وهو عبارة عن ملخص لكتابه "اسس الديانة المسيحية". وفي هذا الكتاب اتبع كالفن نفس الطريقة التي اتبعها المصلح الالماني لوثر في كتابه التعليم المسيحي ، فقدم شرحا للناموس او الوصايا، ثم تكلم عن الايمان وشرح قانون ايمان الرسل. كما انه تعرض لموضوع الصلاة وشرح الصلاة الربانية.. وفي هذا الكتيب قدم ايضا شرحا وافيا لسري العماد والعشاء الرباني.

وفي يوم 16 كانون ثاني عام 1537 قام كالفن وفاريل بتقديم اللوائح او التشريعات التي كانت تحتوي على عدة مواد وقواعد ومبادىء لتنظيم الحياة في الكنيسة وفي المدينة. وافق مجلس المدينة على هذه التشريعات. وطلب من المجلس تعيين اشخاص (شيوخ) مشهود لهم بحياة التقوى والتدقيق، لمراقبة الشعب. وعين المجلس شيخا في كل حي من احياء المدينة. وكان على هذا الشيخ ان يراقب تصرفات وسلوك كل شخص من الاشخاص الذين يسكنون في كل منطقة، وان يقوم بلطف ومحبة بارشاد الذي لا يسلك بحسب انجيل المسيح. فإن لم يتب واستمر في عصيانه، فعلى المسؤول ان يعلن هذا الامر للخادم. وكان على الراعي ان يتقابل معه ويرشده. فاذا استمر في تمرده ولم يتب، اضطرت الكنيسة الى عزله منها ومنعه من الاشتراك في المائدة الى ان يتوب.

وهنا ظهرت مشكلة اخرى: من هو الذي له الحق في العزل؟ هل هي السلطة للكنيسة التي يمثلها المجمع ام السلطة المدنبة التي يمثلها مجلس المدينة؟ تمسك كالفن ان هذا السلطان هو من حق الكنيسة، وتمسك مجلس المدنية ان هذا السلطان من حقه كهيئة حاكمة. وهنا بدأ الصراع العنيف بين الكنيسة ومجلس المدينة.

قبل اعضاء مجلس المدينة الاعتراف بالمبادىء الانجيلية لكي يكونوا مثالا للشعب. ولكن الصعوبة الكبرى بدأت عندما تمسك المصلحون بعرض قانون الايمان على كل سكان المدينة. بل انهم طالبوا ان الذي لا يقبل العقيدة الانجيلية يُنفي خارج المدينة. وهنا بدأ التذمر وعدم الرضى الذي تطور فيما بعد الى شبه ثورة ضد المصلحين. صحيح ان شعب المدينة قَبِل في شهر ايار 1536 الاصلاح، ولكن لم يقبل كل الشعب تعاليم الاصلاح. فهناك جماعة من الكاثوليك، وايضا جماعة الاحرار او اصحاب الرأى الحر الذين كانوا يريدون ان يعيشوا كما كان يبدو لهم حسنا.

حاول اعضاء مجلس المدينة اقناع الشعب، فارسلوا بعض الموظفين من المجلس لكي يناقشوا هذا الامر مع رب كل عائلة ولم تفلح هذه المحاولة. ولذلك فكروا في طريقة اخرى وهي ان يجتمع سكان كل حي بدوره في كاتدرائية القديس بطرس في 29 تموز 1537، لكي يعلنوا مواقفهم من هذه التعاليم. واعتقدوا ان الشعب لن يجسر على اظهار المعارضة بطريقة علنية. ولكن الشعب اظهر معارضته بطريقة واضحة، اذ تخلف الكثيرون عن الحضور. وهذا ما حدث عندما اراد المجلس ان يكرر نفس الاختبار في 2 تشرين ثاني 1537. وهنا بدأ المجلس نفسه يظهر قلقه وعدم ارتياحه فيما يخص هذا المشروع، بل ان المجلس رأى ان الكنيسة المصلحة بدأت تستولي على سلطة ليس من حقها ممارستها. كان هذا القرار بلا شك خطأ عظيما وتعسفا ضد الحرية الشخصية، حرية العقيدة.

وعندما جاء وقت الانتخابات في شباط سنة 1538 كان المجلس يخشى اندلاع ثورة شعبية في المدينة. ولكن على عكس ما كان ينتظر، تمت الانتخابات في هدوء تام. وكانت النتيجة فوز الاربع رؤساء لمجلس المدينة من الحزب المعارض للاصلاح. وطلب هذا المجلس الجديد من المصلحين عدم التدخل في الامور السياسية الخاصة بالمدينة، مع اعطاء الحق لانفسهم بالتدخل في الامور الكنسية وتعاليمها ونظامها. ولم يقبل كالفن هذا التدخل ولم يقبل هو وفاريل التعديلات التي ادخلها هذا المجلس الى الطقوس ولم يقبل المجلس هذا التحدي وقرر طرد المصلحين، وغادر المصلحون جنيف في 27 نيسان 1538 الى مدينة برن.

كالفن في ستراسبورغ

التجأ فاريل وكالفن الى بيرن وزوريخ حيث كان السنودس مجتمعا، فشرحا قضيتهما، ووجدا تعاطفا ودعما من كلتا الجهتين، لكن مجالس جينيف رفضت الاستماع الى أي وساطة. يمكن القول ان كالفن ما كان ليفشل في جينيف، لو انه لم يكن هكذا مندفعا وطموحا، وكثير التشدد مع معارضيه. وعندما غادر جينيف، وقد اعتقد انه لن يراها مرة اخرى، كتب كالفن: "مع اننا ننوي الاعتراف امام الله وشعبه اننا بسبب عدم خبرتنا وتهاوننا واهمالنا وأخطائنا، حدث على الاقل جزئيا ان الكنيسة التي عُهد بها الينا، انهارت بكل تعاسة. ومع ذلك فمن واجبنا ان نؤكد طهارتنا وبراءتنا من اولئك الذين بخداعهم وخيانتهم ووقاحتهم حدث هذا التدهور".

اتخذ كالفن وفاريل ماوى لهما اولا في بازل، ومن هناك ذهب فاريل الى ابرشية نيوشاتل، بسويسرا، حيث امضى بقية حياته فيها، بينما استلم كالفن دعوة من مارتن بوسر Martin Bucer للذهاب الى ستراسبورغ، لرعاية اللاجئين الفرنسيين هناك.

وكان مارتن بوسر، راهبا دومينكانيا متأثرا كثيرا بمارتن لوثر. ترك الرهبنة في سنة 1521، واستقر في سنة 1523 في ستراسبورغ وانضم الى البروتستانت. وكان بوسر يكبر كالفن بحوالي ثماني عشرة سنة، وكان كالفن يدعوه اسقف مدينة استراسبوج، وقد ترك تأثيرات عميقة جدا على كالفن. يمكننا القول ان السنوات الثلاث التي قضاها كالفن في ستراسبورغ تعتبر افضل سني حياته من ناحية اعداده للخدمة والتدريس والكتابة. حتى ان احد المؤرخين اعلن: "كان نموذج الكنيسة التي نسميها الكلفينية او المصلحة في الحقيقة هدية مارتن بوسر الى العالم بمساعدة المنفذ القوي المتألق جون كالفن".

كانت ستراسبورغ في ملتقى طرق، كما انها كانت ايضا مدينة حرة، فتحت ابوابها لما يدعى بالاصلاح. فهي تعتبر المدينة الثانية بعد مدينة وتنبرج بالمانيا في اهميتها كمركز من المراكز اللوثري. وقد جاء الى هذه المدينة الحرة عدد كبير جدا من اللاجئين المطاردين والمطرودين من بلادهم بسبب اعتقاداتهم الجديدة. فقد وفدها حوالي خمسة الاف لاجيء فرنسي طالبين حمايتها.

عُهد الى كالفن في ستراسبورغ العناية والاشراف على اللاجئين فنظمهم في جماعة متماسكة. وقام بخدمة الوعظ اربع مرات اسبوعيا، وقدم العشاء الرباني مرة شهريا. اسس نظاما كنسيا يتمشى مع النموذج الذي رسمه في جينيف. اصر على فحص اعضاء كنيسته قبل تناول الافخارستيا، ليحكم على استحقاقهم. ولما اعترض بعضهم بانه بذلك يُعيد ادخال الاعتراف الكاثوليكي، دافع كالفن عن ذلك بانه اعداد ضروري لقبول الافخارستيا.

كان كالفن شديد الاهتمام باساليب العبادة (الليتورجيا) في الكنائس المصلحة. ومع حظر خدمة القداس وجميع انواع الليتورجيا الكاثوليكية، كان يلزم الكنائس المصلحة ليتورجيا مناسبة تأخذ مكانها. فعكف كالفن بمعاونة بوسر على العمل في هذه المشكلة اثناؤ وجوده في ستراسبورغ ووضعا صيغة للعبادة التي يمكن ان تكون نموذجا ليتورجيا للكنائس المصلحة في انكلترا واسكوتلاندا وامريكا. وقد ادخل كالفن الى العبادة نظام الترنيم الشعبي، والف هو نفسه عددا من الترانيم المشهورة.

اتاحت فترة الاقامة في ستراسبورغ لكالفن الفرصة ايضا كي يطور اعظم مؤلفاته "المبادىء او الاسس المسيحية" . فنقحه ووسع حجمه.

زواج كالفن

بدأ كالفن، في مدينة ستراسبورغ، يفكر جديا في الزواج. لم يكن الدافع لهذا عدم مقدرته التخلي عن الزواج او الحب، كما قال، وانما في هذه المرحلة من حياته الحافلة بالعمل الكثيف وكان يعاني من اوجاع في المعدة، ومن الصداع، والغثيان، كان بحاجة الى من يعتني به. ففي خطابه الذي ارسله الى صديقه فاريل في ايار 1539، يخبره عن عزمه الجاد بالزواج، ويعطي وصفا للمرأة التي يحلم بان تكون زوجته في المستقبل: يجب ان تكون محتشمة، خاضعة، متواضعة، اقتصادية، صبورة، وان تسهر على صحته. وفي نفس الخطاب يُعرف صديقه ان قد أُقترح عليه الزواج من فتاة، ولم يذكر

اسمها. وكان اخوها من المغرمين بكالفن ونشاطه، كما ان ابويها الحا كثيرا عليه ان يتزوج منها. على ان كالفن كان يتردد كثيرا ازاء هذه الفتاة. وفي كتاب اخر في 29 اذار 1540، يخبره ان اخاه وجد "عروسا" له. وذهب اخوه مع صديق لمقابلة العائلة، ولكن بعد رجوعهما بثلاثة ايام حدثت بعض الاحداث ارغمته على ارسال اخيه مرة ثانية الى العائلة لتبليغها عدم الموافقة.

اقترح بوسر على صديقه كالفن اسم ارملة هي اديلت دي بير Idelette de Bure. وجاء صديقه فاريل من مدينة نيوشاتل ليقوم بمراسيم الزواج الذي تم في شهر اب عام 1540. كانت اديلت قد انجبت من زوجها السابق ولدا في حوالي الثانية عشرة وابنة في حوالي التاسعة. ويقول فاريل عن زوجة كالفن، بانها كانت جميلة مخلصة وكان زواجهما سعيدا، على انه لم يعمر طويلا، اذ انها ماتت في 29 اذار 1549 بعد مرض طويل. وترك موتها في قلب كالفن تأثيرا عميقا جدا. وكتب كالفن الى فاريل في اليوم الثاني لوفاتها يقول: "والان حرمت من شريكة حياتي الممتازة التي كانت على استعداد تام بان تشاركني ليس فقط في المأساة بل النفي والموت ايضا... ففي حياتها كانت خير مساعد امين لي في خدمتي، ولم اجد فيها أي معطل للخدمة...". وقد انجب كالفن منها طفلا يدعى يعقوب، ولكنه مات في تموز 1542 بعد خمسة عشرة يوما من ميلاده. وكان موته تجربة قاسية على يوحنا كالفن وخاصة على زوجته.

عودة كالفن الى جينيف

سبق ورأينا ان الحزب الذي فاز في الانتخابات سنة 1538 كان حزبا معاديا لكالفن وطرده مع زميله فاريل. بدأت الاضطرابات والثورات الداخلية، واغتنم الشعب عودة الحرية للانغماس من جديد وبدون رادع في الملاهي والملذات. واستمرت هذه الحالة الخطيرة تسيطر على المدينة وظهر روح الانقسام في الكنيسة. كل هذا ادى الى تغيير مجلس المدينة، ووصل الحزب المؤيد لكالفن الى الحكم من جديد. واصبحت اغلبية اعضاء مجلس المدينة من هذا الحزب. ولكن حالة القلق والاضطراب وروح الثورة كانت تسيطر على المدينة، وكان الشعب يخشى اندلاع ثورة اهلية. وتبين لهم انهم لا يستطيعون حكم انفسهم، وانهم بحاجة الى يد قوية تحفظهم من انفجار الوضع. وبدأ الحزب الحاكم النقاش مع الحزب المعارض في موضوع رجوع كالفن الى المدينة المهددة في سلامها.

نوقش هذا الاقتراح في مجلس المدنية الذي عقد في يوم 21 ايلول 1540، وكُلف السيد امي بيرين Amie Perrin، بالكتابة الى السيد فاريل لعمل اللازم لارجاع كالفن الى جينيف، والذهاب الى ستراسبورغ لمقابلة كالفن وتسليمه الرسالة من مجلس المدينة ومحاولة اقناعه بالضرورة الملحة لعودته الى جينيف.

عندما استلم كالفن خطاب مجلس مدنية جينيف كتب له ردا من مدينة فورمس وقد شرح في خطابه العمل الذي يقوم به في مدينة ستراسبورغ، وانه لا يستطيع ان يترك هذا الحقل الواسع المتسع للخدمة والذي اسند اليه للعناية به. فكتب مجلس جينيف الى اصدقائه في بازل وزوريخ وحتى الى برن، لكي يكتبوا بدورهم الى مجلس مدين ستراسبورغ والى كالفن لاقناعه بضرورة العودة لانقاذ هذه المدينة من الانغماس في الفوضى والثورة الاهلية. فكتب له اصدقائه وخاصة فاريل طالبين منه العودة، لان جمهورية جينيف كلها مهددة. وعلى ما يُحتمل فأن فاريل نفسه ذهب بعد الوفد وتقابل مع صديقه كالفن لمحاولة اقناعه.

وقف كالفن امام هذه الخطابات وقفة الحائر المتردد. فقد سبق وان كتب الى فاريل يقول ان جينيف هي المكان الذي يخشاه اكثر من أي مكان اخر تحت السماء. واخيرا بعد تردد وتفكير طويل، كتب الى صديقه فاريل في آب 1541 جملته الشهيرة قائلا: "اما عن ما يدور في خلدي، فهو لو سمح لي بالاختيار لفضلت ان افعل أي شيء آخر الا طاعتك في هذا الامر، ولكنني لست ملكا لذاتي، فاني اقدم قلبي كذبيحة للسيد... ولا اطلب الا شيئا واحدا، وهو عدم الاهتمام بذاتي، والقيام بالافضل لمجد الله وفائدة الكنيسة".

عندما قَبِل كالفن بالعودة الى جينيف، كان يعتقد انه يرجع اليها لفترة قصيرة فقط، وهذا ما كان يعتقده مجلس مدينة ستراسبورغ. وفي يوم 2 ايلول انطلق كالفن الى جينيف، ووصل اليها في يوم 13 ايلول عام 1541، ليس لكي يمكث فيها عدة اسابيع او اشهر كما كان يعتقد، بل لكي يقضي حياته كلها.

كالفن في جينيف: الاقامة الثانية

عاد كالفن الى جينيف في الثالث عشر من شهر ايلول عام 1541، كسيد مطلق، مصمما على فرض ارادته. الا ان تجاربه السابقة جعلت منه احكم في تقدير الامور وخصوصا في معاملة الناس. وقدمت له المدينة بيتا جميلا وحديقة، ومنح مرتبا سخيا بلغ ضعف مرتب أي راع آخر، اراحته من الاهتمام بالامور المادية، فكرس وقته لتنظيم كنيسة جينيف.

لاحظ كالفن في تتبعه للاصلاح اللوثري، ان هذا الاصلاح ارتكب خطئين: الاول، انه بدل من ان يحد من التدهور الاخلاقي، زاده حدة، بتبنيه عقيدة التبرير بالايمان دون الاعمال. والثاني هو انه باعترافه بالسلطة العليا، للسلطات المدنية، سخّر الكنيسة للدولة. وعندما جعل الدولة الحكم في المنازعات العقائدية والتنظيمية، لم يعمل فقط على حرمان الكنيسة من استقلالها، بل جعلها مصدرا للكثير من الفوضى الاجتماعية، كاللامعمدنيون وثورة الفلاحين... لذلك اراد كالفن ان يعمل على تجنب هذين الخطأين.

لتجنب الخطأ الاول ولرفع المستوى الاخلاقي، اعاد كالفن ضرورة الاعمال الصالحة، مع المحافظة على مبدأ التبرير بالايمان فقط، فتصبح الاعمال الصالحة عديمة الفائدة والاستحقاق امام الله، وانما تأتي اهميتها من كونها دلالة على ان الانسان الذي يعمل الاعمال الصالحة يملك الايمان.

ولتصليح الخطأ الثاني، وافق كالفن لوثر على المبدأ القائل، ان الكنيسة والدولة يجب ان يسيرا سويا لتحقيق العمل المشترك، أي المحافظة على نقاوة التعاليم والاخلاق. الا انه شدد، وعلى عكس لوثر، انه على الدولة ان تكون في خدمة الكنيسة. فالتجربة اثبتت انه لا يكفي ان يقود الانجيل الشعب، بل يجب ارغامه على ذلك بالقوة. فالدولة واجبها – بالنسبة لكالفن – ان ترغم مواطنيها على الخضوع "لكلمة الله". فاريلعاة الدينيون والحكام المدنيون هم رسل الله، ويجب ان يوحدوا قواهم من اجل مجد الله. الا ان الاولين يجب الا يعملوا الا حسب ارشادات الرعاة الذين هم المفسرون الوحيدون للكتاب المقدس. فالدولة التي تصورها كالفن هي نوع من التيوقراطية Théocratie (حكم الله)، او كما عبر عنها احد المؤرخين "ببليوقراطية Bibliocratie"، أي حكم الكتاب المقدس.

نظام كالفن في جينيف

لتحقيق مثل هذه الدولة، قام كالفن على رأس لجنة معينة من المجلس، على تأليف نظام اسفر عن "القواعد "Ordonnances Ecclésiastiques" التي وافق المحفل العام عليها. كان لتلك القوانين غرضان اساسيان: 1) ان تقدم حلا لحكم ذاتي للكنيسة مع الاحتفاظ بالتعاون مع المجالس. 2) ان تعمل على تفعيل نظام يمكن للكنيسة بواسطته ان تتأكد من العقيدة السليمة والحياة السوية بين اعضائها.

الوظائف الرئيسية:

لكي يتم انجاز القوانين كان يلزم ان تتكون اربعة وظائف:

(1) *الرعاة:* المعروفون بجماعة المحترمين، ليكونوا مسؤولين عن الكرازة العادية والاعمال الرعوية، وكذلك فحص المرشحين للرسامة. وكان عليهم ان يجتمعوا اسبوعيا لدرس الكتاب المقدس والنقد الذاتي.

(2) *المعلمون:* المسؤولون عن تعليم الشباب عن طريق المدارس.

(3) *الشمامسة:* المسؤولون عن الاهتمام بالفقراء والمرضى.

(4) *مجلس الشيوخ* (المعروف بالمجلس الكنسي): كان هذا اهم مكتب، لانه من واجبه السهر على حياة كل فرد، ولتحذير بلطف اولئك الذين يرتكبون اخطاء، ويعيشون حياة مشوشة، وحيثما دعت الحاجة، اعداد تقرير للهيئة التي ستُعَّين لاجراء الاصلاحات.

واحتوت الكنيسة الكالفينية ايضا على مؤسستين كبيرتين:

(1) مجمع الخدام La Congrégation او "الجماعة المحترمة" Vénérable Compagnie:

كان هذا المجمع يتألف من جميع الرعاة الدينيين في كنيسة جينيف. واليه كانت تعود السلطة العقائدية. كان يجتمع كل يوم جمعة، برئاسة كالفن، لتفسير معنى الكتب المقدسة، وتحديد عقائد الايمان. وان حدث خلاف، او تباين في الاراء، يعودون الى الشيوخ (Les anciens). وكان من واجبات مجمع الخدام، اختيار الرعاة، وتعيين اماكن عملهم، بعد عرضهم لفحص دقيق حول العقائد، واهليتهم للكرازة، وسلوكهم في حياتهم الخاصة والعامة. وكانت مراسيم الرسامة تتم، ليس بوضع الايدي – كما كان في الكنيسة الكاثوليكية – بل بصلاة بسيطة يتلوها احد الرعاة، يتبعها رتبة تأدية القسم للسلطات.

(2) مجمع الشيوخ Le consistoire

كان هذا المجمع يتألف من ستة رعاة واثنى عشر شيخا. وكان يتم اختيار الشيوخ من بين اصحاب السيرة الحسنة والفاضلة، الذين ينتمون الى جميع احياء المدينة. كان هذا المجمع عبارة عن "لجنة مراقبة" من واجبها المراقبة الصارمة والمستمرة، على جميع اعضاء مجتمع جينيف، لتجنب وردع كل انحراف او خطأ في العقيدة والقانون والاخلاق.

ادعى هذا المجمع لنفسه الحق في تنظيم العبادة الدينية وفرض السلوك الاخلاقي على كل المواطنين وارسل قسيسا وشيخا، يزورا كل بيت وكل اسرة سنويا. وكان له الحق في استدعاء أي شخص للمثول امامه، لاختباره، وكان في وسعه تنبيه المخطئين، او حرمانهم من الكنيسة علنا، وكان في وسعه ان يعتمد على مجلس المدينة، وينفي خارج البلاد، من أُصدِر عليهم الحكم بالحرمان. وكان كالفن يقبض على زمام السلطة، باعتباره رئيسا لهذا المجمع. وكان صوته اقوى الاصوات تأثيرا في جينيف، من عام 1541 حتى وفاته في عام 1564. ولم يكن حكمه المطلق يستند الى القانون او القوة، بل الى ارادته.

خّول كالفن هذا المجمع، تنظيم اولا العبادات: "على جميع افراد الاسرة ان يحضروا العظات يوم الاحد، ما عدا من يتركون في البيت، لرعاية الاطفال او الماشية. واذا كان ثمة وعظ في ايام الاسبوع، فعلى كل من يستطيع الحضور ان يجيء". وكان كالفن يلقي عظاته ثلاث او اربع مرات كل اسبوع: "واذا جاء احد بعد ابتداء العظة فلينذر. واذا لم يُقوّم نفسه، فليدفع غرامة قدرها ثلاث فلسفات". وليس لاحد ان يعفى من اداء الصلوات البروتستنتية بحجة انه يعتنق عقيدة دينية مخالفة او خاصة، وكان كالفن متمسكا في رفضه الفردية في العقيدة. فقد رأى انقسام الاصلاح الديني الى مائة طائفة، فقرر الا يسمح بوجود طائفة منها في جينيف. هناك هيئة من رجال الدين العلماء، تصوغ عقيدة رسمية، وعلى الذين لا يقبلون اعتناقها من اهالي جينيف، ان يبحثوا لهم عن موطن اخر. وكان التغيب في اصرار عن حضور الصلوات او الاستمرار في رفض تناول القربان، من الجرائم التي يعاقب عليها القانون. واصبحت الهرطقة من جديد اهانة للرب، وخيانة للدولة، وكل من تثبت عليه يعاقب بالاعدام. كما اصبحت الكاثوليكية بدورها هرطقة.

وبين عامي 1542 و 1564، نفذ حكم الاعدام في ثمانية وخمسين شخصا، ونفي ستة وسبعون، بسبب مخالفتهم للقانون الجديد. وكان السحر في جينيف، كما في أي مكان آخر، جريمة يعاقب من يزاوله بالاعدام. وقد ارسل كالفن الى سارية الاحراق في عام واحد، وبناء على ما اشر به مجمع الشيوخ، اربع عشرة سيدة، قيل انهن من الساحرات، بتهمة اغرائهم للشيطان، بان يصيب جينيف بوباء الطاعون.

ولم يميز مجمع الشيوخ بين الدين والاخلاق. كان السلوك الاخلاقي، مثله مثل العقيدة الدينية، يجب ان يُلتزم به بعناية، ذلك لأن حسن السلوك هو الهدف من العقيدة الصحيحة. وكان كالفن، الرجل الحازم والصارم، يحلم بمجتمع يدين بنظام صارم، الى حد تبرهن فضائل المؤمن على لاهوته، وتجلل بالعار الكاثوليكية، التي اثمرت حياة الترف والانحلال في روما، او تسامحت فيهما. ولا بد ان يكون النظام هو العمود الفقري لشخصية الفرد، وان يمكنها من ان ترقى بنفسها، من حالة الفطرة البشرية، الى استقامة الانسان الذي قهر شهوات نفسه. يجب ان يكون رجال الدين قدوة لغيرهم بسلوكهم، وفي امكانهم الزواج وانجاب البنين، وعليهم ان يمتنعوا عن الصيد والمقامرة واللهو والتجارة وضروب التسلية الزمنية، وان يقبلوا ان يقوم رؤساؤهم من رجال الكنيسة بجولة تفتيشية سنوية، وان يتقصوا عن اخلاقهم.

ولتنظيم سلوك الجماهير اقيم نظام يعتمد على الزيارات المنزلية، يتلخص في ان يزور احد شيوخ الكنيسة كل بيت عيّن له في الحي، ويتقصى عن احوالهم وتصرفاتهم. واقر تحريم المقامرة ولعب الورق والتجديف والسكر والتردد على الحانات والرقص والاغاني الماجنة او الخارجة عن الدين، والافراط في اللهو، والبذخ في العيش، والتبذل في اللبس. وحدد القانون اللون المسموح به في الملابس ومقدارها، وعدد الاطباق المسموح بها في الوجبة الواحدة. وكانت الحلى تعتبر من المحرمات. وسجنت امرأة، لانها صففت شعرها الى ارتفاع يتنافى مع الادب. واقتصرت الحفلات المسرحية على التمثليات الدينية، ثم منعت هذه ايضا. ومنع تسمية الاطفال باسماء القديسين – الواردة في التقويم الكاثوليكي – وامر بتسميتهم باسماء شخصيات الكتاب المقدس. وسجن والد عنيد اربعة ايام، لانه اصر على تسمية ابنه كلود بدلا من ابرهام.

فُرضت الرقابة على المطبوعات، وحُظر تداول كتب تتكلم عن عقيدة دينية خاطئة او انها تتنافى مع الخلق القويم. وكان الحديث عن كالفن او رجال الدين بازدراء يعد جريمة، واول مخالفة لهذه القوانين تعاقب بالزجر، اما المخالفة التالية فكانت تعاقب بالغرامات، والاصرار على المخالفة بالسجن او النفي.

اما الفسق فكان مرتكبه يعاقب بالنفي او بالموت غرقا، ومن يرتكب جريمة الزنا او الكفر او عبادة الاوثان يعاقب بالاعدام.

حكم كالفن (1541–1564)

عن ماذا اسفر حكم كالفن هذا؟

حكم كالفن مدينة جينيف كادكتاتور مستبد منذ عودته الى هذه المدينة عام 1541 وحتى وفاته عام 1564. الا انه لم يتم له ذلك بدون صعوبات وصراع. لا شك ان الصعوبات التي واجهت التنفيذ كانت هائلة، لانه لم يحدث قط في التاريخ ان طُلِبَ من مدينة مراعاة مثل هذه الفضيلة الصارمة، وعارض فريق كبير نظام الحكم الى درجة اعلان الثورة الصريحة. ولكن عددا لا يستهان به من المواطنين ذوي النفوذه ايدوه.

وصف برناردينو اوكينو، وهو رئيس عام سابق للكبوشيين، ترك الكهنوت وانضم الى البروتستنت ووجد ملجأ في مدين جينيف، الحياة فيها: "ان الشتم والتجديف وعدم التمسك بالعفة وتدنيس المقدسات والزنا والحياة غير الطاهرة، كما يشيع ويغلب ذلك في كثير من الاماكن التي عشت فيها، غير معروفة هنا. ليس هناك قوادون ومومسات. ان الناس لا يعرفون ما هو الاحمر، وكلهم يرتدون زيا لائقا، والالعاب التي تعتمد على الحظ ليست مألوفة. والخير وفير جدا الى حد ان الفقراء ليسوا في حاجة الى التسول. ويأمر الناس بعضهم بعضا بالمعروف بطريقة اخوية كما فرض المسيح. والدعاوي اختفت من المدينة، ولم يعد فيها أي اتجار بالمقدسات او قتل او روح حزبية، وعمها السلام وحب الخير. ومن جهة اخرى ليس هناك الآت ارغن ولا اجراس تدق ولا اغاني استعراضية ولا شموع تشعل او مصابيح تضاء (في الكنيسة) وليس هناك ذخائر مقدسة او صور او تماثيل او اثواب فاخرة او هزليات او احتفالات. ان الكنائس خالية تماما من عبادة الاوثان".

الا ان سجلات المجلس البلدي عن هذا العهد، لا تتفق مع هذا الوصف، فهي تكشف عن نسبة عالية من الاطفال غير الشرعيين والاطفال المهجورين والزيجات التي تمت بالاكراه والاحكام الصادرة بالاعدام. ومن بين من ادينوا بالزنى صهر كالفن وابنة زوجته وامرأة اخيه. وبين سنة 1542 وسنة 1563، حكم بالموت على 85 شخصا وبالنفي على 76 من اجل جرائم مختلفة وسوء الاخلاق.

الصراع والمعارضة

ربط كالفن عودته الى جينيف بقبول المجلس البلدي خطته التنظيمية للكنيسة: وجوب تأدية القسم لقانون ايمانه، واتباع ليتورجيته، والخضوع لقوانين كنيسته، بما يخص حضور الوعظ، وقبول الاسرار، وخصوصا مجموعة المحرمات التي فرضها. ولم يستطع كالفن ان يفرض هذه النظام، لا على الرعاة ولا على الشعب الا على حساب مجهود كبير وهمة لا تقهر.

كان اول صراع له مع الرعاة انفسهم. كان هؤلاء، بحسب شهادة صديقه فاريل، "رجالا وضعين، مفرطين في الاكل والشرب، اجلاف، مشاغبين"، لا رئيس لهم، ولا يؤلفون جسما متجانسا، وتنقصهم الوحدة، وخطة عمل مشتركة. اراد كالفن ان يضع حدا لهذه الفوضى، ودفع ثمن ذلك غاليا الكثير من الرعاة المتمردين الذين ارغموا على مغادرة البلاد، ووضع مكانهم رعاة فرنسيين من اصدقائه المهاجرين الى جينيف، هربا من الاضطهاد في فرنسا. ومن هؤلاء الرعاة سبستيانو كاستيليو.

قضية سيباستيان كاستيليو *Sebastian Castellio*

تعرف كاستيليو على كالفن في ستراسبورغ، ثم جاء الى جينيف وعين مديرا لاحدى المدارس. قدم طلبا لتعيينه راعيا في جينيف، وصادق عليه مجلس الرعاة، لكن كالفن عارض التعيين لان كاستيليو انكر قانونية سفر نشيد الاناشيد، وقال ان سليمان كتبه في ساعة من النشوة واللذة المحرمة. كما شكّ في فقرة من قانون ايمان كالفن وهي نزول المسيح الى الجحيم. وفي اثناء دفاع كاستيليو عن نفسه ادلى بملاحظات فاضحة عن رعاة جينيف مما اضطر المجلس اخيرا ان يقصيه عن وظيفته ويطرده من المدينة.

صراعه مع السلطة المدنية

كانت حكومة جينيف، عند عودة كالفن اليها، تتألف من ثلاث مجالس: المجلس الصغير le Petit Conseil، او مجلس العشرين Le Conseil des Vingt، ومجلس الستين Sénat ou le Conseil des Soixante، والمجلس الكبير Le Grand Conseil او مجلس المائتين Le Conseil des Deux Cents، ولكل مجلس صلاحياته. الا ان صلاحية اخذ القرارت واصدار القوانين وتعيين رؤساء المجلس كانت بالفعل تعود الى المجلس العام او الشعبي l'assemblée populaire, او Le Conseil Général. فبدل كالفن في هذا النظام، واعطى المجالس المذكورة صلاحية اصدار القوانين، اما تعيين رؤساء المجالس، فكان من حق الشعب انتخابهم، الا انه قيدهم بلائحة اسماء مختارة من قبل المجلس الكبير. وبذلك فقدت جينيف الحكم الديمقراطي الذي منحها اياه حكم الاساقفة السابق.

بعد ان لجم كالفن سلطة الشعب، اراد ان يثبت اولوية السلطة الدينية بارغام المجالس على قبولها. الا ان هؤلاء لم يرضخوا بسهولة لنزع حقهم والتنازل عن سلطتهم سواء في اختيار وتعيين وعزل الرعاة او في تعيين الشيوخ في مجلس الشيوخ، وحرمان اشخاص من العشاء الرباني، واراد ان يتم استشارته، وان لا يعطى للسلطة الدينية حق ممارسة السلطة المطلقة بدون رقيب او حسيب. لم يكن هدف المجالس برفضهم هذه السلطة، معارضة الاصلاح، انما كانوا يرغبون فعلا في بقاء ما كا قائما قبل مجيء كالفن، لانهم لم يريدوا، بعد ان تركوا الكاثوليكية، وحطموا سلطة الاساقفة، ان يقعوا في دكتاتورية اخرى.

لذلك كثرت النزاعات بين السلطتان المدنية والدينية.

قضية بيير اميو *Pierre Ameaux*

بحلول سنة 1546 حظرت القوانين الجديدة ممارسة لعب القمار. عانى احد الاشخاص المدعو بيير اميو، وكان احد اعضاء المجلس الصغير، والذي كان عمله تصنيع ورق اللعب، من خسائر مادية. وفي حفل ما وبعد ان شرب الكحول، هاجم كالفن شخصيا ووصفه ب انه يبشر بعقيدة زائفة وانه رجل شرير. ابلغوا عنه وأُرغم على المثول امام المجلس. استمرت المحاكمة بعض الوقت وانتهت الى القرار بالحكم على اميو ان يقدم اعتذارا الى كالفن. لم يكن هذا كافيا بالنسبة لكالفن. وعلل ذلك ان اميو لم يهن كالفن فقط وانما اهان الله ايضا، لذلك يجب ان يعوض عن ذلك، وطالب بعقوبة اشد. اخيرا رضي كالفن بحكم المجلس، ان يطوف اميو المدنية حافي القدمين، عاري الرأس، مرتديا قميصا فقط وحاملا مشعلا، لينتهي به المطاف راكعا على ركبتيه ملتمسا الرحمة من الله والحكومة. ولما انتقد احد الرعاة العقوبة بانها قاسية جدا، سجنه المجلس واقصاه عن رعيته.

قضية عائلتي بران وفافر *Les Perrin et les Favre*

اراد كالفن، بعد انتصاره في قضية اميو، ان يضرب ويذل هذه المرة الطبقة البرجوازية، التي سمحت لنفسها ان تتجرأ وتتحداه وتسخر منه. وجاءت قضية عائلتي بران وفافر لتطعي كالفن هذه الفرصة.

كانت عائلتا بران وفافر من العائلات التي تعتبر نفسها من العائلات المستقلة والحرة، وكانت تدعي انها لا تتبع من النظام الكلفيني الا ما يروق لها. وكان رئيس العائلة امي بران، في بداية الاصلاح، رئيسا للحزب المؤيد للاصلاح، وعمل ساعيا لعودة كالفن الجينيف، الا انه ونسيبيه فافر لم يوافقا على السلطان الذي كان يستعمله المجمع في مراقبة سلوك الناس والحكم عليها.

في عام 1547، حكم على امي بران بالسجن والتوبة في حادثة اخلاقية قديمة. وارسله المجلس البلدي الى مجلس الشيوخ، فحضر الا انه اعترض على صلاحياته في الحكم عليه والتدخل في الامور الخاصة والشخصية. وطلب مجلس الشيوخ من الجلس البلدي ان يعوض بران عن الاهانة التي احاقت بمجلسهم. فرفض المجلس.

وبعد مدة قصيرة طُلب من فرانسواز فافر، ابنة بران،الحضور امام مجلس الشيوخ بتهمة الرقص في حفلة زفاف، وبدل ان تدفع الغرامة التي فُرضت عليها، اجابت انها ستواصل الرقص كما يحلو لها، وزيادة على ذلك اهانت الحكام. اعترض امي بران بشدة وعلانية على حق مجلس الشيوخ في التدخل في الامور الخاصة، وبعد صراع طويل وقف مجلس المدينة بجانب كالفن، وسجن بران عدة ايام. بعد خروجه من السجن، أُرسل الى الخارج بمهمة دبلوماسية. وبعد عودته ترك الحزب المؤيد للاصلاح وانضم الى الحزب المعارض.

قضية يعقوب جريه Jacques Gruet

كان كالفن يأمل بكل هذه الاحكام ان يوطد سلطته على سكان جينيف. ولكنه في الحقيقة اثار ضده عددا لا بأس به من مؤيديه الذين انفصلوا عنه وانضموا الى الحزب المعارض، وبدأوا في انتقاد الطغيان والاستبداد.

في 27 حزيران عام 1547، وجد كالفن اعلانا كبيرا ملصقا على منبره جاء فيه: "منافق كبير، انك لن تجني انت ورفقاؤك الا النذر اليسير، واذا لم تنجوا بحياتكم بالهرب، فلن يحول احد دون القضاء عليكم. عندما تزيد من اثارتك لنا فنحن نفجر، وعندما تحملنا اكثر مما نطيق نلجأ للانتقام. نحن لا نريد بعد ذلك ان يكون لنا مثل هذا العدد الكبير من السادة". اتهم كالفن يعقوب جريه، احد كبار "جماعة الاحرار". وفتشت الشرطة بيته، ولم يجدوا دليلا على انه هو كاتب المنشور، الا انهم وجدوا بعض الاوراق التي تثبت انه كا يضع الكتاب المقدس موضع الشك، ويهاجم مؤلفات كالفن، حيث كتب في احدى الصفحات: "كل القوانين الهية وانسانية صنعها الناس بمزاجهم". وعلى هامش احد مؤلفات كالفن كتب كلمة "تخريف". فوجهت اليه تهمة التجديف، اذ ان الهجوم على الكتاب المقدس او المبادىء المستمدة منه كان يعتبر هجوما على جلال الله نفسه. عندئذ عذب جريه وحكم عليه بتهمة الخيانة العظمى وقطع رأسه.

استمرار المعارضة

واستمرت المعارضة تزداد يوما فيوما، وازداد التذمر، ولم يعد احد يتكلم الا عن مؤمرات لطرد الوعاظ. وفي الثامن عشر من كانون اول عام 1547، اندلعت الفوضى والاضطراب في كنيسة القديس بطرس في جينيف، ووجه الحضور الاهانات الى الوعاظ الفرنسيين، وهددوا بالقائهم في النهر. وغدا كالفن منهكا من العمل والحزن، وبدأت صحته تزداد اعتلالا، وتملكه اليأس امام رفض اهل جينيف سماع تنبيهات الله، وتمردهم على رعاته. فكتب بهذه الروح المتضعضعة الى صديقه فاريل يقول: "لا استطيع ان اتحمل بعد تصرفات هذا الشعب". الا انه عاد واستعاد قواه ووقف من جديد امام اعدائه.

واستمر الصراع ووصل اوجه بين عام 1548 الى 1553. ففي انتخابات عام 1548، ظهرت النتائج لغير صالح كالفن، اذ اصبح مؤيدوه حزب اقلية لاول مرة منذ عودته الى جينيف،. وتم اختيار رئيس الشرطة من بين اعدائه. واصبح امي بران في عام 1549، رئيس المجلس البلدي. فاتخذ المجلس عدة تدابير واجراءات تحدّ من سلطة كالفن. واصابت احدى هذه الاجراءات، احدى النقاط الحساسة لدى كالفن، الا وهي "المهاجرين" الذين كان اعتماد كالفن

عليهم كليا. فاصدر مجلس المائتان قرارا عام 1551، يمنع بموجبه قبول أي غريب في سلك البرجوازية، وبالتالي يمنع قبوله في المجالس، قبل مرور 25 عاما على اقامته في المنطقة. وبذك اصبح المهاجرون فئة غير مرغوب فيها وعرضة للنفي.

قضية جيروم بولسك *Jerome Bolsec*

كانت معظم القضايا التي تعرضنا لها حتى الان خليطا من القضايا السياسية والدينية معا. ولكن قضية بولسك تعتبر من المشاكل العقائدية المهمة جدا، لانه اعترض علانية على تعاليم كالفن في موضوع الاختيار السابق.

ولد بولسك في باريس، وانخرط في سلك الرهبنة الكرملية على انه لم يستمر طويلا في الدير، فقد خلع ثياب الرهبان وتخصص في دراسة العلوم الدينية والطب، وحصل على درجة الدكتوراه في العلوم الدينية.

انضم الى مذهب الاصلاح، واضطر الى الفرار الى ايطاليا اولا عام 1545، ومن ثم الى جينيف عام 1548، حيث كان يمارس مهنة الطب.

اعتاد بولسك على حضور اجتماع الرعاة الذي كان يعقد كل يوم جمعة. وقد خصص هذا الاجتماع كما قلنا، لدراسة الكتاب المقدس ومناقشة بعض المسائل العقائدية. اظهر بولسك في عدة مناسبات عدم موافقته على تعاليم كالفن الخاصة بالاختيار السابق. واضطر الرعاة عدة مرات الى توبيخه. وفي يوم 16 تشرين اول عام 1551، تحدث في اجتماع الرعاة محتجا بشدة على عقيدة الاختيار السابق، وخاصة الاختيار المزدوج (Double prédistination). واعلن ان كالفن بقبوله لهذه العقيدة والتعليم، ينسب الى الله فعل الخطيئة، باعتباره (الله) المسؤول عن هلاك الخاطئين، لانه هو الذي سبق وعينهم للهلاك. وهذا الاختيار لا يتم بحسب الاعمال الصالحة او الاعمال الشريرة التي يقوم بها الانسان، بل ان هذا الاختيار يتم حسب مسرة الله وارادته، أي ان تعاليم كالفن هذه تجعل من الله غير عادل وطاغية.

رد كالفن على بولسك بحدة وانفعال، ودافع عن عقيدة الاختيار المزدوج. واستعمل كلمات قاسية بل جارحة. وكان حاضرا في هذا الاجتماع أحد المسؤولين عن النظام والقضاء، فامر حالا بالقبض على بولسك، والقاه في السجن. واستمرت القضية طويلا. وكان النقاش بين المتهم وكالفن نقاشا حادا. وعندما اجتمع مجلس المدينة في 21 كانون ثاني 1551، حكم على بولسك بالنفي المؤبد. على انه لم يعط كل الحق لكالفن. الا انه اعلنه المفسر الرسمي للكتاب المقدس. وعاد بولسك بعد ذلك الى الكنيسة الكاثوليكية وكتب كتابا عن كالفن.

قضية برتليه Berthelie

كان نفي بولسك من المدينة يُعتبر انتصارا لكالفن ولاتباعه، ولكن بالرغم من هذا الانتصار فقد كان فرصة اضعفت نفوذ كالفن واتباعه. فان الفترة التي قضاها بولسك في السجن اثارت عطف الكثيرين عليه، لا بل ازكت روح المقاومة ضد كالفن. وبدأ حزب المعارضة الاحتجاج من جديد على سلطة كالفن والمجمع. وفي انتخابات عام 1553، اصبح كل اعضاء المجلس البلدي (Syndics) تقريبا من حزب المعارضة، واصدر عدة قرارات تحد من سلطة كالفن الدينية. فاصدر مرسوما اول في اذار 1553، نزع من الرعاة حق الانتخاب في المجلس العام، ومرسوما ثانيا في نيسان، حرم المجمع العام، من حق الحرمان. وتقدم على اثر ذلك، برتليه Berthelie وهو من الحزب المعارض، بطلب الى مجلس المدينة يلتمس ان يسمح له بالاشتراك في العشاء الرباني. وكان برتيليه يهدف من هذا الطلب الى هدم وتحطيم سلطان كالفن وسلطان المجمع.

اجتمع مجلس المدينة الذي كانت اغلبية اعضائه من المنافسين والرافضين للاصلاح، وتحت رئاسة امي بران. وقرر ان تترك الحرية الكاملة للسيد برتيليه للاشتراك او عدم الاشتراك، كما يوحي له ضميره. وليس للمجمع أي سلطة تمنعه من ذلك، وتمسك بهذا القرار. وكان القرار تحديا صارخا لسلطان الكنيسة وسلطان كالفن.

اعترض كالفن والرعاة على هذا القرار، وتمسك كالفن بشدة، بمنع برتيليه وحق المجمع في الحرمان. كان التسليم بهذا القرار يعني بالنسبة الى كالفن انهيار كل النظام السياسي–الديني الذي عمل على بناءه. وبدأ يعد نفسه للرحيل

وترك المدينة، عندما ثارت قضية من اهم القضايا التي تعرض لها كالفن، واصبحت نقطة سوداء في تاريخ الكنيسة الكلفينية، الا وهي قضية ميشيل سرفه.

قضية ميشيل سرفه *Michel Servet*

سببت هذه الحادثة مشادات ومجادلات في عصر كالفن واستمر الحوار حولها بين المؤرخين. وقضية سرفه وان افضت الى كسب سياسي لكالفن، فانها الى حد ما انقصت من شهرته وسمعته.

كان سيرفه اسبانيا في سن كالفن تقريبا. درس في فرنسا وسويسرا حيث تأثر بالافلاطونية. اتخذ موقفا من علاقة يسوع المسيح الابن، بالله الاب، شبيها بالمودليزم، أي التوحيد المختص بالقول ان الله اقنوم واحد في اطوار ثلاثة. الف ايضا كتابا منتقدا عقيدة الثالوث، مدعيا انه لا يوجد ما يؤيد هذا التعليم في الكتاب المقدس. سبّب هذا الكتاب عاصفة في كلا المجتمعين الكاثوليكي والبروتستانتي لدرجة ان سيرفه اختبأ وانتحل اسما آخر. وانتقل الى باريس ودرس الطب وتوصل الى اكتشاف هام عن دورة الدم الرئوية.

في حوالي سنة 1555 قام سيرفه، مع استمراره في مهنته كطبيب، وتحت اسم مستعار، بكتابة كتاب عنوانه "اصلاح المسيحية"، هاجم فيه العقائد المسيحية الاساسية مثل الثالوث والوهية المسيح. وكان يغلب على تعليمه مذهب الحلولية Panthéism. في هذه المدة ايضا بدأ سيرفه مراسلاته مع كالفن. ارسل له كالفن نسخة من كتابه "الانظمة" الذي اعاده سيرفه بملاحظات مهينة مكتوبة على الهوامش. عندئذ ارسل سيرفه الى كالفن نسخة من كتابه "اصلاح المسيحية". بعد ان قرأه كالفن، قال لاحد اصدقائه: "هذا الرجل بالتأكيد ابن الشيطان". استمرت بينهما المراسلات بعض الوقت، لكن المواقف كانت متباعدة جدا لدرجة ان كالفن قطع علاقته معه، كاتبا الى فاريل هذه الكلمات: "اذا حضر سرفه الى جينيف لن اسمح بان يخرج حيا".

في نفس الوقت تقريبا كشف صديق لكالفن اثناء كتابته لابن عمه الكاثوليكي في فرنسا، ان سيرفه موجود هناك، بل ارسل بعض صفحات من كتاب سرفه. ورغم استمرار سيرفه في انكار هويته الحقيقية، قبضت عليه السلطات الكاثوليكية وقدمته للمحاكمة مذنبا بجريمة الهرطقة. الا انه هرب قبل التمكن من اعدامه، فحرقت دميته ونسخا من كتابه.

تجول سيرفه داخل فرنسا بعض الوقت، ثم اتجه الى ايطاليا، وفي طريقه توقف في جينيف، وصلى في كنيسة القديس بطرس مع كالفن في المنبر. اكتشفوه وقبضوا عليه وقدموه للمحاكمة ب 38 تهمة اهمها الهرطقة.

تطورت هذه المحاكمة الى مناقشة لاهوتية بين كالفن وسيرفه. اتهم كالفن سيرفه باعتناق مذهب الحلولية، وارغمه على التسليم ان بلاط ومقاعد قاعة المحكمة هي في الحقيقة "مادة الله". عندئذ قال كالفن "اذن الشيطان هو الله في المادة" فاجب سيرفه "هل تشك في ذلك؟". اتهم سيرفه ايضا بالتجديف في اقتراحه ان موسى كان مخطئا في تسمية فلسطين ارضا "تدر لبنا وعسلا". وكا واضحا ان سيرفه لم يتوقع تعاطفا من المجلس ازاء هذه الآراء. علاوة على ذلك، طلب المجلس المشورة من برن وبازل وزوريخ، وكانت اجابة الكل ادانة سيرفه.

لو كانت المناقشة اللاهوتية الموضوع الوحيد في قضية سيرفه، لانتهت القضية عند هذه النقطة. لكن هناك ايضا الوضع السياسي لكالفن، ذلك ان اعداءه كانوا يأملون ان يكون في امكانهم استخدام المحاكمة لاختبار القوة الاحزاب المنافسة في جينيف وثبات قوة كالفن في الهيمنة على المدينة. حاول برتيليه، احد اعضاء حزب المعارضة الدفاع عن المتهم، ليس من منطلق التعاطف مع سيرفه، لكن كوسيلة لانتزاع الثقة من كالفن، هذا بالطبع اضاف بُعدا جديدا للمحاكمة. اصبح من المحتم على كالفن ان يكسب لكي يضمن مركزه السياسي.

عند وصول اجابات الادانة باجماع الآراء من المدن الاخرى، تحركت جينيف بسرعة لاصدار الحكم على سيرفه. وفي 26 تشرين اول سنة 1553، صدر الامر باعدامه حرقا. سبق لكالفن ان طلب موتا اقل تعذيبا مثل الاعدام بقطع الرأس. لكن المجلس اهمل هذا الطلب. وعندما اقتيد الى المحرقة، توسل اليه فاريل ان ينكر ويتخلى عن هرطقته.

لكن سيرفه كان شجاعا لاخر لحظة. وكان كلماته الاخيرة من وسط اللهيب المتصاعد "يا يسوع انت ابن الله الازلي، ارحمني".

كانت مقاضاة كالفن الخالية من الرحمة بدون شك السبب في ادانة سيرفه. تأسفت الاجيال المتعاقبة في الكنيسة الكالفينية لهذا العمل، وتمنت لو ان كالفن كان اقل قسوة. ويأخذ البروتستنت ايضا على كالفن، انه شارك الكنيسة الكاثوليكية في مفهومها للحكم على الهراطقة بالموت. لقد هرب سيرفه من الموت الذي اصدرته عليه الكنيسة الكاثوليكية في مدينة فين، وجاء الى قلعة البروتستانتية فوجد فيها الموت ايضا. واعترفت الكنيسة الكالفينية بهذه الغلطة التي ارتكبها كالفن وبعض اتباعه، ولاجل ذلك قررت الكنائس الكالفينية في فرنسا وجينيف ان تعترف بهذا الخطأ بطريقة واضحة، فالفت لجنة لدراسة هذا المشروع. وبعد دراسة طويلة قررت اقامة حجر ضخم في نفس المكان الذي حرق فيه سيرفه في مدينة جينيف. وفي يوم 27 تشرين اول سنة 1903، اجتمعت الكنائس الكالفينية في جينيف، بالاشتراك مع بعض الكنائس الاخرى السويسرية والفرنسية، وفي حفل تذكاري مهيب، ازيح الستار عن الحجر التذكاري الضخم، وقرأ الحاضرون هذه الكلمات: "نحن ابناء كالفن العظيم الذين يحترمونه ويعترفون بفضله، ولكننا ندين غلطة كانت معهودة في عصره. واذ نتمسك تمسكا ثابتا بحرية الضمير حسب المبادىء الصحيحة للاصلاح والانجيل نقيم هذا الحجر التكفيري في يوم 27 تشرين اول 1903". واقامت كل من مدنية فيينا Vienne وباريس وانماس تمثالا لسرفيه. كما اعطت مدينة ديجون اعطت اسم سيرفه لنفس الشارع الذي توجد فيه الكنيسة الانجيلية.

اكاديمية اللاهوت

وجد كالفن طريقة اخرى لمواصلة عمله في نشر تعاليمه وعقائده، وهي انشاء اكاديمية علمية. وكانت الفرصة التي قضاها في ستراسبورغ فرصة ذهبية لكي يرى عن كثب مدرسة الدراسات العليا التي اسسها يوحنا ويعقوب ستورم في سنة 1538، والتي درّس هو نفسه فيها العلوم الدينية المسيحية.

وبينما كان كالفن يدرس مشروع الاكاديمية ويخطط لها، اندلع نزاع عقائدي سياسي بين حكومتي برن ولوزان، مما اضطر عددا كبيرا من الاساتذة الى الهروب من لوزان الى جينيف وخاصة من الفرنسيين اصدقاء كالفن، مثل مارتن كورديه، ثم صديقه العزيز ومؤرخ حياته ثيودور دي باز، وعدد اخر من الاساتذة الذين طارت شهرتهم الى الخارج.

بدأ كالفن عندئذ تأليف نخبة من الاساتذة الاكفاء، وأسند رئاسة الاكاديمية الى صديقه ثيودور دي باز، فاصبح اول عميد لها. وكان يدّرس كالفن الكتب المقدسة، واهتم برو Beraud بتدريس اللغة اليونانية. وكان هناك استاذا للعبرية واخر للفلسفة وآخر للغة اللاتينية. ودشنت الاكاديمية في 5 حزيران عام 1559.

اشتهرت هذه الاكاديمية في كل اوروبا. فجاء اليها طالبو العلم من كل انحاء اوروبا، ومن بين هؤلاء الطلبة مصلح المستقبل الاستكلندي جون نوكس John Knox. وامدت هذه الاكاديمية البلاد الاوروبية بالخدم (القسس)، ومنها خرجت الافواج لنشر الافكار الكلفينية في فرنسا وهولندا وانجلترا والمانيا وبولونيا والمجر.

تدهور صحة كالفن

اصبحت جينيف الان في قبضة يده، فقد ربح الحزب المؤيد لكالفن في الانتخابات الجديدة، واصبحت الاكثرية في مجلس المدينة، وبناء عليه فان الدستور الذي كان موضوع النزاع المستمر، يطبق الان بطريقة عملية.

كانت هذه الفترة فترة نمو مستمرة لسلطة كالفن وسلطة المجمع. ففي هذه الفترة ايضا حصل كالفن على حق الجنسية الجينيفية. فحتى الآن كان يُعتبر اجنبيا غريبا. وفي عيد الميلاد سنة 1559، أي بعد عدة شهور من تأسيس الاكاديمية، قدم حاكم المدينة للمصلح الفرنسي يوحنا كالفن الجنسية الجينيفية مع كل امتيازاتها.

في نفس اليوم الذي حصل فيه كالفن على الجنسية الجينيفية، وبينما كان يتناول طعام الغذاء مع اصحابه في 25 كانون اول 1559، وهو يوم عيد الميلاد، بصق دما، وبكميات ضخمة.

كان كالفن يعلم حالته الصحية وضعف بدنه، فقد كان يعاني منذ شبابه بعدة امراض، ومنها الصداع المؤلم . ثم تراكمت الامراض، بجانب صداع مستمر، ازمات ربو حادة مع رشح. وظهرت بعد ذلك مرض البواسير والحمى، انهكت قواه واضعفت جسده، فاصبح حقلا مهيئا لمرض الدرن الذي كان يُعد في ذلك الوقت مرضا خبيثا. كما كان يقاسي من مرض الكلى، ومغص كلوي حاد ومؤلم.

وبجانب هذا تعرض كالفن ايضا الى ازمات نفسية، كان اولها موت ابنه الوحيد الذي لم يتجاوز خمسة عشر يوما. وجاء بعد ذلك اتهام ابنة زوجته التي كان يعتبرها كابنته، بالزنا وحكم عليها مجلس المدينة بحسب القوانين المتبعة في ذلك الوقت بالسجن. ثم مشكلة اخيه انطون الذي جاء مع زوجته، واخته ماري، وكان كلاهما خير مساعد له، الا ان زوجة انطون اتهمت بالزنا، وقضت 9 سنوات في السجن. بيد ان اقسى تجربة كانت موت زوجته.

ظل هذا الرجل يعمل حتى الايام الاخيرة من حياته، بالرغم من كل المعوقات، وخاصة العقبات الصحية. فقد بدأت صحته في التدهور بشكل واضح في السنة الاخيرة من حياته. فقد تغيب مرات عديدة عن جلسات المجمع في سنتي 1563-1564. وبالرغم من حالته الصحية المتدهورة، استطاع ان يخرج تفسيره عن ارميا سنة 1563. وفي يوم 4 شباط 1565 القى محاضرة امام تلاميذ الاكاديمية عن سفر حزقيال. وفي يوم 6 شباط، قدم عظة عن توافق الاناجيل، وبعد هذه العظة لم يصعد على المنبر.

موت كالفن

في يوم 25 نيسان استدعى كالفن الى بيته الكاتب الشرعي، وامل عليه وصيته الاخيرة التي ذكر فيها ما ملخصه، انه يقدم اولا الشكر لله على رحمته ومحبته وطول أناته، وانه يتوسل الى المسيح ان يمنحه رحمته. اما فيما يخص الممتلكات البسيطة، فقد منح جزءا منها على هيئة منح دراسية للطلبة الفقراء، والباقي من ممتلكاته يوزع على اخوته.

اراد ان يذهب في 27 نيسان لمقابلة مجلس المدينة، فرفض المجلس ان يحضر كالفن، بل ذهبوا كلهم الى بيته ، فشكرهم على لطفهم وعلى الصبر الذي اظهره من ناحيته، طالبا منهم ان يغفروا له الاغلاط التي ارتكبها.

وفي الغد حضر خدام المجمع فحثهم على مواصلة العمل باجتهاد وصبر.

يعرفنا المؤرخ كولادون، ان الايام الاخيرة من حياته كانت الآما مستمرة، ولكنها كانت في نفس الوقت صلاة مستمرة ايضا. وكان يردد المزمور 39 وخاصة الاية "صمت لا افتح فمي لانك انت فعلت"، وفي الاحيان الاخرى كان يصلي قائلا: انك تؤدبني وتضربني، ولكن يكفيني ان يدك هي التي تفعل ذلك...".

وفي يوم 27 ايار شعر كالفن بتحسن ملحوظ، وكان يتكلم بطريقة واضحة واعية، استمرت هذه الحالة النهار كله، ولكن عند المساء ساء وضعه، وتوفي في حوالي الساعة الثامنة مساء من نفس اليوم 27 ايار 1564.

وفي الغد خرجت المدينة كلها، شعبا واكاديمية واساتذة وطلبة، لتودعه. ودفن كالفن في مقبرة بلانباله Plainpalais، بطريقة بسيطة، ولم يوضع حتى حجر باسمه كما طلب في وصيته، وذلك ظل قبره مجهولا حتى الان.

كالفن الرجل

قليلون هم الرجال الذين تعرضوا للجدل مثل جون كالفن. فاذا ما كان تلاميذه قد بجلوه اكثر من المعقول، فان اعداءه قللوا من قدره بطريقة غير عادلة، حتى انهم اتهموه باتهامات باطلة، اثناء فترة شبابه [1].

نريد في هذه الاسطر، ان نلقى نظرة على شخصية كالفن، الذي يعد من الوجوه الكبيرة في التاريخ، متجنيبين في نفس الوقت، مبالغة اصدقاءه وتطرف اعداءه.

من الناحية العقلية Intellectuel

[1] تقول احد الشائعات، انه حكم عليه بان يُعلّم بالحديد الحامي، واجبر على ترك نويون بسبب اعمال شائنة.

يعتبر كالفن من *انشط العقول* في عصره. بفضل ذاكرة قوية، وهمة في العمل، وقدرة على الاستيعاب، كان قادرا، في كل عظاته ومحاضرته، وحوارته، ان يستشهد – بدون أي ملاحظات مكتوبة اوالرجوع الى النصوص – بفقرات طويلة من كتّاب قرأ لهم وحفظ نصوصهم بامانة. كما كان قادرا في الاجتماعات على تذكر القرارات التي أُخذت، والحوادث التي مرت، والاخطاء التي ارتبكت. كما امتاز كالفن ايضا بقوة تمييز قوية، وبصيرة نادرة.

رجل *عملي اكثر منه نظري*، كان يستطيع ان يقدّر بسرعة الاشخاص والاشياء. كان يحسب مقدما المكاسب التي يمكن ان يجنيها، دون ان يقلل من الصعوبات التي سيلقاها.

كان *ذكاء* كالفن، الذي كان يعتبر من اكثر العقول ثقافة وعمقا، قويا اكثر منه منفتحا. فقد بقي كالفن منغلقا على كثير من العلوم التي تطورت في عصره، وبقي متعلقا بعلم الفلك القديم، وآمن بالتنجيم، وان الله يكشف للبشر عن المستقبل من خلال مراقبة الافلاك، وعندما انتشر وباء الطاعون في جينيف، عزا ذلك الى عمل السحر والسحرة، واعلن عليهم حربا شعواء. كما بقي منغلقا على الفن، فلم تثر فيه المناظر الطبيعية الخلابة لسويسرة أي تأثير او عاطفة. وهو الذي امر بتدمير الاعمال الفنية من صور وتماثيل واجراس والات موسيقية. ولم يجد الا الغناء الديني والترانيم حظوة في عينيه، ليس كفن، وانما كطريقة واسلوب لنشر تعاليمه الاخلاقية.

ملك كالفن *ارادة قوية*، ولكنها باردة لا تنثني، جعلت منه قائدا حقيقيا. ولم يحدث ابدا ان رجلا سياسيا ودينيا – وكان كالفن كلاهما – تابع تحقيق مخططاته بكل مثابرة وعيناد في تنفيذها. لم يسمح للمعارضة ولا للعوائق التي وضعها اعدائه امامه، بارباكه، بل اذا ما شعر من وقت الى اخر بلحظات من الضعف وخوار العزيمة، سرعان ما عاد الى متابعة اعماله بهمة ونشاط كبيرين.

فكرة قوية واضحة ثابتة، قادت ودعمت شجاعته، وهي انه كان مقتنعا ان رسالته هي من الله، وانه النبي الجديد، موسى او بولس اخر. وان الله يتكلم ويعلم بواسطته. من هنا ايضا نبع ايمانه بعصمته. ومن ايمانه بعصمته نبع ايضا استنكاره لكل من لا يفكر مثله فنعتهم "بالهراطقة" و "الفاسقين الذين يعادون الله من خلال معارضتهم لمثله". وعلى مثال لوثر وربما باقل بذاءة، نعت كل من عارضه ب "الكلاب" و "الحمير" و "البلاهاء". الا انه عرف من وقت الى اخر ان يخفف من حدة عدم تساهله في تعاليمه، وان يتكيف مع بعض الظروف ويتنازل عن بعض مطلباته في سبيل تثبيت دعائم كنيسته.

نقطة ضعف كالفن كانت تكمن في *قلبه وعواطفه*. كان ينقص كالفن احد الصفات الكبيرة التي تجعل من الكبار كبارا، وهي *الطيبة*، هذه العاطفة الدافئة، الاخوية، المحيبة، والمنفتحة نحو ما هو عالمي. لقد حاول المؤرخون ايجاد الاعذار لقساوة وصرامة كالفن في انه لم يعرف طيلة حياته الا الالام والصعوبات والمعارضة. فمنذ صغره فقد امه، ولم يعرف في بيت ابيه وامرأته مهنا للسعادة العائلية، وفي كلية مونتيجه الاقرب الى دير منه الى كلية، لم يلق الا المعارضة.وفي جينيف ولمدة خمسة وعشرين عاما، وبالرغم من صحة عليلة صعيفة، أُجبر على ادارة معركة طاحنة ضد حتى من آمنوا بانجيله. فلا عجب اذن ان يقسو قلبه وتضعف عاطفته.

الكاتب:

يدهش المرء عندما يلقي نظرة ولو سريعة على الاعمال والمؤلفات التي صنفها كالفن. فبالرغم من المسؤوليات العديدة التي القيت على عاتقه في تنظيم وسن القوانين الدينية في بعض الاحيان المدنية ايضا، اذ ان مجلس المدينة طلب منه الاشتراك في مشروع عمل بعض القوانين الخاصة بالمدينة ثم قيامه بتنظيم الكنيسة والمجمع، والقيام بالوعظ في ايام الاحاد وفي وسط الاسبوع، كذلك ايضا قيامه بالتدريس واعداد الرعاة، والزيارات الرعوية، وصراعه المستمر مع الحزب المعارض وكذلك صراعه مع الحزب المؤيد لوجود بعض اختلافات بينه وبين بعض الرعاة وبعض اعضاء هذا الحزب. نرى هذا الرجل النحيف المعتل الصحة يترك خلفه مجموعة ضخمة من المؤلفات: تسعة وخمسون مجلدا من المجلدات الضخمة، خصوصا في تفسير الكتاب المقدس. نكتفي بالكلام عن اهم مؤلفاته:

كان الغرض من كتابته هو الدفاع عن الانجيليين المضطهدين في فرنسا. ولاجل هذا السبب كتب كالفن مقدمة طويلة اهداها الى فرانسوا الاول ملك فرنسا الذي شن حربا ضد الانجيليين. كما انه اراد بهذاالكتاب ان يقدم تفسيرا وضاحا وصحيحا ليس للملك فقد بل لكل الشعب الفرنسي وغير الفرنسي للعقيدة الانجيلية.

الطبعة الاولى: ظهرت الطبعة الاولى في مدينة بازل في شهر اذار عام 1536، باللغة اللاتينية. كان المجلد يحتوي على 516 صفحة من الحجم الصغير الذي يمكن وضعه في الجيب بسهولة. وقد قسم الى ستة فصول، عالج في الفصول الاربعة الاولى: الناموس والهدف منه، قانون الايمان ومحتوياته، الصلاة الربانية ومعناها، وسري العشاء الرباني والعماد. وحاول في الفصلين الاخيرين معالجة الفرائض المزيفة غير الحقيقية، ثم مشكلة الحرية الدينية. في هذين الفصلين قدم كالفن مفهومه للحرية المسيحية وعلاقة الكنيسة بالدولة. واشار بطريقة غير مباشرة الى قضية المنشورات التي ظهرت في سنة 1543، وموقف الدولة منها والاضطهادات العنيفة التي عاشها الانجيليون بسببها. كان نجاح هذا الكتاب كبيرا، ونفذ من المطبعة بعد سنة من ظهوره.

الطبعة الثانية: عندما نفي المصلح من جينيف وذهب الى مدينة ستراسبورغ، بدأ في توضيح وتوسيع وتطوير الطبعة التي ظهرت في سنة 1536. واحتوت هذه الطبعة سبعة عشر فصلا. بدأت هذه الطبعة بفصلين جديدين تحدث فيهما الكاتب عن معرفة الله ومعرفة الانسان، كما توسع في شرح عقيدة الثالوث. ثم اضاف فصلا كاملا عن علاقة العهد القديم بالعهد الجديد، وتكلم عن العماد، ثم عن فائدة الكتب المقدسة في الرد على اعتراضات اللامعمدنيين. كما واضاف فصلين تحدث فيهما عن التوبة والتبرير بالايمان. وتكلم للمرة الاولى عن اختيار الله السابق والعناية الالهية، وتحدث في الفصل الاخيرعن الحياة المسيحية. وظهرت هذه الطبعة ايضا بالاتينية، الا ان كالفن قام بترجمتها الى اللغة الفرنسية ونشره في جينيف عام 1541.

الطبعة الثالثة: ظهرت هذه الطبعة في سنة 1543 باللغة اللاتينية، اضاف فيها اربعة فصول جديدة، فاصبح الكتاب واحد وعشرين فصلا. وتناول في هذه الفصول شرح النذور والطقوس البشرية وقانون ايمان الرسل والكنيسة، وترجم الى الفرنسية في سنة 1545.

الطبعة الرابعة: تعتبر هذه الطبعة قمة ما كتبه كالفن في مجال العقيدة. ففي كل طبعة من الطبعات السابقة حاول كالفن ان يغير شيئا ويضيف شيئا آخر. وعندما وصل الى الطبعة الرابعة شعر ان حياته تقترب من النهاية، لذلك كان يعمل جاهدا وخاصة بمساعدة اخيه انطون وآخرين، كي يقدم للكنيسة الكالفينية تعليما كاملا عن عقيدته المسيحية. فبالرغم من الآلام القاسية المبرحة التي كانت تلتهم جسده، استطاع ان يعدل ويصحح كل الطبعات السابقة، وظهرت الطبعة في سنة 1559 باللغة اللاتينية، وفي 1560 باللغة الفرنسية. وقفز الكتاب من 21 فصلا الى ثمانين.

اتصفت كتابات كالفن من ناحية المحتوى، بالمنطق الصارم والترتيب والوضوح. امتلك كالفن فن عرض المشاكل وحلها بواسطة تحاليل مختصرة ومترابطة بترتيب واضح. اما من ناحية الاسلوب، فقد غلب على كتاباته الاسلوب الرزين، الجاد، والجاف. وكما وصفه بوسييه Bousset "الاسلوب الحزين". الا انه يجب الاعتراف ان كالفن عرف ان يعبر عن افكاره في صيغ قصيرة وقوية، تنطبع بسهولة في الذاكرة. وهذه ميزة ادبية جعلت منه واحد من افضل الكتّاب في القرن السادس عشر.

تعاليم كالفن

توجد معظم تعاليم كالفن في الطبعة الاخيرة من كتابه "اسس المسحية" ، وفيه تعاليم مشتركة مع الكنائس البروتستانتية الاخرى، وبعض التعاليم الخاصة التي تميز بها كالفن.

1) التعاليم المشتركة

لا تشكل التعاليم الكلفينية تجديدا في التعاليم البروتستنتية. فقد استقى كالفن تقريبا اكثرعناصرعقيدته من لوثر وملانكتون وزوينجلي، وبوسر. الا انه من الخطأ الاعتقاد انه قام فقد بعرض افكار المجددين الالمان والسويسريين الى الشعب الفرنسي وبلغة فرنسية. بل ان كالفن ذهب ابعد من ذلك، وادخل في الكثير من تعاليمه وخصوصا ما يخص

الاختيار السابق والعشاء الرباني وتنظيم الكنيسة، افكارا جديدة من بنات افكاره، ومزجها وشكلها عجينة واحدة، لدرجة نستطيع ان نقول انه خلق عملا اصيلا، تتميز بالتعارض الكامل مع الكاثوليكية. ويعود اليه الفضل بجمع وتنسيق الفكر والمبادىء البروتستانتي بطريقة اصيلة جازمة.

استقى كالفن اولا من لوثر. ويظهر هذا الارتباط في الطبعة الاولى لكتابه "اسس المسيحية"، الذي ظهر عام 1536. تطابق الفصول الثلاث الاولى ما جاء في كتاب لوثر "التعليم المسيحي الكبير والصغير Le Grand et le Petit Catéchisme" حول الشريعة والايمان والصلاة. ويحتوى الفصلان الرابع والخامس حول الاسرار، استعارات طويلة من كتاب لوثر "الاسر البابلي". اما الفصل الاخير فيُتعبر توسعا في افكار لوثر حول الحرية البشرية، الموجود في كتابه بنفس الاسم.

تبنى كالفن تعاليم لوثر حول طبيعة الانسان، والخطيئة الاصلية، والتبرير، والايمان، وقيمة الاعمال الصالحة. وعلّم على مثال لوثر ان الانسان الفاسد كليا بالخطيئة الاصلية، محروم من حرية الاختيار وغير قادر على عمل الخير، وانه يبرر بالايمان فقط، حسب المعنى اللوثري، أي نظرا لاستحقاقات المسيح، وان الاعمال الصالحة غير ضرورية ولا نفع منها، لانها خالية من أي قيمة اخلاقية.

الا ان كالفن حافظ ايضا على نوع من الاستقلال في ارتباطه بلوثر، ولم يرد ان يُستعبد لمعلم ولا لكتاب. فمثلا فيما يخص موضوع استعمال الصور والتماثيل، بينما ادان لوثر مبدئيا استعمالها، الا انه عمليا تساهل معها، رفضها كالفن كليا وطالب بتحطيمها "كعبادة اصنام ممقوتة".

اما تأثير ملانكتون عل كالفن فكان بدرجة اقل، واقتصرت على ارضية الاسرار، حيث استلهم كالفن تعاليمه حولها من كتاب ملانكتون "اقوال اللاهوتيين Loci theologici". وبالرغم من هذا الارتباط العقائدي حول الاسرار وبالرغم من الصداقة التي ربطت بينهما، الا انهما كانا ذا اطباع مختلفة لدرجة انها اثرت على تعاليمهما. ويمكننا ان نتفهم رفض ملانكتون، الرجل المنفتح المتسامح، ان يقبل نظريات كالفن الرديكالية حول الاختيار السابق والعشاء الرباني.

2) التعاليم الخاصة

1) الاختيار السابق La prédestination

علّم كالفن الاختيار السابق بدون تردد. فهو يقول ما ملخصه: نحن نقول، كما يعلم ذلك الكتاب المقدس بوضوح، ان الله في قصده الازلي وغير المتغير قد سبق فعين الذين اراد ان يعينهم للخلاص والذين اراد ان يعينهم للهلاك. واما فيما يختص بالمختارين فنقول: ان هذا القرار نابع من رحمته وبدون اعتبار لأي استحقاق بشري. وعلى العكس، فان باب الدخول للحياة الابدية مغلق امام الذين اراد ان يسلمهم للقضاء (للهلاك)، ولقد اخذ هذا القرار حسب قصده المخفي وغير المدرك، ومع كل هذا فهو عادل وصالح. (من كتاب "اسس المسيحية 3. 21. 7: 3. 21. 5.).

ومع ان عملية الاختيار تبدو مرعبة مخيفة وتسبب قلقا واضطرابا، لكن كالفن – على عكس ذلك تماما – كان يعلن ان عملية الاختيار مبهجة ومفرحة للقلوب، بسبب الثمار الحلوة والشهية التي نحصل عليها منها. فان هذه العقيدة تؤكد لنا ان خلاصنا المجاني هو في يد الله وحده وفي رحمته. ورجع كالفن الى الكتاب المقدس لكي يؤيد تعاليمه هذه الخاصة بالاختيار. وكالفن نفسه يعترف ان هذا الامر غير مدرك ويفوق عقولنا، لذلك لا يحاول ان يفهم هذا السر بل يقبله ويؤمن به لانه واضح كل الوضوح بالنسبة له. (كتاب "اسس المسيحية 3. 23). والاساس الوحيد لقبول هذه العقيدة هوانها معلنة بوضوح وصراحة في الكتاب المقدس. وبناء عليه يجب قبولها، ولا يجب على الانسان ان يسأل اسئلة ليس من شأنه ان يسألها. فمن هو الانسان حتى يتجرأ ويسأل خالقه؟.

ومع ان كالفن يعترف بعجزنا الكامل عن فهم هذه المشكلة، فانه يحاول ان يرد على الذين رفضوها فيقدم مفهومه لعملية الاختيار. فهو يؤمن ان الله اختار شعبا من وسط الشعوب ليكون شعبه، ولم يكن هذا الشعب كله

مختارا، فقد اختار البعض ورفض البعض الاخر. فاسماعيل مثل اخيه اسحاق، لكن ابعد الاول واختار الثاني. وكذلك عيسو ويعقوب، وهذا ما حدث ايضا مع شاؤل الملك وداود.

فعلى أي اساس قبل الله الواحد ورفض الاخر؟ ان الاساس الوحيد للقبول او الرفض – حسب كالفن – هو قول الرسول بولس: "... حسب مسرته التي قصدها في نفسه" (افسس 1: 9، 3: 11). يعتقد كالفن ان الله سبق وعين قبل خلق العالم مصير كل انسان: عين البعض للحياة الابدية، وعين البعض الاخر للهلاك الابدي. وهنا يظهر سؤال اخر: هل سبق الله فعرف فعين ام عين فعرف؟ يعني: هل سبق الله فعرف سلوك الناس واعمالهم، وبناء على ذلك قضى بخلاص البعض وهلاك البعض الاخر، ام انه عين البعض للحياة الابدية والبعض الاخر للهلاك، قبل ان يعرف اعمالهم وسلوكهم؟

ان بعض البلاجيين وخاصة "نصف البلاجيين" وكثيرين من الذين يؤمنون بعملية الاختيار الازلي السابق، حاولوا ان يجدوا حلا لهذه المشكلة العقائدية. فهم يؤمنون ان الله عادل ومحب ورحيم ولطيف. ولكن هل يمكن ان يحكم هذا الاله العادل المحب والرحيم واللطيف على البعض بالحياة والبعض الآخر بالهلاك قبل ان يولدوا؟ وبما ان هذه الجماعات تتمسك بفكرة قضاء الله السابق، وفي الوقت نفسه تتمسك بعدل الله ومحبته... فقد حاولت ايجاد حل لهذه المشكلة. ووجدت الحل في نظرية علم الله السابق Préscience، أي ان الله يعرف كل شيء، وبناء على هذه المعرفة، فانه سبق وعرف مصير كل فرد. فاذا عين شخصا للحياة الابدية، فذلك لانه سبق وعرف سلوكه وحياته وموقفه ازاء الدعوة التي سيدعي اليها، وانه سيقبل الفداء ويقبل المسيح كمخلص وفاد. فان اساس الاختيار هو معرفة الله بمستقبل كل فرد.

رفض كالفن هذه النظرية رفضا باتا. والسبب هو اعتقاده الجازم ان اختيار الله للمؤمنين ليس مؤسسا على اعمالهم او تصرفاتهم في الماضي او في الحاضر او في المستقبل، بل ان هذا الاختيار تم في المسيح يسوع قبل تأسيس العالم عن طريق النعمة والرحمة. فلو كان الله قد سبق ورأى اعمالهم الصالحة واستعدادهم لقبول الفداء وبناء على ذلك اختارهم، فان الاختيار يكون مبنيا على ما سبق وراى الله في علمه الخفي ما سوف يقوم به المختار من عمل، وبناء على هذا العمل وعلى هذا السلوك اختاره الله وليس عن طريق النعمة.

اما بالنسبة لكالفن فالعملية تختلف، فان اختيار الله غير متوقف على الاعمال التي سبق الله ورأى بان هذا الشخص سوف يقوم بها، بل ان العكس هو الصحيح. فان المختار يسلك في طريق البر والقداسة لان الله سبق واختاره ليقوم بهذه الاعمال. لا بل ان كلفن يذهب ابعد من ذلك، فانه يعتقد ان الله اختار البعض للخلاص وللقيام بالاعمال الصالحة لانهم اختيروا بنعمته، وحتى هذه الاعمال الصالحة نفسها سبق الله واعدها لهم.

وعلم كالفن ايضا ان عملية الاختيار تمت في قصد الله الازلي حسب مسرته. فان الذين اختارهم للحياة الابدية لم يخترهم لاي سبب آخر غير مسرته.

2) الاسرار

قَبِل كالفن – على مثال زوينجلي – سرين من الاسرار السبعة، وهما سرا المعمودية والافخارستيا. الا انه يرى بهما فقط مجرد علامات خارجية للتبرير، الذي يحصل عليه الانسان بواسطة الايمان. فهما ليسا ضروريان للخلاص، لانه لا يمكن ربط نعمة الله بعناصر حسية مادية، والا اصبحت ارادة الله مرتبطة فيهما لا نعمة حرة ولامتناهية.

3) الافخارستيا او العشاء الرباني

شدد كالفن في مفهومه للافخارستيا على فكرة الحضور الروحي. وهنا يختلف في مفهومه للافخارستيا عن الكنيسة الكاثوليكية وعن لوثر وزوينجلي.

رفض كالفن المفهوم الكاثوليكية للافخارستيا، الذي نادى بفكرة التحول Transsubstantiation، أي تحول الخبز والخمر الى جسد ودم يسوع المسيح. فمع ان الخبز والخمر يظلان حسب الظاهر خبزا وخمرا، الا انهما تتحولان بطريقة معجزية الى دم وجسد يسوع المسيح.

ورفض كالفن المفهوم اللوثري، وهو الحضور المزدوج La Conssubstantiation، وهي النظرية التي تعلّم ان المسيح يحل في الخمر وفي الخبز بطريقة فعلية وحقيقية وحرفية، على ان هذا الحلول لا يعتبر حلولا بديلا بل ازدواجيا، لان

حلول المسيح في هاتين المادتين: الخبز والخمر لا يلاشي الخبز والخمر. فالخبز يظل خبزا،والخمر يظل خمرا. ورفض لوثر أي تفسير رمزي للافخارستيا

ورفض كالفن ايضا المفهوم الزوينجلي الذي كان يعتقد ان العشاء الرباني يعني ذكر لموت وقيامة يسوع المسيح. وان كل مرة يجتمع المؤمنون حول المائدة يتذكرون موت ذاك الذي اسلم نفسه من اجلهم.

اما كالفن فقد شدد على حقيقة ان العشاء الرباني هو طعام روحي يقدمه المسيح نفسه، وهو ضروري لنمو المؤمن في حياته الروحية، وان المسيح حاضر بنفسه وبطريقة روحية في هذا السر، وان الروح القدس هو الذي يعمل في قلب المسترك حتى يدرك بنعمته اهمية هذا الطعام الذي يتناوله: انه ليس مجرد خبز وخمر فقط، بل المسيح الذي قدم نفسه مرة واحدة على الصليب حاضر بطريقة روحية وفعالة في هذا الخبز وهذا الخمر. والمسيح الذي هو حاضر بطريقة روحية، هو نفسه الذي يعمل بروحه في قلوب المشتركين، لكي يقوي ايمانهم ويعمق اختبارهم. لان المسيح الروحي الذي هو حاضر بطريقة غير منظورة وملموسة في الاسرار، هو وحده – وليس عناصر الاسرار الطبيعية او المادية — الذي يقوي الايمان ويعمق الثقة.

4) العبادة او الخدمة الالهية *Le culte*

يقترب كالفن كثيرا في مفهومه للعبادة م مفهوم لوثر وزوينجلي، وعلى مثالهما فهو يرفض كليا ذبيحة القداس. ولكن بينما حافظ لوثرعلى الجزء الاساسي الا وهو رتبة العشاء الافخارستي، وابعد كل ما من شأنه ان يدل على فكرة الذبيحة، فصل كالفن بين العشاء الافخارستي وبين الخدمة الالهية. فكان يتم الاحتفال بالعشاء الافخارستي اربع مرات في السنة باشتراك كل الجماعة المسيحية، اما الخدمة الالهية فكان يتم الاحتفال بها كل ايام الاحاد وبعض الاعياد (اربعة) اذ الغى كالفن جميع الاعياد، وكانت الخدمة تحتوى على العظة، والصلوات وترانيم المزامير. وكان الاحتفال بالخدمة الالهية، التي اعتبر كالفن ان الله ارادها لتمجيده، تتصف بالبساطة، حيث ابعد عنها كالفن كل ما اعتقده انه خرافات كالصور والتمائيل والزينة والآت الموسيقى. ورفض كالفن، مثله مثل لوثر وزوينجلي، تكريم العذراء والقديسين.

5) الكنيسة والدولة

تختلف فكرة كالفن عن الكنيسة وعلاقتها بالدولة كليا عن فكرة لوثر. فهو يعتقد مثل لوثر ان الكنيسة هي مؤسسة غير منظورة وتتألف من جماعة المختارين في كل مكان وعلى مر العصور، الا ان لوثر يعتقد ايضا ان الكنيسة هي في نفس الوقت مؤسسة منظورة منتشرة على كل سطح الارض، وتعترف بايمان واحد وبمعمودية واحدة، وتشترك في مائدة الرب، وغايتها اكرام الله وخدمته. انها الكنيسة الموجودة على الارض والمجاهدة. وهذه الكنيسة المنظورة تتكون من مختارين وغير مختارين (الهالكين)، اذ يوجد فيها قديسون واشرار.

اما بخصوص علاقة الكنيسة بالدولة، فقد انفصل كالفن عن باقي الكنائس البروتستنتية في تعريفها لهذه العلاقة. فرؤوساء ما يدعى بالاصلاح اللوثري الالماني، وبدافع من معارضتهم للسلطة الكنسية الكاثوليكية، تبنوا مذهب "حرية التعبير Libre arbitre، فحل الايمان الفردي مكان الايمان الجماعي العام. وعندما تبين لهم ما نتج عن هذا المبدأ من نتائج وخيمة على المجتع من فوضى وبلبلة، التجأوا الى ما يسمى "باعترافات الايمان Formulaires de foi" كدواء لهذه الحالة، وفي نفس الوقت التجأوا الى الدولة لفرض هذه الاعترافات على كل اتباع البروتستانتية. اما كالفن فقد استطاع بذكائه، ان يرى ما في هذا المبدأ من نقص، والخطر الذي قد ينجم عن وضع الكنيسة تحت رحمة السلطة المدنية. ولاعادة مبدأ العالمية او الشمولية والسلطة الكنسية، تجنب اعترافات الايمان، واسس مكانها المجمع العام او المجالس الكنسية consistoire وسلمه السلطة.

الفصل السادس والاربعون

الاصلاح في سويسرا

زوينجلي

مقدمة

اراد ما يدعى بالاصلاح اللوثري ان يكون اصلاحا في العقائد وعودة ضرورية للتعاليم الالهية مجددة ومنقاة من كل الاضافات البشرية سواء في اللاهوت او في الليتورجية. الا اننا رأينا بشكل لا يدعو الى الشك تأثير طباع لوثير واهوائه ومزاجه واختباراته الداخلية على هذه الحركة الاصلاحية. فلوثر هو الذي اعطى للثورة البروتستنتية ميزاتها الخاصة: الحقد وكره البابوية، الرجوع الى الكتاب المقدس دون سواه، وعقيدة الخلاص بالايمان فقط.

نجد هذه الميزات في الفروع المختلفة التي انبثقت من البروتستنتية، وكثرة هذه الفروع تؤكد لنا، ان كما اثر لوثر بطباعه واهوائه واختباراته على اللاهوت الاصلاحي، كذلك ستأثر طباع واهواء واختبارات بعض من تأثروا به، امثال زوينجلي وكالفن وغيرهم، في هذا اللاهوت المتناقض، وتؤدي الى ظهور الكنائس الكثيرة المتشعبة والمختلفة.

1- الاصلاح الزوينجلي في المقاطعات الالمانية في شمال سويسرا

بينما كان لوثر ينظم كنيسته ويصارع معارضيه سواء من الكاثوليك المتمسكين، او من اللوثريين "المتطرفين"، مما استحق له لقب "بابا ونتنبرج"، ظهر ما يدعى بمصلح اخر في سويسرا، اليريخ زوينجلي، الذي سيصبح ندا له في العلوم الكتابية وسببا لتوترات بينهم بسبب الاختلافات في تفسير الكتاب المقدس، مما سيسبب ظهور "كنائس بروتستنتية مختلفة ومتعددة".

2- الوضع في سويسرا

مع ان سويسرا كانت في القرن السادس عشر تكّون شكليا جزءا من الامبراطورية الرومانية المقدسة، الا انها كانت اكثر بلدان اوروبا تمتعا بالحرية والاستقلال. فبعد نجاح المقاطعات السويسرية في صد الهجوم الذي قام به شارل الجسور (1477)، اتحدت واشتعلت فيها جذوة الاعتزاز والقومية، وشجعها هذا على مقاومة المحاولة التي قام بها ماكسمليان لاخضاعها اسما وفعلا للامبراطورية الرومانية، فثارت المنازعات ودفعت بالمقاطعات الى حافة الحرب الاهلية، الا ان الناسك الذي اصبح قديسا، نيكولاوس فون دي دير فلو، اقنعها بان تركن الى السلام. فاتحدت مكونة مجموعة من الولايات او محافظات "كانتونات" ذات حكم ذاتي، متحدة اتحادا كنفدراليا واهيا. كانت حكومة كل مقاطعة مسؤولة مسؤولية كاملة عن شؤونها المحلية. لذلك كانت كل مقاطعة فيها لها حرية اختيار الشكل الذي ترتضيه للمذهب الديني الذي تريد اتباعه. وكانت المدن السويسرية ايضا مراكزا للثقافة والحضارة. وكانت جامعة بازل جامعة مشهورة، فيها راجع ارازموس الطبعة التي نشرها للعهد الجديد باللغة اليونانية. وقد تطورت ثلاثة انماط من الفكر اللاهوتي لحركة الاصلاح في الاقاليم السويسرية. فالمقاطعات الناطقة بالالمانية، والتي تقع في شمال البلاد، وتقودها مدينة زيوريخ، تبعت كلها اراء زوينجلي. اما المقاطعات الناطقة بالفرنسية في الجنوب، وتقودها مدينة جينيف اتبعت اراء كالفن.

3- زوينجلي

ولد زوينجلي في الاول من شهر كانون ثاني عام 1484 في قرية ويلدهاوس الواقعة في مقاطعة توجنبرج Toggenberg الجبلية. وكان يصغر لوثر بثمانية اسابيع. وكان ابوه رئيس قضاة ويلدهاوس، يتمتع بدخل كبير اتاح لزوينجلي الحصول على افضل تعليم يؤهله للكهنوت. وبدأ دراسته على يد عمه الكاهن في بازل وبرن وفينا، وبعد ان اتم دراسته عاد الى بازل ودرس اللاهوت على يد توماس فيتنباخ Thomas Wetenbach، الذي هاجم قبل الاوان عام 1508 صكوك الغفران وعزوبة الكهنة والقداس، ومنه استقى شغفه بدراسة الكتاب المقدس واباء الكنيسة. وحصل زوينجلي على درجة الماجستير وهو في الثانية والعشرين من عمره، ثم رسم كاهنا عام 1506، واحتفل باقامة اول قداس له في هيلدهاوس، واشترى بمبلغ مائة جيلدر جمعت له وظيفة كاهن رعية في جلاروس Glaris. وهناك تابع دراساته وتعلم اليونانية ليقرأ العهد الجديد في لغته الاصلية، وتابع دراساته الكتابية وخصوصا رسائل القديس بولس. وانجذب نحو اساتذة النزعة الانسانية، واصبح ارازموس مثله الاعلى. وقد كوّن افكاره الدينية، قبل دخول لوثر الى الساحة، لذلك قلل دائما من تأثير كتابات لوثر على افكاره، مع ان الدراسات الحديثة ستظهر المدى الكبير لتأثير كتابات لوثر عليه.

4- بداية زوينجلي الراعوية

ميزاتان طبعتا بداية زوينجلي الرعوية: الاولى **نزعته الانسانية**، بمحبته للكتب وشغفه لدراسة اللغة اليونانية. ومراسلاته من هذه المرحلة من حياته تبين لنا اتصاله بكثير من الانسانيين. كما واشتهر بمهارته الجدلية (Dialecticien). والميزة الثانية هي **روح الوطنية**، فقد اصطحب من عام 1513 الى عام 1515 فرقة الجنود المرتزقة السويسرية من جلاروس الى ايطاليا، بصفته مرشدا لهم. وقد عرف الجنود السويسريون بشجاعتهم ومهارتهم العسكرية، مما جعل الكثير من البلاد كالبابوية، وفرنسا، والبندقية تستأجر خدماتهم العسكرية، وكان هذا من شأنه در الاموال على سويسرا. الا ان الحروب والمعارك التي راح ضحيتها الكثير من الجنود السويسريين، جعلته – وكان في البداية من اكبر مؤيدي خدمة السويسريين للبابوية – يغير رأيه ويعارض بشدة سياسة الحكومة السويسرية وينتقدها بعظاته، وخصوصا عادة ارسال الجنود السويسريين للحرب مع الحكومات الاجنبية. كما ورأى في هذه العادة سببا لتجزئة البلاد وانقسامها وفساد اخلاق شبابها.

ولما فاز الحزب الفرنسي في جلاروس المؤيد لارسال الجنود بسبب ما كان يدخل البلاد من الاموال من جراء ذلك، وغضبه من الاتفاق الذي تم بين البابا وفرنسا، وتصرفات بعض ابناء رعيته، ترك جلاروس، وعمل فترة ما بين عام 1516-1518، راعيا في مزار "سيدة Einsiedale". كان هذا مركز للحج، وفيه تحول طبعه الهجومي من الارضية السياسية الى الارضية الدينية، فهاجم الحج وتكريم العذراء مريم، وصكوك الغفران، ولم يهب ان يعظ في الحجاج قائلا، ان الخلاص عطية مجانية باستحقاق يسوع المسيح، يعطيها الله لمن يطلب بروح الايمان، كما ان الله موجود في الدير، بكيفية لا تختلف عن وجوده في أي مكان آخر. فهو حال في كل مكان، "وهو على استعداد ان يسمع صلواتكم وانتم في بيوتكم. هل تستطيع سفرات الحج الطويلة، او الصور، او التشفع بالعذراء، ان تحصل لكم على نعمة الله؟ وما قيمة الثياب البيضاء، او الحذاء المطرز بالذهب، او القبعة اللامعة في عطية الخلاص؟ ان الله ينظر الى القلب، ولكن قلوبنا بعيدة عنه". كما وقلل من اهمية القداس من اجل الموتى وتعرض للنذور الرهبانية.

5- زوينجلي في زيورخ 1519-1522

وبعد قضاء ثلاثة اعوام في انسدلن، وصلته دعوة من كهنة كاتدرائية زيورخ، ليكون واعظا هناك. وكانت زيورخ تعتبر عاصمة اتحاد المقاطعات السويسرية، وهناك اتيحت له الفرصة للاتصال بأرقى الطبقات، وكان تأثيره عظيما على كافة المقاطعات، في الوقت الذي كانت سمعته الاخلاقية قد ساءت. وقد حاول ان يبرأ سمعته من هذه الاتهامات، فكتب رسالة الى القانوني هنري اوتنجر Henri Utinger نقتطف منها ما يلي:

> "لقد مر ثلاث سنوات على اتخاذي مقصدا بالا يكون لي علاقة مع أي امرأة، لان القديس بولس يقول ان من المستحسن ان لا تكون مثل هذه العلاقة. حافظت على مقصدي هذا في جلاروس مدة ستة اشهر وفي انسدلن مدة سنة... ولكن، يا للاسف! سقطت من جديد وعدت الى ما كنت عليه كما يعود الكلب الى قيئه...".

وفي زيورخ بدأ يظهر كمجدد، فلم يسير في عظاته على النمط العادي المتبع في الكنيسة انذاك، أي شرح القراءات المناسبة للآحاد او الاعياد او المناسبات، وهي الطريقة التي تسير عليها الليتورجية في الوقت الحاضر. بل بدأ بشرح متواصل للكتب المقدسة وحياة واعمال المسيح وتاريخ الكنيسة الاولى، حيث عرض رسالتها واخلاقها كمثال لكنيسة المسيح الحقيقية، حتى ان الناس اعلنوا ان مواعظه "من النوع الذي لم يسبق ان سمعوا مثله في زيورخ". فكسب الاحترام الشعبي والرسمي لسلطان الكتاب المقدس. بحلول سنة 1520 طلب مجلس مدينة زيورخ من كل الكهنة ان يتبعوا مثاله في الكرازة الكتابية ويمتنعوا عن "التفسيرات البشرية". وفي عام 1519-1520، انفصل عن توجهاته الانسانية، وتحول نحو اقتناعات انجيلية Evangélistes. وبدأت طريقه تتضح حوالي عام 1522، باعلانه صراحة مبدأ الكتاب المقدس وحده كأساس للعقيدة وحياة الكنيسة.

6- بيع الغفرانات في سويسرا

كانت مناسبة بيع صكوك الغفران في سويسرا كما كانت في المانيا، بداية حركة ما يدعى بالاصلاح الزوينجلي. وقد عهد الى الراهب الفرنسيسكاني برناردينو شمشون Bernardino Sanson مهمة بيع صكوك الغفران في سويسرا. وان كان شمشون ومعاونه قد ارتكبوا بعض التجاوزات الا انها لم تدوم طويلا، لانه امام احتجاج زوينجلي، منع اسقف

كونستانس، جميع كهنته من استقبال وعاظ صكوك الغفران، وقام المجلس البلدي بطردهم خارج المقاطعة. ولما كان البابا ليون العاشر على علم بشيء من الاحداث الجارية في المانيا مع لوثر، تجنب اثارة ثورة اخرى في بلاد اكثر عنفا وتماسكا، فاستدعى المبعوث شمشون، وطلب عمل تحقيق، ومنح زوينجلي لقب Chapelain مع راتب، ولم يمنع ذلك زوينجلي من ان يواصل عظاته ضد الغفرانات التي كان يطلق عليها "لصوصية رومانية".

وفي عام 1519 انتشر وباء الطاعون في زيورخ وقضى عل ثلث السكان في خلال نصف عام، ولازم زونجلى مقره، وواصل العمل ليلا ونهارا في العناية بالمرضى، واصيب هو نفسه بعدوى المرض، واشرف على الهلاك، وما ان عوفي حتى كان قد اصبح شخصية مرموقة في زيورخ، تحظى بالشعبية. ونصب عام 1521 كبيرا كهنة في جروسمنستر.

الا ان الصراع الحقيقي بين زوينجلي والكنيسة الكاثوليكية سيندلع في عام 1522وسيتركز لا على الغفرانات بل على موضوع اخر هو موضوع الصيام. فبعد سلسلة من العظات ضد الصوم حيث قال انه لم يجد أي نص في العهد الجديد يحرم اللحم في الصوم الكبير، سمح لرعايا ابرشيته ان يتجاهلوا اوامر الكنيسة الخاصة بهذا الصوم الكبير وان يأكلوا اللحم. وكلما ازدادت ثقته اشتد قناعة ان المسيحية يجب ان تعود الى بساطتها الاولى في النظام والعبادة. ولقد استفزته ثورة لوثر ورسائله ورسالة هس "عن الكنيسة"، فما ان حل عام 1520، حتى كان يهاجم علنا الرهبانية والمطهر والالتجاء الى القديسين، وطالب ان يكون دفع ضرائب العشور للكنيسة اختياريا. وفي عام 1521 اقنع زوينجلي المجلس البلدي بمنع تطوع الجنود السويسريين في صفوف الجيوش الاخرى.

بدأت مجموعة من اتباع زوينجلي بمقاطعة الرهبان الوعاظ الذين انتقدوا موقف زوينجلي. وقاطع هو نفسه الواعظ الفرنسيسكاني فرانسوا لامبوت، الذي كان يعظ عن العذراء مريم والقديسين، وفاز عليه بمناظرة حول هذا الموضوع. واستجابة لطلب زوينجلي، طلب المجلس البلدي من الرهبان الاستناد بوعظهم فقط على الانجيل وليس على اللاهوتيين المدرسيين "السكولاستيك". احتج اسقف كونستانس امام المجلس البلدي طالبا منهم الحفاظ على الوضع القائم. فرد عليه زوينجلي في كتاب عنوانه "بداية ونهاية" (Apologeticus/Archételes)، تنبأ فيه بثورة عالمية ضد الكنيسة ونصح الاساقفة ان يقلدوا قيصر وان يطووا حولهم اردیتهم، ويموتوا في جلال ووقار. وأكد فيه ان السلطة الكنسية لا تستطيع ان تحكم لانها سجينة الشريعة البشرية، وان الكتاب المقدس هو السلطة الوحيدة. وانكر التهمة انه يفرق ويقسم الكنيسة، او انه يدعو الى التمرد، مشددا على الهدوء الذي يعم زيورخ. وبيّن ان الكرازة بالانجيل الذي يبشر بالمسيح وترك العادات والاحتفالات البشرية، لا يمكن ان يدعى هرطقة. وفي كتابات اخرى بيّن ان الله يتوجه بالروح القدس الى الانسان ليفهم الكتاب المقدس. اما العذراء مريم، مع انها "ام الله" الا انه يجب عدم طلب شفاعتها، وانما عرضها كمثال للاقتداء. فاصدر الاسقف مرسوما ضد "البدع المستحدثة" حاثا الشعب على الالتفاف حول الكنيسة، وطلب من السلطات المنعقدة في مجلس عام ان تضع حدا لكل هؤلاء المبتدعين.ولم يكترث زوينجلي لاوامر المجلس الذي منع كل المواعظ التي تثير الشغب والتفرقة، بل قدم عرضا اخر طلب فيه هو واصدقائه من الكهنة، ان يسمح بزواج الكهنة. وكان هو نفسه في هذه الاثناء يعيش مع سيدة تدعى انا راينهارد بصفة عشيقة او زوجة له في الخفاء. سيتزوجها علنا عام 1524 قبل زواج لوثر من كاترين فون بورا بعام. وهكذا اخذ زوينجلي يتخلص من خضوعه للاسقف، وثبته المجلس البلدي في وظيفته، فكرس نفسه للوعظ، واصبح بالفعل وبدعم من الجلس البلدي "الاسقف الحقيقي لزيورخ".

7– مناقشات زيورخ عام 1523

استجابة لطلب زوينجلي، قررت السلطات عقد مناظرة عامة في كانون ثاني عام 1523، حيث يقوم كل طرف، الكاثوليكي والمصلح، بعرض ارائه وعقائده على اساس الكتاب المقدس فقط.

وبدأت المناظرة في 29 كانون ثاني 1523، بحضور جمع غفير. وكان زوينجلي قد عرض وثيقة "البنود السبعة والستين" الاكثر تطرفا من بنود لوثر، وفيها اكد على الخلاص بالايمان، وان الكتاب المقدس هو الاساس الوحيد للايمان، وان المسيح هو الرئيس الاوحد للكنيسة، وان سلطة البابا والاساقفة غير شرعية، وان القداس ليس ذبيحة، وانكر المطهر وشفاعة القديسين والاعتراف السري، والحل المحفوظ للكاهن، وما يدعى بالاعمال الصالحة (الاعياد الدينية، الحج، عزوبة الكهنة والرهبان، النذور الرهبانية). كل هذه كانت بالنسبة لزوينجلي لا اساس لها في الكتاب المقدس ويمكن الاستغناء عنها: "ما الضرر الذي يحدث اذا ازيلت الكومة من مزبلة الشعائر والاحتفالات، ما دام الله يعلن ان العبادة بهذه الاشياء باطلة".

ومن بنود هذه الوثيقة:

(1) – يخطىء كل من يقول ان الانجيل لا يساوي شيئا، اذا لم ترضى عنه الكنيسة.
(15) – يتضمن الانجيل الحقيقة باكملها في وضوح وجلاء...
(17) – المسيح هو الكاهن الاعظم الخالد الوحيد، والذين يزعمون انهم كهنة عظام، انما يعارضون في الحقيقة شرف المسيح وجلاله.
(18) – ان المسيح الذي ضحى بنفسه يوما فوق الصليب، قدّم الذبيحة الكافية والدائمة للتكفير عن خطايا كل المؤمنين، ومن ثم فإن القداس ليس ذبيحة، وانما هو تذكار للذبيحة الوحيدة على الصليب...
(24) – المسيحيون غير مكلفين بأية اعمال لم يأمر بها المسيح، ويمكنهم ان يأكلوا في جميع الاوقات كل انواع الطعام...
(28) – كل ما يبيحه الله ولم يحرمه حلال. ومن ثم فان الزواج مباح لكل الناس.
(34) – لا اساس للسلطة الروحية التي يطلق عليها اسم "الكنيسة" في الكتب المقدسة وفي تعاليم المسيح.
(35) – الا ان السلطة الزمنية تؤيدها تعاليم المسيح وسنته...
(49) – لا اعرف افتراء اعظم من تحريم الزواج الشرعي على الكهنة، بينما يباح لهم اتخاذ حظايا على شريطة دفع غرامة. يا للعار!
(57) – لا يذكر الكتاب المقدس شيئا عن المطهر...

ورفض جون فابر، النائب العام لاسقف كونستانس، الذي طلب منه الا يدخل في نقاش مع زوينجلي، وانما ان يعارض على كون الاجتماع غير قانوني، لانه يتعدى على سلطة الاسقف وعلى المجامع، آراء زوينجلي وطلب ان تطرح امام جامعات كبيرة او امام مجلس عام للكنيسة. ورأى زوينجلي ان هذا لا ضرورة له. فبعد ان اصبح العهد الجديد وقتذاك في متناول الناس وباللغات الدارجة، صار في وسع الجميع ان يحصلوا على كلمة الله ليحكموا على هذه الآراء وهذا يكفي... ووافق المجلس واعلن فوز زوينجلي، وامر كل رجال الكهنوت ان تكون عظاتهم مقصورة على ما يجدون له سندا في الكتاب المقدس، وسمح للكهنة والرهبان والراهبات بالخروج من الاديرة والزواج. وهنا توّلت الدولة امر الكنيسة كما حدث بالمانيا على يد لوثر.

8– المناظرة الثانية

وقبل معظم الكهنة – بعد ان ضمنت لهم الدولة رواتبهم – امر المجلس. وتزوج الكثيرون منهم . واغفلوا امر القداس وتخلوا عن تكريم الصور. وبدأت جماعة من المتطرفين في اتلاف الصور والتماثيل بلا تمييز في كنائس زيورخ. وانزعج زوينجلي من انتشار العنف على هذا النحو، فرتب مناظرة اخرى في 26 تشرين اول عام 1523، حضرها الكثير من عامة الناس والاكليروس، ولم يرسل اساقفة كونستانس وبازل وكور الا عددا ضئيلا يمثلونهم. وتمخضت عن امر صدر من المجلس بادخال الاصلاح الذي يقوده زوينجلي اليها. والفت لجنة (زوينجلي من اعضائها) تتولى اعداد كتيب يتضمن تعليمات توضح العقيدة للناس، وان يعملوا على مراقبة تنفيذها، وان يتوقف الناس في غضون ذلك عن العنف بجميع صوره. والف زوينجلي "مقدمة قصيرة في المسيحية"، ارسلت لجميع رجال الدين في المقاطعة.

احتجت السلطة الكهنوتية الكاثوليكية، وايدها في الاحتجاج المجلس النيابي للاتحاد الذي اجتمع في لوسون (26 كانون ثاني عام 1524)، وتعهد في الوقت نفسه بالقيام بالاصلاح. غير ان مجلس مدينة زيوريخ تجاهل هذه الاحتجاجات. وسارت في تثبيت الاصلاح. وبدأت بنزع الصور من الكنائس، وتحويل الاديرة الى مدارس ومستشفيات. وفي عام 1525 اتمت مقاطعة زيورخ انفصالها الاصلاحي بحذف القداس وحل محله خدمة دينية جديدة تتألف من قسمين: العظة والعشاء الرباني او المناولة تحت الشكلين، حيث تضع على طاولة عادية صحون ملىء بالخبز وعدة كؤوس من الخمر، وتبدأ الخدمة بصلاة يتلوها خادم الصلاة، يتبعها بقرأة من الكتاب المقدس، يتلو بعدها الحضور قانون الايمان والصلاة الربية، وبينما تقرأ كلمات التقديس، يبارك الخادم الخبز والخمر ويوزعه مساعدوه على الحضور وتنتهي الخدمة بكلمات "اذهبوا بسلام". وحافظ زوينجلي على القربان المقدس باعتباره جزءا من الصلاة يقرها الاصلاح الديني، وناول القربان تحت الشكلين، ولكنه لم يناوله الا اربع مرات في السنة. وامر مجلس مدينة زيوريخ برفع كل الصور الدينية وذخائر القديسين والزينات من كنائس المدينة، بل ان الآت الارغن ابعدت عنها، وترك الصحن الداخلي الفسيح لكنيسة جروسنمنستر عاطلا كئيب المنظر. وعوقب كل من يحضر القداس الكاثوليكي بغرامة، وحرم مبدأ اكل السمك بدلا من اللحم يوم الجمعة. وانتقلت سلطة ادارة الكنيسة، وتشريع الزواج، والنظام الاخلاقي، وادارة المدارس والمؤسسات الخيرية للمجلس البلدي.

وصاغ زوينجلي عقيدته بتوسع في كتاب باللاتينية: "الدين الحقيقي والزائف "De vera e falsa religione (1925) وقَبِلَ تعاليم الكنيسة الاساسي: اله في ثلاثة اقانيم، وسقوط ادم وحواء من الجنة، وتجسد الاقنوم الثاني، والولادة البتولية، والفداء، ولكنه فسر "الخطيئة الاصلية" بانها نزعة غير اجتماعية، تكمن في طبيعة الانسان وليست لوثة اثم ورثنها من ابائنا الاوائل، واتفق في الرأي مع لوثر ان الانسان لا يستطيع ابدا ان يحصل على الخلاص بالاعمال الصالحة، بل يجب ان يؤمن بالقدرة التكفيرية لموت المسيح. واتفق في الرأي ايضا مع لوثر وكالفن في موضوع القدر: كل حادث وبالتالي المصير الازلي لكل فرد قدّره الله، لا بد وينفذ كما قدَره سبحانه، ولكن الله لم يقدّر اللعنة الابدية الا على الذين اعرضوا عن الانجيل، الذي بُشروا به، وكل طفل من ابوين مسيحيين يموت، وهو طفل، يكتب له الخلاص، حتى ولو لم يعمد، لانه اصغر من ان يرتكب خطيئة. وجهنم حق، اما المطهر فهو خرافة... "مهنة مريحة لمن ابتدعوه". وليس في الكتاب المقدس اشارة عنه. اما القرابين المقدسة فانها ليست وسائل معجزة بل رموز نافعة لرحمة الله. والاعتراف السري لا ضرورة له، وليس في وسع كاهن ان يغفر لاحد خطيئتة، فالله وحده هو الغفور، وان كان من المفيد غالبا ان نسر بمتاعبنا الى الكاهن. وليس العشاء الرباني، اكلا فعليا لجسد المسيح، ولكنه رمز لاتحاد الروح بالرب والفرد بالجماعة المسيحية.

وفي اواخر عام 1525، اختفت كل المؤسسات الكاثوليكية، ومنع الايمان الكاثوليكي في مقاطعة زيورخ تحت طائل العقاب.

وشكلت زيورخ مجلسا خاصا في تشرين ثاني عام 1524، يتكون من ستة اعضاء لاعداد الاتفاقات اللازمة لفض المشاكل العاجلة او الدقيقة التي كانت تعاني منها الحكومة، وتم بين زوينجلي وهذا المجلس نوعا من التفاهم، اذ سلم له تنظيم كل الشؤون الخاصة برجال الدين والعلمانيين على السواء. وفي عام 1528، الفت لجنة سرية، كان زوينجلي فيها العقل المدبر. واصدرت هذه اللجنة التعليمات حول الاشتراك في العشاء الرباني، واصبح الاشتراك في العبادة واجب اجباري تحت طائل حرمان من يخلي بهذا الواجب من المواطنة، وفرضت رقابة قاسية على الاخلاق. واصبحت الكنيسة والدولة في زيورخ منظمة واحدة، على رأسها زوينجلي بصفة غير رسمية، وفيها ارتضى الكتاب المقدس المصدر الاول والحكم الاخير للشريعة. وتحقق في زوينجلي كما تحقق في كالفن فيما بعد، المثل الاعلى للنبي الذي يرشد الدولة، كما تصوره العهد القديم.

9- تقدم الاصلاح

انتقل الاصلاح من زيورخ الى المقاطعات الاخرى في سويسرا. فدخلت عام 1524 في مقاطعة توجنبورج Toggenbourg. وفي مقاطعة ابنزل، ستة من الرعايا الثمانية قبلت الاصلاح. وتأثرت بازل بالاصلاح تحت تأثير عظات اكولامباد Oecokampade في عام 1523، وبالرغم من مقاومة الحكومة والجامعة، الا ان المصلحين استطاعوا الحصول على حرية العمل في عام 1527، وما حل عام 1529 حتى كانت الكنيسة الجديدة قد حلت محل الكنيسة الكاثوليكية. وبشر فرانسوا كولب François Kolb الراهب الكرتوزي السابق، بالاصلاح في برن منذ عام 1522 دون نجاح، الا انه وعلى اثر مناظرة بين المصلحين والكاثوليك في عام 1528، قبلت المقاطعة الاصلاح. وبنفس السنة ادخل الاصلاح الى مقاطعة سان–جال Saint-Gall، وفي عام 1529 دخل الى مقاطعة شافهوس Schaffhouse، تبعتها جلاريس Glaris السنة التالية 1530.

10- المعارضة: المقاطعات الكاثوليكية

مزق الاصلاح الديني "الاتحاد" ويبدو انه قدر له ان يقضي عليه، فبجانب المقاطعات التي ايدت زيورخ وانضمت الى الاصلاح، فان باقي المقاطعات ناصبتها العداء. وكونت خمس مقاطعات – وهي لوسرن Lucerne واوري Uri وشفتيز Schwyz وانترفالدن Unterwalden وتسوج Zug – حلفا كاثوليكيا لقمع كل الحركات الهسية واللوثرية والزوينجلية (1524)، وحث الاشيدوق فرديناند النمساوي كل الولايات الكاثوليكية على ان تقوم بعمل موحد، ووعدها بتقديم المساعدة. وليس من شك في انه كان يطمح في ان يستعيد سلطات آل هابسبورج في سويسرا.

ونظمت عام 1526 مناظرة اخرى بين اللاهوتيين الكاثوليك وعلى رأسهم جون آك John Eck، واتباع الحركة الزوينجلية وعلى رأسهم اكولمباد Oecolampade، بدل زوينجلي الذي رفض الحضور. ودارت المحاورات حول

الافخارستيا، وخصوصا الحضور الحقيقي والفعلي، الذي انكره زوينجلي. انتهت المناظرة بفوز الحزب الكاثوليكي والحكم على زوينجلي. ولم ترض زيورخ بالحكم، واستطاعت بمؤازرة بازل وبيرن على البقاء في الاتحاد.

وفي السادس عشر من تموز وافقت كل المقاطعات باستثناء شافهاوزن على اقصاء زيورخ من المجالس النيابية الاتحادية في المستقبل. وردت زيورخ وزوينجلي على هذا بارسال مبشرين الى مقاطعة ثورجاو لاعلان الاصلاح الديني. وقبض على واحد من هؤلاء ، الا ان بعض الاصدقاء انقذوه، وساروا في حشد هائج نهب ديرا واحرقه، وحطم التماثيل في عدة كنائس، واعدم ثلاثة من الزعماء، وثارت روح عسكرية بين الطرفين. وهددت ست مقاطعات بان تترك الاتحاد اذا لم يوقع العقاب على زيورخ.

واشار زوينجلي، وقد اعجبه القيام بدوره الجديد كقائد، على زيورخ ان تزيد من عدد جيشها وطاقة دار صناعة اسلحتها. وان تنشد التحالف مع فرنسا، وان تشعل نارا وراء فرديناند بالتحريض على الثورة في التيرول وتورجاو وسان-جال بمنحهما املاك الاديرة مقابل تأييدهما لها. وعرض على الحلف الكاثوليكي السلام بثلاثة شروط:- ان يسلم لزيورخ دير سان-جال الشهير وان يتخلى عن الحلف النسماوي وان يسلم الى زيورخ توماس مورنر الهجائي اللوسرني، الذي طالما وجه نقدا لاذعا في كتاباته للمصلحين الدينيين. وسخر الحلف من هذه الشروط، فامرت زيورخ ممثلها في سان-جال بالاستيلاء على الدير فاطاعوا (18 كانون ثاني 1529) وخفت حدة التوتر في شباط اثر احداث في بازل.

11- الاصلاح في بازل

كان زعيم البروتستانت في بازل هو جوهانس هاوسثاين، الذي اسبغ على اسمه صفة الهلينية، اويكو لامباديوس، ومعناه مصباح البيت. وقد نظم الشعر باللاتينية، وهو في الثانية عشرة من عمره، وسرعان ما اتقن اللغة اليونانية فيما بعد، وذاع صيته كمصلح ديني واخلاقي رقيق العاطفة في كل شيء الا الدين. وما ان حل عام 1521 حتى كان يهاجم مساوىء كرسي الاعتراف وعقيدة التجسد وتكريم العذراء. وتبنى عام 1525 برنامج زوينجلي الذي يشمل اضطهاد اللامعمدانيين، ولكنه رفض التسليم بالقدر وعلم الناس ان "خلاصنا بأتي من الله اما هلاكنا فمن انفسنا". وعندما اعلن مجلس مدينة بازل، وقد رجحت فيه وقتذاك كفة البروتستانت، حرية العبادة (1528) احتج اويكو لامباديوس وطالب بتحريم القداس.

اجتمع في 8 شباط عام 1529 ثمانمائة رجل في كنيسة الفرنسيسكان وبعثوا بطلب الى المجلس التمسوا فيه ضرورة تحريم القداس وعزل كل الكاثوليك من مناصبهم وبسريان دستور اكثر ديمقراطية. وتشاور المجلس في الامر، وفي اليوم الثاني اقبل مقدمو الالتماس الى السوق، وهم مدججون بالسلاح، وعندما حل الظهر، ولم يصل المجلس بعد الى قرار، تحرك الحشد نحو الكنائس بالمطارق، وحطموا كل التماثيل الدينية التي وجدوها. ووصف ارازموس الواقعة في خطاب له بعث به الى بيركهايمر: "لقد رفع الحدادون والعمال كل الصور من الكنائس، وانهالوا بالشتائم على تماثيل القديسين والصليب نفسه، بصورة تدعو الى الدهشة، لعدم حدوث معجزة، بعد ان رأينا كيف اعتاد الناس حدوث الكثير منها دائما عندما يساء الى القديسين ادنى اساءة. انهم لم يبقوا على تمثال واحد في الكنائس او في الدهاليز او في الاروقة او في الاديرة. وطمست الصور الجدارية بوساطة تغطيتها بطبقة من الجير، والقى في النار بكل ما يمكن حرقه ودق الباقي حتى استحال الى شظايا. ولم يستبق شيء بدافع الحب او المال".

تلقف المجلس التلميح وصوت بالغاء القداس الغاء كاملا، وغادر بازل ارازموس وبياتوس رينانوس وكل الاساتذة الجامعة تقريبا. وعاش اويكو لامباديوس المظفر حتى شهد اندلاع نيران الثورة.

12- اتفاقية كابيل Cappel الاولى

وفي ايار عام 1529 احرق مبشر بروتستانتي من زيورخ، حاول ان يقدم عظاته في مدينة شفيتر. واقنع زوينجلي مجلس مدينة ريورخ باعلان الحرب، ورسم خطة الحملة، وقاد بنفسه فرق المقاطعة، واوقفهم رجل يدعى لانديمان ايبلي الجلاروسي في كابيل، التي تقع على بعد عشرة اميال جنوبي زيورخ، وتوسل اليهم ان يمنحوه، على سبيل الهدنة، ساعة يتفاوض فيها مع الحلف. وساور زوينجلي الشك في آن الامر ينطوي على خيانة، وآثر ان يتقدم بجيشه فورا. الا ان حلفاءه من اهل برن تغلبوا عليه هو وجنوده، الذين تآخوا بالفعل مع جنود العدو عبر الحدود الفاصلة بين المقاطعتين وبين اللاهوتين، واستمرت المفاوضات ستة عشر يوما واخيرا رجحت كفة التعقل بين السويسريين، ووقعت اتفاقية كابيل الاولى للسلام (24 حزيران 1529) وكانت شروط الاتفاقية انتصارا لزوينجلي، اذ وافقت المقاطعات

الكاثوليكية بموجبها على دفع تعويض لزيورخ، وانهاء تحالفها مع النمسا، وحظر مهاجمة أي من الطرفين للآخر بسبب الفوارق الدينية، وعلى ان يترك للناس في "الاراضي المشتركة" التابعة لمقاطعة او اكثر ان يقرروا باغلبية الاصوات تنظيم حياتهم الدينية. ومهما يكن من امر فان زوينجلي لم يرض عن هذا الاتفاق، فقد طالب باطلاق حرية البروتستانت في الوعظ بالمقاطعات الكاثوليكية، ولم يتلق ما يفيد اجابته الى طلبه، وتنبأ بوقوع تصدع قريب للسلام.

13- زوينجلي ولوثر: محاورة ماربورج

واستمرت الاتفاقية سارية المفعول ثمانية وعشرين شهرا، وفي خلال هذه الفترة القصيرة بذلت محاولة لتوحيد صفوف البروتستانت في سويسرة والمانيا. وكان شارل الخامس قد فض نزاعه مع البابا كليمنضوس السابع، واصبح كل منهما وقتذاك حرا في ان ينضم بقواته لمحاربة البروتستانت، ولكن هؤلاء كانوا يمثلون قوة سياسية عظيمة، فقد كان نصف سكان المانيا من اتباع لوثر، وكان كثير من المدن الالمانية – اولم واوجسبورج وفيرتمبيرج وماينز وفرانكفورت – على – الماين – وشتراسبورج، تتعاطف بشدة مع اتباع زوينجلي، وعلى الرغم من ان المناطق الريفية في سويسرة كانت تدين بالكاثوليكية، فان معظم المدن فيها كانت تدين بالبروتستانتية. وكان من الواضح ان حماية النفس من الامبراطورية والبابوية قد تطلبت اتحاد البروتستانت ولم يقف في الطريق الا اللاهوت.

واخذ فيليب لاندجراف الهيسي زمام المبادرة بدعوة لوثر وميلانكتون وآخرين من البروتستانت الالمان لمقابلة زوينجلي واويكو لامبياديوس وبوسر واخرين من البروتستانت السويسريين في قصره بماربورج شمالي فرانكفورت. وتقابل الحزبان المتناظران في 29 ايلول سنة 1529، واقدم زوينجلي في سخاء على التسليم ببعض الامور وازال ما ساور لوثر من شك في ان يتشكك في الوهية المسيح، وقبل العقيدة النيقاوية والمذهب القائل بالخطيئة الاصلية. ولكنه لم يتراجع عن رأيه في القربان المقدس باعتباره رمزا وذكرى اكثر من معجزة. وكتب لوثر بالطباشير على مائدة المؤتمر هذه الكلمات المنسوبة للمسيح "هذ هو جسدي" ولم يقبل ان يفسرها الا تفسيرا حرفيا. ووقع الطرفان اتفاقا، تضمن اربعة عشر بندا، اشتملت على الثالوث – التجسد- القيامة- طبيعتي المسيح- الخطيئة الاصلية- الخلاص- التبرير بالايمان- عماد الاطفال- الكهنوت لكل المؤمنين- وزواج الاكليروس. ولكنهما اختلفا في موضوع القربان المقدس (3 تشرين اول) ولم يكن اختلافهما متسما بالود، ورفض لوثر ان يصافح اليد التي مدها اليه زوينجلي، وقال: "ان روحك تختلف عن روحنا". واستخلص اعترافا لاهوتيا من سبعة عشر بندا، واقنع الامراء اللوثريين برفض التحالف مع أي جماعة لا توقع على كل البنود السبعة عشر. واتفق ميلانكتون في الرأي مع استاذه، وكتب بقول لقد ابلغنا اتباع زوينجلي اننا عجبنا كيف تسمح لهم ضمائرهم ان ينادونا باخوتهم في الوقت الذي يتمسكون فيه ان عقيدتنا خاطئة. وفي عام 1532 حث لوثر الدوق البرخت البروسي على الا يسمح لاي شخص من اتباع زوينجلي بالاقامة في ارض بلاده، والا حلت عليه اللعنة الابدية.

14- معركة كابل Cappel ومقتل زوينجلي

وعاد زوينجلي بعد ان حطمه هذا الفشل الى زيوريخ، التي اصبحت تموج بالاضطراب تحت وطأة دكتاتوريته. وعم الاستياء من قوانين النفقات الصارمة، وعرقلة التجارة بالاختلافات الدينية بين المقاطعات، ولم يرض الحرفيون عن صوتهم الضيئل في الحكومة، وفقدت عظات زوينجلي المختلطة بالسياسة الهامها وسحرها. وكان شعوره بالتغير قويا الى الحد الذي طلب فيه من المجلس الإذن له بالبحث عن ابرشية في مكان اخر، ولكنه أُقنع بالبقاء. وخصص جانبا كبيرا من وقته آنذاك للكتابة.

واجتمع في 15 ايار عام 1531 مجلس زيورخ وحلفائها، وصوت لاكراه المقاطعات الكاثوليكية على السماح بحرية الوعظ على ارضها، وعندما رفضت المقاطعات اقترح زوينجلي اعلان الحرب عليها غير ان حلفاءه آثروا ان يفرضوا عليها حصارا اقتصاديا. فما كان من المقاطعات الكاثوليكية الا ان اعلنت الحرب. وسار من جديد جيشان متناظران، وتقدم زوينجلي مرة اخرى، وحمل العلم، وتقابل الجيشان مرة ثانية في كابيل (11 تشرين اول 1531). كان جيش الكاثوليك يضم 8000 رجلا، وجيش البروتستانت يضم 1500، واشتبك الجيشان في هذه المرة، وانتصر الكاثوليك. وكان زوينجلي البالغ من العمر سبعة واربعين عاما من بين 500 رجل قتلوا من اهل زيورخ. ومزق جسده الى اربعة اجزاء، ثم احرق على محرقة نصبت فوق الروث. وعندما سمع لوثر بموت زوينجلي هتف يقول "ان هذا حكم السماء على كافر وانتصار لنا". ويروى انه قال: "كم اود من اعماق قلبي لو امكن انقاذ حياة زوينجلي ولكن اخشى ان يحدث العكس لان المسيح قال انه "ملعون كل من يكفر به".

15- معاهدة كابل الثانية

كانت امنية الطرفين ان تتوقف الحرب وان ينهيا العداء بينهما، فتوصلا الى توقيع معاهدة كابل الثانية. نصت هذه المعاهدة على ان كل اقليم حر في ان يدبر شؤونه الدينية بدون تدخل من الخارج. وارغم كل من الكاثوليك والبروتستنت على التخلي عن أي محالفات خارجية.

وخلف هينريخ بولينجر في زيورخ سلفه زوينجلي، اما في بازيل فقد اضطلع اوزوالد ميكونيوس بالعبء بعد وفاة اويكو لامبيادوس، وتجنب بولينجر الخوض في الامور السياسية، واشرف على مدارس المدينة، وتستر على اللاجئين من البروتستانت، ووزع اموال البر على المحتاجين، بغض النظر عن المذهب الذي يعتنقونه، وانضم الى ميكونيوس وليوجود في صياغة اول اقرار للسويسريين البروتستانت من اتباع زوينجلي، الذي ظل جيلا كاملا التعبير الرسمي عن آراء زوينجلي، وتوصل مع كالفين الى اتفاق تيجورينوس (1549) Consensus Tigurunus، الذي يتضمن في الاساس عقيدة كالفن الافخارستيا، ملغيا بذلك استقلال الزوينجلية ووضعها في اطار البروتستانتية العام

وعلى الرغم من هذا الاتفاق الوقائي فان الكاثوليكية استعادت في السنين الاخيرة كثيرا من ارضها المفقودة في سويسرة، ويرجع جزء من ذلك الى انتصارها في كابل. واعتنقت الكاثوليكية سبع مقاطعات – وهي لوسرن واوري وشفيتز وتسوج وافترفالدن وفريبورج وسولوثورن. وتمسكت اربع مقاطعات بالبروتستنتية نهائيا: وهي زيورخ وبازل وبرن وشلافهاوزن، اما بقية المقاطعات فقد ظلت تتأرجح بين العقدتين لا يستقر رأيها على قرار على وجه اليقين، ووفق فالنتيت تشودي، خلف زوينجلي في جلاروس، بين وجهتي النظر، بأن قال باقامة قداس في الصباح للكاثوليك، والقاء عظة حسب تعاليم الكنيسة الانجيلية – من الكتاب المقدس لا غير – في المساء للبروتستانت، وناقش مبدأ التسامح المتبادل بين الطرفين، وقوبل بالتسامح، وكتب مدونة تاريخية، اتسمت بعدم التحيز، الى حد انه لا يستطيع امرؤ ان يجزم بالعقيدة التي كان يؤثرها.

الفصل السابع والاربعون

الاصلاح في فرنسا

1- اصل الاصلاح في فرنسا

وصل الاصلاح الى فرنسا متأخرا عن المانيا وسويسرا. ويمكن تحديد ثلاث فترات للاصلاح في فرنسا.

1) الاصلاح السلمي: Le Fabrisme 1509-1525

يدعى هذا الاصلاح على اسم اول ممثل له وهو جاك ليفيفر Jacques Lefèvre. ولد جاك في اتابل Etaples في بيكاردي عام 1455. ولم يكن ليفيفر فقط عالما قديرا ذو ثقافة عالية في اليونانية والعبرية ومدرسا للرياضيات والفلسفة، بل كان انسانيا umaniste ورعا، تقيا، وصوفيا، كثير الاهتمام بالامور الدينية

حلم جاك ككل ذوي الارادة الصالحة والنفوس المستنيرة في ذلك العصر باصلاح الكنيسة، ولكن اصلاحا بعيدا جدا عن التمرد بقدر ما هو اصلاح داخل الكنيسة ومن الكنيسة. وبذلك يختلف عن كل زعماء الاصلاح الآخرين امثال لوثر وزونجلي وكالفن، الذين قاموا به خارج الكنيسة وضدها.

بنى ليفيفر اصلاحه على صعيدين:

الصعيد العقلي Intellectuel: مما لا شك فيه ان لاهوت المدرسة السكولاستيكية، كان يمر بمرحلة من الانحطاط بعد ان وصل الى اوجهه في عصر القديس توما الاكويني والقديس بونافنتورا. واخذ السكولاستيكيون يقضون وقتهم في مجادلات عقيمة حول مواضيع عويصة لاظهار براعتهم. شعر ليفيفر والانسانيون الذين تبعوه ان هذا الاسلوب السكولاستيكي اصبح متدنيا وفاسدا ويجب استبداله بلاهوت وضعي مبني على دراسة الكتاب المقدس والآباء.

الصعيد الاخلاقي Moral : كانت كنيسة فرنسا كباقي الكنائس الاخرى قد انحرفت عن مسارها ورسالتها. كثيرون هم الاساقفة الذين كانوا يعيشون في البلاط الملكي، يرافقون الملك ويتبعونه في كل تحركاته وتنقلاته بدلا من الاقامة والثبات في ابرشياتهم. زد على ذلك ان معاهدة 1516 بين فرنسا والكرسي الرسولي والتي منحت فيها الملك امتيازات خاصة في التدخل بامور الكنيسة، زادت من المساوىء التي عُيرت الكنيسة بها: كشراء المناصب وتجميع الوظائف. كما لم يعد عدد كبير من الكهنة والرهبان يحافظون على العزوبية والعفة، وكان اهتمامهم بمصالحهم المادية اكثر من اهتمامهم بالامور الروحية والكنيسة. باختصار لم يعد الاساقفة والكهنة يملكون الفضائل والصفات المنتظرة منهم، هذا ان لم يكونوا يملكون المساوىء والمفاسد المثيرة للشكوك.

آمن ليفيفر بكل صدق ان الدواء لهذا الداء هو في العودة الى الكتاب المقدس والى فهم اعمق للانجيل. وهذا لن يكون دون ترجمة هذه الكتب الى اللغة العامية، وبالتالي وضعها بين ايدي الناس وخصوصا الاكليروس. ولهذا الهدف ترجم ليفيفر اولا سفر المزامير في عام 1509، ثم رسائل القديس بولس في عام 1512.

حازت افكار ليفيفر الاصلاحية عى دعم وموافقة النخبة المثقفة في فرنسا وغيرها وخصوصا جيوم برسونة Briçonnet Guillaume الذي عندما اصبح اسقفا لمدينة موا Meaux، اجتمعت حوله هذه النخبة وأسسوا ما يدعى "حلقة موا" Le groupe ou Cénacle de Meaux. وتابع ليفيفر في هذا الجو ترجمة الاناجيل واعمال الرسل وسفر الرؤيا عام 1523، وأرفقها ايضا لكتاب تفسير للرسائل والاناجيل ليكون دليلا للوعظ في ايدي الاكليروس. وهكذا نرى ان الاصلاح في فرنسا بدأ قبل ان يبدأ به لوثر في المانيا بسنوات.

كانت نوايا ليفيفر في الاصلاح حسنة وصادقة في ذاتها، الا انه في مقدمات اعماله وفي تفاسيره، حدث ان عبّر بعض الاحيان عن تعاليم وافكار قريبة جدا من التعاليم اللوثرية التي بدأت بالانتشار في ذلك الوقت في فرنسا. فقد كتب مثلا بخصوص رسائل بولس: "توجد تعاليم المسيح في الكتاب المقدس، فلنتعلق بالمسيح وحده فقط وبالتعاليم الرسولية، لانها هي الضرورية وتكفي للخلاص. ويجب ان ننتظر الخلاص من الايمان بالمسيح فقط... خلاصك ليس في اعمالك الصالحة، ولكن في اعمال المسيح. لا تستطيع ان تخلص نفسك. المسيح وحده يخلصك. ليس صليبك بل صليبه".

اراد ليفيفر ان يقول بذلك ان النعمة الالهية واستحقاقات المسيح هي وسائل ضرورية للخلاص، وان الاعمال أي التوبة والحج والالتجاء الى القديسين، ما هي الا مظاهر خارجية ثانوية للايمان. هذه كانت افكار ليفيفر لانه يقول في مكان اخر يجب "اضافة الاعمال بحسب يعقوب الى الايمان بحسب بولس".

الا انه بالاضافة الى امكانية تفسير اقواله تفسيرا صحيحا ارثوذكسيا، كانت اقواله قابلة ايضا للتفسير الخاطىء. وهذا ما فعله اعداؤه عندما قارنوا بين تعاليمه وتعاليم لوثر، فادان البرلمان ترجمات ليفيفر للعهد الجديد في عام 1525. فانحلت مجموعة مو Meaux، والتجىء لفيفير الى ستراسبورغ واتصل بزعيم الاصلاح فيها بوسر، وبقي فيها الى ان استطاع العودة الى فرنسا، بعد ان تشفعت له مرجريت اخت الملك، فاستدعاه فرانسوا الاول وعينه امينا للمكتبة الملكية ومربيا لاطفاله. وفي عام 1531، عندما اغضبت الملك اعمال البروتستنت التي تجاوزوا فيها الحد، لجأ ليفيفر الى مرجريت في جنوب فرنسا، وعاش هناك حتى وفاته عام 1537، بالغا من العمر 87 (82)؟ دون ان يتخذ موقفا لا مع ولا ضد الاصلاح. وبقي اكثرية تلاميذه كاثوليك، وانضم بعضهم وهم قلة الى البروتستنت.

2) دخول اللوثرية والزونجيلية الى فرنسا 1520–1540

انتشرت اللوثرية في فرنسا بين عام 1520 و 1540. ومما لا شك فيه ان حادثة تعليق لوثر لبنوده الستة والتسعين على باب كاتدرائية وتنبرج في 31 تشرين اول 1517، اثارت ضجة ايضا في فرنسا. الا ان مبادىء وتعاليم لوثر لم تدخل فرنسا الا بعد "حوار ليبزغ" بين لوثر وجون آيك (1519). فقد رأينا ان جامعة باريس اختيرت ايضا لتعطي حكمها في هذا الحوار. وبهذه المناسبة استلمت كلية اللاهوت فيها نسخا من تعاليم لوثر وكتاباته، وتعرف عليها وذاق طعمها واستذوقها بعض اساتذتها وتبنوا افكارها.

ظهرت في نفس الوقت تقريبا تعاليم زونجيلي عن طريق اتباعه من التجار، ولم تكن تختلف عن تعاليم لوثر الا حول قضية العشاء السري.

لاقت هذه التعاليم العطف والقبول بين جميع طبقات المجتمع الفرنسي. ورحب الانسانيون بها لانهم وجدوا في نقد هؤلاء المصلحين شبها بدعوتهم. ورحب بها ايضا الاشراف ورأوا فيها مناسبة لقلب الاوضاع الاجتماعية، واضعاف السلطة الملكية، وفرصة للاستيلاء على املاك الكنيسة كما فعلت المانيا. ورحب بها الشعب، لانه رأى في هذه الثورة الانجيلية الجديدة دواء لكل الاوضاع السيئة التي كان يعاني منها. واخيرا رحب بها الكثير من الكهنة والرهبان، الذين دخلوا الحياة الرهبانية دون دعوة حقيقية، وكانوا قد سئموا حياة العزوبية والعفة، ورأوا في قبولهم هذه التعاليم الجديدة والانتماء اليها، وسيلة للتخلص من النذور الرهبانية ومن ثم الزواج.

هذه الاسباب مجتمعة تفسر الانتشار السريع للبروتستنتية في اجزاء كثيرة من فرنسا.

3) دخول الكلفينية الى فرنسا 1540–1559

اعطى نشر كتاب **Institutio christianae religionis** دفعة قوية لانتشار الافكار الاصلاحية. الا ان الحركة الكلفينية كَثّفت نشاطها بعد التنظيم الاول للكنيسة في جينيف عام 1540. فأخذ الوعاظ الكلفينيون السويسريون يتنقلون من بلد الى اخر يكرزون في كل مكان بهذه التعاليم الجديدة، ووزعوا الكتاب المقدس على كل البيوت. وانتشرت بسرعة الجماعات الكلفينية المؤسسة على مثال كنيسة جينيف، وبواسطة رعاة تدربوا في اكاديمية كالفن، في كل انحاء فرنسا تقريبا وتغلغلت ايضا في كل طبقات المجتمع. وضمت اليها الاتباع حتى من بين اعضاء البرلمان ومن بين رجال البلاط الملكي.

ولما اشرف مُلك هنري الثاني على الانتهاء، كان اتباع الكنيسة الكلفينية قد احرزوا تقدما كبيرا جعلهم قادرين على ان يعقدوا مجمعهم العام الاول في باريس في 25 ايار 1559. وفي هذا المجمع الذي حضرته 11 كنيسة تحت رئاسة فرانسوا دي موريل François de Morel، راعي الكنيسة المصلحة في باريس، تبنوا قانون اعتراف ودستور من القوانين من ايحاء كالفن. ومن المفارقات ان هذا المجمع الذي اقر حرية الرأي وحرية الاختيار وحق كل انسان في تفسير الكتاب المقدس حسب تنوير الروح القدس (بند 4، 5 من الدستور العقائدي) اضاف ايضا ان على الرعاة فقد تقع مسؤولية تعليم وشرح وتقديم كلمة الله، ولا يحق لأي انسان ان يتدخل – بدون تفويض – في امور ادارة الكنيسة (بند 25، 31). فضّل كالفن ان يكون مناقضا لتعاليمه الاصلاحية، ان يستفيد من وجود سلطة كنائسية عليا، سلطته هو في الوقت الحاضر، لانها وحدها كفيلة بالحفاظ على الوحدة وعدم التشرذم وتجنب الفوضى في كنيسته.

2– معارضة الافكار الاصلاحية

واجه المصلحون عدة معارضين حدّوا من انتشارهم. ومن اهم المعارضين: جامعة السربون والبرلمان.

1) جامعة السربون: اعتبرت جامعة السوربون نفسها حامية الايمان الارثوذكسي، لذلك اظهر منذ البداية معارضتها لكل تعليم وكل عقيدة وكل ومدرسة تتعارض ومبدأها في التعليم. فاتخذت في الحال موقفا معارضا من اللوثرية والزونجلية والكلفينية، وعارضت تعاليمهم وعملت على ادانتها. وأنشأت وظيفة خاصة بالجامعة دعيت "المراقب" Syndic، من مهامه مراقبة التعاليم غير الارثوذكسية وعهدت بهذه المهمة الى نوئيل بيدا Noël Beda رئيس كلية مونتيجي Montaigu المعروف بصرامته وتشدده ازاء الهرطقات. فادانت السربون تعاليم ليفيفرواضطرته الى الالتجاء الى ستراسبورغ. وادانت مئة بند من تعاليم لوثر واعتبرتها هرطوقية وخطرة.

2) البرلمان: كانت جامعة السوربون تدين الهرطقات والتعاليم الخاطئة، وكان البرلمان يعاقب الهراطقة واصحاب التعاليم المضّلِلة. وبما ان نصف اعضاء البرلمان كانوا من الاكليروس، فقد اتحدوا مع السوربون في محاربتهم الهراطقة ليحافظوا بذلك على وحدة الايمان، ووحدة المملكة والسلام العام.

فبعد ان أدانت السوربون التعاليم اللوثرية، اصدر البرلمان مرسوما منع فيه أي من الكتابات حول المواضيع الدينية دون موافقة كلية اللاهوت.

وانعقدت اربع مجامع في فرنسا: بورج وباريس وريمس وليون، لتحديد التعاليم الخاطئة، وتحديد العقوبات لكل حالة منها. واصدر مجمع باريس مرسوما عاما، يذكّر الاساقفة بواجبهم في محاربة الهرطقات عامة وهرطقة لوثر خاصة. وقرر ان يُنزل ويُحط الاكليروس الذي يتبع هذه الهرطقات من رتبته ويُسلمه الى المحاكم المدنية. ومنع حفظ ونشر الكتب اللوثرية، والوعظ بدون تفويض، وطلب من الملك ان يتخذ الاجراءات الصارمة ضد هذه الهرطقات.

وتبع هذا المرسوم 16 قرار ايمان يعرض العقائد الكاثوليكية: (وحدة وعصمة الكنيسة 2) منظورية الكنيسة 3) سلطة المجامع 8) عزوبية الكهنة 9) النذور الرهبانية 10) الاسرار السبعة 11) ذبيحة القداس 12) المطهر 13) تكريم القديسين، 14) تكريم الصور المقدسة، 15) حرية الاختيار 16) ضرورة الاعمال الصالحة للخلاص كضرورة الايمان.

وكان القرار الاخير قد اظهر ضلال لوثر الذي اراد ان يحارب الاعتماد الزائد على الاعمال، فشدد على اهمية الايمان لدرجة انه الغى ضرورة الاعمال الصالحة. فقدم هذا القرار مقابل اقتباسات لوثر من الكتاب المقدس في صالح نظريته، اقتباسات كتابية اخرى لا تقل اهمية لصالح الاعمال الصالحة. وقال القرار انه صحيح ان "بدون الايمان من المستحيل ان نكسب رضى الله" (عبرانيين 11، 26)، ولكنه صحيح ايضا ان "من كان له من الايمان ما يستطيع به ان يحرك الجبال، ولم تكن فيه المحبة، فليس بشيء" (1 كور: 13، 2). نحن نبرر بواسطة الايمان وانما قيل ايضا "ان مريم المجدلية غُفر لها كثيرا لانها احبت كثيرا" (لوقا 7: 47). "اذا احبني احد، حفظ وصاياي، واحبه ابي، ونجعل عنده مقامنا" (يوحنا 14: 23). من الفضائل الثلاث الايمان والرجاء والمحبة "واعظمهن المحبة" (1 كور: 13، 13)، "الايمان بدون الاعمال ميت" (يعقوب 2، 17)، "ليس من يسمع للشريعة يبررون ولكن من يحفظ الشريعة" (روما 2، 13)، لان كل واحد يتسلم بقدر اعماله (متى 25، 35). وتبع القرارات الستة عشر العقائدية 39 تعليما تمت ادانتها، و 40 بندا تنظيميا بهدف الغاء المساوىء وبدء برنامج للاصلاح.

ولم يكن للسربون ولا للبرلمان ان ينجح في محاربة الهرطقات لو لم يحصل على دعم اكبر قوتين في المملكة: الاسرة المالكة والشعب.

3- فرانسوا الاول وقمع الهرطقة

لم يكن النظام الملكي ليربح أي شيء من تغيير الديانة. فقد تحررت فرنسا ومنذ حكم فيليب الجميل من وصاية البابوات. ووضعت معاهدة 1516 الاكليروس تحت إمرة الملك. كما ولم يكن للملك أي رغبة في الاستيلاء على املاك الكنيسة، اذ كان بوسعه التصرف بها كما يشاء. واذ لم يكن للملكية ما تربحه من تغيير الديانة، كان لها الكثير لتخسره. فالاصلاح في نشر مبادىء الاستقلال، كان من شأنه ان يحرك طبقة الاشراف على التحرر من السلطة الملكية، وعلى المطالبة بالامتيازات التي كانت تتمتع بها سابقا، وبالتالي تفكك وحدة المملكة التي عمل ملوك فرنسا الكثير لتحقيقها.

كان مزاج الملك فرانسوا الاول في معاملته للهراطقة يتغير تبعا لتغيرات دبلوماسيته. فطالما بقيت الحركات الهرطوقية مسالمة، وجدت الافكار الاصلاحية قبولا لها حتى في البلاط الملكي. فكانت مارجريت دانجوليم اخت الملك المفضلة، تشجع وتؤيد مثلا "حلقة موا". وكان فرانسوا الاول وبحكم انتمائه الى حركة الانسانيين، يميل ايضا الى مثل هذه

الافكار، ولم يبدأ في مقاومتها الا عندما بدأ اتباعها يلتجئون الى العنف والتمرد. فعندما كان في حاجة الى المال لافتداء ولديه اللذين كان قد سلمهما لشارل مقابل حصوله على حريته، ووافق رجال الدين على منحه مبلغا كبيرا من المال مقابل وقفة اكثر حزما مع الهراطقة. وفي 31 ايار سنة 1528 هاله ان يعلم بتحطيم رأس العذراء والابن في تمثال لهما خارج كنيسة في ابرشية سان جرمان اثناء الليل. صاح الناس يطالبون بانتقام وعرض فرانسوا الاول مبلغا من المال مكأفاة لمن يعثر على المخربين، وقاد موكبا حزينا من الاساقفة وموظفي الدولة النبلاء وعامة الناس لترميم التمثال المحطم برأسين من الفضة.

وفي عام 1532، وقد اغضبه تعاون البابا كليمنضوس السابع مع شارل الخامس، قدم عروضا للامراء اللوثريين والالمان، وسمح لروسل Russell ان يعظ صيام 1533 في اللوفر، وعندما احتجت السوربون نفى زعماءها من باريس.

وفي تشرين اول سنة 1533، وعندما كان على وفاق مع كليمنضوس، عقد معه حلفا، مع وعد بالزواج بين كاترين دي مديتشي، ابنة اخ البابا مع هنري، الابن الثاني لفرانسوا، ووعد باتخاذ اجراءات فعالة ضد الفرنسيين البروتستنت. وفي اول تشرين ثاني القى نيكولاوس كوب بتحريض من كالفن خطابا في جامعة السوربون أثار فيه غضب الجامعة، ارسل فرانسوا اوامره بقمع الهراطقة من جديد. فهرب كالفن من باريس. ولكن عندما اشتدت وقتذاك حدة نزاعه مع الامبراطور شارل الخامس، ارسل جيوم دي بلاى المناصر للاصلاح الى فتنبرج ليطلب من ملانكتون ان يتوصل الى صيغة توفيق بين العقيدة القديمة والافكار الجديدة (1534). وبهذا يجعل في الامكان عقد تحالف بين المانيا البروتستنتية وفرنسا الكاثوليكية. فاذعن ملانكتون واخذت الامور تتحرك بسرعة عندما حدثت بما يسمى "حادثة المنشورات".

4- حادثة المنشورات

حادثة مهمة في تاريخ الاصلاح الفرنسي. كان الملك فرانسوا الاول ضد جماعة البروتستانت، وكان ينوي التخلص منهم، ولكنه كان يخشى رد الفعل من الداخل ومن الخارج، وخاصة انه كان يبحث عن ابرام معاهدة مع الامراء الالمان ضد الامبراطور شارل الخامس، لا سيما وان عددا لا بأس به من هؤلاء الامراء كانوا بروتستانت.

يبدو ان بعض الافراد ارادوا ان ينتهزوا هذه الفرصة، ففكروا ان يقدموا الى الشعب ملخصا لتعاليم الكنيسة اللوثرية، وبناء عليه ارسلوا الى سويسرا ممثلا لهم لكي يناقش هذا الامر مع بعض اللوثريين في نيوساتل. فرجعوا ومعهم منشورات قام بكتابتها انطون ماركورت Antoine Marcourt. وعند وصول هذه المنشورات الى باريس قامت جماعة بتوزيعها. ففي ليلة 17-18 تشرين اول سنة 1534، علقت هذه المنشورات في باريس واورليان، ووصلت الجرأة بهم الى تعليق احد هذه المنشورات على باب مخدع الملك. وكان هذا المنشور يحتوي على نقد لاذع للكنيسة الكاثوليكية ممثلة في البابا والكرادلة والاساقفة والكهنة، وضد مفهوم الكنيسة لعقيدة الافخارستيا، وبعض العقائد الاخرى. وقد كُتب هذا المنشور باسلوب هجومي عنيف خال من الادب ومن اللياقة، مستعملا بعض الالفاظ غير المهذبة.

عندما اطلع الملك فرانسوا الاول على هذا المنشور ثار ثورة عارمة، معتبرا هذا الامر تحديا لشخصه وجلالته الملكية. فشنَّ حملة اضطهادات عنيفة مريعة، واعدا بمكافأة مالية لكل من يعلن عن اسم وعنوان أي لوثري. وصلت بعض الشكاوي تحمل اسماء وعنوان بعض اللوثرين فقبض عليهم، والقى البعض منهم في السجون. وفي يوم 7 تشرين ثاني حكم بالموت على سبعة منهم.

ثم قام الملك مع الاكليروس واولاده الثلاثة بتطواف تكفيري في يوم 21 كانون ثاني 1535، وسار الملك في هذه المسيرة عاري الرأس مع اولاده الثلاثة ممسكا بيده شمعة مشتعلة. وفي عشية هذا اليوم، اعلن الملك اثناء العشاء امام الاكليروس وسفراء الدول الاجنبية، انه سيعامل كل هرطوقي بنفس المعاملة، حتى ولو كان من عائلته، واصدر الاوامر بالقبض على كل من ينتمي الى هذه الطائفة ومصادرة املاكه.

في هذه اللحظة شعر كالفن بعدم الاستقرار، وسئم التنقل بين انجوليم ونويون وباريس واورليان، فقرر ان ينطلق الى مدينة بازل في سويسرا في كانون اول عام 1534.

وشهدت السنوات من 1539 الى سنة 1547، السنة التي مات فيها فرانسوا الاول، سلسلة من الاعدامات طالت الكثير من اللوثريين والكالفينيين، والاحرار libres penseurs، اصحاب المطابع والناشرين، الذين ساهموا في طباعة ونشر كتب الهراطقة. وتميز عام 1545، بمذبحة الوالديين Vaudois، الذين قاموا بدافع من الحقد على

الكاثوليكية، وتحت تأثير معتقداتهم الدينية الى الهجوم على بعض الكنائس، وحطموا تماثيل العذراء والقديسين، واساءوا الى بعض الكهنة.

5- هنري الثاني ومقاومة الهراطقة (1547-1559)

استمرت البروتستانتية بعد فرانسوا الاول تتقوى في فرنسا، وكان كالفن وآخرون غيره يرسلون مبعوثين. وما ان حل عام 1559 حتى كانت عدة مدن، كاين وبواتييه ولاروشيل ومدن كبيرة في بروفانس، يغلب عليها الهوجينوت، وقدر احدهم ان البروتستنت الفرنسيين كانوا ربع السكان تقريبا في ذلك العام.

وتبنت البروتستانتية الفرنسية في لاهوتها آراء كالفن في كتابه "النظم"، فقد كان مؤلفه فرنسيا ولغته فرنسية واستهوى منطقه العقلية الفرنسية. وكاد لوثر ان يُنسى في فرنسا بعد عام 1550، والحق ان اسم هوجنوت بالذات ورد من زيورخ عن طريق جينيف الى بروفانس. وفي ايار عم 1559، شعر البروتستنت انهم اصبحوا من القوة الى حد يمكنهم من ارسال مندوبين الى اول مجمع مقدس عام لهم عقد سرا في باريس. وما ان حل عام 1561 حتى كان هناك 2000 كنيسة اخذت باسباب الاصلاح الديني او الكالفينية في فرنسا.

اتخذ هنري الثاني، ومنذ بداية حكمه، موقفا واضحا ضد الهرطقة. فقد اعتقد ان كل ثورة دينية ستكون مضرة للسلطة الملكية، فقرر سحق الهراطقة. وقد شجعه على ذلك ايضا حاشيته، امثال عشيقته ديان دي بواتييه، وخصوصا عائلة الجيز Les Guises.

الغرفة المتأججة: نظم المجلس النيابي لباريس، بناء على تعليمات هنري الثاني لجنة خاصة (1549) لقمع الخروج على الرأى، وارسل من ادينوا الى المحرقة، واطلق على المحكمة الجديدة اسم "الغرفة المتأججة" بسبب احكامها القاسية جدا، واصدرت ما يقارب الخمسمئة حكما، منها ستين حكما بالحرق. واعترض الاكليروس على تأسيس هذه المحكمة، اولا بسبب احكامها القاسية، ورأوا فيها سببا لانتشار الهرطقة بدل تحطيمها، اذ ان دم الشهداء بذار للبروتستانتية، وثانيا لانهم اعتبروها تعديا على حقوق الاكليروس. وتنازل الملك قليلا، واصدر مرسوما في تشرين ثاني 1549، خفف من اجراءات هذه المحكمة.

مرسوم شاتوبريان (1551): هدف هنري الثاني من مرسوم شاتوبريان هو ان يوحّد وينظم كل الاجراءات التي اتخذت ضد الهرطقة، وبيّن في مقدمة هذا المرسوم، انه بالرغم من كل الاجراءات التي تم اتخذها، الا ان البروتستانتية انتشرت "مثل انتشار وباء الطاعون"، وانه حان الوقت لمضاعفة الاجراءات لتطهير المملكة منهم. فاعاد العمل بكل الاجراءات السابقة. ثم نظم عملية طبع ونشر الكتب، فاعلن ان طبع او حيازة كتب الهرطقة يعد جريمة عظمى، وان الاصرار على الآراء البروتستنتية يعاقب عليه بالاعدام، ونص على ان يتسلم المبلغِون ثلث اموال المحكوم عليهم. وكان عليهم ان يبلغوا المجلس النيابي عن أي قاض يعامل الهراطقة باللين، ولم يكن في وسع أي رجل ان يُعينّ قاضيا الا اذا كانت عقيدته المحافظة لا يرقى اليها شك.

محكمة التفتيش: ولم تستطع كل هذه الاجراءات والمراسيم ان تقضي او تقلل من الهرطقة. وفي عام 1557، ستة سنوات بعد ارتقائه العرش، عرض هنري على البابا بولس الرابع اقامة محكمة التفتيش في فرنسا طبقا للنموذج الروماني الجديد، ولكن المجلس النيابي اعترض على السماح لسلطة اخرى ان تحل محل سلطته، فتخلى الملك عن عرضه. الا انه تمكن من ان يحقق غرضه باسلوب اخر، عندما طلب الملك من البابا بولس الرابع، ان يمنح كردينالا فرنسيا الصلاحيات الضرورية لملاحقة الهراطقة، مع امكانية تفويض صلاحياته للاساقفة او اساتذة اللاهوت، مما سمح بتأسيس مفتشين Inquisteurs، في كل انحاء المملكة.

مرسوم كامبيج Edit de Campiège: فشلت معظم الاجراءات في كبح انتشار الهرطقة. فاصدر هنري الثاني في 24 تموز 1557، مرسوم كامبيج، حوّل فيه الى المحكمة المدنية، صلاحية الحكم على الهراطقة، كل مرة اثاروا شكوكا او عنفا او فوضى. كما قرر الملك في هذا المرسوم، ان عقوبة الموت هي العقوبة الوحيدة لمثل هذه الاعمال، بعد ان كان في وسع القضاة الاختيار بين الغرامة او السجن الموقت، وبين السجن المؤبد او الاعدام. هكذا فكر هنري انه بامكانه القضاء على الهراطقة.

الا ان هذه السياسة كسابقتها لم تعمل الا على تثبيت الهراطقة في اعتقاداتهم، وعملت على انضمام اتباع جدد لهم، وزادت من حدة حقدهم وضغينتهم ضد الكاثوليكية. ورد الهراطقة على ذلك بمزيد من اعمال العنف والدمار ضد الكنيسة، واستخفوا بتكريم العذراء والقديسين، وقاموا بتحطيم تماثيلهم وصورهم. فمثلا في ايلول 1554، قام الهراطقة بتدنيس صورة للعذراء "سيدة الرحمة" بطعنها عدة طعنات بخنجر. فامر الملك بالقيام بتطواف للتعويض عن هذا العمل. وسار في هذا التطواف اعضاء البرلمان، وجموع غفيرة من الرجال والنساء.

جابه الهراطقة مظاهرات الشعب التقوية بمظاهرات اخرى معادية ادت الى الاصطدامات بين الطرفين وادت في بعض المرات الى مآسي مؤلمة مثل مأساة شارع القديس جاك Affaire de la rue Saint Jacques، وحادثة بري او كليرك Incident Pré-aux-Clercs.

مأساة شارع القديس جاك Affaire de la rue Saint Jacques: كان من عادة اتباع الكنيسة الكالفينية ان يجتمعوا كل مرة في احد البيوت الخاصة التي تعود الى اتباعهم، لتفادي اعين المراقبين. وفي الرابع من ايلول عام 1557، اكتشف بعض طلبة كلية دبليسيس Du Plessis، احدى هذه الاجتماعات في احد المنازل في شارع القديس جاك، يعود الى برتومية Berthomiet. فأثار الطلبة الشعب ونبهوا الحراس، وهجموا على مكان الاجتماع، وقبضوا على اكثرية المجتمعين بينما هرب الباقون. فعذبوا وسجنوا واعدموا سبعة منهم بالموت حرقا.

حادثة برى او كليرك Incident Pré-aux-Clercs: كان لهذه الحادثة اهمية كبرى لانها اظهر ان الاصلاح كان قد انتشر، ليس فقط بين عامة الشعب والطبقات الوسطى، ولكن ايضا بين طبقة الاشراف، وحتى بين شخصيات كبيرة في المملكة. وبالرغم من قساوة الاجراءات، لم يخشى البروتستنت من ان يقوموا في ايار 1558، بتظاهرات عامة. فقد تجمع ما يقارب الثلاث الى اربع الآف شخص منهم في منطقة برى او كليرك، وقاموا بترنيم الترانيم البروتستنتية. وكان يرافق هذا الجمع ما يقارب سبعمئة من الاشراف واثنان من الامراء، الذين دخلوا المدينة وهم يرنمون المزامير.

اثارت هذه المظاهرة استياء الملك، وشددت في عزمه على القضاء عليهم بأي ثمن. ولما حانت الفرصة له بعد عقد اتفاقية سلام مع شارل الخامس، ولم يعد بحاجة الى دعم الامراء البروتستنت، قرر ان يضرب الضربة القاضية لايقاف انتشار الهرطقة. وسنحت له الفرصة عام 1559، عندما نقضت احدى المجالس البرلمانية حكم الموت على بعض الهراطقة التي اصدرته احدى المحاكم البدائية، حسب تعليمات الملك. فثارت ثائرة المتشددين وطلبوا عقد مجلس عام لدراسة وتحديد القانون حول هذا الموضوع. واثناء مداولات هذا المجلس، عارض بعض المندوبين الاجراءات ضد الهراطقة، وطلبوا اعطاء الهراطقة المحكوم عليهم مهلة ستة اشهر للارتداد، كما ادانوا مساوىء الكنيسة، وطلبوا عقد مجمع. اقترح احد اعضائه، آن دي بورج، بجرأة ان تتوقف كل مطاردة للهراطقة حتى يستكمل مجلس ترانت تحديده للعقيدة الكاثوليكية. واستنكر ان يتم "الحكم على الذين يستنجدون بالمسيح من وسط لهيب النار على المحرقة، الشيء الذي لا يطبق على من يرتكبون الزنا". وكان الملك هنري الثاني حاضرا، ورأى في هذه الكلمات نقدا موجها له شخصيا بسبب علاقاته بديان دي بواتييه. فامر هنري بالقبض على خمسة من المستشارين. وبينما تراجع المستشارون الخمسة عن ارائهم، حكم على آن بورج بالموت، فخُنِق ثم احرقت جثته في 23 كانون اول 1559.

6- خاتمة

مات هنري الثاني، وفشلت سياسته في قمع الهراطقة. وفي نهاية حكمه، كان الاصلاح قد انتشر في الكثير من انحاء فرنسا. والمقلق اكثر ان الاصلاح استطاع ان يكسب الى صفه شخصيات مرموقة ومؤثرة من المجتمع الفرنسي. ولم يكن صعبا على المطلعين على الامور، التكهن بتحول النزاعات الدينية الى نزاعات سياسية، تجر وراءها الحروب. وهذا ما حصل في "الحروب الدينية Les Guerres de religion" وهذا ما سنراه في فصل آخر.

الفصل الثامن والاربعون

الانفصال الانجليكاني

مقدمة

كان للانفصال الانجليكاني – لأن الاصلاح في انكلترة بدأ بالانفصال قبل ان يصبح هرطقة – اسبابه البعيدة Lointaines وسبب قريب prochaine او بالاحرى مناسبة هي طلاق هنري الثامن.

1- الاسباب البعيدة:

تنقسم الاسباب البعيدة التي حضّرت وجعلت دخول الاصلاح الى انكلترة، الى اسباب دينية، وثقافية وسياسية واجتماعية.

(1) اسباب دينية

ان السبب الديني الرئيسي الذي اثار حركة الاصلاح، كانت حالة الكنيسة. ففي انكلترة كما في المانيا، وجدت نفس المساوىء التي شوهت صورة الكنيسة الكاثوليكية وزرعت في نفوس الكثيرين الرغبة في الاصلاح.

فرجال الكنيسة من اعلاها الى اسفلها، لم يكونوا يملكون الصفات اللازمة التي تليق بمكانتهم. فالاساقفة كانوا يَصِلون الى المناصب الكنسية بدون دعوة او تحضير، ولاسباب مادية. وكانوا يعيشون عيشة دنيوية اشبه بالامراء والاسياد، والكثير منهم لم يكونوا يحافظوا على واجب الاقامة résidence في ابرشيتهم، ولا يكترثون كثيرا بالعناية الروحية لرعياهم.

وعندما اعتلت العرش عائلة تودور (1465-1601) وارادت ان تثبت سلطتها القوية المستبدة، التجأت الى الاكليروس لمناصرتها امام معارضة البرلمان، واتخذت من هذا الاكليروس الوزراء والسفراء والمستشارين الذي كان بلاط انكلترة يعجُ بهم. وكانوا يعيشون كموظفي حكومة اكثر منهم رجال كنيسة، وحكموا الكنيسة كما حكموا الدولة بدون اعطاء اهمية لروما. وبهذا كانت كنيسة انكلترة قد اصبحت كنيسة قومية قبل ان تصبح منفصلة. واشهر مثال على رجال الدين هؤلاء هو الكردينال ولسي Wolsy، رئيس اساقفة يورك الذي عمل من عام 1518 الى 1529، مبعوثا بابوية ورئيسا للكنيسة الانجليزية بالاضافة الى عدة مناصب اخرى كانت تدر عليه الاموال الكثيرة، فعاش حياة ترف وبذخ بعيدة جيدا عن الصلاح في حياته الخاصة. ولم يكن الاكليروس العادي اكثر صلاحا من رؤسائه، اذ كان الكثيرون منهم اصحاب اخلاق فاسدة، جهلاء، بدون ثقافة لاهوتية، وغير ملمين بالوعظ.

وهكذا كانت الكنيسة في حالة ضعف بحيث لم تستطع ان تقاوم حركة الانفصال الذي سيقوم بها الملك هنري الثامن.

(2) اسباب ثقافية:

لعبت النزعة الانسانية دورا مهما وفعالا في حركة الاصلاح في انكلترة كما حصل في البلاد الاخرى. وعندما تبنت النزعة الانسانية رفض او التقليل من دور التقليد المسيحي واعطت لنفسها الحق في نقد الكتب المقدس بحجة "حرية البحث" Libre examen، مستعملة اساليبها المعارضة للاساليب السكولاستيكا، القى رجال النهضة بذور عدم الثقة في تعليم الكنيسة الرسمي.

كانت عملية هدم هذا الصرح التعليمي التقليدي للكنيسة قد بدأ في انكلترة في بداية حكم هنري الثامن على يد ثلاثة من كبار اصحاب النزعة الانسانية، اثنان هم من انكلترة نفسها: جون كولت John Colet وتوما مور Thomas More والثالث هولندي ديزري ارازموس Désiré Erasme جمعتهم صداقة قوية. وعندما اجتمعوا معا في جامعة اكسفورد – لذلك يطلق عليهم "مصلحي اكسفورد" – عملوا دون ان يعلموا على انجاح حركة الاصلاح الانجليكاني. فثلاثتهم حلموا بكنيسة متجددة مطهّرة من كل ما اضيف اليها من ممارسات دينية ومغالاة، اصبحت في نظرهم مساوىء، كتكريم القديسين والصور المقدسة والحج والغفرانات. ارادوا كنيسة مسامحة، تُعطي العقائد اهمية اقل، وتجمع جميع الطوائف والشيع المسيحية في جماعة وعبادة واحدة.

جون كوليت John Colet: في انجلترة تدرب جون كوليت (1467-1519) على فلسفة النزعة الانسانية على يد "ميراندولا" من فلورنسا بايطاليا. رجع ليحاضر في اكسفورد عن رسائل بولس. اصبح مشهورا بمواعظه التفسيرية

في كاتدرائية القديس بولس في لندن. كان كوليت صديقا حميما لسير "توماس مور" و "ايرازموس". كانت احدى انجازاته الكبرى تأسيس مدرسة للاولاد في كنيسة القديس بولس. كانت حينئذ فريدة من نوعها، فقد قبلت 150 ولدا كانوا محرومين من كل فرصة للتعليم، وذلك لتدريبهم على اليونانية واللاتينية والفضائل المسيحية. وقد استخدم كوليت ثروته الشخصية لدعم المدرسة.

توماس مور Thomas More: لا شك ان اشهر فلاسفة النزعة الانسانية كان السير توماس مور (1478-1535). واذ كان صديقا حميما لجون كوليت وايرازموس، قدم اساسا جديدا في دراسة اللاتينية واليونانية. دافع عن ترجمة ايرازموس اليونانية للعهد الجديد ضد منتقديها، وعبّر عن اهتمامه باصلاحات الكنيسة. كان مور، بصفة خاصة، يندّد بالفلسفة اللاهوتية للقرون الوسطى قائلا: "يمكنني ان احصل على التغذية الجسدية، بحلب جدي في غربال بنفس السهولة التي احصل بها على التغذية الروحية من قراءة فلاسفة اللاهوت في القرون الوسطى". على أي حال كان مور مفكرا سياسيا اكثر منه لاهوتيا. عمل الكثير لمساندة هنرى الثامن في طلباته ضد البابوية. وقد عينه هنري وزيرا حامل الاختام في سنة 1529. اشهر كتبه هو "اليوتوبيا Utopia" او الدولة المثالية، الذي تخيل في حكومة ديموقراطية كاملة لدولة خيالية حيث يعيش جميع الناس في سلام وراحة وسعادة. يؤسس الدين في اليوتوبيا على العقل، والطيبة، وتتمركز العدالة في الاسرة. وبالرغم من الهرطقة الظاهرة في اليوتوبيا، بقى مور كاثوليكيا امينا. وعارض الاصلاح اللوثري. ولما اصر الملك على سيادة الملكية فوق الكنيسة، استقال من منصبه، ومات في سنة 1535 بقطع رأسه.

ايرازموس Erasmus: يتفق المؤرخون على ان ايرازموس (1469-1536) كان ابرز فلاسفة النزعة الانسانية واكثرهم تأثيرا. ولد في هولاندا ابنا غير شرعي لاحد الكهنة، وتلقى تعليمه المبكر بين "اخوة الحياة المشتركة". كان راهبا اوغسطينيا لوقت وجيز. وفي اثناء وجوده في الدير طوّر اسلوبه الادبي اللاتيني المؤثر. وصار في فترة لاحقة سكرتيرا لاسقف Cambria في فرنسا، ثم رُسم كاهنا سنة 1492. حصل على شهادة من جامعة السوربون سنة 1498. لكنه اصبح فاقد الامل بسبب الافق الضيق في طريقة التعليم لفلسفة اللاهوت في القرون الوسطى. وعلى مثال الآخرين من معتنقي مذهب النزعة الانسانية، رأى قيمة ضيئلة في جدال هذا السؤال: "هل الصلاة لمدة عشر دقائق تقام لاجل عشرة اشخاص يكون لها تأثير مثل صلوات لمدة دقيقة واحدة".

بعد حصوله على درجته العلمية زار انجلترا، وفيها سمع مواعظ كوليت عن الرسالة الى اهل رومية، وتحقق لاول مرة من القيمة الحقيقية للكتاب المقدس كتوضيح للايمان المسيحي. كانت زيارته لانجلترا وتضامنه مع كويت ومع "مور" بداية لحقبة جديدة بالنسبة له في كل من المعرفة والايمان.

اول عمل لايرازموس كان كتابا عن اقتباسات المؤلفين اللاتين المشهورين. اسم الكتاب "اقوال مأثورة Adages". لاقى الكتاب رواجا عظيما واكد شهرته. شعر ان رسالته هي ان يمحو الجهل، خاصة بين العلمانيين. ولهذا الغرض الف "انشريديون The Enchiridion او كتاب "الفارس المسيحي". وهو كتاب صغير عن الاخلاق المسيحية، مركزا على خطة الله للخلاص وتلبية الانسان لهذا الخلاص. انتقد الكنيسة مباشرة عندما كتب انه لا قيمة للصيام، ولا لزيارة الاماكن المقدسة ولا للتوسل الى القديسين، ولا لشراء صكوك الغفران. لانه بالتقوى والمحبة فقط يمكن ان يحيا الانسان حياة مسيحية حقيقية.

ازداد ايرازموس اقتناعا أن السبيل للاصلاح هو عن طريق الكتاب المقدس. لذلك شرع في اعداد نسخة علمية للعهد الجديد مع ترجمته الشخصية باللاتينية. الواقع ان ايرازموس كرسها للبابا ليو العاشر الذي امتدحها، بالرغم من انها اظهر اخطاء متعددة في الفولجاتا. انتشرت هذه الترجمة انتشارا واساعا واستخدمها لوثر وآخرون من قادة الاصلاح في اخراج ترجمات باللغة الدارجة.

اشهر اعمال ايرازموس كان كتابا بعنوان "الثناء على الطيش"، وهي عبارة عن قصة رمزية هجومية انتقد فيها اساليب واخلاق طبقات المجتمع من الملوك والعلماء الى الجنود والتجار. ولقد وجه اعظم سهامه النفاذة الى الكنيسة، الى البابوات والرهبان، الى الخرافات والاوثان داخل اعلى وظائف الكنيسة. لكنه فعل ذلك بطريقة اليد الناعمة .

حُكم التاريخ على ايرازموس هو انه لم يكن رجل الساعة بالنسبة لعصره. فبالرغم من اعماله الادبية الكبرى، فان عدم رغبته في مناصرة هذا الجانب او ذاك، بأي طريقة حاسمة، حرمه من تعاطف الكاثوليك والبروتستانت. ذكر بعض نقاد الكاثوليك كتابات ايرازموس كانها وحي "الاصلاح" وفي سنة 1559 حرمها البابا بولس الرابع. يقول عنه المؤرخ الكاثوليكي العصري لورتز: "ايرازموس بقى في الكنيسة... لكن كنصف كاثوليكي... حائر، متردد، معلق في الوسط".

اما حكم لوثر فهو مثال الفكر البروتستانتي للقرن السادس عشر حيث قال " لقد فعل ايرازموس ما رسم لفعله. ادخل اللغات القديمة مكان الدراسات الفلسفية اللاهوتية المؤذية".

(3) اسباب سياسية

كانت الصراعات بين الكرسي الرسولي وبين انكلترة من اعنف واكثر الصراعات التي شهدتها العصور الوسطى. فقد رأينا في القرن الثاني عشر الصراع الذي دار بين البابا الكسندر الثالث وهنري الثاني، والتي اضطر على اثرها هنرى الثاني المهزوم، ان يركع امام قبر عدوه توما بيكيت Thomas Becket. وفي القرن الثالث عشر الصراع بين انوسنت الثالث وجون سن تير John sans Terre، الذي عزله البابا، واضطر على اثرها ان يقدم مملكته كهبة للكرسي الرسولي وتعهد ان يدفع ضريبة سنوية ليحصل على رضا البابا.

عملت كل هذه الانهزامات على اثارة حفيظة الشعب الانكليزي، وولدت فيه النزعة القومية. وعندما ضعفت سلطة البابوية اولا في القرن الرابع عشر، على اثر السبي البابلي (البابوات في افنيون)، ثم الانشقاق داخل البابوية، ثم في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، على اثر الفوضى والحروب في الولايات البابوية وايطاليا، اخذت كنيسة انكلترة تنفض عنها رويدا رويدا السلطة البابوية. ولم يهب اللاهوتيون الانكليز من وضع اولوية البابا موضع الشك، ورفض ويكليف تابعية انكلترة الى الكرسي الرسولي، ورفض سلطة البابا، واعلن ان الانجيل هو القانون الاعلى للمسيحية، وهو اول من دعى الى اعادة الكنيسة الى طهارتها الاصلية، بالاستيلاء على املاكها.

عملت السلطتان الدينية والمدنية على خنق مثل هذه التعاليم الخطرة على الكنيسة وعلى المجتمع، الا انها لم تمنع انتشارها خارج اوروبا، واثرت على اشخاص آخرين ادعوا الاصلاح امثال جون هس في هنغاريا، ومارتن لوثر في المانيا، وزفينجلي وكالفن في سويسرا، ومن هذه البلاد ستعود الى انكلترة موطنها الاصلي في القرن السادس عشر وستساهم في انجاح حركة الانفصال الانكليكاني.

(4) اسباب اجتماعية:

اصبحت الكنيسة قوة زمنية قوية بواسطة املاكها وثروتها الواسعة وامتيازاتها التي حصلت عليها وخصوصا في العصور الوسطى مما اثار ضدها عداء وحسد ونقمة كل طبقات المجتمع الانكليزي، بما فيهم البرلمان، وطبقة الشعب الوسطى، وطبقة التجار، الذين رأوا ان اموال الكنيسة ستكون اكثر فائدة في ايديهم منها في ايدي الرهبان، كما طالبوا بمنع رجال الاكليروس من مزاولة التجارة او الصناعة، ومنع الاساقفة من اقتناء المزارع. لذلك لم يجد هنرى الثامن بعد انفصاله عن الكنيسة صعوبة في جر الشعب وراءه ضد كنيسة روما.

2- السبب القريب للانفصال: طلاق هنرى الثامن

هنرى الثامن

ولد هنري الثامن في مدينة غرينفيتش Greenwich عام 1491، وهو الملك الثاني من عائلة تدور، كان عمره ثمانية عشرة سنة عندما ارتقى العشر بعد موت ابيه عام 1509، وكان وهو في عمره الثامنة عشرة، يعد من اكثر الملوك اناقة، ذا بشرة رقيقة وتقاطيع منتظمة جعلته يظهر كفتاة، وتبارى السفراء الاجانب مع المادحين الوطنيين في الثناء على شعره، ولحيته الذهبية، الا ان ما كان يتمتع به من قوام رياضي وجرأة سرعان ما قضت على أي مظهر انوثي فيه. ففي تقرير كتبه سبستيان جيوستنياني سفير فنيسيا الى مجلس شيوخ البندقية وصفه بانه مغرم بلعب التنس، ورمي السهام والمصارعة، ويحب الصيد كثيرا والمبارزة.

من الناحية الثقافية والاخلاقية، كان انسانا مثقفا، يتكلم الفرنسية واللاتينية والايطالية والاسبانية، يحب الفنانين، محبا للموسيقى واظهر براعة كبيرة في العزف على عدة الآت موسيقية. كما كان متدينا جدا، يحضر ثلاث قداديس يوميا اثناء الصيد وخمسة في الايام الاخرى، ويشترك في صلاة الغروب وصلاة النوم التي كان تقام ليليا في غرفة الملكة.

كان امينا للكنيسة، ووثّق روابط قوية مع جميع البابوات الذين توالوا من عام 1509 وحتى 1527. وانضم في عام 1512 الى حلف كمبريه الذي اسسه يوليوس الثاني ضد ملك فرنسا. كما خدم الكنيسة بسيفه وبقلمه، ففي سنة 1518 كتب كتابا عن ضرورة الصلاة، كما يعلمنا ارازموس، الا ان كتابه هذا فُقد. وعندما اصدر البابا براءته بحرمان لوثر في عام 1520، لم يكتف هنرى باعلانها الرسمي الاحتفالي في كنيسة القديس بولس، بل كتب كتابا اخر عن الاسرار السبعة، ليرد على افكار لوثر المهرطقة. لذلك اعلنه البابا ليون العاشر "حامي الايمان".

قضية طلاق هنري

جاءت كاترين الارجوانية، ابنة فرديناند وايزابلا الى انجلترة عام 1501، وكانت في السادسة عشرة من عمرها وتزوجت من ارثر ابن الملك هنري السابع البالغ من العمر خمسة عشرة عاما. ومات ارثر في 2 نيسان عام 1502، دون ان يتم دخول ارثر على زوجته، حسب ادعاء كاترين. وبعد مرور شهرين انتقل لقب امير ويلز الى شقيقه الاصغر هنري. وخوفا من ضياع البائنة (المهر) التي احضرتها كاترينا معها، ومع رغبتة في الحفاظ على علاقة مع فرديناند القوي، اقترح هنري السابع ان تتزوج كاترين من الامير هنري مع الرغم انها كانت تكبره بستة سنوات. وكانت هناك آية في الكتاب المقدس في سفر اللاويين 21/20، تحرم هذا الزواج: "واذا اخذ رجل امرأة اخيه فذلك نجاسة.. يكونان عقيمين". الا ان الزواج تم بعد الحصول على التفسيح اللازم من البابا يوليوس الثاني، ولما كان هنري لا يزال في الثانية عشرة من عمره فقد أُجِّلت المعاشرة. وفي عام 1505 طلب الامير هنرى اعلان بطلان الزواج، لان اباه اكرهه عليه ولكن أُقنِع بصحة الزواج على اساس انه في مصلحة انجلترة.

وفي عام 1509، وبعد ستة اسابيع من ارتقائه العرش احتفل علنا بالزواج. وبعد سبعة شهور انجبت كاترين اول طفل لها، مات عند الولادة، وانجبت بعد ذلك بعام ابنا وابتهج هنري بولادة وريث ذكر، ولكن الطفل مات بعد بضعة اسابيع وسقط ابن ثان وثالث بعد الولادة مباشرة. وبدأ هنري يفكر في الطلاق، او بعبارة اخرى اعلان بطلان الزواج باعتباره غير صحيح. وحاولت كاترين المسكينة مرة اخرى، وفي عام 1516 انجبت طفلة قدر لها ان تعيش. واذعن هنري وقال لنفسه: "اذا كانت هذه المرة ابنة فان الابناء سوف يجيئون بعدها". وفي عام 1518 انجبت كاترين ابنا آخر ولد ميتا. واشتدت خيبة امل الملك والبلاد لان ماري البالغة من العمر عامين، كانت قد خطبت الى ولي عهد فرنسا، وان لم يُرزق هنري بولد فان ماري سوف ترث العرش الانجليزي، وعندما يصبح زوجها ملكا على فرنسا فسيكون في الواقع ملكا على انجلترة ايضا، وتصبح بريطانيا مقاطعة تابعة لفرنسا. وعبر هنري عن خوفه من ان يكون حرمانه من انجاب ولد عقابا من الله لان زواجه محرم. واقسم ان يقود حملة صليبية ضد الاتراك اذا انجبت له الملكة ولدا. غير ان كاترين لم تحمل بعد ذلك. وما ان حل عام 1525 حتى تخلى عن كل امل في الحصول على ذرية اخرى منها.

آن بولين

وكان هنري منذ أمد بعيد قد فقد الميل الى كاترين، وكان وقتذاك في الرابعة والثلاثين، أي في عنفوان الرجولية، وكانت هي في الاربعين وتبدو اكبر من سنها، فقد شوهها المرض المتكرر. وكانت كاترين زوجة صالحة مخلصة، تحب زوجها حبا كبيرا صادقا. وكان هنري قد اتخذ في حوالي عام 1518 اول عشيقة له عرفها بعد الزواج وهي اليزابيث بلاوتد، انجبت له ابنا عام 1519، وانعم هنرى على الصبي بلقب دوق رتشموند وسومرست، وفكر في ان يقف وراثة العرش عليه. وفي عام 1524 اتخذ عشيقة اخرى هي ماري بولين.

وفي عام 1527 حول هنري انظاره الى آن بولين شقيقة ماري. وكان والدها سير توماس بولين، تاجرا دبلوماسيا حظى منذ وقت طويل بعطف الملك، اما امهما فكانت من ال هوارد، وهي ابنة الدوق مورفولك. وارسلت آن الى باريس لاتمام دراستها فيها، وهناك عينت وصيفة للملكة كلود ثم لمرجريت دي نافار، ولعلها تشربت منها بعض النوازع البروتستانتية. وعندما عادت الى انجلترة وهي في الخامسة عشرة من عمرها (1522) اصبحت وصيفة للملكة كاترين. لم تكن رائعة الجمال، وكانت قصيرة القامة لها بشرة قاتمة وفم واسع ورقبة طويلة، ولكنها خلبت لب هنري وآخرين بعينيها السوداويين البراقتين وشعرها البني المسترسل ورشاقتها وذكائها ومرحها.

وتمنعت آن بولين على الملك ورفضت ان تسلمه نفسها الا بالزواج وبعد ان تصبح ملكة. فقرر هنري طلب بطلان زواجه من كاترين عام 1527.

التفكير بالطلاق

يبدو ان ولزي، رئيس اساقفة يورك، لم يكن على علم بنية الملك الزواج من آن بولين عندما ذهب في تموز عام 1527 الى فرنسا لاعداد للزواج بين هنري ورينيه ابنة لويس الثاني عشر. واتفق ولزي مع الملك في هذا الموضوع واكد له انه يمكن الحصول على قرار من البابا ببطلان الزواج، وكانت سلطة البابا في منح مثل هذا الانفصال امرأ مقبولا بوجه عام، كاجراء لتلبية مثل هذه الضرورات الوطنية تماما، ويمكن تقديم سوابق كثيرة. بيد ان تقدير الكاردينال المشغول لم يعمل حسابا لتطورين بغيضين: فهنري لم يكن يريد رينية بل كان يريد آن بولين، وبطلان الزواج سوف يصدر من بابا، كان عندما وصلته المشكلة اسيرا للامبراطور، كان له اكثر من سبب لمناصبة هنري العداء. وربما كان شارل حريا

ان يعارض بطلان هذا الزواج ما دامت عمته تقاومه، وكان يعارض اكثر لو عقد زواج جديد، كما دبر ولزي، يربط انجلترة بحلف قوي مع فرنسا. ولم يكن السبب الاول للانفصال الديني الانجليزي جمال آن بولين الصاعد، بل الرفض العتيد الذي بدا من كاترين وشارل في ادراك رغبة هنري في الحصول على ولد. ولكن السبب النهائي للاصلاح الديني الانجليزي لم يكن طلب هنري بطلان الزواج بقدر ما كان ارتفاع شأن الملكية الانجليزية وبلوغها درجة من القوة جعلتها قادرة على ان ترفض التسليم بسلطة البابا في التدخل في شؤون انجلترة وتحكمه في مواردها.

واكد هنري ان رغبته العارمة في الحصول على بطلان الزواج انما دعا اليها جبرييل جي جرامون، الذي اقبل الى انكلترة في شباط عام 1527 لمناقشة الزواج المقترح بين الاميرة ماري والاسرة الملكية الفرنسية. فقد اثار جرامون، كما يروي هنري، سؤالا عن شرعية بنوة ماري، على اساس ان زواج هنري بكاترين قد يكون غير صحيح باعتباره مخالفة لاحد نواهي الكتاب المقدس ولا يستطيع البابا ان يمحوها. وظن البعض ان هنري لفق هذه القصة، ولكن ولزي رددها، وابلغت الى الحكومة الفرنسية، ولم ينكرها بقدر ما هو معروف جرامون، وجاهد جرامون لاقناع كليمنت ان طلب هنري بطلان الزواج امر عادل، وابلغ شارل سفيره في انجلترة انه كان ينصح كليمنت برفض التماس هنري.

وأُبلِغَ ولزي وهو في فرنسا ان هنري لا يرغب في الزواج من رينيه بل من آن بولين. وتجاوز الملك ولزي في خريف عام 1527، وبعث بكاتم سره وليم نايت Knight، ومعه ثلاثة التمسات للبابا. الاول يتضمن ان يسمح البابا لهنري بالاحتفاظ بزوجتين، لقاء الخدمات التي قدمها في صراعه ضد التمرد اللوثري. والثاني الذي لا يقل غرابة، يطلب من البابا ان يمنحه التفسيح من الزواج من امرأة كان للملك علاقات غرامية مع اختها، هذا التفسيح كان من شأنه ان يسمح لها الزواج رأسا بعد اعلان الطلاق من زواجه من كاترين. والملتمس الثالث ان يُعين ولزي مبعوثا لعقد محكمة في انكلترة تصدر حكما في شرعية زواجه دون امكانية الاستئناف الى روما.

وبدأ هنري يلمح الى انه يعاني من وخز الضمير حول شرعية زواجه من كاترين، ارملة اخيه، التي اتخذها بالرغم من منع مثل هذا الزواج في الكتاب المقدس. وانه يرى في حرمانه من الذرية وموت كل ابنائه عقابا على هذا الزواج. الا انه لم يكن هناك احد كان فعلا يفكر بعدم صلاحية التفسيح الذي اعطاه يوليوس الثاني[1].

عندما وصل نايت ال روما كانت قد احتُلت ونُهبت من قِبَل الجيوش الاسبانية. وكان البابا كلمنت السابع اسيرا في قلعة سانت انج. ولما نجح البابا في الهرب الى اورفيتو، قابله السفير الانجليزي فيها، طلب منه الموافقة على الملتمس الثاني والثالث، اذا كان هنري قد سحب الملتمس الاول. ووافق البابا على شرط ان يعلن اولا بطلان زواجه وتوافق عليه كاترين، وان توافق روما بعد موافقة كاترين.

فهم هنري ان كاترين لن توافق ابدا على بطلان الزواج، فطلب من البابا كلمنت السابع عام 1528 ان يرسل الى انكلترة الكردينال كامبجيو Compeggio لعقد محكمة مع ولزي ليصدر الحكم، وان يصدر بنفس الوقت قرارا يعلن عدم صلاحية التفسيح الذي اصدره يوليوس الثاني لانه ضد الشريعة الالهية. ووافق كلمنت على هذين الطلبين على شرط ان يبقى هذا الاتفاق سرا وان تحرق المستندات بعد اطلاع ولزي والمبعوث البابوي عليها، واعطى البابا تعليمات لمبعوثة ان يعمل على اطالة المباحثات. وابلغ الكاردينال البابا بعزم الملك على الزواج من آن بولين وكتب يقول: "ان هذه العاطفة امر خارق للعادة، انه لا يرى شيئا ولا يفكر في شيء سوى حبيبته آن، انه لا يستطيع ان يستغني عنها ساعة واحدة. واني لاشعر بالاشفاق عليه عندما ارى ان حياة الملك واستقرار البلاد بأسرها يتوقف على هذه المسألة وحدها".

وفي 31 ايار 1529 افتتح كامبجيو مع ولزي المحكمة المختصة بالنظر في الالتماس المقدم من هنري، بعد ان اجلها لاطول مدة ممكنة. فاستغاثت كاترين بروما، واظهرت وثيقة التفسيح التي اعطها البابا يوليوس الثاني، وابت ان تعترف باختصاص المحكمة. الا ان الملك والملكة حضرا يوم 31 حزيران، وخرت كاترين على ركبتيها امامه وتوسلت اليه بكلمات مؤثرة ان يستأنفا حياتهما الزوجية، وذكرته باعمالها الكثيرة واخلاصها التام، وصبرها على لهوه خارج الاسوار، واقسمت ان الله يشهد على انها كانت عذراء عندما تزوجها، وتساءلت أي شيء صنعته أساء اليه؟ فانهضها هنري واكد لها انه لم يكن هناك ما يتمناه اكثر من التوفيق في زواجهما واوضح لها ان الاسباب التي حملته على الانفصال ليست شخصية بل املتها عليه مصلحة الاسرة المالكة والامة. ورفض رفع امرها الى روما، على اساس ان الامبراطور يسيطر على البابا، فانسحبت وهي تبكي. ورفضت ان تشترك بعد ذلك في الاجراءات القضائية. وتكلم الاسقف

[1] كانت شريعة موسى تمنع فعلا الزواج بين الاخ وارملة اخيه اذا كانت هذه قد انجبت بنين، فيما وصى الكتاب المقدس بل جعل ذلد واجبا ان يتزوج الاخ امرأة اخيه اذا م يكن لها اولاد، ليقيم لاخيه منها نسلا. بالفعل ليس فقط ان ارثر اخ هنرى مات بلا اولاد، ولكن ايضا بحسب شهادة كاترين ان زواجها مع ارثر لم يكتمل.

جون فيشر مدافعا عنها فاكتسب عداء الملك. وطلب هنري اصدارا قرار واضح من المحكمة. وعمل كامبجيو على المماطلة في اصدار الحكم. واخيرا في 23 تموز 1529، اجل المحكمة بحجة العطلة الصيفية، والتي لم يتم لها ان تنعقد بعد، اذ ندم البابا على موافقته على العرض الذي قدمه هنري، وقبل دعوة كاترين وحول القضية الى روما.

3- التحضيرات للانفصال

سقوط ولزي: استشاط هنري غضبا اذ فهم انه برفع دعوته الى روما يعني عدم الاستجابة لها. وشعر ان كاترين عنيدة بصورة غير مقبولة، فرفض ان تربطه بها أي علاقة بعد ذلك، واخذ يقضي ساعات لهوه علنا مع آن بولين. وشكت آن بولين من ان شبابها يضيع في الوقت الذي يماطل البابا والكرادلة. ولامت ولزي لانه لم يتعجل البت في طلب هنري بعزم اشد وشاركها الملك استياءها. كما كان لدى الملك اسباب كثيرة لعدم الرضا من ولزي. فقد فشلت السياسة الخارجية واثبت ان التحول من صداقة شارل الخامس الى الحلف مع فرنسا خطأ ادى الى عواقب وخيمة.

ولم يكن احد في انكلترة في ذلك الوقت راضيا عن ولزي ولا سيما البرلمان لانه ابعده عن اخذ القرارات، ولكبريائه وثروته التي تضاعفت سريعا. وفي اليوم التاسع من تشرين اول عام 1529، صدر قرار قضائي باستدعاء ولزي للمثول امام قضاة لملك للرد على التهمة بأنه خالف قانون الخضوع لسلطة التاج Bill de praemunire[2]، بحجة انه خرق هذا القانون بقبوله ان يكون مبعوث البابا. وقبل ولزي التهمة مع انه كا يعلم انه قبل المهمة بناء على طلب الملك، وانه استخدمها لصالح الملك. فارسل الى الملك التماسا ذليلا يعترف بفشله ويلتمس ان يتذكر الملك ايضا خدماته وولائه. فاستولى هنرى على ممتلكاته ومحتويات قصره الثمينة، الا انه سمح له بالاحتفاظ بمنصب رئيس اساقفة يورك. وخلف الدوق نورفولك ولزي في رئاسة الوزراء وخلفه توماس مور في منصب حاجب الملك Chancelier.

واقبل الكردينال الذي جرد من سلطانه على عمله ككبير اساقفة في ورع ومثالية. واخذ يزور ابرشيته بانتظام ويدير ترميم الكنائس. الا ان سقوطه هذا لم يشف غليل اعدائه، فاتهم بالخيانة بأنه اشار على البابا بحرمان هنري. فصدر الامر بالقبض عليه. واستسلم ولزي في هدوء (4 تشرين ثاني 1530) وودع اسرته وانطلق الى لندن واصيب في شفيلد بارك بدسنطاريا شديدة الزمته الفراش. وهناك قبض عليه الجنود لاقتياده الى سجن البرج. فاستأنف رحلته، ولكن بعد يومين من الركوب بلغ من الضعف حدا جعل حراسه يسمحون له ان يلزم الفراش في دير ليسستر حيث نطق امام ضابط الملك سير وليام لنجستون بالكلمات الشهيرة التي اقتباسها شكسبير: "لو انني خدمت الله باخلاص وجد كما خدمت الملك، لما تركني في شيخوختي، ولكن هذا ما استحقه". ومات ولزي وهو في الخامسة والخمسين من عمره في دير ليسستر في 29 تشرين ثاني 1530.

المستشارون الجدد: كرانمر Cranmer وكرومول Cromwell: اختار هنري بعد سقوط ولزي شخصيتين ذليلتين، بلا وازع ولا ضمير، ليكونا مستشارين له هما توماس كرانمر الذي سيصبح رئيس اساقفة كانتربري، وتوماس كورمول.

اقترح توماس كرانمر على هنري ان تبدي الجامعات الكبرى في اوروبا رأيها فيما اذا كان في وسع البابا ان يسمح لرجل بالزواج من ارملة شقيقه. واستطاع بواسطة الدسائس والرشاوي الحصول على اجوبة تناسب موقف الملك. ليس فقط الجامعات الانكليزية (كامبردج واكسفورد)، بل من جامعات فرنسية امثال جامعة باريس واوليان وانجه وتولوز، وحتى بعض الجامعات الايطالية مثل جامعة فيرارا وبافي بادو وكلها اعطت رأيها ببطلان زواج هنري وعدم شرعية تفسيح البابا يوليوس الثاني، إما بسبب نواقص قانونية او لان زواج الاقارب من الدرجة الاول هو مانع الهي ولا يقدر أي انسان على الارض حتى البابا ان يعفي منه.

اما رد البابا فقد جاء بعد شهرين، معربا فيه عن رأيه ان أي قرار متسرع سيمس ضمير الملك كما سيمس ضمير البابا. وبذلك حافظ البابا على سياسة المماطلة في اصدار حكم كان يعلم انه سيكون في صالح كاترين، حتى يتم استيفاء جميع وسائل المصالحة. وحتى لا يقدم هنري على خطوة لا يمكن اصلاحها، ارسل له رسالة بابوية يمنعه من

[2] من الكلمة اللاتينية praemonere وتعني التنبه قبل حدوث الشيء. وكانت تطلق على القانون الانجليزي الذي صوت عليه البرلمان عام 1353، على زمن الملك ادوارد الثالث، والذي يمنع تدخل السلطات الكنسية وخصوصا روما، في امور السلطة الزمنية. ومنعت ادخال قرارات ومراسيم وبرءات ورسائل البابا، او رفع الدعاوي الى محكمته دون موافقة الملك. وكل من يخالف هذا القانون يعرض نفسه للسجن ومصادرة املاكه.

الاقدام على زواج ثان قبل صدور القرار المحكمة البابوية، تحت طائل اعلان زواجه الثاني باطلا واعلان اولاده منه غير شرعيين، ثم ارسل رسالة اخرى يلزمه بالعودة الى امراته الشرعية كاترين.

اجراءات انفصالية: عندما شعر هنري انه لا امل له بالحصول من روما على قرار ببطلان زواجه، استغل فرصة مماطلة البابا لاتخاذ بعض الاجراءات التي حضّرت للحركة الانفصالية التي كان ينوي القيام بها. وبدأ هنري بالاكليروس الذي اراد ان يمنعه من الطاعة للبابا، وليسيطر عليه لخدمة مشاريعه الخاصة. وفي هذا الخصوص اعتمد على البرلمان الذي كان تحت السيطرة الكاملة لكرومول الذي اتخذ سلسلة طويلة من الاجراءات التعسفية في حق الاكليروس، باتهامهم انهم باعترافهم بسلطة ولزي كمبعوث للبابا خالفوا قانون المنع "Praemunire" وقانون الولاء للتاج، تهمة كان من نتائجها مصادرة املاكهم. وبدلا من ان يقاوموا اذعنوا لهنري واستعدوا لدفع تعويض مالي كبير. فوافق الملك على شرط ان يعترف به رجال الاكليروس "حاميا للكنيسة ورجال الدين في انجلترة والرئيس الاعلى الوحيد للكنيسة والاكليروس في انجلترة". أي ان ولاءهم للبابا لا بد ان ينتهي. وعارضت ابرشية يورك بشدة هذا القرار، وعرضت عدة صيغ اخرى لهذا الاعتراف. الا ان هنرى اصر على ان يجيبوا بنعم او بلا. واخيرا في 11 شباط 1531، ادخل الاسقف فيشر على قرار الملك عبارة "بقدر ما تسمح به شريعة المسيح". ووافقت المجالس الكنيسة على هذه الصيغة، واصبحت الصيغة قانونا.

وعندما انعقد المجلس النيابي والمجلس الاكليروسي مرة اخرى في 15 كانون ثاني 1532، حصل هنري منهم على تشريع اخر مناهض لرجال الاكليروس، يقضي على ان الرسوم والغرامات التي تتقاضاها المحاكم الكنسية، والرسوم على الموتى، وعلى تثبيت صحة الوصايا، يجب ان تخفض او تلغى، وان موارد السنة الاولى للاسقف حديث التعيين يجب الا تدفع بعد ذلك للبابا وانما للملك، وان تحويل الاموال الانكليزية الى روما من اجل التفاسيح او الحليات وصكوك الغفران او أي خدمات بابوية اخرى يجب ان يتوقف.

في هذا الوقت انحازت غالبية من الاساقفة الى الرأي القائل انهم لن يفقدوا شيئا من السلطة او الدخل اذا استقلت الكنيسة الانكليزية عن روما. وفي اذار 1532 اعلن المجلس الاكليروسي استعداده للانفصال عن البابوية، وفي 5 ايار 1532 قَبِل الاساقفة بما عرف "بخضوع الاكليروس" "Soumission du Clergé" ، الذي ينص على ان لا يصدر الاكليروس أي شرائع او قوانين دون ان تعرض على الملك، ولا ان يعمل بها دون اذنه. وتم تأسيس لجنة نصفها من الاكليروس والنصف الاخر من العلمانيين لها الحق في الاعتراض على أي قوانين ترى انها ضارة بالمملكة. وهكذا ولدت كنيسة انجلترة واصبحت عضوا تابعا للدولة.

وفي نفس اليوم استقال توماس مور من منصبه كحاجب الملك Chancelier احتجاجا، واعتزل الاسقف فيشر في ابرشيته، اما رئيس الاساقفة الطاعن بالسن واهرام فقد مات حزنا وكمدا بعد ان املى وهو على فراش الموت رسالة ابدى فيها رفضه لخضوع المجلس الاكليروسي للملك. واستبدل الملك توماس مور بتوماس اودلي واهرام بتوماس كرانمر.

4- اكتمال الانفصال

وفي 15 كانون ثاني سنة 1533، تزوج هنري سرا من آن بولين التي كانت حاملا منذ اربعة اشهر. وبعث الملك بطلب آخر للبابا دون ان يؤدي الى نتيجة. فحصل من المجلس الاكليروسي على موافقة على طلاقه في نيسان 1533. وفي 23 ايار اعلن كرانمر بصفته رئيس الاساقفة الجديد لكنتربري[3]، ان الزواج بكاترين مخالف للشريعة وباطل. وفي 28 ايار اعلن آن زوجة شرعية لهنري، وتوجت آن ملكة في احتفال مهيب في كنيسة وستمنستر في الاول من حزيران 1533.

اعلن البابا كلمنت السابع بطلان الزواج الجديد، وان الاولاد الذين سيكونون ثمرة هذا الزواج غير شرعيين، وحرم كل من الملك والملكة وكرانمر، في الحادي عشر من تموز 1533، معطيا اياهم مهلة ثلاثة اسابيع للرجوع، مهلة مددت الى عدة شهور، حاول خلالها ملك فرنسا تقريب وجهات النظر بين البابوية وانكلترة دون نتيجة، اذ تعنت الملك بمواقفه بل وارسل مبعوثا يهدد البابا باعلان مجمع عام بموافقة فرنسا.

واتخذ الملك في هذه الفترة بعض الاجراءات الاخرى التي كان من شأنها تقوية الانفصال. اذا اصبح تعيين الاساقفة من اختصاص الملك، يختاره ويقدمه لمجلس الكنيسة الذي يجب ان يقر هذا الاختيار خلال 12 يوما، واذا لم يتم ذلك، يقوم الملك بالتعيين المباشر دون الرجوع اليهم. وعلى الاسقف المختار ان يقسم الولاء للملك فقط ويتم

[3] كان كرانمر رجلا طموحا خالى من الذمة والضمير، وكان العوبة طائعة بيد الملك، وخصوصا انه لم يكن خاليا من كل عيب، اذا انه كان يظهر ميولا لوثرية وكان قد تزوج مرة ثانية.

تنصيبه من قبل رئيس اساقفة مقاطعته. ولم يعد للبابا – اسقف روما، كما سيدعي من الان وصاعدا في انكلترة – أي سلطة في هذا المجال اذ سيتم نقل جميع الصلاحيات الى رئيس اساقفة كانتربري.

وفي مجمع الكرادلة في 23 اذار 1534 اعلن البابا رسميا الحكم النهائي في قضية طلاق الملك، حيث اعلن شرعية التفسيح الذي منحه يوليوس الثاني، وبالفعل نفسه فان الزواج الاول لهنري هو شرعي، وتثبت الحرمان الذي اعلنه ضد هنري وآن بولين وكرانمر.

5- اجراءات انفصالية جديدة والمعارضة

1) قانون وراثة العرش L'acte de succession: في الثالث والعشرين من اذار عام 1534 وفي اليوم نفسه الذي تم الاعلان في روما الحكم النهائي في قضية طلاق هنري، صوتَّ مجلس اللوردات على ما يسمى "قانون الوراثة" "L'Acte de Succession"، الذي ينص على بطلان زواج الملك من كاترين، واعلن ابنتها ماري ابنة غير شرعية، وعيَّن اليزابيت ابنة آن بولين وريثة للعرش الا اذا انجبت آن ولدا. وبهذا الفعل يتم الاعتراف بشرعية زواجه الثاني. وفرض على كل انجليزي بلغ سن الرشد ان يحلف الولاء لهذا القانون واي شخص يرفض يستحق اقصى عقوبة.

2) ***قانون سيادة الملك على الكنيسة "L'Acte de suprématie":*** وصوتَّ المجلس النيابي على قانون السيادة في الثالث من تشرين ثاني 1534، حيث اعلن سيادة الملك على الكنيسة والدولة في انكلترة. واطلق على الكنيسة الوطنية الجديدة اسم "الكنيسة الانجليكانية"، وخوَّل الملك كل السلطات على الاخلاق والتنظيم والهرطقة والعقيدة والاصلاح الكنسي.

3) ***قانون الخيانة "Les Lois sur la Trahison"*** نص هذا القانون على ان يعتبر خائنا كل من تحدث عن الملك واتهمه انه مغتصب او طاغية او انقسامي او هرطوقي او كافر، او تعرض بأي شكل من الاشكال للملك او الملكة او لوراثتهم.

وطلب من جميع الاكليروس، اساقفة وكهنة ورهبان، ان يحلفوا يمين الولاء على هذه القوانين، وامام المعارضة التي لاقاها في البداية بدأ عصر ما يسمى "الارهاب الانكليزي" انتشرت فيه قوات الحكومة لشل كل حركة معارضة لهذه المراسيم التي لم يسبق لها مثيل. وتظاهر رجال الاكليروس بالخنوع شيئا فشيئا. وقَبل الكثير من الرهبان الخضوع، الا انه ظهرت ايضا معارضة لا بأس بها كانت نتيجتها ان استحقت للكنيسة موجة جديدة من الشهداء. من الرهبان الكرتوزيين

6- اوائل الشهداء

الرهبان الكرتوزيون: كان الرهبان الكرتوزيين اول من عارض هذه الاجراءات. واثارت معارضتهم حنق هنري وكرومول خاصة، وجاء ثلاثة من كبار رؤساء الاديار الكارتوزية وهم جون هوغتون John Houghton، وروبرت لورنس Robert Lawrence، واغوسطين وبستر Augustin Webster، الى كرومول ليقدموا له ايضاحا عن احجامهم عن الاعتراف بأي علماني رئيسا لكنيسة انكلترة استنادا الى ما ورد في الانجيل. فالمسيح عندما قال لتلاميذه "ساعطيك مفاتيح ملكوت السموات" كان يعني بهذه الكلمات بطرس، ثم الاثني عشر رسولا، ومن بعدهم البابوات والاساقفة خلفائهم وليس ملكا علمانيا. فبعث بهم كرومول الى سجن البرج. وفي يوم 27 نيسان سنة 1535 حوكموا هم وراهب اخر بارز، ريتشارد رينولدز Richard Reynolds، مع كاهن علماني اخر جون هال John Hale، امام محكمة وستمنستر وحكم عليهم بالموت وعلقوا واحدا بعد الاخر واسقطوا بقطع الحبال وهم احياء وقطعوا اربا، وعلقت ذراع مبتورة لتلقين الرهبان الباقيين درسا، ولكن واحدا منهم لم يتراجع عن رفضه. وسجن ثلاثة كرتوزيون اخرون في البرج وشد وثاقهم وهم منتصبون بسلاسل من حديد حول اعناقهم واقدامهم، واكرهوا على الوقوف في هذا الوضع سبعة عشر يوما، وقدم اليهم الطعام ولكن لم يفك وثاقهم لقضاء أي حاجة طبيعية، ثم شنقوا. اما باقي الرهبان الكارتوزيون فقد تشتتوا في اديرة اخرى ما عدا عشرة منهم سجنوا في نيوجيت ومات تسعة من هؤلاء في السجن.

الفرنسيسكان: كانت الجمعية الفرنسيسكانية تملك سبعة اديرة، ولما رفض رهبان دير Greenwich اداء القسم، اغلقت الاديرة السبعة، وتم تفريق مئتي راهب كانوا يعيشون فيها، وارسل الاكثر اصرارا على الرفض الى البرج، ومات خمسون منهم في السجون.

استشهاد الكاردينال جون فيشر John Fisher 22 حزيران 1535: بعد اعدام الرهبان الكارتوزيين بثلاثة ايام، دفع اسقف روشستر Rochester، جون فيشر، حياته ثمنا لامانته للبابا وللملكة كاترين.

اشتهر جون فيشر ايضا بفضائل عالية، خصوصا بنبل اخلاقه، فلم يكن ابدا متملقا، كان مُعرِّفا للملكة كاترين وبقي امينا لها في سرائها وضرائها. ولما استُشيرَ حول شرعية الزواج الاول للملك، اجاب، بأنه وبعد فحص متين عميق وصادق، مقتنع انه لا يوجد ولا أية شريعة الهية تمنع اخا من الزواج بامرأة اخيه، اذا كانت بدون اولاد، وان لا شيء يمنع البابا من اعطاء التفسيح اللازم. وجلب له هذا الجواب حقد الملك هنرى وآن بولين. وفي مجلس عام 1531، كما رأينا سابقا، رفض الاعتراف "بسيادة الملك على الكنيسة" الا بعد ان اضيفت عبارة "بقدر ما تسمح بذلك شريعة الرب". وفي جلسة اخرى عقدت للمجلس الاكليروسي في 26 اذار ام 1532 للتصويت لصالح طلاق هنري، كان جون فيشر الوحيد الذي اعترض. ومنذ ذلك الحين قرر الملك القضاء عليه.

وسيمنح "قانون وراثة العرش" المناسبة لهنري ليضرب عدوه اللدود. وكان هذا القانون لا يكتفي باعلان اليزابيت ابنة آن بولين الوريثة الشرعية لعرش انكلترة، واقصاء الاميرة ماري ابنة الملكة كاترين، وانما كان ايضا يرفض سلطة البابا ويعلن سيادة الملك على الكنيسة. ولم يكن ضمير فيشر ليقبل مثل هذه القوانين، فرفض اداء القسم، ولم يستطع احد ان يثني عزمه، فزج في سجن البرج في اليوم نفسه.

جاءه وبعد عام من وجوده في السجن، المدعي العام ريتش Rich في 27 ايار عام 1535، ليعرض عليه من جديد قانون "السيادة الملكية" واخبره ان هنري لطمأنة ضميره يرغب في معرفة رأيه حول هذا الموضوع، ووعده المدعي العام ان رأيه لن يعرفه احد غير الملك، فاعلن جون فيشر رأيه وانكر ان يكون الملك الرئيس الاعلى للكنيسة. وتردد هنري في الحكم عليه، الا ان الحبر الاعظم البابا الجديد بولس الثالث، جاهلا حدة التوتر الذي كان يسود بين الملك وفيشر، عيّن الاسقف المسجون كردينالا. وعلى الرغم من ان فيشر اعلن انه لم يسع الى هذا الشرف، استشاط هنري غضبا، ورأى في ذلك تحديا له، واقسم بالاطاحة برأس الاسقف قبل ان تصله القبعة الحمراء.

وفي 12 حزيران عام 1535 قُدمَ الاسقف، وكان وقتئذ في الثمانين من عمره، الى محاكمة اخيرة، رفض فيها مرة اخرى ان يوقع على قسم يعترف بهنري رئيسا لكنيسة انكلترة. وفي 22 حزيران الخُبرَ جون فيشر من مسؤول السجن انه سيتم اعدامه في ذلك اليوم. فقام واغتسل ولبس بعناية كبيرة. وامام دهشة خادمه قال له :"الا تعلم ان اليوم هو يوم عُرسي". واقتيد الى مكان الاعدام. ووصفه شاهد عيان انه "جسد طويل، اعجف، لا شيء فيه سوى الجلد والعظام، الى حد ان معظم من شاهدوه دهشوا من رؤية رجل لا يزال فيه رمق من الحياة على رغم من بلوغه هذا الحد من الوهن". وصعد درجات المقصلة بدون مساعدة احد، وتلقى وهو على المنصة عرضا بالعفو عنه اذا حلف اليمين فرفض. وركع وصلى نشيد الشكر "اللهم نمدحك TE DEUM" ثم مزمور"فيك يا رب وضعت رجائي..". وقطع رأسه وعلق فوق جسر لندن. وقال هنري: في وسعه ان يذهب الان ، اذا استطاع، الى روما ويحصل على قبعة الكاردينال.

استشهاد توماس مور 6 تموز 1535: تمتع توماس مور بعقل راجح، بحكمة وثقافة عالية، ورؤية صائبة في الاعمال، وسهولة في الكلام رافقها روح دعابة ماكر، وشعور عالي بقيمة الشرف، غير مستعد للمساومة ولا لتضحية الواجب للمصلحة. كل هذه الصفات جعلت منه احدى الشخصيات المرموقة في انكلترة.

التقى مور بارازموس عام 1499، وكان في الحادية والعشرين من عمره، وافتتن بالمذهب الانساني، وارتبط بارازموس بصداقة قوية. فقد وُهب كلاهما روح الدعابة، وجعلا لدراستهما طعما مستساغا بالهجاء الضاحك. وكانا يشتركان في كراهية الفلسفة الكلامية. وكانا يأملان في اصلاح الكنيسة من الداخل وتجنب تفكك اواصر الوحدة الدينية. ولم يكن مور ندا لارازموس في العلم والتسامح، والحق ان رقته المألوفة وكرمه كان يشوبهما في بعض الاوقات تطرف في الدين، وكان في الجدل يميل الى مواجهة خصومه بهجوم شديد مرير. ولكنه كان يفوق ارازموس في الشجاعة والاحساس بالكرامة والاخلاص للقضية. وفي الثالثة والعشرين من عمره ظن انه مدعو لحياة الرهبنة، ولكن بعد مدة اربعة سنين من التجربة قضاها في دير للرهبان الكرتوزيين، حيث كان ساكنا، فهم انه مخطىء في الاتجاه، وعلى اثر نصائح معرّفه جون كوله John Colet، تخلى عن هذه الفكرة. وفي عام 1505 تزوج بجان كولت Jeanne Colt، التي ماتت بعد خمس سنين من الزواج تاركة له اربعة اطفال، ثلاث بنات وولد. فتزوج مرة ثانية بارملة تكبره بسبع سنين، السيدة Middleton، كانت سيدة بيت بسيطة ساعدته على تربية اولاده.

واختير وهو في السادسة والعشرين من عمره عام 1504، نائبا في البرلمان. وعيّن في عام 1518 مستشارا وسكرتيرا للملك، وعهد اليه بمهام دبلوماسية دقيقة، واصبح من اكبر رجال الدولة في انكلترة. وفي عام 1523 انتخبه مجلس العموم خطيبا له Speaker. وبعد سقوط ولزي عينه هنري الثامن حاجبا له Chancelier، وكانت اول مرة يعطى ختم الدولة لرجل علماني.

ولما حاول هنري الثامن اضفاء الشرعية على زواجه مع آن بولين، وجد مور نفسه لا يوجه السياسية بل يخدم الاحداث التي تسير في اتجاه مضاد لاعمق مشاعر الولاء التي يكنها لمبادئه. ولما سئل عن رأيه حول طلاق هنري من كاترين، رأي انه يتجاوب مع ضميره، عندما اعلن انه غير شرعي. ولما عرض الملك على المجلس قانون "السيادة العليا على الكنيسة" فكر مور بالاستقالة. الا انه بقي، ولم يستقيل الا بعد سنة في 16 ايار 1532، عندما عُرِض قانون "الخضوع الاكليروسي"، وانسحب الى خلوة بيته في تشلسي. وكان يشك في انه سيعيش طويلا. وحاول ان يهيء اسرته للمأساة بالحديث عن حياة الشهداء الاحرار وعن جلدهم العجيب وعما كابدوه من الام وعن ميتتهم التي آثروا فيها ان يتعرضوا للعذاب على ان يسيئوا الى الرب. فأي شيء اسعد واكثر بركة من ان يحب الله وان يتعرض لفقد المال والسجن وضياع الارض بل والحياة ايضا.

وفي السابع عشر من نيسان حكم على مور بالسجن في البرج لانه رفض ان يحلف اليمين على قانون الوراثة، الذي رأى عندما قدم اليه انه ينطوي على انكار لسيادة البابا على كنيسة انكلترة، وانه يعلن شرعية الطلاق.

وعلى مدار سنة جرت محاولات عديدة لتغيير موقفه. وكتبت اليه ابنته الاثيرة مرجريت رسالة مؤثرة ترجوه فيها ان يحلف اليمين. فرد عليها ان توسلها سبب له الما اشد ما سببه له سجنه. وزارته زوجته في البرج وعنفته لموقفه: "اني لاعجب منك يا مستر مور، يا من كنت احسبك حتى الان رجلا عاقلا، لماذا تتظاهر بالحمق، فترقد هنا في هذا السجن الضيق القذر، وترضى بأن تحبس بين الفئران والجرذان، بينما في وسعك ان تكون حرا ي الخارج، وتنعم بحظوة ورضى الملك ومجلسه، اذا فعلت فقط ما فعله كل الاساقفة وخيرةالمتعلمين في هذه المملكة. وعندما ارى ان لك في تشلسي بيتا جميلا لائقا، وارى مكتبتك وكتبك وقاعة صورك وحديقتك وبستانك وكل الضروريات الاخرى، تبدو جميلة من حولك، حتى تستطيع ان تسعد برفقتي انا زوجتك، ورفقة اولادك واسرتك. فاعجب من مكوثك هنا واطالتك هذه المدة". فاجابها بعد ان سمعها بهدوء :"اليس هذا البيت ايضا قريبا من السماء كبيتي".

وبُذلت محاولات اخرى لزحزحته عن موقفه، بيد انه قاومها كلها بابتسامة.

وزاره اخيرا كرومول في 30 نيسان 1535 وسأله هل يعرف ان نتائج الخيانة والنتائج السيئة التي يجلبها موقفه على الملك. فاجاب مور: "انا رجل امين للملك، لا اعمل شرا لاحد، ولا اتكلم بالشر على احد. واذا كان ذلك لا يكفي لخلاص حياة انسان، فانا لا ارغب بالعيش بعد".

وفي الاول من تموز سنة 1535 قدم لمحاكمة اخيرة. فدافع عن نفسه جيدا ولكنه أدين بتهمة خيانة الدولة. ولما صدر الحكم طلب اليه ان كان عنده ما يقوله فاجاب: "بما اني حُكمت — والله يعلم كيف — ارغب ان اتكلم بحرية عن قانونكم لاريح ضميري. مدة سبع سنين وانا ادرس المسألة، ولم اجد عند احد معلمي الكنيسة ، ان اميرا علمانيا، يقدر او يستطيع ان يكون رئيسا للكنيسة". فرد عليه حاجب الملك اودلي: "اتريد ان نعتبرك اعلم واحكم واكثر ضميرا من جميع الاساقفة ونبلاء المملكة؟" — "سيدي — اجاب مور — امام اسقف واحد من اسقفتك يوجد عندي مئات الاساقفة القديسين، وامام برلمانك — والله يعلم ماذا يساوي — عندي كل المجامع العامة منذ الف عام، وامام مملكتك، عندي فرنسا وكل ممالك العالم المسيحي". "لقد اظهرت مكرك الان" رد نورفولك. اجاب مور: "ان ما اجبت به كان ضروري لاراحة ضميري، وادعو الله شاهدا على ما اقول وهو الذي يفحص قلوب البشر".

وفي السادس من تموز 1535، اخبر انه سيتم قطع رأسه في نفس الصباح قبل الساعة التاسعة. فسار نحو المقصلة بثبات وبهدوء، وعندما ارتقى منصة المقصلة، ووجد انها ضعيفة توشك ان تنهار قال لاحد احرس: "ارجوك ايها الملازم ان تساعدنا على اعتلاها، بالنسبة لنزولي فلا تهتم فسوف ادبر نفسي".. وكان هنري قد اصدر تعليمات بالا يسمح للسجين الا ببضع كلمات. وطلب مور من المشاهدين ان يصلوا من اجله، وان يشهدوا انه يموت في سبيل عقيدة الكنيسة الكاثوليكية المقدسة. ثم طلب منهم ان يصلوا من اجل الملك، وان ينعم الله عليه بمشير صالح، وقال انه يموت خادم صالح للملك ولكنه خادم الرب اولا. وتلا المزمور الحادي والخمسين المحبب اليه. وطلب منه الجلاد الصفح والمغفرة فاحتضنه وقبله مور، وقال له: "سوف تؤدي الي اجمل خدمة يمكن ان يقدمه انسان. ان رقبتي صغيرة،

ارجو ان لا تسيء الى سمعتك واضرب جيدا. ثم وضع رأسه على المقصلة، ورتب بعناية لحيته البيضاء الطويلة وقال: "مما يؤسف له انها سوف تقطع، مع انها لم ترتكب جريمة خيانة الدولة". وعلق راسه على جسر لندن.

وسرت موجة من الرعب في انجلترة التي ادركت قسوة الملك، وسرت في اوروبا قشعريرة من الفزع. وشعر ارازموس كأنه هو نفسه مات "ليس لنا الا روح واحدة تتردد بيننا". وقال انه لم تعد لديه أي رغبة في الحياة. وبعد عام مات هو ايضا. وعلم شارل الخامس بالحادث وقال للسفير الانجليزي: "لو كنت سيدا لخادم مثل هذا لكنت افضل ان افقد احسن مدينة من ممتلكاتي ولا افقد مثل هذا المستشار الجليل".

وفي الذكرى الاربعمائة لاعدام توماس مور وجون فيشر في 19 ايار 1935، ادرجهم البابا بيوس الحادي عشر في مصاف قديسي الكنيسة الكاثوليكية.

7- طلاق وموت آن بولين

ماتت كاترين في 7 كانون ثاني 1536، عن عمر خمسين عاما، فامر الملك الحاشية باعلان الحداد، فرفضت آن.

وفي اليوم الذي دفنت فيه كاترين ولدت آن طفلا ميتا، وبدأ هنري الذي كان لا يزال متلهفا على ولد يفكر في طلاق اخر او بطلان للزواج بحجة ان زواجه الثاني تم تحت اغراء السحر، ومن ثم فهو باطل. وكان هنري قد بدأ منذ تشرين اول 1535، يولى اهتماما خاصا باحدى وصيفات آن وهي جين سيمور. وعندما انّبته آن أمرها ان تتحمله بصبر، كما فعل من هن افضل منها، ثم اتهمها بالخيانة، واشار الى الشائعات الدائرة عن غرامياتها التي وصلت الى مجلسه. صدق هنرى الشائعات فاستقصى الامر، وابُلغ الملك انها اقترفت الزنا مع خمسة اعضاء من البلاط، فارسل الرجال الخمسة الى البرج وتبعتهم آن في اليوم الثاني من آيار سنة 1536. وفي يوم 15 ايار حوكمت آن هي واخوها، وحكم عليهما بالحرق او بقطع الرأس.

وطلب الملك من رئيس الاساقفة كرانمر ان يعلن عدم صحة الزواج من آن وان اليزابيت ليست ابنته. فاطاع كرانمر ولا نعرف الاسباب التي بنى عليها هذا الحكم. ولكن يُظن ان زوج آن السابق المزعزم بلورد مورثمبرلاند اعلن وقتذاك انه حقيقي. وركعت آن عشية موتها امام زوجة الحارس، وطلبت منها ان تذهب وتركع امام ماري طالبة الصفح. ثم طلبت ان ينفذ فيها الاعدام فورا يوم 19 آيار، فاقتيدت الى المقصلة وقُطع رأسها. ولم يكن هناك احد يؤكد انها مذنبة ولكن قليلون هم الذين أسِفوا لسقوطها.

8- جين سيمور

منح كرانمر يوم وفاة آن بولين الملك تفسيحا للزواج مرة اخرى في سعيه للحصول على ولد. وفي اليوم التالي خطب هنري جين سيمور وتزوجا يوم 30 آيار 1536، ونودي بها ملكة يوم 4 حزيران. وكانت جين سليلة اسرة ملكية، اذ انها تنحدر من ادوارد الثالث، وكانت لها صلة قرابة من الدرجة الثالثة او الرابعة بهنري، مما ادى الى الحصول على تفسيح آخر من كرانمر المطيع.

لم تكن جين تتمتع بجمال خاص، بيد انها أثّرت في الجميع بذكائها ورقتها وتواضعها. ومات الدوق رتشموند ابن هنري غير الشرعي، وتعلقت آمال الملك كلها في حمل جين. وهللت انجلترا معه عندما ولدت في 12 تشرين اول 1533 ولدا هو ادوارد السادس. غير ان جين التي ارتبط بها الملك وقتذاك ارتباطا عميقا، ماتت بعد ولادة ابنها باثنى عشر يوما. وظل هنري رجلا محبطا بعض الوقت، وعلى الرغم من انه تزوج ثلاث مرات بعد جين، الا انه طلب عند وفاته ان يدفن بجانب المرأة التي ضحت بحياتها في سبيل انجاب ابنه.

9- هنري الثامن والاديرة

كانت اكبر معضلة واجهها هنري هي انه كان مفلسا على الرغم من عِظم سلطته. وكان الملك يتوق الى زيادة حجم البحرية والاكثار من سفنه وموانيه وتحسينها. وكانت حاشيته تتجاوز الحدود ونفقاته الشخصية باهظة، ونظام كروميل في الحكم يحتاج الى الكثير من المال. فكيف يجمع المال؟

كانت الضرائب مرتفعة، وكان الاساقفة قد استنفذوا ابرشياتهم لتهدئة سورة الملك. الا انه كانت في انكلترا مؤسسة واحدة ثرية وموضع ريبة لأن ولاءها الاخير كان للبابا، وعاجزة لا تجد من يدافع عنها، وهي الاديرة.

كان المجلس النيابي قد صوت عام 1533 على الموافقة على تحويل الحكومة سلطة التفتيش على الاديرة واجبارها على اصلاح نفسها. فارسل كرومول عام 1535 المفتيشين لفحص الاديرة. وقدم كرومول للمجلس النيابي في 3 شباط عام 1536 "كتابا اسود" يكشف عن المساوىء في الاديرة، وينصح باعتدال استراتيجي، باغلاق اديرة الرهبان والراهبات التي يبلغ دخلها 200 جنيه او اقل في العام. فوافق المجلس النيابي الذي كان معظم اعضائه قد اختيروا بواسطة معاوني كرومول. وعين الملك محكمة المزادات لكي تتسلم لصالح خزانة الملك املاك وموارد هذه الاديرة الصغيرة البالبغ عددها 376 ديرا. واطلق سراح الراهبان ليذهبوا الى اديرة اخرى او يخرجوا الى العالم.

قامت على اثر هذه الاجراءات بعض الثورات دفاعا عن اديرة الرهبان الراهبات وخصوصا في الشمال، اخمدها هنرى كلها اما بالمكر والخداع والرشاوي واما بالعنف والقتل والاعدامات، وكان بينهم الكثير من الكهنة والرهبان.

وتشجع كرومول امام نجاح الملك في اخماد الثورات، فمضى قدما في اغلاق الاديرة الباقية في انجلترا، ثم جاء يوم حُلَّت فيه كل اديرة الرهبان والراهبات التي كانت قد انضمت الى الثورة وصودرت ممتلكاتها لمصلحة الدولة.

وفي المجموع اغُلق 578 ديرا للرهبان وحوالي 139 للراهبات. وتشتت 6521 راهبا و1560 راهبة. وفقد 12000 شخص، كانت الاديرة تستخدمهم فيما مضى او كانوا يعتمدون عليها في معيشتهم دخلهم.

وكانت النتيجة من الناحية السياسية زيادة السلطة الملكية وفقدان الكنيسة آخر معقل للمقاومة. وكانت النتائج من الناحية الاخلاقية ازدياد الجرائم والتسول وتقلص الموارد اللازمة لاعمال البر، واغُلق ما يزيد على مائة مستشفى كانت تديرها الاديرة. وكانت اقسى النتائج في مجال التعليم. فقد كانت اديرة الراهبات تدير مدارس البنات بينما ادار الرهبان مدارس الاولاد، فحُلَّت كل هذه المؤسسات.

10- اعترافات الايمان الثلاث لهنري الثامن

اصبح من مهام هنري بعد ان أُعلن "الرئيس الروحي لكنيسة انكلترة"، تحديد امور ألعقائد والنظم والعبادة، التي كانت سابقا من مهام سلطة البابا. ولم يُهمل هنري هذا الواجب بل قام فيه بكل غيرة وحماس يساعده لفيف من المعارضين، انقسموا الى حزبين: حزب التقدميين وحزب المعتدلين، ومال هنري نحو الواحد او الاخر حسب ما تتطلبته مصالحه.

أن يكن هنري قد فصل كنيسة انكلترة عن روما، وإن يكن عمل على مصادرة الاديرة وممتلكاتها، الا انه منع بقدر الامكان المساس بالعقائد. وكان دافعه لذلك اولا اقتناعه الشخصي، فقد ظل هنري في داخله كاثوليكيا، وثانيا للحفاظ على الوحدة في بلده، بعد ان تحقق له ان اكثرية شعبيه بقي متعلقا بالكاثوليكية، وبالتالي فان افضل طريقة للحفاظ على الوحدة هي الحفاظ على الايمان التقليدي.

الا ان التذبذب بين الكاثوليكية والبروتستنتية التي ظهر في "اعترافات الايمان الثلاث Les trois confessions de foi"، 1536 و1537 و1543، فرضتها عليه الظروف السياسية الخارجية. فعندما كان يشعر بالخطر من تحالف شارل الخامس وفرنسوا الاول ملك فرنسا بدعم من البابوية، كان هنري بحاجة الى دعم الامراء الالمان، وبالتالي الى التنازل لهم على الارضية الدينية، وعندما كان شارل الخامس وفرنسوا الاول يدخلا في صراع مع بعضهما، كان هنري يأمن جانبهما بأن يعود عن تنازلاته ويتمسك بقوة في العقائد الكاثوليكية.

1) اعتراف ايمان هنري الاول (1536)

اثار البابا بولس الثالث، بعد موت الاسقف فيشر ومور، الامراء في اوروبا، ضد هنري الثامن لعزله. امام هذا التهديد التجأ هنري الى حلف سمالكالد البروتستنتني، بمشورة حزب التقدميين وعلى رأسهم كروميل. التقى الوفدان للتباحث، واراد هنري ان يكون هذا الحلف سياسيا، الا ان اللوثريين رفضوا التوصل الى اتفاق سياسي قبل التوصل الى اتفاق ديني. فاجتمع اللاهوتيون الانكليز والالمان في وتنبورج Wittenberg عام 1536. ولما عاد الوفد الانكليزي بعد اربعة اشهر من المداولات، كان الخطر السياسي قد خف بتصالح هنري والامبراطور شارل الخامس. فخرج اعتراف الايمان الاول حلا وسطا بين العقيدة الكاثوليكية واللوثرية، واحتوى على عشرة بنود Dix articles:

(1) بحث القسم الاول في العقائد الضرورية للخلاص، في الاسرار وفي التبرير. فَقَبِل كعقيدة ايمان قانون الاسفار المقدسة بكامله (عكس اللوثريين الذين رفضوا عدة اسفار منه). وقَبِل قانون الايمان الرسولي، وقانون مجمع نيقية، وقانون القديس اثناسيوس حسب تعليم الآباء (عكس اللوثريين الذين لا يقبلون سلطة التقليد). وادان التعاليم الهرطوقية التي ادانتها المجامع: نيقية ، والقسطنطينية، وافسس، وخلقيدونيا. وعرض قانون الايمان الاول في قسمه الاول العقيدة

الكاثوليكية حول ثلاث اسرار: المعمودية والافخارستيا والتوبة، واغفلت ذكر الاسرار الاربعة الباقية دون انكارها (تنازل للبروتستنت). ويتبع الاعتراف عقيدة اللوثريين حول التبرير، وبما انه لا يوضح الطريقة التي يتم فيها التبرير ولا يذكر ان التبرير يتم فقط بالايمان، فقد جعل تفسير هذه النقطة مقبولا في كلا الاتجاهين.

(2) بحث القسم الثاني الرتب والطقوس والمراسيم والاحتفالات المستعملة في الكنيسة، وتكريم القديسين وصورهم. فأوصت بالحفاظ على الطقوس القديمة التقليدية: الماء المبارك، الخبز المبارك، الشموع، الرماد، الجمعة العظيمة، الصلاة من اجل الموتى من حسنات وتقديمات وقداديس من اجل راحة نفوسهم، وان لم يأت على ذكر المطهر. التنازل الوحيد الذي اعطي للبروتستانت في هذا القسم هو حول شجب الغفرانات وضرورتها للانفس المطهرية.

لم يبتعد اعتراف الايمان الاول كثيرا عن الارثوذكسية. وزيادة على ذلك، لم يكن الملك راضيا كثيرا عن هذه التنازلات. لذلك امر ان تعلن هذه البنود العشرة دون التعليق عليها.

2) اعتراف الايمان الثاني (ايلول 1537)

اندلعت الثورات المؤيدة للاديرة شهرين بعد اعلان اعتراف الايمان الاول. وكان الثوار يطالبون ليس فقط بالحفاظ على الاديرة وانما ايضا بالحفاظ على الايمان القويم التقليدي الكاثوليكي. وكان الملك هنري الثامن ميالا للاستجابة الى هذا المطلب، وخصوصا ان الخطر الخارجي قد تلاشى بموت كاترين، بسبب اندلاع الصراع من جديد بين الامبراطور شارل الخامس وفرانسوا الاول، ملك فرنسا.

دعى الملك هنري الى اجتماع مجلس مؤلف من الاساقفة واللاهوتيين، بقصد اعادة النظر في البنود العشرة المؤلِفة لاعتراف الايمان الاول. وبحث هذا المجلس وعلى مدى ستة اشهر البنود المختلف عليها، وخصوصا الاسرار السبعة. وخرج من هذا الاجتماع بما سمي "اعتراف الايمان الثاني "Eléments pour servir à l'instruction d'un chrétien".

قسمت المواضيع فيه الى اربعة اقسام: 1) قانون الايمان، 2) الاسرار، 3) الوصايا العشرة، 4) ابانا والسلام. فحافظ قانون الاعتراف الثاني، على قانون الايمان بنصه الكاثوليكي، ما عدا الاعتراف بكنيسة روما، كعضو فقط في الكنيسة الجامعة وليس الرأس. وأُعيد الاعتراف بالاسرار السبعة كاملة. ولم يتم التنازل للبروتستنت الا في موضوع التبرير، حيث قَبِل قانون الاعتراف الثاني، انه يتم فقط استنادا الى استحقاقات المسيح، الا انه فرض على المسيحي ممارسة الاعمال الصالحة. ورفض اعتراف الايمان الثاني، تعليم الكنيسة الكاثوليكية حول المطهر، الا انه اوصى بالصلاة من اجل الموتى.

تبع اعتراف الايمان الثاني، الذي حل محل الاعتراف الاول، مرسومان ملكيان. يمنع الاول كل المجادلات حول الافخارستيا، ويوصى باستعمال الماء المقدس، والركوع امام الصليب، وعزل الكهنة الذي يعيشون في حالة تَسَرٍ (العيش مع امرأة بدون زواج). وامر المرسوم الثاني بتدمير كتب الهراطقة وملاحقتهم مع اعطائهم مهلة ثمانية ايام للخروج من المملكة.

تغيير الجو السياسي الديني مرة اخرى عام 1538، فقد تعكرت العلاقات السياسية بالنسبة لهنري الثامن. فقد استطاع البابا بولس الثالث ان يوطد السلام بين الامبراطور شارل الخامس وفرنسوا الاول بهدنة نيس Trêve de Nice. وامام تحالف هذين الملكيين، التجأ الملك هنري من جديد، وبمشورة كرومول ايضا، الى اعادة روابطه مع الامراء البروتستنت في المانيا. فدعاهم الى ارسال وفود الى لندن لمواصلة البحث في النقاط المختلف عليها، والتي اصر حلف سمالكالد البروتستنتي على تبنيها، للتوصل الى عقد حلف سياسي بينهما. واتخذ المجتمعون من انكليز وبروتستنت، بحضور الملك هنري، اعتراف ايمان اوغسبورج كاساس للنقاش. فتوصلوا الى اتفاق سهل في معظم نقاط القسم الاول منه، واضعين قضية الاسرار الاربعة على حدة. اما في الجزء الثاني منه، والمتعلق بالمساوىء، فلم يتوصل المجتمعون الى اتفاق لا على عزوبية الكهنة، ولا على التناول تحت الشكلين، ولا على القداديس الخاصة Privées. وانتهى الاجتماع بفشل، الا ان البنود الثلاث عشر التي توصلوا الى اتفاق حولها، ستكون مستقبلا اساسا للبنود الا XLII لادوارد الرابع (1553).

11- البنود الستة (1539)

خفت حاجة هنري الى التحالف مع الامراء البروتستنت، بسبب استتباب الامور في القارة الاوروبية، واصبح في استطاعته العمل على اعادة الوحدة الدينية في المملكة. فاخذ يلاحق ويضطهد الكاثوليك الذين رفضوا الخضوع لسلطته الروحية، واللوثريين، الذين كانوا يعملون على ادخال التعاليم البروتستنتية الىالمملكة.

فاصدر في بداية شهر اب 1539، وبعد مغادرة اللاهوتيين الالمان، قانون "البنود الستة" بعنوان "حول الغاء تعدد المعتقدات". 1) فأكّد البند الاول على الحضور الفعلي للمسيح في القربان الاقدس بواسطة الاستحالة Transsubstantiation. 2) واعلن في البند الثاني ان المناولة تحت الشكلين ليست ضرورية للخلاص. 3) وفرض البند الثالث العزوبية على الكهنة. 4) ومنع البند الرابع زواج الرجال والنساء الذين ارتبطوا بنذر العفة 5) واكد البند الخامس ان القداديس الخاصة مقبولة لدى الله. 6) واعلن البند السادس ان الاعتراف السمعي قانون الهي.

وفُرضت هذه البنود الستة تحت طائل اقسى العقوبات. فنفي الحضور الفعلي للمسيح في الافخارستيا تستوجب عقوبة الموت حرقا ومصادرة الاملاك. المخالفة الاولى (اول مرة) للبنود الخمسة الباقية يستوجب مصادرة الاملاك والسجن. والمخالفة الثانية (ثاني مرة) تستوجب عقوبة الموت مع حرمان المحكوم عليه من المساعدة الروحية.

وحتى موت هنري الثامن (1547)، تعرض الكثير من الكاثوليك والبروتستنت لمثل هذه العقوبات القاسية، وأدّت الى الكثير من الضحايا من كلا الطرفين. غضب الامراء البروتستنت من هذه الاجراءات، وخشي الملك هنري من نوايا الامبراطور شارل الخامس وفرنسوا الاول ملك فرنسا، فعمل على كسب ودَّهم بمحاولته الزواج من الاميرة آن كليف Anne de Clèves.

12- زواج هنري الرابع

ظل هنري عامين دون ان يتزوج، فامر كروميل ان يبحث له عن حلف بالمصاهرة يقوّي سلطانه ضد شارل الخامس. فنصح كروميل بالزواج من آن كليف اخت زوجة الامير المختار لسكسونيا، وشقيقة الدوق اوف كليف الذي كان وقتذاك على خلاف مع الامبراطور. وآلى كروميل على نفسه ان يتم هذا الزواج الذي كان يعلق عليه آمالا بتكوين حلف من الولايات البروتستانتية، وبهذا يجبر هنري على الغاء المواد الست المناهضة للوثر. وارسل هنري الرسام هولبين لرسم صورة للسيدة، ولعل كروميل اضاف بعض التعليمات للفنان، وجاءت الصورة، ورأى هنرى انها محتملة. وعندما جاءت آن بشحمها ولحمها، ووقعت اظار هنري عليها (عام 1540)، مات الحب في قلبه من اول نظرة، واغمض عينيه وتزوجها، آملا ان تمنحه ولدا يوطد به وراثة العرش في آل تيودور.

13- سقوط كروميل

لم يصفح هنري عن كروميل – الذي افاده اكثر من أي وزير آخر – لفعلته، فامر بالقبض عليه بتهمة الفساد. وقُطع رأسه يوم 28 تموز سنة 1540.

14- اعتراف الايمان الثالث

نُشِر اعتراف الايمان الثاني في ايلول عام 1537، وكان عبارة عن صيغة مؤقتة لمدة ثلاث سنوات. فوكل الملك هنري عام 1540، الى لجنة من الاساقفة واللاهوتيين، مهمة اعادة النظر في هذه الصيغة. وكان على اعضاء اللجنة ان يردّوا كتابة على مجموعة من الاسئلة، وضعها كرانمر، وتدور حول سبعة عشرة بندا، واهمها البنود التي تتعلق بطبيعة الاسرار وعددها. انهت اللجنة عملها بعد ثلاث سنوات، وعرضت نتيجة عملها على الملك هنري، الذي اعاد مراجعتها، وزاد عليه ملاحظاته. وخرج النص النهائي ونشر عام 1543، وقدم له الملك، وأُطلق عليه اسم "كتاب الملك The King's Book"

لم تختلف صيغة اعتراف الايمان هذا عن سابقتها الا بكونها اكثر توسعا ووضوحا، وخصوصا حول الاسرار. فاكد بقوة على الاستحالة وحضور المسيح الفعلي في القربان الاقدس، وفعالية المناولة تحت شكل واحد، وضرورة القداديس الخاصة. وعلَّم عن التبرير وضرورة الاعمال الصالحة، وتبنت وحافظت على التقليد الكاثوليكي بما يخص باقي البنود المختلف عليها مع اللوثريين، فيما يخص تكريم العذراء والقديسين، والمطهر، والنذور الرهبانية، وعزوبية الكهنة. بهذا الاعتراف بالايمان الثالث تمت القطيعة الكاملة بين كنيسة انكلترة والمصلحين اللوثريين.

وعهد الملك الى لجنة ثانية مراجعة الكتب الليتورجيا: كتاب Ordinal، وكتاب القداس، وكتاب الانتيفونات، وكتاب الفرض. ولم يتم نشر هذه الكتب، بامر من كرانمر، الذي اراد مراجعتها، ليتم حذف كل ذكر لاسقف روما فيها، والقصص المنحولة، والصلوات الخرافية.

وكان هنري قد طلب تحضير ترجمة اخرى للكتاب المقدس. ووكل كرانمر مايلز كوفردال في اعداد ترجمة جديدة. وظهرت اول نسخة كاملة بالانجليزية في زوريخ عام 1535، ونشرت عام 1539 طبعات منقحة، وامر كرانمر ان

يوضع الكتاب المقدس في كل كنيسة انجليزية. ومنح هنري المواطنين امتياز تلاوة الكتاب المقدس في بيوتهم، وسرعان ما اصبح تقليدا يوميا عند كل اسرة انجليزية تقريبا. ولكنه كان ايضا مصدرا للشقاق والانقسام، فقد انبتت كل قرية مفسرين هواة، اثبتوا أي شيء او عكسه بما ورد في الكتاب المقدس، وتجادل المتعصبون حوله في الكنائس، وتعرضوا لضربات بشأنه في الحانات. ومنح بعض الرجال زوجاتهم الطلاق، او احتفظوا بزوجتين في آن واحد، بحجة ان هذا عمل سليم أباحه الكتاب المقدس.

أسِفَ الملك لهذه الحرية التي منحها للناس، وحث المجلس النيابي عام 1543، فسنَّ قانونا منع فيه حيازة الكتاب المقدس الا للنبلاء والاشراف. ومنع الناس من قراءته، واجاز فقط للكنهة مهمة الوعظ عنه وتفسيره.

15- الزواج هنري الخامس 1540

اعلن هنرى انه تزوج عن غير رضى، وانه لم يدخل بزوجته قط. واعترفت آن انها لا تزال عذراء ووافقت على بطلان الزواج، مقابل معاش يوفر لها سبيل الراحة. وكرهت ان تواجه اخاها، فاختارت ان تعيش وحيدة في انجلترة، وماتت عام 1557.

وفي اليوم نفسه تزوج هنري من كاثرين هوارد، البالغة من العمر عشرين عاما، وهي من اسرة كاثوليكية متمكسة. وكانت كاثرين اجمل زوجاته، وتعلم الملك ان يحبها تقريبا، وحمد الله انه وهبه اخيرا امرأة طيبة يعيش معها. ولكن في اليوم الذي عبر هنري عن حمده (2 تشرين ثاني 1541)، سلمه رئيس الاساقفة كرانمر وثائق تدل على ان كاثرين كانت لها علاقات سابقة للزواج. وحزن هنري، وكان يميل الى الصفح عن كاثرين، ولكن قُدِّم اليه دليل على انها اقترفت الزنا مع ابن عمها بعد زواجها بالملك. واقرت كاثرين انها اسقبلت ابن عمها في جناحها الخاص من ساعة متأخرة بالليل، ولكن في حضور الليدي روشفورد، وانكرت انها ارتكبت أي ذنب وقتها، او في أي وقت منذ زواجها. وشهدت ليدي روشفورد بصحة هذه البيانات. بيد ان المحكمة الملكية اعلنت ان الملكة مذنبة. وفي يوم 13 تشرين ثاني 1542 قطع رأسها في نفس البقعة التي سقط فيها رأس آن بولين قبل ذلك بست سنوات.

16- زواج هنري السادس 1543

يعد موت كاثرين اصبح الملك هنري محطما، وأعيت قرحته طب عصره، واستشرى مرض الزهري في جسده. وبعد ان فقد لذة الحياة سمح لنفسه ان يصبح كتلة ضخمة من اللحم. وكان خداه مهتدلين ويكادان يغطيان فكيه، وكادت عيناه الضيقتان ان تختفيا في وجهه. ولم يكن في وسعه ان يسير من غرفة الى اخرى دون ان يستند الى احد.

وادرك الملك هنري انه لن يعيش طويلا، فاصدر عام 1543 مرسوما جديدا يحدد فيه وراثة العرش: يتولاه اولا ادوارد ثم ماري ثم اليزابيت. وقام بمحاولة لكي ينجب ولدا صحيحا معافى، بعد ان حثه مجلسه مرارا، فتزوج للمرة السادسة في 12 تموز سنة 1543 من كاترين بار. كانت كاترين بار ارملة قد تزوجت مرتين، وكانت امرأة على حظ وافر من الثقافة والفطنة. فقامت برعاية مريضها الملك في صبر، وصالحته مع ابنته اليزابيت، التي طال اهماله لها، وحاولت ان تلطف لاهوته، وتخفف حماسه للاضطهاد.

17- موت الملك هنري الثامن

اشتبك هنري عام 1543 في حرب مع اسكتلندا ومع فرانسيس الاول، وتحالف مع عدوه القديم شارل الخامس. ولكي يموّل حملاته طالب رعاياه بتقديم "قروض" جديدة، وامتنع عن سداد قروض عام 1542 وصادر الهبات للجامعات. وحُمِل الى ميدان القتال ليشترك فيها شخصيا واشرف على حصار بولونيا والاستيلاء عليها. وغزت جيوشه اسكتلندا، ولكنها عادت وانهزمت في انكرم مور عام 1545، وابرم هنري اتفاقا مع فرنسا عام 1546. وكان وقتئذ ضعيفا واهنا الى حد ان الاسر النبيلة اخذت تتنازع فيما بينها على من تكون الوصاية على ادوارد الصغير.

ومات الملك هنري في اليوم الثامن والعشرين من كانون ثاني عام 1547. وكان في الخامسة والخمسين من عمره، بعد مُلك دام سبعة وثلاثين عاما، وترك مبلغا كبيرا يُدفع لاقامة قداديس عن روحه لكي يرقد في اطمئنان.

18- دخول البروتستنتية على زمن الملك ادوارد السادس 1547-1553

مات هنري الثامن تاركا وراءه ثلاثة ابناء: ماري ابنة كاترين دي ارغون، واليزابيت ابنة آن بولين، وادوارد ابن جان سيمون. فملك الثلاثة بالتوالي، وانتهج كل واحد منهم سياسة دينية مختلفة.

ادوارد السادس: دخول البروتستنتية تحت وصاية سومرست

لم يكن ادوارد يبلغ التاسعة عندما أُعلِن ملكا. لم يرث شيئا من طباع ابيه هنري الثامن، ولكنه ورث عن امه رقتها وضعفها الجسدي. لم يوفق يوما في الحصول على القوة التي تعينه على الحكم. ومع ذلك فانه قام بالتبعات الملقاة على عاتقه باعتباره اميرا او ملكا باخلاص نبيل. درس اللغات والجغرافيا وفن تدبير الحكم، وابدى للجميع ما عدا الكاثوليك الرافضين، شفقة عظيمة وحسن نية كبيرة، الى حد ان انكلترة ظنت انها دفنت غُولا لتتوج ملكا.

تعلّم ادوارد على يد الاسقف كرانمر، فاصبح بروتستانتيا متحمسا، لم يكن من انصار توقيع أي عقوبة قاسية على من يتهم بالهرطقة، ولكنه منع اخته ماري الكاثوليكية من حضور القداس، لانه كان يؤمن باخلاص ان القداس اشد ضروب عبادة الاوثان كفرا.

قبل ادوارد مسرورا القرار الذي اتخذه المجلس الملكي باختيار خاله ادوارد سيمور وصيا عليه. فانعم عليه حالا بلقب دوق اوف سومرست.

كان دوق سومرست متعاطفا مع الفكر البروتستانتي، لذلك شجع الملك الصغير على وضع الاسس والقوانين التي تتيح اجراء التغيرات التي تجعل من الاصلاح في انجلترا اصلاحا دينيا ولاهوتيا. فصودرت على زمنه المزيد من املاك الكنيسة والاديرة، وحطمت وازيلت الصور والتماثيل من الكنائس. واقر البرلمان المناولة تحت الشكلين للعلمانيين، والغى قوانين الخيانة والهرطقة، والغى وثيقة البنود الستة. كما جعل البرلمان زواج الكهنة شرعيا في عام 1549.

من القرارت المهمة ايضا التي اتخذها الدوق سومرست في توطيد البروتستنتية، أن جعل خدمات العبادة في الكنائس بلغة الشعب العادية بدلا من اللاتينية. واهم عمل قام بزمنه، هو ادخال "كتاب الصلاة المشتركة Book of Common Prayer"، عام 1549، كاساس للعبادة في الكنائس الانجليزية. كان هذا الكتاب في اغلبيته من صنع رئيس الاساقفة كرانمر. وقد دعم هذا الكتاب استخدام اللغة الانجليزية في خدمات الكنيسة، وفي قراءة الكتاب المقدس وفي مشاركة الجمهور في العبادة. اثارت هذه التغيرات عدة ثورات في عدة مناطق من المملكة، ادت في اخر الامر الى سقوط سومرست عن سدة الحكم. وقبض فيما بعد على سومرست وحوكم وادين بناء على دليل قدمه سير توماس بالمر، وزيف واوريك، خليفة سومرست، امرا صادرا من الملك بالدعوة الى اعدام سومرست، فلقي حتفه بشجاعة وإباء، في 22 كانون ثاني سنة 1552.

وصاية وارويك Warwick 14 تشرين اول 1549– 9 حزيران 1553

تابع وارويك، الذي منحه الملك لقب دوق نورثمبرلاند، السياسة الدينية التي انتهجها سومرست في جرّ المملكة نحو البروتستنتية بتصميم اكبر وبطريقة جذرية. واستغل الناس الحرية التي منحها لهم فطعن قسم الحزب المتطرف من البروتستانتية في الدين الكاثوليكي طعنا قاسيا، وتهكم طلبة جامعة اكسفورد على القداس بمحاكاته في مسرحياتهم الهزلية، ومزقوا كتب القداس اربا، واختطفوا القربان الاقدس من المذبح ووطأوه بالاقدام. وقضي المجلس النيابي (1550) بازالة كل اللوحات والتماثيل التي ما زالت في الكنائس، ما عدا "الصور التذكارية للملوك او النبلاء، واتلفت كتب الصلاة ما عدا كتب كرانمر. وصودرت او بيعت ووهبت الثياب الكهنوتية.

واعد كرانمر بيانا بالهرطقات التي يعاقب مرتكبوها بالاعدام ان لم يرتدوا عنها، وتضمنت تأكيد وجود المسيح حقا في القربان الاقدس، او السيادة الكنسية للبابا، وانكار الوحي في العهد القديم او الطبيعتين في المسيح او التبرير بالايمان. فسجن الكثير من الكاثوليك لحضورهم القداس او لانتقادهم علنا العقيدة البروتستنتية. واقيل الكهنة الكاثوليك المتمسكون بآرائهم من منصابهم وأُرسل بعضهم الى سجن البرج.

وفي عام 1552، اصدر كرانمر الاصدار الثاني من "كتاب الصلاة العامة"، وهي الطبعة الاكثر قربا للبروتستانتية. وتأثرت بالكالفينية عن طريق مارتن بوس الذي احضره كرانمر لتنقيحه. وأُمرت الكنائس باستخدام هذا الكتاب بقوة القانون الذي صدر لتوحيد نظام العبادة. وامتازات هذه الطبعة من كتاب الصلاة العامة، بتجنب أي اشارة عن حضور المسيح الفعلي بالخبز والخمر (القربان الاقدس)، وحذفت الصلوات من اجل الموتى، واستعيض عن المذبح بمنضدة العشاء. وظل كتاب الصلاة العامة هذا، بعد اجراء القليل من التعديلات عليه في فترة حكم اليزابيت، الكتاب المستخدم في الكنيسة الانجليكانية حتى يومنا الحاضر.

وساهم كرانمر ايضا في صياغة قانون للايمان بمساعدة بعض اللاهوتين مثل جون نوكس، يتضمن 42 بندا، وتم اعتماده قانونا لايمان الكنيسة الانجليكانية بقرار ملكي سنة 1553. وكانت هذه البنود صيغة كالفينية وبالذات في موضوع الاختيار السابق والرأي حول التناول.

موت ادوارد السادس

واوشك الملك على نهايته في اوائل شهر تموز، 1553، وسعل وبصق دما، وتورمت ساقاه تورما مؤلما، وتفشى الطفح على جسده، وسقط شعره، ثم سقطت اظافره، ولم يستطع احد ان يعرف المرض الغريب الذي كان يعاني منه. وراود الشك الكثيرون ان دوق نوثمبرلاند سممه. واخيرا مات ادوارد بعد ان عانى الكثير في 6 اب 1553، ولم يتعد الخامسة عشرة من عمره، واصغر بكثير من ان يشارك فيما ارتُكِب في عهده من آثام.

19- اعادة الكاثوليكية الى انكلترة في عهد ماري تودور 1553-1558

بينما كان الملك ادوارد يقترب من الموت، عينت ماري تودور بمقتضي قانون اصدره المجلس النيابي، ولية للعهد اذ ظل ادوارد بلا ذرية. وفهم دوق نوثمبرلاند، انه لو قُدِرَ لماري ان تصبح ملكة فانها سوف تعمل على اعادة الكاثوليكية، وتنتقم من جميع الذين حوّلوا انجلترة عن العقيدة الكاثوليكية. وشعر ان حياته معرضة للخطر، فاستطاع بدهائه ان يجعل الملك المحتضر يقرر التاج لليدي جين جراي، ابنة دوق سفولك وحفيدة شقيقة الملك هنري الثامن، وزوجة ابن الدوق نورثمبرلاند. ولم يكن ادوارد قد خول مثل ابيه السلطة الى المجلس النيابي لتعيين خلفه، وكانت انجلترة باسرها تقريبا ترى ان ارتقاء الاميرة ماري العرش امر لا منه وعادل.

واحتجت جين انها لا ترغب في ان تكون ملكة، الا ان زوجها امرها ان تقبل العرش فاطاعت. واعد دوق نورثمبرلاند العدة للقبض على كبار انصار ماري وايداع الاميرة نفسها في سجن البرج. وفي صباح اليوم التالي لوفاة الملك ادوارد، ركب الدوق نورثمبرلاند الى هنسدون للقبض على الاميرة، الا انها هربت، بعد ان حذّرها اصدقاؤها واختبأت عند اصدقاء كاثوليك في سفولك. وعاد نورثمبرلاند الى لندن دون ان يحصل على فريسته. واقنع المجلس الخاص بالوعود او التهديدات او الرشاوي بالانضمام اليه في المناداة بجين جراي ملكة، الا انها ظلت تحتج انها لا تصلح لهذا الشرف. وتوسل اليها اقاربها بحجة ان حياتهم تتوقف على قبولها. وفي التاسع من تموز اقرت في نفور انها ملكة انكلترة.

ولكن في العاشر من اب تموز وصلت الى لندن انباء تقول ان ماري قد نادت بنفسها ملكة، وان النبلاء في الشمال كانوا يتقاطرون لتأييدها، وان قواتهم بدأت تزحف على العاصمة. وحشد نورثمبرلاند سريعا ما استطاع جمعه من جنود، وابلغه جنوده انهم لن يسيروا خطوة اخرى للقتال ضد ملكتهم الشرعية. وارسل نورثمبرلاند اخاه مزودا بالذهب والمجوهرات والوعد باعطاء مقاطعة كاليه وجينس لفرنسا كرشوة لهنري الثاني ملك فرنسا، للقيام بغزو انجلترة. وعلم المجلس الخاص بالمهمة ومنعها، واعلن ولاءه لماري. وانطلق دوق اف سفولك الى غرفة ابنته جين وابلغها ان حكمها الذي استمر عشرة ايام قد انتهى. فرحبت بالانباء وسألت ببراءة ان كان بامكانها ان تذهب الى البيت. ولكن المجلس امر بسجنها في البرج، وسرعان ما سجن هناك ايضا نورثمبرلاند.

ماري تودور تعيد الكاثوليكية الى انكلترة

كانت ماري عند اعلانها ملكة تبلغ السابعة والثلاثين من عمرها، وكان الزمن القاسي قد ترك بصماته على وجهها وعلى صحتها. فقد كان جسدها نحيلا هزيلا وجبينها ممتلئا بالتجاعيد وشعرها المائل للاحمرار تتخلله شعرات بيضاء وعيناها ضعيفتين جدا.

ظهر احسن جانب من خلقها في التسامح النسبي في اول عهدها، فصفحت تقريبا عن كل من حاولوا ابعادها عن العرش. واصدرت الملكة في 13 اب اعلانا رسميا اعلنت فيه انها لن "تكره الضمائر او تلزمها بشيء في مسألة المعتقد الديني".

وكانت ماري تتلهف الى اعادة الكاثوليكية الى انجلترة. الا ان الامبراطور شارل الخامس، الذي ظل يحارب البروتستنتية اثنين وثلاثين عاما، حذّرها، وطلب منها ان تتحرك ببطء. وبعثت برسول الى البابا تطلب منه ان يرفع الحرم الذي فرضه على اقامة الصلوات بانجلترة. ولكن عندما ابدى الكاردينال بول رغبته في الحضور الى انكلترة قاصدا رسوليا، قررت ان الوقت لم يحن بعد للقيام بمثل هذه الحركة الجريئة.

وافق المجلس النيابي الذي اجتمع عام 1553، على الغاء كل تشريع يتعلق بالدين صدر في عهد ادوارد، وخفض العقوبات المنصوص عليها في قوانين هنري الثامن وادوارد السادس. ولكن المجلس رفض اعادة املاك الكنيسة وقاوم أي

تلميح الى اعادة سيادة البابا على كنيسة انكلترة. وترك هذا ماري رئيسا للكنيسة الانجليزية رغم انفها. وبمقتضى هذه السلطة استبدلت الاساقفة البروتستانت بالاساقفة الكاثوليك الذين كانوا قد اقصوا عن مناصبهم، وطرد الكهنة المتزوجون من رعاياهم، وسمح باقامة القداس مرة اخرى. قال في هذا مؤرخ بروتستانتي: "ان اللهفة التي ابدتها البلاد باعادة العقيدة الكاثوليكية تدل بلا شك على ان الشعور العام كان مع الملكة، فيما عدا لندن وبضع مدن كبيرة". واعيدت العبادة الكاثوليكية الى ما كانت عليه تماما بمقتضى مرسوم صدر في 4 اذار سنة 1554. وعدت الهراطقات الاخرى غير شرعية وحرم كل وعظ بروتستانتي او نشرة بروتستانتية.

خطأ فادح: زواج ماري من الامير فليب الاسباني

ارادت ماري ان تتزوج املا في انجاب وريثا يحول دون ارتقاء اليزابيت البروتستانتية العرش. واوصى مجلسها باختيار ادوارد كورتناى حفيد ادوارد الرابع، ولكن طرق عيشه المبتذلة لم تجد هوى في نفس ماري. فعرض شارل الخامس على ماري الزواج من ابنه فيليب الذي كان يوشك ان يوصي له بكل شي سوى اللقب الامبراطوري، وتعهد بتقديم هولندا لاي ولد يكون ثمرة لهذا الزواج. وتهللت ماري عندما خطر لها ان زوجها سيكون حاكما لاسبانيا والفلاندرز وهولندا ونابولي والامريكتين، وكانت تحلم بإنشأ اتحاد سياسي وديني بين انجلترة واسبانيا. وقَبِل فيليب على مضض هذا الزواج، اذ كانت ماري تكبره بعشر سنوات، وقد اقنعه والده شارل الخامس بضرورة هذا الزواج من الناحية السياسية، اذ سيتيح هذا الزواج لاسبانيا حليفا قويا ضد فرنسا وعونا ثمينا في هولندا التي كانت مرتبطة تجاريا بانجلترة، وان البروتستانتية في المانيا يمكن قمعها بعمل موحد من اسبانيا وفرنسا وانجلترة باعتبارها دولا كاثوليكية. ثم ان المصاهرة بين آل هابسبورج وآل تيودور يؤلف قوة قادرة على منح اوروبا الغربية سلاما يدوم اجيالا.

ادرك مجلس الملكة والشعب قوة هذه الاعتبارات، ولكنهم خشوا ان يؤدي الزواج الى تحويل انجلترة الى بلد تابع لاسبانيا ويورط انجلترة في الحروب المتكررة مع فرنسا. وواجه شارل الخامس الموقف باجراء مضاد، فعرض باسم ابنه عقد زواج بمقتضاه لا يحمل فيليب لقب ملك انجلترة الا في حياة ماري ولها ان تحتفظ وحدها بالسلطة الملكية الكاملة على الشؤون الانجليزية ولها ان تشارك فيليب في جميع القابه، واذا مات دون كارلوس (وهو ابن فيليب من زواج سابق) دون ان يعقب ذرية ترث ماري او ابنها الامبراطورية الاسبانية. وعلاوة على هذا اضاف الامبراطور الداهية ان لماري الحق في ان تتلقى مدى الحياة 60000 جينه من الموارد الامبراطورية. وبدا هذا كله عرضا سخيا، فصدق المجلس الانجليزي على الزواج مع تعديلات بسيطة في النصوص.

ولكن الشعب الانجليزي استاء من اختيارها، فالاقلية البروتستانتية التي كانت تصبر على الاضطهاد، مع الامل في ان تخلف اليزابيت قريبا ماري العاقر الضعيفة، خشيت على حياتها من تحالف انجلترة واسبانيا. وارتجف النبلاء الذين اغتنوا بضم الاملاك الكنسية عندما خطر لهم انهم سوف يضطرون الى اعادتها. واعترض ايضا بعض الكاثوليك الانجليز على وضع اجنبي على العرش. وارتفت اصوات الاحتجاج في كل مكان، ووضع اربعة من النبلاء خططا لثورة تبدأ في 18 اذار سنة 1554. وأخطأ المتامرون بان اسرَّوا بخططهم لكورتناي، وكانت مهمته تنحصر في ضمان اشتراك اليزابيت معهم. وكان الاسقف جاردنر يراقب كورتناي باعتباره انسانا منبوذا من ماري يحاول الانتقام. فامر بالقبض عليه، وافشى كورتناى اسرار المؤامرة. وآثر المتامرون ان يلاقوا حتفهم في المعركة بدلا من المقصلة، فاشتعلت نيران الثورة في عدة مناطق من انجلترة. وذهبت ماري واجتمعت مع بعض الثائرين، وقالت انها على استعداد تام عن التخلي عن فكرة الزواج اذا كانت هذه رغبة العموم، ولكنها لن تسمح ان يكون زواجها سببا للحروب. واستطاعت ان تكسب تأييد الحاضرين، واستطاعوا ان يحشدوا 25000 رجلا مسلحا، وقبض على سفولك زعيم المتمردين واستسلم الجميع. فشعرت ماري بالامان ولكنها لم تعد الملكة الرقيقة.

عودة العلاقات مع روما

أرسل البابا يوليوس الثالث مبعوثه الكاردينال بول Pole، قاصدا رسوليا الى انجلترة، في 20 تشرين ثاني عام 1553، التي كان قد تركها منذ اثنين وعشرين عاما. وقوبل بترحيب حار من رجال الحكومة والاكليروس والشعب، الذي عبر عن رضاه بعودة العلاقات مع البابوية. وعندما علم المجلس النيابي ان الكاردينال بول جاء ومعه موافقة البابا على احتفاظ المالكين الحالين باملاك الكنيسة المصادرة، فرح المجلس واعرب اعضاء المجلس وهم راكعون عن ندمهم لما الحقوه من اساءات بالكنيسة. ومنح الاسقف جاردنر التائبين الغفران. واعترف بسيادة البابا في الشؤون الكنيسة.

ماري الدموية

اظهرت ماري الرأفة والصفح بعد انتصارها على الثورة، الا ان مستشاريها السياسيين، والامبراطور شارل الخامس لامها لسماحها بالحياة بل وبالحرية لاشخاص تامروا ضدها، وانهم سوف يكونون احرارا لتكرار هذا. وكان من رأى الاسقف جاردنر ان الرحمة بالامة تتطلب اعدام الخونة. وتملك الذعر الملكة ومالت الى العمل بارائهم، وامرت باعدام جين غراي التي لم ترغب قط في ان تكون ملكة، وزوج جين، الذي اراد ان يكون ملكا. وقطع رأس والدها سفولك، وشنق مائة من صغار الثوار. ومن بين الذين حكم عليهم بالحرق، الاساقفة البروتستنت الثلاث: هوبر وريدلي ولايتمر، واخيرا حكم على رئيس الاساقفة كرانمر. وكانت وفاته دليلا على بلوغ الاضطهاد ذروته ومات نحو 300 شخص في اثنائه منهم 173 في السنوات الاربع الاخيرة من عهد ماري. وقد ذكرهم جون نوكس في كتابه "كتاب الشهداء" الذي ظل كتابا يطالعه كل بيت انكليزي ولمدة قرنين من الزمن. وكلما مضت المحرقة قدما اصبح من الواضح انها كانت خطأ. واستمدت البروتستنتية القوة من شهدائها، وافزع الكثير من الكاثوليك وشعروا بالحزي من ملكتهم الدموية.

نهاية الملكة ماري

دخل فيليب الذي اصبح ملكا على اسبانيا، في حرب مع فرنسا ومع البابوية، وطلب المساندة من انكلترة، واقنع الملكة ماري بالدخول معه في هذا الحرب بصفتها حليفة لاسبانيا. وكانت ماري مستعدة لارضاء فيليب لاقتناعها ان هنري الثاني قد ساند المتمردين الانكليز. فاعلنت الحرب على فرنسا. وفقدت انكلترة في هذه الحرب كاليه (1558) التي كانت قد احتفظت بها انكلترة مدة 211 سنة، وهرب الاف الانجليز الذين عاشوا هناك، واصبحوا لاجئين معدومين في انكلترة، واتهموا الملكة ماري بانها اهملت اهمالا اجراميا في الدفاع عن اخر ممتلكات انجلترا في القارة. وعقد فيليب مع فرنسا صلحا موافقا له دون ان يطلب استرجاع كاليه.

وفي اوائل عام 1558 اعتقدت الملكة مرة اخرى انها حامل. وكتبت وصيتها اذ كانت تتوقع ان تكون ولادتها خطيرة، وبعثت برسالة الى فيليب تتوسل اليه ان يحضر الحادث السعيد. فبعث فيليب اليها بتهانيه ولكن لم تكن هناك ضرورة لحضوره، فقد كانت ماري على خطأ. وكانت وقتذاك امرأة مهجورة من الجميع، ولعلها اصبحت مخبولة الى حد ما. وكانت تجلس على الارض الساعات الطوال وركبتاها مرفوعتان الى ذقنها، وكانت تتجول في قاعات القصر مثل الشبح.

وفي ايام الصيف الاخير من حياة ماري انتشر وباء حمى البرداء في انجلترة. واصيبت به الملكة في ايلول عام 1558، فاضعفها الى حد ان رغبتها في الحياة تلاشت. وفي 6 تشرين ثاني بعثت بجواهر التاج الى اليزابيت. وكان هذا عملا كريما لرغبتها في منح انجلترة وراثة منظمة للعرش. وتعرضت للغيبوبة فترات طويلة، واستيقظت من احدى هذه الغيبوبات لتروي كيف رأت حلما سعيدا عن اطفال يلعبون ويغنون امامها. وفي 17 تشرين ثاني سمعت القداس مبكرا وردت على صلوات القداس بحرارة، وماتت قبل الفجر.

لقد ادى الحزن والمرض وكثرة ما تعرضت له من الالام في حياتها، الى انحراف عقلها. ولم تتحول من الحلم الى القسوة، الا بعد مؤامرات كانت تستهدف حياتها، وسمعت في ثقة زائدة لرجال سعوا الى الانتقام بعد ان تعرضوا هم انفسهم للاضطهاد. وكانت تعتقد حتى اخر لحظة في حياتها انها بالقتل انما تؤدي واجبها نحو العقيدة التي احبتها. وهي لا تستحق اللقب "ماري الدموية" ما لم تطلق هذه الصفة على عصرها باسره.

كان هدف ماري هو العمل على اعادة انكلترة الى الكاثوليكية، بعد ان عمل ابوها واخوها على ابعادها، الا انه بقسوتها اظهرت لانكلترة، أسوأ جانب للكنيسة التي خدمتها. ولما ماتت كانت انكلترة مهيأة اكثر من ذي قبل لاعتناق العقيدة البروتستنتية التي جاهدت للقضاء عليها.

20- تثبيت الكنيسة الانجليكانية في عهد الملكة اليزابيت 1558-1603

عندما ارتقت اليزابيت ابنة الملك هنري الثامن من آن بولين العرش وهي في الخامسة والعشرين من عمرها، واجهت العديد من المشاكل. كان لماري ستيوارت حق في المطالبة بالعرش، وكانت اسبانيا على استعداد للتدخل لدعم مطالبة فيليب بعرش انجلترا بصفته زوجا للملكة المتوفاة، بل وكانت انجلترا نفسها منقسمة بين الكاثوليكية والبروتستانتية. ولم يكن امام اليزابيت من اختيار الا ان تصبح من البروتستانت وذلك لان رجال الكنيسة من الكاثوليك ما كانوا ليقروا بشرعية زواج والديها. ولكنها لم ترغب في اتخاذ مخاطرة الصراع المباشر مع القوى المؤيدة للبابا. ولهذا السبب

فضلت اليزابيت ان تسلك المنهاج الذي يمكن ان يكون مقبولا من غالبية شعب انجلترا، الذي يفضل استقرارا معتدلا في الامور الدينية يتجنب التطرف بكل اشكاله. اتخذت مجلسا استشاريا، ابقت فيه ثمانية من الكاثوليك واضافت اليه ثمانية اخرين من مؤيدي الاصلاح، رغبة منها في حفظ التوازن بين الاحزاب المتعارضة. الا انها وبعد مدة اتضح توجه الملكة الواضح في تأييدها للمصلحين.

"قانون السيادة Les Actes de Supérmatie"

جعلت اليزابيت البرلمان يقر قانونا جديدا للسيادة في عام 1559، حيث جعل هذا القانون الملكة "الحاكم الاعلى لهذه البلاد" في الامور الروحية والكنسية كما في الامور الدينية ايضا. وكان هذا اللقب الجديد اقل في تأثيره من عبارة "الرئيس الاعلى للكنيسة" التي اصر عليها هنري الثامن، وذلك لانه بينما تعطي الملكة السلطة الادارية الا انها توصي ان الشؤون الخاصة بالعقيدة والاخلاق يجب ان تحسمها كنيسة انجلترا.

"قانون التوحيد Acte d'Uniformité"

ثم جاء قانون توحيد نظام العبادة ليقرر استخدام كتاب الصلاة العامة الذي صدر في 1552 بعد اجراء بعض التعديلات الطفيفة عليه. وفرضت غرامة قدرها شلنا واحدا عقوبة على الغياب عن حضور الكنيسة. وتمت مراجعة البنود الاثنين والاربعين التي تضمنها قانون الايمان حيث تم حذف البنود التي تدين المعارضين من حركة اعادة المعمودية والالفيين، وتم اعادة صياغة البعض الاخر حتى انتهى الامر بتسع وثلاثين بندا. واعتمد البرلمان هذه البنود في عام 1563، لتصبح قانون الايمان للكنيسة الانجليكانية، واصبح مطلوبا من كل الرعاة الالتزام به. وظل هذا القانون للايمان بعد اجراء تعديلات طفيفة عليه في 1571، وهو قانون الايمان المعتمد للكنيسة الانجليكانية منذ ذلك الحين.

مقاومة الكنيسة الكاثوليكية واضطهادها

اثارت الخطوات التي اتخذتها اليزابيت باعادة البروتستنتية الى انكلترة حفيظة الكاثوليك وحفيظة البابا، الا انه لم يتخذ أي اجراء عقابي قبل ان يستنفذ كل وسائل المهادنة والمصالحة من شأنها اعادة الكثوليكية. وفي عام 1570 اصدر البابا بيوس الخامس قرارا بابويا بحرمان اليزابيت واعفاء رعاياها من واجب الولاء لها. فردت اليزابيت الضربة بعمل عدائي وجهته الى اليسوعيين الذين كانوا يخططون لاستعادة انكلترة للنفوذ البابوي. كانت هناك كلية للاهوت اسسها في فلاندرز في بلدة دواى شخص اسمه وليم الن عام 1568، حيث كان اليسوعيون يدربون العاملين بهدف ارسالهم سرا الى انكلترا لرعاية الانجليز الذين ما زالوا يتبعون البابا. فاعدمت اليزابيت عددا من الرهبان اليسوعيين. فما كان من البابا الا سعى الى تجنيد امكانات فيليب ملك اسبانيا لاستعادة انجلترا تحت النفوذ البابوي. سُر فيليب جدا بالقيام بهذا الدور لانه كان ابنا بارا لكنيسة روما، وايضا لانه كان يعرف ان اليزابيت كانت تدعم سرا رعاياه المتمردين في هولندا. وفي عام 1588 جمع فيليب اسطولا هائلا عرف باسم "الارمادا الاسبانية" وابحر نحو انجلترا. الا ان هذا الاسطول العظيم واجه هزيمة ساحقة من الاسطول الانجليزي الذي كان يتألف من سفن اصغر حجما واكثر قدرة على المناورة تقودها اطقم من البحارة المحنكين. وكان لهذا الانتصار دوره في تاكيد مكانة انجلترا في زيادة حركة البروتستانت في اوروبا. وانهى اخر امال البابا في استعاد نفوذ الكنيسة الكاثوليكية في انجلترا.

قدم الاصلاح الكتاب المقدس الى الشعب الانجليزي بلغته الخاصة. واصبحت انجلترا زعيمة الحركة البروتستانتية في اوربا ودعمت الكالفنيين البروتستانت في هولندا وفرنسا ضد حكامهم من الكاثوليك. استقرت الاوضاع في الكنيسة التابعة للدولة وتزايدت حدة المرارة في قلوب الايرلنديين تجاه انجلترا لان ايرلندا بقيت على ولائها للبابا. وقد ساهمت ثورة وتمرد قام به الايرلنديون في نهاية حكم اليزابيت الى استنزاف مواردها المالية الى اخر حد. وادى بيع الاراضي التي انتزعت ملكيتها من كنيسة روما الى الطبقة الوسطى الى خلق فئة جديدة من نبلاء اسرة تيودور. اما رؤساء الاديرة الذين فقدوا اديرتهم فلم يعد لهم مكان في مجلس اللوردات. وادى الاحتياج الى وجود مؤسسة جديدة تقوم بدور الكنيسة في اعمال الخير والعمل الاجتماعي الى امتداد نشاط الدولة في هذه المجالات. وضع الاستقرار الذي حققته اليزابيت انجلترا على طريقها لتكون امبراطورية عظمى، الا ان هذا الطريق لم يكن سهلا ابدا او بدون مشاكل وتركت هزيمة اسبانيا والبابا الحرية الكاملة للحكام الانجليز للتركيز على مشكلة التطهرية (البيورتان). فمن عام 1567 الى 1660 كان التطهريون قوة سائدة في كل شؤون انجلترا الداخلية. فقد كان سعيهم موجها الى تغيير الكنيسة الانجليكانية وليس التخلص منها.

21- لحركة التطهرية Le Puritanisme

لم يحقق الانتصار على الكاثوليكية الراحة المنشودة بالنسبة للملكة اليزابيت وذلك بسبب القوة النامية التي ظهرت مع الحركة التطهرية، حيث كانت تمثل تهديدا بتغيير النظام الاسقفي من كنيسة تابعة للدولة الى كنيسة مشيخية او مستقلة.

كان التطهريون يعترضون على تعلّق الكنيسة الانجليكانية بالكثير من الاشكال المرتبطة بالنظام البابوي. وكانت دعوتهم لتطهير الكنيسة الاسقفية في انجلترا لتكون اكثر توافقا مع الكتاب المقدس الذي قبلوه دستورا وحيدا للايمان والاعمال. وهذا هو السبب في اطلاق لقب "التطهريون" عليهم بعد عام 1560. وحتى 1570 كانت اعتراضتهم الرئيسية موجهة ضد الاستمرار في استخدام الملابس والطقوس المرتبطة بالنظام البابوي في نظم العبادة في الكنيسة الانجليكانية. فعارضوا الاحتفال باعياد القديسين، والحل الكهنوتي للخطأة، ورسم علامة الصليب، وعادة تعيين اب روحي للطفل (اشبين)، وعادة الركوع عند التناول، وارتداء الخادم الثياب الليتورجية فوق ملابسه. وكان لهم موقف متشدد من عدم حفظ الانجليكان ليوم الاحد. لم يكن التطهريون حزبا خارج الكنيسة، بل كانوا حزبا داخل الكنيسة الانجليكانية يطالبون اما:

بالنظام المشيخي Presbytérienne: كما كان الحال مع كارترايت واتباعه. ففي محاضرارت القاها كاترايت حول سفر اعمال الرسل في عام 1570، عارض وجود نظام الاساقفة في ادارة الكنيسة، وقال ان الكنيسة يجب ان تكون تحت سيطرة مجمع من الشيوخ ليس له الا مسؤوليات ومهام روحية. كان هذا النظام في اساسه هو النظام الكالفيني لادارة الكنيسة بواسطة شيوخ ينتخبهم الشعب. ترجم كاترايت كتاب والتر ترافيرز Walter Travers بعنوان "النظام الكنسي" والذي دعا فيه الى اقامة مجمع في كل ابرشية للكنيسة. فوضع بذلك اساسا لنظام الكنيسة المشيخية الانجليزية، والتي كان لها نفوذ في الفترة ما بين 1643-1648. وتدين المشيخية الحديثة في انجلترا الى ما عمله كاترايت في ذلك الوقت. وقد تأسست اول كنيسة مشيخية عام 1572 في واندزورث Wandsworth.

نظام الكنيسة المستقلة Independents: كنيسة دولة يحكمها الشعب كما في حالة جاكوب واتباعه. وقد نظمت جماعة جاكوب Henry Jacob (1563-1624)، نفسها لتصبح جماعة التطهريين الذين عرفوا بالاستقلاليين Congregationalists. رأي جاكوب ان يترك لشعب كل كنيسة محلية في كنيسة الدولة حرية اختيار راعيه بنفسه، وتحديد سياسة تلك الكنيسة وادارة شؤونها الداخلية. نمت حركة التطهريين المستقلين في انكلترا ببطء بداية متواضعة، حتى اصبحث، تحت قيادة اوليفر كروميل، اقوى من المشيخية.

مقاومة الكنيسة الانجليكانية للحركة التطهرية

احست الملكة اليزابيت ان الحركة التطهرية تهدد كل التسوية التي دبرتها لتهدئة الصراع الديني، واحتقرت النظريات التطهرية المتشددة من كل قلبها، وربما اكثر من كراهيتها للكاثوليك. كما ورات الملكة في الانتخاب العام للكهنة وفي حكومة الكنيسة عن طريق الشيوخ والمجالس الكنسية المستقلة عن الحكومة، نوعا من النظام الجمهوري الذي يهدد الملكية. فشجعت الاساقفة على التنكيل بمثيري الفتنة. فاوقفت مطبوعاتهم، ومنعوا من الوعظ في الكنائس، كما منعت اجتماعاتهم. وطُلب من جميع رجال الدين الانكليز ان يؤدوا قسما بقبول "المواد التسع والثلاثين"، واتباع "كتاب الصلاة العام" لسنة 1559، وسيادة الملكة الدينية.

عهدت الملكة لرئيس الاساقفة باركر مهمة تنفيذ هذه التعليمات. فحاول اعادة الوحدة في الكنيسة الانجليكانية باتخاذ اجراءات صارمة ضد زعماء التطهريين. وعندما توفى، خلفة ادمون جرندال، وكان من اتباع كالفين، فاستغل التطهريون وجوده وتأييده لهم، فتابعوا معارضتهم الاستفزازية. فاوقفته الملكة عن العمل. ولما مات عام 1583، عينت في منصبه كرئيس اساقفة كنتربري، قسيسها الجديد، جون ويجتفت John Whitegift، الذي وان كان ميالا للتعاليم الكالفينية، الا انه كان من انصار الاسقفية. فعمل على ملاحقة كل اتباع هذه الحركات، واستطاع بمساندة الملكة ومجلسها الاستشاري، ايقاف انتشار الاراء الكالفينية. الا ان التطهريين بدأوا عملهم بالخفاء، وبدأت معركة المنشورات المجهولة المؤلف، هاجموا فيها الاساقفة واخلاقهم الشخصية في نقد لاذع بذيء ملىء الشتائم.

ألمت هذه النشرات الملكة فاطلقت يد ويتجفت في كبح جماح التطهريين. فقبض على من قام بنشر هذه المنشورات ، وتم اعدام مجموعة منهم، كما شنق اثنين من زعماء الحركات الانفصالية. واصدر البرلمان قانونا ينص على ان كل من يعترض على السيادة الدينية للملكة، او يتغيب عمدا عن الصلوات في الكنيسة الانجليكانية، او يحضر "اجتماعات او صلوات سرية غير مشروعة او لقاءات تحت ستار ممارسة العقيدة..." يعاقب بالسجن، واذا لم يتعهد

بالتزام العقيدة الرسمية، عليه ان يغادر انجلترا دون رجعة، والا كان جزاءه الموت. فهاجر كثير منهم، ورحبت بهم هولندا، وقامت المجامع الانجليزية في مدلبرج وليدن وامستردام، وهناك عمل المنفيون وذريتهم بجد وعلموا ووعظوا وكتبوا، وبذلك مهدوا الطريق في هدوء لنجاحهم في انكلترة وامريكا.

الفصل التاسع والاربعون

الاصلاح في بلدان اوروبا الاخرى

أ) الاصلاح في البلدان الاسكندنافية

دخل الاصلاح البلاد الاسكندنافية – أي الدانمرك والسويد والنرويج التي استطاعت الملكة مارغريت في عام 1397 توحيدها تحت رئاسة الدانمرك – لنفس الاسباب التي رأينا الاصلاح فيها يدخل المانيا وسويسرا وخصوصا تطلّع الملوك والامراء على الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة.

1) الدانمرك

لعبت السياسة الدور الاول في انحياز الدانمرك الى اللوثرية. فقد كانت طبقة الاشراف والاكليروس تؤلفان طبقتين غنيتين وقويتين، حددت من سلطة الملك بحيث اصبح تولي العرش فيها بالانتخاب، ولم يكن بالامكان تولي العرش دون التقيد مسبقا بعدة شروط تنازلية انتخابية.

كريستيان الثاني: اراد الملك كريستيان الثاني (1513-1523)، الحد من تأثير سلطة الارستقراطية الكنسية، فقرر ادخال الاصلاح الى بلده، مما يسمح له الاستيلاء على املاك الاكليروس وبذلك يحد من قوته ونفوذه. فدعى الى كوبنهاغن مارتن رينهارد Martin Reinhard، احد تلامذة ملانكتون، وعهد اليه وظيفة استاذ في الجامعة، بهدف تحضير الطريق الى اللوثرية. ثم قام باعدام عدة رهبان واساقفة وعلى رأسهم رئيس اساقفة لوند Lund، الذين عارضوا مخططاته. الا انه بسبب قسوته وصرامته، ثار عليه الاشراف بالاتحاد مع الاكليروس، وعملوا على اطاحته عن العرش في عام 1523. وبذلك فشلت المحاولة الاولى لانتشار الاصلاح.

فردريك دي هولستين Frederic de Holestien: كان ذا ميول لوثرية. ومع انه وعد يوم تتويجه بالمحافظة على العقيدة الكاثوليكية ومقاومة المصلحين كهراطقة، الا انه انتهج سياسة مغايرة. فسمح للوعاظ اللوثريين بالوعظ، واعلن في عام 1526 انضمامه الرسمي للكنيسة اللوثرية. ونجح عام 1527 في جعل مجلس الامة المنعقد في اودنسة Odensee يصوّت على منح المصلحين نفس الحقوق التي يتمتع بها الكاثوليك. ثم سمح بزواج الكهنة، واحتفظ لنفسه بحق تعيين الاساقفة، وامر بدفع الضرائب التي كانت تدفع سابقا الى الكرسي الرسولي الى الخزينة الملكية. وبذلك قطع كل الروابط التي كانت تربط الكنيسة الدانمركية بكنيسة روما.

لم يُظهر الاساقفة أي معارضة تذكر، بينما شاركت طبقة الاشراف مع الملك في الاستيلاء على املاك الكنيسة والاديرة مستسلمين للامر الواقع، واعلنوا اخيرا انضمامهم رسميا للكنيسة اللوثرية في مجلس الامة الذي انعقد عام 1530 في كوبنهاغن.

كريستيان الثالث: حاول كريستيان الثاني بعد موت عمه فردريك، استعادة عرشه، الا انه خسر امام ابن فردريك، فتم انتخابه ملكا باسم كريستيان الثالث. وكان هذا صديقا شخصيا للوثر، تابعا متحمسا لتعاليمه. تم في عهده توطيد اللوثرية بكل الوسائل وخصوصا بالعنف. فأمر عام 1536 بسجن جميع الاساقفة الكاثوليك، ولم يطلق سراحهم الا على شرط ان يستقيلوا من مناصبهم او ينضموا الى الاصلاح. فرضخ جميعهم ما عدا الاسقف Roenow، اسقف مدينة Roskild، الذي رفض ان يشتري حريته بهذا الثمن، وبقي في السجن الى ان مات عام 1542. وتم عزل الكهنة الذين رفضوا الانضمام الى اللوثرية، وطُرد الرهبان من الاديرة. ثم طلب الملك المساعدة من لوثر، فارسل اليه احد تلامذته Jean Bugenhogen، فعمل هذا على اعطاء الكنيسة الدانمركية، دستورا يلائم العقائد اللوثرية. وقام ايضا – مع كونه مجرد كاهن – برسم سبعة من الكهنة المرتدين، ليكونوا الاساقفة السبعة الجدد للبلاد. ثم قام بتأليف القوانين لتنظيم الليتورجية والتعليم وكل المسائل الدينية. واصبح الملك بالاستناد الى هذه النظم الرئيس الاعلى للكنيسة الدانمركية، على ان يتم تقسيم الممتلكات الكنسية بين الملك والاشراف.

وفي عام 1546 – واثناء انعقاد مجلس الامة – تم التكريس النهائي لانضمام الدانمرك الى الكنيسة اللوثرية، وانهى الملك آخر معارضة للكاثوليك، بسجن الكهنة او باجبارهم على مغادرة البلاد. اما العلمانيين الكاثوليك، فقد تم اعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية، وحرموا من الوظائف الرسمية، ومن الكثير من الحقوق ومنها حق الوراثة.

2) النرويج وايسلندا Norvège et Island

تم انضمام النرويج الى اللوثرية في نفس الوقت الذي تم انضمام الدانمرك. فتم ايقاف رئيس اساقفة Trondjh الكاثوليكي مع اربعة من اساقفته، وعين مكانهم اساقفة لوثريين، وصودرت املاك الكنيسة لصالح الاشراف والملك.

اما في ايسلندا فقد بُشر باللوثرية فيها ما بين عام 1536 و 1540. عارض الشعب في البداية معارضة شديدة دخول اللوثرية اليها بمساندة ودعم اسقف هولار Holar، جون اريسن John Aresen. الا ان المعارضة انتهت عندما قُبض على هذا الاسقف، وقطع رأسه في 7 تشرين ثاني 1550. ولم تمض سنتان حتى اختفت اثار الكنيسة الكاثوليكية فيها.

3) السويد

دخل الاصلاح السويد مع دخوله الى الدانمرك، الا ان الثورة الدينية في السويد تميزت بكونها ثورة سياسية، نتيجة محاولة السويد الحصول على استقلالها من حكم الدانمرك. حاول الملك الدانمركي كريستيان الثاني القضاء على هذه الثورة، فجاء الى ستوكهولم واعدم رؤوساء الحركة التمردية، مما زاد في اشعال نيران الثورة بدل اخمادها.

فقام على رأس الحركة التمردية، شاب من طبقة الاشراف يدعى جوستاف واسا Gustave Wasa (1523-1560). وكان والده من الذين اعدمهم الملك كريستيان. واستطاع جوستاف ان يخلص بلاده من الاحتلال الدانمركي، وأعُلن ملكا في عام 1523، وبدأ بادخال اللوثرية مدفوعا باسباب عديدة، منها اقتناعه الشخصي، وانما بالاكثر بدافع من الانتقام من الاكليروس الذي اتخذ موقفا ضد الثورة وساند الملك كريستيان الثاني، واخيرا بدافع من المصلحة، اذ سيكون بامكانه الاستيلاء على املاك الكنيسة وتسديد ديونه التي استحق عليه ابان الثورة.

شجع جوستاف الوعاظ اللوثريين بكل قوة، وعيّن واحدا منهم رئيس اساقفة ابسال Upsal. ووجد العون والمساندة الكبيرة في شخص سكرتير الوزارة (Chancelier) لورانس اندري Laurentius Andreae، الذي ترجم الكتاب

المقدس الى اللغة السويدية، وهو الذي اعلن الاستيلاء على املاك الكنيسة بعد ان اتهم الاكليروس بالتقتير، وعدم مساعدة الكنيسة للدولة بالرغم من موارده الكبيرة. ووافق الاشراف على ذلك اذ تقاسم مع الملك هذه الاملاك.

واخيرا أُعلنت الكنيسة اللوثرية الكنيسة الرسمية للدولة. وحافظت هذه الكنيسة على الهيئة الاسقفية، وعلى الكثير من العادات والعبادات كي لا تبعد الشعب الذي كان متعلقا بها.

حاول الملك اريك الرابع عشر، الذي خلف والده عام 1560، تحويل الكنيسة الى الكالفينية، الا ان اللوثرية التي كانت قد توطنت وقويت، استطاعت مقاومة الملك وخلعه عن العرش في عام 1568.

اما اخوه الملك جون الثالث (1568-1592)، فقد حاول اعادة الكاثوليكية الى البلاد بمساعدة زوجته الكاثوليكية، كاترين، اخت ملك بولندة، ومساندة المبعوث البابوي اليسوعي انطون بوسيفان Antoine Possevin. الا ان اخاه شارل الذي كان يطمع في العرش والامراء اللوثريين، اجبروه على التمسك بالشروط الاثنى عشر التي وضعها لاعادة العلاقات مع روما. وكان البابا غريغوريوس الثالث عشر، قد رفض هذه الشروط، اذ كانت تنص على استعمال اللغة المحلية في الليتورجية، والمناولة تحت الشكلين للعلمانيين، والسماح بزواج الكهنة. فغادر المبعوث البابوي البلاد عائدا الى روما في عام 1579، ولم يكمل الملك مشاريعه في اعادة الكاثوليكية.

خلف جون الثالث ابنه سيجموند Sigismond، الذي كان في ذلك الوقت قد اصبح ملك بولندة، وكان كاثوليكيا. اغتنم عمه شارل فرصة فراغ العرش، لتقوية اللوثرية، وعندما جاء سيجموند لتسلم العرش، وجد معارضة كبيرة من قِبَل اللوثريين، حتى استطاعوا ان يسقطوه عن العرش، بحجة انه هرطوقي، لانه انكر دين الدولة أي اللوثري، وعينوا مكانه عمه شارل الذي ملك من عام 1604 وحتى 1611، باسم شارل التاسع. وفي عهده وعهد ابنه جوستاف-رودلف (1611-1632)، انتصرت اللوثرية وعمت جميع بلاد السويد.

ب) الاصلاح في شرق ووسط اوروبا

1) بروسيا Prusse

دخل الاصلاح بروسيا على يد البرت براندبورغ Albert de Brandebourg، الرئيس الاعلى لجمعية التتونيك Ordre Teutonique، الذي على اثر لقاءه مع لوثر، علّمن املاك جمعيته، وحولها الى دوقية وراثية Duché de Prusse، تحت حماية بولندة (1525). وتزوج في عام 1526 من الاميرة دورتيه Dorothée الدانمركية اللوثرية. وجاء بالوعاظ اللوثريين، ووكل اليهم تنظيم الكنيسة. فحُطمت الصور والتماثيل، ومنع الحج، وحلت الليتورجية اللوثرية باللغة البولندية، محل الليتورجية القديمة. وفرض عام 1530 "اعتراف ايمان اوسبورغ" وفتح جامعة Koenigsberg، وعهد بادارتها الى سابينوس Sabinus سلف ملانكتون. وحرم الاكليروس الذي عارض هذه الاصلاحات من مناصبهم ومدخولهم، وطردهم من منازلهم. وعند موته عام 1568، كانت اللوثرية قد تأصلت في معظم البلاد.

2) بولندة

وجد الاصلاح في بولندة ارضا مهيأة بسبب الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية. وكانت الظروف السياسية من اكبر العوامل التي ساهمت في انجاح التجديدات. فإلى جانب اقطاعية جشعة تبحث دائما عن توسيع سلطتها، كان الملك عاجزا عن فرض ارادته سواء في المجال الديني او المدني. وكانت طبقة الاشراف تصبو دائما الى ان تلعب دورا رئيسيا في الحياة السياسية، بينما كانت البرجوازية المؤلفة، بنسبة كبيرة من العناصر الالمانية المهاجرة، تتنافس مع الكنيسة حول ضريبة العشور وامتداد السلطة الكنسية. فكان الكل مهيأ لاستقبال عقيدة تسمح له بمحاربة حقوق الكنيسة، وبالتالي التحرر من اعبائها، فوجودا هذه العقيدة في الاصلاح.

تسلل الاصلاح الديني الى بولندة من المانيا وسويسرا، بواسطة الكثير من الهراطقة المهاجرين، الذين التجأوا اليها هربا من الاضطهاد في بلادهم، وبواسطة الجامعات ايضا، وخصوصا الالمانية، حيث ذهب الكثير من ابناء الطبقات العليا للدراسة.

بجانب هذه الظروف السياسية والاجتماعية، ساهم عنصر آخر لا يقل اهمية عنها في اعداد البلاد لقبول الافكار الاصلاحية، الا وهي النزعة الانسانية. اهتم الاساقفة في بولندة في ذلك الوقت، بحماية ونشر الفنون والعلوم، اكثر منه من الاهتمام في الحياة الروحية لرعاياهم. ونادرا ما كانوا يقيمون في ابرشياتهم، بل كانوا يقضون معظم وقتهم من البلاط، يعيشون حياة دنيوية، ويتهافتون وراء المناصب العليا.

حاول الملك سيجموند الاول (1506-1548). وكان كاثوليكيا صالحا ان يقاوم بقدر المستطاع تقدم اللوثرية في ولاياته، الا ان الحرية الدينية، التي ضمنها التاج البولندي للكاثوليك، عودت الامة على التسامح الديني، وما كان يتمتع به ايضا اللوردات الاقطاعيون من شبه سيادة، والذين اسبغوا الحماية على الحركات الاصلاحية المحلية، ساهموا في تقدم وتغلغل الاصلاح في بولندة.

توطنت الافكار الاصلاحية بالخصوص ما بين سنة 1525 و 1530، واخذ الاشراف، بالتعاون مع الوعاظ، بتجريد الاسقفيات والاديرة من ممتلكاتها. وكان الاساقفة الذين يعينهم الملوك رجالا مثقفين محبين لوطنهم، من انصار الاصلاح ولكن من داخل الكنيسة وليس ضدها، قد اظهروا في اول الامر، قبولا وتسامحا نحو المصلحين، لكن عندما وجدوا انفسهم مهددين باملاكهم وامتيازاتهم، قرروا مقاومة التجديدات، بدافع من المصلحة اكثر منه بدافع اقتناعهم الشخصي.

وزادت حدة المقاومة في عهد الملك سيجموند الثاني اوغست (1548-1572). وكان هذا الملك قد تربى بميوعة من قِبَل والدته الملكة بونا سفورزا، في وسط بلاط ملكي غُلِبَ عليه روح اللهو والفساد، حيث كَثُر فيه الانسانيون مؤيدوا الاصلاح. وفي عصر هذا الملك انتشرت اللوثرية والكالفينية على السواء بسرعة، وترجم الكتاب المقدس الى اللغة البولندية، وبدأت اللغة الدارجة تحل محل اللغة اللاتينية في الشعائر الدينية. واعلن بعض الكهنة المبرزون مثل جان لاسكي، ابن اخ الاسقف لاسكي الذي قاوم بشدة الاصلاح، انضمامهم الى البروتستانتية، وكثفوا من دعايتهم واحرزوا تقدما ملحوظا. وفي عام 1547، انتقل الاخوة البوهيميون من بلادهم الى بولندة، وسرعان ما كانت هناك ثلاثون جمعية سرية من طائفتهم في البلاد. وصوّت المجلس النيابي الوطني في عام 1555، واقر صفة الشرعية على زواج الكهنة، والمناولة تحت الشكلين. ووصل الاصلاح الديني في بولندة الى اوج ازدهاره.

كان لتشعب الفرق الاصلاحية واختلافها من لوثرية وكلفينية واخوة بوهيميون وغيرهم، نزاعها مع بعضها البعض، السبب في تخفيض قوتها.

وقفت الكنيسة الكاثوليكية هذه المرة بحزم، وحاربت هذه التطورات بقوة، ووجدت دعما في شخص الاسقف ستانسلاوس هوزيوس (Stanislas Hoziuzs (Housius، الذي اصبح كاردينالا فيما بعد، واحد ممثلي البابا في مجمع ترانت، اذ كان مثقفا وشجاعا وعمل جاهدا من اجل الاصلاح الكنسي الكاثوليكي. ولم يكتف بمحاربة الهراطقة، وانما عمل على احضار اليسوعيين الى بولندة، وعهد اليهم بادارة الكليات التي اسسها في عدة اماكن من البلاد.

فَهِمَ المنشقون انهم لن يستطيعوا المقاومة ما داموا منقسمين، وحاولوا ايجاد ارضية مشتركة توحدهم، فعقدوا مجمعا عاما عام 1570 في سندومير Sandomir، وتوصلوا الى الاتفاق حول صيغة ايمان مبهمة. وجاءت معاهدة "السلام الديني الفرسوفي La paix religieuse de Varsovie" عام 1573، لتمنحهم حرية العبادة ونفس حقوق الكاثوليك المدنية.

وبعد حكم قصير لهنري دي فالو Henri de Valois، الذي عاد الى فرنسا ليحكمها باسم هنري الثالث، اعتلى عرش بولندة هنري باتوري Henri Bathoury (1576-1586)، وكان مخلصا للكاثوليكية، فحمى اليسوعيين، وسلم اليهم هو ايضا ادارة الكليات التي أنشأها في بولندة وغيرها من الولايات التابعة لها.

وعندما اعتلى الملك سيجموند الثالث العرش (1587-1632)، وكان هذا قد تعلم وتربى في السويد على يد اليسوعي الشهير Varsewichi، اكمل اعادة الكاثوليكية الى بولندة. وعلى كل حال، فان البروتستانتية، مع انها مرت في مرحلة من الانتصار، الا انها لم تتأصل في بولندة. فالاشراف الذين رأوا في الاصلاح مجرد وسيلة للاستيلاء على املاك الكنيسة، والتقليل من امتيازاتها، والخلاص من ضرائبها، استكفوا بما احرزوه في هذا المضمار، ولم يهتموا كثيرا بالامور العقائدية، وحافظ معظمهم على الايمان الكاثوليكي التقليدي. كما ان اليسوعيين المدربين المخلصين، ضمنوا مناصب استراتيجية في النظام التعليمي، واستمالوا اليهم الشخصيات البارزة في المجتمع البولندي، واعادوا الشعب الى حضن الكنيسة الكاثوليكية.

3) هنغاريا

عرفت هنغاريا الاصلاح الديني عن طريق المهاجرين الالمان، والطلاب الذين ترددوا على الجامعات الالمانية، وبواسطة التجار المجريين الذين تعاملوا مع التجار الالمان.

تطلع الفلاحون المجريون الذين ظلمهم الاقطاع الذي تساعده الكنيسة لبروتستانتية يمكن ان تضع حدا لضرائب العشور والمكوس التي تجبيها الكنيسة. وتطلع البارونات الاقطاعيون بعيون جشعة الى املاك الكنيسة الشاسعة، التي كانت منتوجاتها تنافس منتوجات اراضيهم. ورأى عمال المدن، الذين اصيبوا بعدوى مبادىء "المدينة الفاضلة"، ان الكنيسة هي العقبة الكبرى التي تقف في طريق احلالها. فانتشرت البروتستانتية بلا قيود في شرقي هنغاريا في ظل حكم تركي ينظر باحتقار وبلا مبالاة الى الاختلاف بين المذاهب المسيحية.

ساعدت الظروف السياسية ايضا انتشار اللوثرية. فقد انقسمت البلاد الى حزبين. انتخب الحزب الاول ملكا، فرديناند دي هابسبورج، ليؤمن دعم الامبراطور الالماني في مقاومة الاحتلال التركي، واختار الحزب الثاني، الذي رفض ان يكون المانيا ملكا عليهم، احد ابناء البلاد، جون زابوليا Jean Zapolya. وكان الملكان كاثوليكيين، ولكن خوفا من ان ينضم الهراطقة الى اعداءهما، هادنوهم. فاغتنم الوعاظ هذه الهدنة لنشر افكارهم وتعاليمهم. ووجدوا في الاقطاعيين عونا كبيرا، اذ استغل هؤلاء الديانة الجديدة للاستيلاء على املاك الكنيسة فطردوا الكهنة الكاثوليك من مناصبهم، ووضعوا مكانهم الوعاظ الهراطقة.

استطاع الهراطقة تأسيس كنيسة مجرية مؤلفة من الالمان ومن المجريين (Magyars)، التي تبنّت اعتراف ايمان اوغسبورغ. وما ان حل عام 1550 حتى بدا ان هنغاريا باسرها سوف تصبح بروتستانتية. الا ان الكالفينية بدأت تنافس اللوثرية، بواسطة أحد مبشريها المشهورين، مليوس Melius، الذي استطاع ان يكسب الى الكالفينية معظم الشعب. فقد أيد المجريونِ، وهم بفطرتهم مناهضون للالمان، النمط السويسري من الاصلاح، وما ان جاء عام 1558، حتى كان الكالفينيون من الكثرة الى حد انهم استطاعوا عقد مجمع مقدس في زنجر، كان له الاثر الكبير.

بدأت المقاومة الكاثوليكية بمجيء اليسوعيين الى Tryrnau (1561). وازدادت ابتدأ من القرن السابع عشر، على عهد الملك فرديناند الثاني (+1637)، واثنين من المرتدين عن البروتستانتية: استرهازي Esterhazy، والكاردينال باراماني Pazamani. ولد الاول في عائلة اميرية لوثرية، فارتد الى الكاثوليكية، وعمل على اعادتها الى املاكه الواسعة، وحثَّ الاسياد الآخرين على التمثل به وطرد الوعاظ الهراطقة من أراضيهم. اما بيير بازاماني، فبعد ان ارتد عن الكالفينية، انضم الى الجمعية اليسوعية، واصبح رئيس الاساقفة الاول في المملكة (1606)، ومن ثم كردينالا (1627). وعندما توفى عام 1637، كان قد اعاد الى حضن الكنيسة الكاثوليكية عائلات كثيرة من الاشراف ومن الشعب، بواسطة المدارس والمعاهد الاكليريكية التي أنشأها، وبواسطة مواعظه وكتاباته.

4) البلاد الواطئة Les Pays-Bas

كانت البلاد الواطئة تتألف من سبعة عشر مقاطعة، سبعة منها في الشمال – وهي هولندا حاليا –، غلب عليها الطابع البحري، فاشتهرت بصيد السمك والحيتان، وكانت جغرافيا اقرب الى المانيا، وتتكلم اللغة واللهجات الالمانية. وعشرة مقاطعات في الجنوب – هي بلجيكا اليوم –، تميزت بالتجارة والصناعة، وكانت جغرافيا أقرب الى فرنسا وتتكلم اللغة الفرنسية. الا ان الشمال الفقير او الجنوب الغني، اتفقا في تعلقهما بتقاليدهما وعاداتهما وامتيازاتهما واستقلالهما. فكانت كل مقاطعة مستقلة بذاتها تحكم ذاتها بواسطة حاكم، يوحد بينها "مجلس المقاطعات".

وجد الاصلاح في البلاد الواطئة ما وجده من الاسباب السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية، التي ساهمت في دخوله الى سائر البلاد الاوروبية الاخرى. وكانت النهضة والنزعة الانسانية في اوجهها، اذ ان هولندا هي موطن ارازموس اشهر الانسانيين واكبرهم.

من الناحية الدينية: كانت كنيسة البلاد الواطئة تتألم من نفس المساوىء التي تعرضت لها الكنائس في البلاد الاخرى: اكليروس غير مثقف، بدون غيرة، يقضي وقته في البطالة والملذات. لم يكن في المقاطعات السبعة عشر الا اربعة اساقفة، اهتموا بمصالحهم الزمنية اكثر منه بخلاص النفوس.

من الناحية الاجتماعية والسياسية: كان شعب البلاد الواطئة متعلقا باستقلاله، يخضع مكرها لسلطة اجنبية. زد على ذلك ان سكان الشمال الفقير وسكان الجنوب الغني، وخصوصا طبقة الاشراف، اعتادت على عيش البذخ واللهو، فجعلهم ذلك في حالة ديّن دائم، وكانت تتحين الفرص للاستيلاء على املاك الكنيسة لسد ديونها. كما وكانت في حالة استنفار دائم للتخلص من الحكم الاسباني.

دخل الاصلاح الى البلاد الواطئة بانواعه الثلاث. فدخلت اولا اللوثرية، واصبح دير الاوغسطينيين في انفير Anvers، مركزها الاول، ومنه انتشر الى المقاطعات الاخرى، وان كانت اللوثرية انتشرت في البلاد الواطئة الا انها لم تتأصل فيها

بعمق. ثم جاء اللامعمدنيون Anabaptistes المهاجرين من المانيا، وكسبوا اتباعا كثيرين في مقاطعات الشمال. وجاءت الكالفينية متأخرة من جينيف، عن طريق الحدود الفرنسية، وانتشرت في المقاطعات القريبة منها. ومن ثم وبفضل التجارة استطاعت ان تكسب كل الساحل، وحلت في كثير من الاماكن محل اللوثرية.

مقاومة الهرطقة:

شارل الخامس: رأى شارل الخامس في انتشار البروتستنتية في البلاد الواطئة خطرا على الوحدة والسلام الوطني، وخشى ان تؤدي البروتستانتية في البلاد الى تعريض حزبه للخطر في نزاعه مع فرنسا والمانيا. فأيد الكنيسة في مقاومة الهرطقة. فاستقدم محكمة التفتيش، وخول موظفيها سلطة سحق الحركة وكل الهرطقات الاخرى. وحكم على اثنين من الاغسطينيين بالحرق. ثم اخذ بين عامي 1521 و1555، يصدر مجموعة من القرارات عرفت باسم "الملصقات Placard"، حرم فيها طباعة او كتابة او نسخ او شراء او بيع أي كتاب من تأليف لوثر وزوينجلي وبوسر وكلفن وغيرهم، او تحطيم الصور والتماثيل ومنع الاجتماعات السرية... وأعلن حكم الموت ليس فقط على الهراطقة بل ايضا على كل من يعرف عنهم ولا يبلغ السلطات. لاقت هذه الملصقات عدم القبول من الكاثوليك او من البروتستنت، لذلك بقيت بدون تنفيذ بكل حذافيرها. وطال العقاب خصوصا اللامعمدنيين، حيث من بين 871 ضحية، 717 كانوا منهم.

فيليب الثاني: تنازل شارل الخامس في عام 1555 عن عرش اسبانيا لصالح ابنه فيليب الثاني. وكان هذا كاثوليكيا صميما، الا انه كان مترفعا وجامدا وصارما. ففكر انه يستطيع بالقوة ان يكسر شوكة الهراطقة. وادت سياسة الملك الى تركيز السلطة في يديه، والاستغلال المالي للبلاد لصالح اسبانيا، وتجنب اهالي البلاد في اعطاء الوظائف والمناصب الرسمية، اثارت مشاعر العداء لدى اهل البلاد الواطئة وادت الى اثارة الفتن والتمرد. واقترنت الحركة البروتستانتية هناك بحركات التحرر الوطني، خصوصا عندما ارسل فيليب الثاني الجيوش الاسبانية لتحل مكان الشرطة المحلية الوطنية، لتحافظ على النظام.

وتزعم الثورة وليم اوف اورنج Guillaume de Nassau, prince of Orange، الملقب "بالصامت"، بسبب فطنته وروح التفكير الذي تحلى بها، زيادة على نُبل اخلاقه وعقله الواسع وقلبه الرحيم.

ذهب وفد الى مدريد ليطلب من الملك تخفيف اجراءات "الملصقات". فاستدعى فيليب جيوشه من البلاد الواطئة، علامة للمصالحة. الا ان البروتستنت اعتقدوا انها نقطة ضعف، فاستمروا في الانتشار وفي اثارة الفتن. فقرر فيليب ان يأخذ المبادرة وينهي التمرد بعملية قمع صارمة.

امام عملية القمع هذه، اجتمع عام 1565 عشرون نبيلا في قصر بردا Breda، التابع للامير وليم اوف اورنج، واسسوا حلفا عُرف باسم "حلف بردا La Ligue de Breda". وارسلوا عام 1566، الى بروكسل، وفدا من أربعمائة من النبلاء ليقدموا عريضة الى نائبة الملك، مارغريت، طالبين الغاء الاجراءات، والا سيتخدمون وسائل لذلك وتتحمل الحكومة مسؤوليتها.

رفض الملك طلب النبلاء، الا ان الملكة مارغريت أبعدت مستشارها الكردينال غرانفيل Granvelle، أملا في تهدئة الاوضاع. فثارت عدة فتن في عدة مدن ضد الكاثوليك. وقام وعاظ جاؤوا من جينيف، باثارة الجموع، فهجم الشعب على الكنائس، فمزقوا الصور، وحطموا التماثيل، وحرقوا كتب الصلاة، ودنسوا الاواني المقدسة، واسأوا معاملة الكهنة والرهبان والراهبات. الا ان الحكومة استطاعت ان تحطم الثورة. وانسحب وليم اوف اورنج الى المانيا.

كان ممكنا ان تستتب الامور في البلاد، لولا ان فيليب الثاني، الذي شعر بالاهانة، لم يرسل اليها احد اقوى قواده وأعنفهم، الدوق دالبا Duc d'Albe، مع فرقة جيش كبيرة، وتعليمات باستعمال القسوة. فاستقالت نائبة الملك مارغريت استنكارا، واصدر المجلس الحاكم عدة احكام بالاعدام، وفُرضت الضرائب الباهظة، مما ادى الى تراجع التجارة والصناعة، والى زيادة الفتن والتمرد. وعاد وليم اوف اورنج لتزعم حركة المقاومة، واضطر الملك الى استدعاء دوق دالبا.

واعلن وليم اوف اورنج انضمامه الرسمي الى الكالفينية عام 1573، وانضمت اليه مقاطعات هولندا وزيلندا، وتم فيهما منع الديانة الكاثوليكية كديانة وثنية. واعلنت المقاطعات السبعة التي انضمت الى البروتستنتية، تأليف اتحاد فيدرالي جمهوري. واصبح وليم اوف اورنج اول حاكم لهذا الاتحاد. اما المقاطعات الجنوبية – بلجيكا حاليا – فقد استطاع الجنرال فرنزى Alexander Farnèse ابن مارغريت ان يحفظها في حضن الكنيسة الكاثوليكية.

5) الاصلاح في سكوتلندا

دخل الاصلاح مبكرا في سكوتلندا، كما يشهد على ذلك احد قرارات البرلمان سنة 1525، الذي منع فيه، ادخال وتداول كتابات لوثر في المملكة. وكان التجار وطلاب الجامعات الالمانية قد ادخلوا الكثير منها.

قمع الملك جيمس الخامس (1527-1527) الهرطقة بحزم بمساندة رئيس اساقفة سانت اندروز، جان بيتون، ومن بعده ابن اخيه دافيد بيتون. فلم تحرز الهرطقة الكثير من الاتباع. الا ان النبلاء والاشراف، كانوا ينظرون بحسد الى انكلترا التي استطاعت ان تنفصل عن البابوية، وانتزعوا املاك الكنيسة. وعندما شن جيمس الخامس الحرب على انكلترا، رفض النبلاء ان يؤيدوه. فهُزم وهرب الى فولكلاند، ومات هناك في 14 كانون اول عام 1542، وكانت زوجته قد انجبت من ثمانية ايام من الشهر نفس، ابنة، ماري ستيوارت، التي اصبحت ملكة وعمرها ستة ايام.

وابرز دافيد بيتون وصية من الملك عينه فيها وصيا على الملكة الرضيعة، تشكك النبلاء في صحة الوثيقة، وسجنوا الكردينال، واختاروا جيمس هاملتون، ايرل اوف اران Erel of Arran، وصيا على العرض. فاطلق هذا سراح بيتون وعينه رئيسا للوزراء.

كان هاملتون ميالا للافكار الاصلاحية. فرفع البروتستنت في عهده رأسهم، وبدأوا يبشرون بتعاليمهم بلا خوف. ولما حكم بيتون على احد الوعاظ جورج ويشارات (1546) وأُحرق، دبروا له مؤامرة وقتلوه. وكان زعيم المؤامرة تلميذا لويشارت، اسمه جون نوكس.

جون نوكس 1505-1574

ولد نوكس بين عامي 1501 و 1515، قرب هندنجتون. نذره والداه الفلاحان ليكون كاهنا، ودرس في جلاسجو ورسم كاهنا حوالي عام 1532، واصبح معروفا بتضلعه في القانون المدني والقانون الكنسي على السواء. ولا تقول سيرته الذاتية "تاريخ اصلاح الدين داخل مملكة اسكتلندا" شيئا عن شبابه، ولكنها تقدمه فجأة (1546) بوصفه مؤيدا متحمسا لجورج ويشارات وحارسا شجاعا له. واخذ نوكس يتجول من مخبأ الى آخر بعد القبض على ويشارت، ثم انضم في عيد الفصح عام 1547 الى المؤامرة التي قتلت الكاردينال بيتون.

التجأ المتأمرون بعد مقتل الكردينال، الى قلعة سانت اندروز. وفي تموز ابحر اسطول فرنسي وقذف القلعة بالقنابل. وقاوم المحاصرون اربعة اسابيع، واخيرا غُلبوا على امرهم، وقُبض على نوكس وآخرين، وعملوا عبيدا في السفن الفرنسية تسعة اشهر. وعندما اطلق سراح الاسرى سنة 1549، ذهب نوكس الى انكلترا، واستقبله كرانمر، وحاول جعله اسقفا، الا انه رفض، فعينه واعظا للملك ادوارد السادس.

ولما ارتقت الملكة ماري تيودور العرش، خاف نوكس، فترك انكلترا، وذهب اولا الى فرانكفورت، للاهتمام بجماعة تتحدث الانكليزية، ولكن مبادئه وملامحه كانت قاسية جدا بالنسبة لمستميعه، فطلبوا منه ان يرحل. فذهب الى جينيف، حيث اصبح تلميذا وصديقا لكالفن. وفي جينيف ترجم الكتاب المقدس الى اللغة الاسكتلندية، وكتب كتابه المشهور "كتيبة النساء المروعة The Monstrous regiment of women"، الذي كتبه ضد الملكة ماري تيودور، ملكة انكلترا، وماري دي لوري وصية عرش سكوتلندا.

واصل نوكس مراسلته مع اتباع الكالفينية في سكوتلندا، الذين كانوا يكسبون التأييد والاتباع يوما بعد يوم، وخصوصا بين طبقة الاشراف. اظهر النبلاء والاشراف قبولا اكبر لدخول الاصلاح، لتطلعهم في الاستيلاء على املاك الكنيسة، وتسلم بعض سلطات الاسرة الحاكمة، مغتنمين فرصة ضعف حكم الوصية ماري دي لورين، والى ضعف الاكليروس، الذي اصبح مكروها لانحطاطه وسوء اخلاقه وحبه للمال. وفي الثالث من كانون اول عام 1557، اجتمعت في ادنبرة مجموعة من النبلاء ووقعوا اول "ميثاق اسكتلندي"، واطلقوا على انفسهم اسم "جماعة المصلين ليسوع" لتعارض "جماعة المصلين للشيطان" أي الكنيسة الكاثوليكية. وتعهدوا بالمحافظة على "كلمة الله المباركة اكثر من أي شيء"، ودعوا الى "اصلاح في الدين والحكومة"، وطلبوا من الوصية على العرش الحرية، التي تبيح لهم ان يمارسوا امور الدين والضمير كما ينبغي استجابة لامر الله. وصمموا على إنشاء كنائس تأخذ باسباب الاصلاح، واعلنوا ان كتاب الصلاة العامة الذي كُتب لانكلترا يجب ان تعمل به كل جماعات المصلين. وارسلوا في ذلك الشهر رسالة الى نوكس طالبين منه العودة، واكدوا انهم يتكفلون بحمايته.

تمهل نوكس في العودة، ولكنه وصل الى ادنبره في اليوم الثاني من ايار سنة 1559، والقى في مدينة برث، خطابا عنيفا ضد "عبادة الاوثان" أي القداس الكاثوليكي، فاثار الجموع، التي هجمت بقيادة لوردات "جماعة المصلين

ليسوع"، على الكنائس والاديرة، فحطموا، وكسروا، ودنسوا، واجبروا الكهنة والرهبان والراهبات، تحت تهديد الموت، على انكار ايمانهم. وما هي الا يومان او ثلاثة، حتى كانت هذه الكنائس والاديرة، وخصوصا كاتدرائية سانت اندروز، قد دمرت ولم يبق منها قائما سوى الجدران.

فرض العقيدة الكالفينية

عندما حاولت ماري دي لورين ان تواجه المتمردين، استطاعوا بمساعدة جيوش الملكة اليزابيت، ملكة انكلترا، ان يهزموها، فانسحبت ماري الى قلعة ادنبرة، ماتت هناك في العاشر من حزيران سنة 1560. وفي شهر تموز، وقّع ممثلوا "جماعة المصلين ليسوع" والملكة ماري ستيوارت، وفرنسا وانكلترا "معاهدة ادنبرة"، التي من شروطها: خروج جميع الجيوش الغريبة من سكتلندا، وعدم مطالبة ماري ستيوارت بعرش انكلترا، وتم الاعتراف بماري ملكة لسكوتلندا.

وقَبِل المجلس النيابي، الذي اجتمع في الثاني من آب 1560، اعتراف ايمان اعده نوكس دُعي "باعتراف سكوتلندا Confessio Scotica"، وكانت بنوده كلها كالفينية خالصة. وفي الرابع والعشرين من شهر آب تم الغاء سلطة البابا، ومنع اقامة القداس تحت طائلة عقوبة مصادرة الاملاك، ومن يصر على ذلك يتعرض للنفي او الاعدام. وعُهِد الى نوكس بتنظيم الكنيسة الجديدة، فنشر في عام 1560، كتاب "في قواعد السلوك والانضباط The Book of Discipline"، حوى المبادىء الكالفينية، التي ادت الى تأسيس كنيسة مشيخية Presbytérienne في سكوتلندا، أي كنيسة بدون اساقفة، يتم فيها انتخاب الرعاة من قِبَل الشعب، ويؤلفون هؤلاء مع الشيوخ "المجمع Consistoire".

وعندما حضرت ماري ستيوارت الى سكوتلندا بعد موت زوجها فرانسوا الثاني، ملك فرنسا، كانت البروتستنتية قد توطنت فيها. وتأملت الكنيسة الكالفينية، التي هدمت كل ما يمت الى العبادة الكاثوليكية بصلة، ان تنضم الملكة الى عقيدتهم. الا ان ماري ستيوارت البالغة من العمر تسعة عشر عاما، الاسكتلندية الاصل، الكاثوليكية الصميمة، رفضت ذلك. ولكن كانت ضعيفة السلطة، عابثة، ولم ترى بُدا من الرضوخ وقبول الثورة الدينية التي احرازها نوكس، ولم تستطع الحفاظ على القداس الا في مصلاها الخاص. ولم تستطع ان تخضع النبلاء والاشراف بقيادة الاخ غير الشقيق كونت موري Murray، الذي كان يطمح الى العرش. فاضطرت الى الزواج من ابن عم لها، هنري دارنللي Henri Darnley، املا في مساعدتها، الا انه زاد في خطورة الوضع بفظاظته وعدم كفاءته، وخصوصا انه كان يطمح الى لقب الملك، فقام بتمرد ضد الملكة، اغتيل على اثره.

ارتكبت ماري غلطة فظيعة عندما تزوجت بعد ذلك الكونت بوتول Bothwell البروتستنتي، وكان من الذين اشتركوا في اغتيال زوجها. فثار عليها اللوردات، واتهموها بالاشتراك بالمؤامرة، وبالزنا. وطالب نوكس بحضورها امام المحاكمة، اجبرت اخيرا على التنحي عن العرش لصالح ابنها جيمس السادس، البالغ من العمر سنة واحدة. وعين موري وصيا على العرش. وهربت ماري ستيوارت الى انكلترا املا بالحصول على الدعم من ابنة عمها الملكة اليزابيت، الا انها لم تلق سوى ثماني عشرة سنة من الاعتقال، انتهى بها الى المقصلة في الثامن من شباط عام 1587.

ادى سقوط ماري ستيوارت الى انتصار الاصلاح النهائي في سكوتلندا. فاعلن البرلمان البروتستنتية "دين الدولة"، واصبح واجبا على كل ملك، عند ارتقائه العرش، ان يقسم على قبول اعتراف الايمان الكالفيني. وتبنت كنيسة سكوتلندا النظام المشيخي الديمقراطي، حيث يتم انتخاب الرعاة والشيوخ من قِبَل الشعب. وتعرض الكاثوليك القلائل الذين بقوا في البلاد الى الاضطهاد، على مدى الوصايات المتتالية على العرش: موري، ونوكس ومورتون (1568-1578). وخف قليلا عندما اصبح جيمس السادس، ملكا ايضا على انكلترا (1603)، وحاول دون نجاح احلال الانجليكانية مكان الكالفينية. وبالرغم من كل هذه المحاولات التي قامت بها عائلة ستيوارت، الا ان المشيخية بقيت صفة الكنيسة الاسكتلندية. وعندما ارتبطت اسكتلندا بانكلترا، ومنذ عام 1707، بحلف المملكة المتحدة (Acte d'Union)، نص الاتفاق على ان تحافظ كنيسة اسكتلندا على نظام الكنيسة المشيخية.

لم تختف الكاثوليكية من سكوتلندا، ولكن أخذ اتباعها ينقصون يوما بعد يوم. ثم عاد يزداد بشكل ملحوظ ابتداء من القرن الثامن عشر.

6) الاصلاح في ايرلندا

ساهمت الانقسامات الداخلية بين القبائل الايرلندية في القرون الوسطى، على عهد الملك هنري الثاني (1154-1189) في فرض الهيمنة الانكليزية على جزء كبير من ايرلندا. واعطى ادخال الاصلاح اليها الفرصة السانحة لانكلترا

لاحتلال ايرلندا كاملا. وبذلك وعلى مدى قرنين ونصف، امتزج الصراع الديني مع الصراع السياسي، في خلق تاريخ ايرلندا حتى اليوم.

بدأ ظهور الاصلاح في ايرلندا عندما انفصل هنري الثامن عن روما، وحصل من البرلمان الايرلندي الذي كان اغلبية اعضاءه من المستوطنين الانكليز، اعترافا منهم برئاسته للكنيسة الايرلندية (1536). ولكن عندما اراد فرض اداء حلف اليمين على هذا الاعتراف، رفض اكثرية الاساقفة والشعب، وعارضت بشدة وبحزم، وظلوا امناء على ايمانهم الكاثوليكي التقليدي. فبدأت مجموعة من الاجراءات القمعية. ففرض ان تدفع العشور الكنسية الى الملك، واستولى على املاك الكنيسة، ودخل المصلحون الدينيون الكنائس في منطقة النفوذ الانكليزي، وحطموا الصور والتماثيل، واغلقت الاديرة جميعها، واستولت الحكومة على املاكها، وطُرد الرهبان.

استمرت هذه الاجراءات في عهد ادوارد السادس، وهدأت قليلا زمن الملكة الكاثوليكية ماري تيودور، الا انها زادت قسوة زمن الملكة اليزابيت، التي حلمت باحتلال كل ايرلندا، واحلال البروتستنتية فيها. وبدأت بذلك بالقوة العسكرية، وبقدر ما كانت جيوشها تتوغل في البلاد، كانت تدخل الانجليكانية معها. فاغلقت الاديرة، وتوقفت كل الصلوات الكاثوليكية، وطردت واعدمت الاساقفة والكهنة، واحلت محلهم القساوسة الانجليكان، وملّكتهم ممتلكات الكنيسة. وعندما اتضح لها ان كل هذه الوسائل لم تنجح، قامت بعملية هدم كامل للمجتمع الايرلندي، لم يرى التاريخ له مثيلا من قبل. فحرمت الامة الايرلندية من حقوقها، وحولت الشعب كله الى عبيد، وحرمته من ممتلكاته، وصادرت اراضيه.

وعندما ثار الايرلنديون، صادر البرلمان بقوة القانون عام 1557 كل اراضي المتمردين المنهزمين ومنح ثلثيها الى المستوطنين الجدد من الانكليز. وكان ذلك بمثابة تطبيق سياسة الاستعمار التي تسببت في تقسيم ايرلندا الى اليوم.

تأمل الايرلنديون ان تتحسن احوالهم في عصر الملك جيمس الاول، الذي كان ينحدر من اصل ايرلندي، الا ان املهم خاب، اذ قرر استعمار ايرلندا الشمالية بواسطة مستوطنين من البروتستانت، ومعظم هؤلاء كانوا من اتباع الكنيسة المشيخية. فاجبر الكهنة الكاثوليك على مغادرة البلاد تحت طائل عقوبة الموت، وفرض اداء يمين الولاء لرئاسة الملك الكنسية من جميع الايرلنديين، وفرض عليهم حضور طقوس العبادة الانجليكانية.

لم يجلب حكم شارل الاول (1625) أي تغيير، مع انه اكّد في بداية عهده على حق الايرلنديين في حرية العبادة واستعادة ممتلكاتهم. الا ان حاكم البلاد الانكليزي، اللورد سترافورد، لم يعر هذه العهود اهمية، فتم بين عامي 1625 و 1649 مصادرة مليونين ونصف ايكر من اراضي ايرلندا لصالح المستوطنين الانكليز.

بلغ سخط الايرلنديين ذروته عام 1641، فاعلنوا الحرب المقدسة على المحتل، وحملوا السلاح لنفض نير البرلمان ولطرد الانكليز من البلاد. استمرت الثورة احدى عشر سنة، انتهت بهزيمة الايرلنديين، خصوصا عندما استلم اوليفر كرومول، احد اشهر القادة العسكريين الانكليز، ادارة دفة المعارك. فاحتل كرومول الجزيرة وعاث فيها الدمار، وفرض عليها حكما مستبدا قاسيا، فباع حوالي عشرين الفا من الايرلنديين كعبيد الى امريكا، وطرد اغنى الملاكين الى جزيرة Connaught، وصادر املاكهم البالغة حوالي خمسة ملايين ايكر من الاراضي، ووزعت على الجنود الانكليز الذين شاركوا في المعارك. وجعل مكأفاة لكل من يفشي عن الكهنة والرهبان، وفرض عقوبة الاعدام بتهمة الخيانة العظمى لمن يأوي في بيته واحدا منهم.

لم تتحسن الامور عندما اعتلى العرش وليم الثالث اف اورانج Guillaume III of Orange (1688-1702)، فاستمرت مصادرة الاراضي، بدرجة انه في بداية القرن الثامن عشر، كان الايرلنديون قد سُلِبوا تقريبا من كل اراضيهم، ولم يعودوا يملكون الا جزءا بسيطا منها. ولم يحرموا فقط من حقوقهم الدينية، بل المدنية والسياسية ايضا. ولم يكتف – من الناحية الدينية– حرمانهم من العشور الكنسية، بل فُرض عليهم دفع ضريبة للقساوسة البروتستانت، ومُنعوا من امتلاك الكنائس، وسُمِح لهم بامتلاك امكان للصلاة بدون ابراج او اجراس. اما من الناحية المدنية والسياسية، فلم يعد بامكانهم ان يرثوا او يبتاعوا اراضي من شخص بروتستنتي، ولا حتى ان يستأجروها لمدة ثلاثين عاما. وفُرض على التجار الايرلنديين دفع غرامات اضافية. وحرموا من حق فتح المدارس، ومن تبوء أي مناصب حكومية، ولم يعد يحق لهم ان يكونوا قضاة او محامين او ضباط، ولا حتى اوصياء، ولا يستطيعوا ان يَنتَخِبوا او يُنتَخَبوا. فهاجر ما يقارب من 200 الف منهم الى امريكا الشمالية. وفي عام 1750، كانوا قد نجحوا في زرع المسيحية في امريكا وبالذات في المنطقة المحيطة بمدينة بتسبرج.

بقيت الحالة على هذا الوضع حتى عام 1778، بعد استقلال امريكا، عندما حصل الايرلنديون على حق الامتلاك وتبوء المناصب المدنية وفتح المدارس بأذن من الاسقف الانجليكاني.

اظهرت ايرلندا، وعلى مدى كل فترة الاضطهاد التي تعرضت لها، مثالا عظيما في الشجاعة والأمانة لايمانها. فاصبحت ارضا للارساليات، واعيد تبشيرها على يد كهنة تخرجوا من المعاهد الكهنوتية الايرلندية، التي فتحت في عدة اماكن من القارة الاوروبية، كباريس وليل وانفير وتورنيه ولشبونة وروما. ولم تحصل على استقلالها الا بعد صراع طويل. سيكون هذا موضوع دراسة في فصول لاحقة من تاريخ الكنيسة في العصر الحديث.

ج) الاصلاح في جنوب اوروبا

دخل الاصلاح جنوب اوروبا – أي ايطاليا واسبانيا – كما في سائر اوروبا. الا انه اتضح سريعا ان هذه البلاد لم تكن ارضا ملائمة ومستعدة لقبول الاصلاح. فبجانب ان التجديدات التي اتى بها الاصلاح لم ترق للشعب، فقد وجد الاصلاح، في السلطة المدنية والسلطة الدينية، خصوما اقوياء ومصميمين على الوقوف في وجهه. فقد سيطر البابا، صاحب النفوذ الاول في ايطاليا، من جهة، والامبراطور شارل الخامس، وفيليب الثاني، من جهة اخرى، وعلى مثالهما رؤساء دول أخرى، على الهرطقة وقضوا عليها.

1) ايطاليا

ما ان بدأت عملية ما يدعى بالاصلاح، حتى وجد له مؤيدين في المدن المهمة في ايطاليا، وخصوصا في المدن التي تحمست لافكار النهضة.

ميلانو والبندقية: ظهرت بعض كتابات لوثر في اكشاك الكتب في ميلانو في عام 1519، وفي البندقية عام 1520. واجترأ راهب في كاتدرائية القديس مرقس على التبشير بتعاليم لوثر. وكتب الكردينال كارافا الى البابا كليمنضوس السابع (1532) يقول ان الدين هبطت اسهمه في البندقية، وان القليلين جدا من اهل البندقية يراعون الاصوام او يقتربون من كرسي الاعتراف. وان كتب الهراطقة رائجة هناك. ووصف كليمنضوس نفسه البدعة اللوثرية انها واسعة الانتشار بين صفوف الكهنة والعلمانيين في ايطاليا. وفي عام 1535 زعم المصلحون الدينيون الالمان ان لهم ثلاثين الفا من الاتباع في موطن الكنيسة الكاثوليكية.

فرارا: كانت ارفع السيدات مقاما في فرارا بروتستنتية غيورة. فقد تشربت رينيه ابنة لويس الثاني عشر الافكار الجديدة من مارجريت النافارية من جهة، ومن مربيتها مدام سوبيز من جهة اخرى. وجهت محكمة التفتيش ب الاتهام الى رينيه واربعة وعشرين شخصا من بيتها. فأُدينت بالهرطقة وحكم عليها بالسجن المؤبد (1554). واعربت رينيه عن ندامها وارتدت الى الكاثوليكية ولكن اراءها الحقيقية استمرت واو صامتة.

مودينا: كذلك مرت مودينا بلحظة بروتستانتية مثيرة. وذلك ان اكاديمية العلماء والفلاسفة فيها سمحت بقسط كبير من حرية النقاش، واشتبه في هرطقة بعض رجالها. وكان راهب سابق ويدعى باولو ريتشي يندد بالبابوية صراحة في عظاته. وراح الناس يناقشون الافكار اللوثرية في الحوانيت والميادين والكنائس. وقُبض على ريتشي وآخرين. وبسط الكردينال سادوليتو حمايته على الاكاديميين بحجة انهم موالون للكنيسة وان من الواجب اطلاق حرية البحث لهم بوصفهم علماء. وقنع البابا بولس الثالث بتوقيعاتهم على الاعتراف بالايمان، ولكن حاكم الولاية فض الاكاديمية (1546)، واعدم لوثريا عنيدا في فرارا (1550). وفي عام 1567، احرق ثلاثة عشر رجلا وامرأة واحدة بتهمة الهرطقة في مودينا.

نابولي: ساهم سكرتير نائب الملك في نابولي، الاسباني جون فالديز Jean Valdez في ادخال الافكار اللوثرية الى نابولي. عينه البابا كليمنضوس السابع امينا في القصر البابوي حين كان في الثلاثين من عمره. الا انه رحل فيما بعد الى نابولي، وانقطع للتأليف والتدريس، وظل على ولائه للكنيسة، ولكنه مال الى عقيدة لوثر في التبرير بالايمان. ورأى في التصوف الصادق، قدرا يسمو فوق أي طقس خارجي من طقوس العبادة. والتف حوله جماعة من الرجال والنساء. وبعد ان مات جون فالديز (1541) تفرق تلاميذه في أرجاء اوروبا. وظل بعضهم وفيا للكنيسة وطور آخرون تعاليمه فبلغوا بها الهرطقة السافرة. وقُطعت رؤوس ثلاثة من صغار تلاميذه واحرقوا في نابولي عام 1564.

سيينا وبرنادينو اوكينو: عاش اوكينو في مدينة سيينا بقرب مسقط رأس القديسة كاترين السيانية، حياة تضارع حياتها تقوى وورعا. وانضم الى رهبان الفرنسيسكان ولكنه وجد نظامهم اكثر رخاوة مما لا يلائم مزاجه، فانتقل الى رهبنية الكبوشيين الاكثر صرامة. وقد تعجب الرهبان من نكرانه النسكي لذاته، واذلاله العنيف لجسده. ولما نصبوه رئيسا عاما عليهم أحسوا انهم اختاروا قديسا. وترددت مواعظه في أرجاء ايطاليا: في سيينا، وفلورنسا، والبندقية، ونابولي وروما، اذ لم

تسمع البلاد نظيرها حرارة وبلاغة منذ عهد سفونرولا قبل ذلك بقرن. وذهب الامبراطور شارل الخامس ليسمعه، وتأثرت فكتوريا كولونا به اعمق التأثير.

التقى اوكينو بفالدز في نابولي، وبفضله المَّ بؤلفات لوثر وكالفن. ووافقت عقيدة التبرير بالايمان روحه. فبدأ يلمح لها في عظاته. وفي عام 1542 دُعي للمثول اما السفير البابوي في البندقية ومُنع من الوعظ. وما لبث البابا بولس الثالث ان دعاه الى روما ليناقش معه الآراء الدينية لبعض الرهبان الكبوشيين. ولكنه خاف ذراع محكمة التفتيش الطويلة، فقرر قديس ومعبود ايطاليا، بعد ان التقى بيترو فرميلي في فلورنسا، ان يحذو حذوه ويعبر جبال الالب الى بلد بروتستنتي، فمضى اولا الى زوريخ ومنها الى جينيف. وقد ابدى استحسانه للنظام الذي كان كالفن يرسي اسسه هناك، ولما كانت لغته الالمانية اقوى من لغته الفرنسية، انتقل الى بازل ثم الى ستراسبورغ، محاولا كسب قوته بلسانه وقلمه. وفي عام 1547 دخل شارل الخامس اوسبورغ بعد ان سحق البروتستانت في مولبرج. ونمى اليه ان الراهب الكبوشي الذي سمعه في نابولي يعيش هناك متزوجا، فامر القضاة بالقبض عليه، ولكن اصدقاءه تستروا عليه وهرب الى زوريخ وبازل. ولما اوشك زاده على النفاذ، تلقى دعوة من رئيس الاساقفة كرانمر للذهاب الى انجلترا. وهناك عكف مدة ست سنوات على العمل بوصفه قسيسا فخريا يتقاضى راتبا تقاعديا في كنتربري، ولكنه عجل بالعودة الى سويسرا حين اعتلت ماري تيودور العرش. وحصل في زوريخ على وظيفة راع للكنيسة، ولكن الشعب استاء من آرائه التوحيدية، وطرد حين نشر حوارا بدا فيه المدافع عن تعدد الزوجات. ورفضت بازل الإذن له بالاقامة فيها. وسُمح له بالمكوث فترة وجيزة في نورمبرج، وما لبث ان غادرها مع اسرته قاصدا بولندا. كانت بولندا يومها بالقياس الى غيرها ملاذا للهراطقة. واشتغل بالوعظ في كركاو زمنا ولكنه طُرد حين نفى الملك جميع الاجانب غير الكاثوليك (1564). وفي الطريق من بولندا الى مورافيا قضى الطاعون على ثلاثة من ابنائه الاربعة. ولم يعش بعدهم سوى شهرين، ومات في شاكاو في كانون اول 1564. وكانت اخر كلماته تقريبا: لآ اريد ان اكون بولنجريا ولا كالفينيا ولا بابويا، بل مسيحيا فقط".

اما ان تتحول ايطاليا الى البروتستانتية فكان بالطبع ضربا من المحال. فقد كان عامة الشعب هناك رغم عدائهم للاكليروس، متعلقين بالدين وان لم يؤموا الكنائس. كانوا يحبون الاحتفالات والمراسيم التي قدسها مرور الزمن، ويحبون القديسين، ويحبون العقيدة التي ندر تشككهم فيها. واعان خضوع ايطاليا السياسي لاسبانيا المتمسكة بالدين على ابقاء شبهي الجزيرة كاثوليكيتين. وكانت ثروة البابوية ميراثا ايطاليا ومصلحة ايطالية راسخة، واي ايطالي يرى القضاء على هذه المنظمة الجابية للاموال كان يبدو في نظر معظم الايطاليين مجنونا. وقد اختلفت الطبقات العليا مع البابوية باعتبارها قوة سياسية تتسلط على وسط ايطاليا، ولكنها اعتزت بالكاثوليكية عونا لا غنى عنه للنظام الاجتماعي والحكومة الحافظة للسلام، وادركت ان عظمة الفن الايطالي مرتبطة بالكنيسة بفضل الهام عقائدها وقصصها ورواياتها ومعونة ذهبها.

2) اسبانيا

اتاح تولّي الامبراطور شارل الخامس الحكم على كل من اسبانيا والمانيا، خلق اواصر الاتصال بين هذين البلدين، وبالتالي الاطلاع على تعاليم الاصلاح. لذلك وُجِد بعض المؤيدين للاصلاح في اسبانيا.

ثلاث اسباب عملت على فشل الاصلاح في اسبانيا. **الاول**، هو ان الكنيسة الاسبانية، كانت ومنذ اواخر القرن الخامس، قد بدأت عملية اصلاح في داخل الكنيسة، بفضل الكردينال المشهور كزيمنز Ximenes (+1517)، الذي وقبل ان يصبح رئيس اساقفة طوليدو، عمل كرئيس اقليمي لجمعية الفرنسيسكان، على اصلاح الاديرة التابعة له، مما دفع الكثير من الجمعيات الاخرى على الاحتذاء به. عمل اللاهوتيون، وكانوا كُثر، بجد وحزم على محاربة كل انواع التجديدات. **السبب الثاني**، هو موقف السلطات المدنية الحازم امام كل المبتدعين. **والسبب الثالث**، السهر واليقظة والشدة التي اظهرتها محكمة التفتيش، حيث لاحقت بلا رحمة ولا هوادة كل من اثار شبهات بانتمائه الى الهرطقات مهما كان مركزه الاجتماعي.

الفصل الخمسون

الاصلاح الكاثوليكي

أ- الاصلاح قبل مجمع ترانت

يُعتَقَدْ عادة ان الاصلاح بدأ مع مجمع ترانت وأن الكنيسة قررت ان تعالج المساوىء التي كانت تعاني منها تحت ضغط انتشار البروتستنتية السريع، والذي كان يهدد ان يكتسح جميع انحاء اوروبا. ان هذا الاعتقاد خاطىء وناقص. فالحقيقة ان ناقوس الاصلاح دق ثلاثين عاما قبل مجمع ترانت وقبل وقت طويل من تعليق لوثر قضاياه على باب كاتدرائية وتنبرج.

وإن يكن مجمع ترانت يُعتبر نقطة الانطلاق الرسمية للاصلاح، الا انه قد سبقته حركة اصلاح عفوية، يعود الفضل فيها الى مبادرات فردية خاصة، كانت ايطاليا واسبانيا مركزها. ويمكن الاعتقاد ايضا ان المجمع لم يكن له ان يتحقق ولا ان يصل الى اهدافه لولا جحافل المصلحين من اساقفة امثال جيبرتي Giberti، ومجددي الرهبانيات القديمة امثال بول جوستنياني Paul Guistiniani، ومؤسيسي الرهبانيات الجديدة امثال القديس جيتاني Gaetani والقديس انطون ماريا زكريا Antoine-Maria Zaccaria، والقديس جيروم اميليا Jerome Emilia، واشهرهم القديس اغناطيوس دي لويولا Ignace de Loyola الذين مهدوا للمجمع طرق الاصلاح وساعدوه على اتمام مهمته بنجاح.

ان تكون الكنيسة في اصولها الهية لا يمنع كونها ايضا مؤسسة مؤلفة من عناصر بشرية، وبالتالي معرضة للسقوط والضعف، وهذه حقيقة واضحة اختبرنها وتحققنا منها من خلال دراستنا لتاريخ الكنيسة. ويبدو ان هذا ينبع من القانون التاريخي La Loi historique، الذي يقضي على ان الحقبات المجيدة تتبعها عادة حقبات من الانحطاط، حيث تظهر الكنيسة غير امينة لرسالتها وتشعر بالحاجة لان تصحح مسارها وان تقترب اكثر من مُثُلِها.

كانت حوادث الحقبة الاخيرة التي درسناها: الاسر البابلي (البابوات في افنيون) والانشقاق البابوي، وبابوات عصر النهضة، حقبة مؤلمة للكنيسة. كان اصحاب الضمائر الحية يرغبون برؤيتها تنتهي، مما ادى الى ان يكون الاصلاح دائما من اولوية المتطلبات. وقد رأينا ان الاصلاح كان واحدا من الاهداف الثلاث للمجمع اللتران الخامس (1513-

1517). وقد خُصصت الجلسة التاسعة، وهي احدى اهم جلسات هذا المجمع، بكاملها، لدراسة قضية الاصلاح. واصدر المجمع قرارات اصلاحية هامة تخص البابا والكرادلة والمجلس البابوي، وتدعو الى رفع مستوى الكهنوت وتثقيف المؤمنين الديني. الا انه للاسف بقي الكثير منها حبرا على ورق بسبب اهمال تطبيقها من قبل الكثير من المسؤولين المستفيدين من الوضع القائم.

الا ان هذا لم يمنع ظهور نخبة من الانفس المخلِصة التي استجابت بسخاء لنداء المجمع، ومن مثُلِهم السامية التي اعطوها للكنيسة، ستخرج الى حيز الوجود الحركة الاصلاحية الكاثوليكية.

تسمى هذه الحركة داخل الكنيسة والتي كانت تجري بمؤازة الاصلاح البروتستنتي نفسه عادة "الاصلاح المضاد Confre Réforme". لكن هناك من يجادلون ان هناك كلمات اكثر دقة لوصف هذه الحركة وهي "الانتعاش الكاثوليكي: او "التجديد الكاثوليكي"، لان رؤية هذه الحركة فقط مجرد رد فعل للبروتستنتية هو تقديمها بصورة ناقصة، كما يوضحها احد المؤرخين: "الاصلاح في جانبه الديني، والاصلاح المضاد له في نفس المجال، يمكن اعتبارهما بانصاف حصيلتين مختلفتين لنفس التلهف العام الى التجديد الديني الذي شمل اوروبا في اواخر القرن الخامس عشر واوائل القرن السادس عشر... بينما يمكن القول عن الاصلاح البروتستنتي انه كان يحتوي على عامل مساعد على سرعة ونوع الاصلاح الكاثوليكي وجديته، الامر الذي لم يكن ليتحقق لو حدث العكس. فقد كان الاصلاح المضاد اكثر تعقيدا من مجرد رد فعل للتحدي البروتستنتي"[1].

وعلى العكس مما جرى مع الاصلاح اللوثري والكلفيني الذي ادى الى ثورة وانقسام، وتدمير وزعزعة الكنيسة، ليس فقط في قوانينها ونظمها، بل ايضا في عقائدها ودساتيرها، سيعمل رواد الاصلاح الكاثوليكي من داخل الكنيسة ومع الكنيسة وبدعم من روؤساء الكنيسة، وبدلا من الاكتفاء بالتشهير بالمساوىء والمفاسد، سيقومون من خلال حياتهم المستقيمة الصالحة، ومن خلال اعمالهم الجليلة، باظهار الوجه الحقيقي للاصلاح، وسيسعون الى جرّ الاكليروس والشعب وراءهم.

الاصلاح من خلال تأسيس الرهبانيات

أ) الرهبانيات الجديدة

1) مُصلّي الحب الالهي L'Oratoire de l'Amour Divin (1517): بينما كان اعضاء البلاط البابوي مستمرين في عيش الحياة الدنيوية، مهتمين بمصالحهم المادية اكثر منها بالروحية. وبينما كان البابا ليون العاشر يعطي اهتمامه الاكبر للسياسة والفن والادب، تكونت جماعة من البلاط البابوي، عرفت باسم "جمعية المحبة الالهية "Compagnie "del Divin Amore" او "مصلى الحب الالهي L'Oratoire "del Divin Amore". كانت هذه الحركة عبارة عن رابطة غير رسمية جمعت ستين من ابرز رجال الكنيسة والعلمانيين الذين اهتموا بتعميق الحياة الروحية بالممارسات التقوية. وكان من مجهوداتها ايضا دعم اعمال الخير وجهود الاصلاح. وكان من اهم اعضاء هذه الجمعية: جيوفاني بيترو كارافا Giovanni Pietro Caraffa (1476-1559) والذي سيصبح البابا بولس الرابع، وجيتانو دا تيان Gaetano di Tiene (1480-1547) وبيتروا كونتاريني Pietro Contarini والذي سيصبح كاردينالا، وغيرهم. وكانت هذه المجموعة من رجال الكنيسة الذين كانوا على استعداد حقيقي لدعم أي حركة ستساهم في اصلاح حقيقي داخل ومع الكنيسة.

2) التياتين Les Théatins: كانت رابطة "المحبة الالهية" وخصوصا اثنان منهما: جيتانو دا تيان وجيوفاني بيترو كارافا، وراء تأسيس انظمة هذه الرهبانية الجديدة. وقد الزم هذا النظام الكهنة الذين لا يخدمون كنائس معينة ان يعيشوا معا في حياة جماعية محافظين على النذور الثلاث: الفقر والعفة والطاعة. ولكن هذا النظام ترك لهم الحرية لكي يخدموا الشعب على غرار كهنة الكنائس او الرعايا. وقد ادى الوعظ والتعليم والخدمة الاجتماعية التي قام بها هؤلاء الكهنة الى اعادة نوع من الاحترام والتقدير للكنيسة في ايطاليا. وانتشرت هذه الحركة سريعا في كل انحاء البلاد.

3) البرنابيت Les Barnabites: على مثال التياتين، اسس انطون-ماري زكريا في عام 1528، جمعية من الكهنة الرهبان "Clers réguliers". بدأ حياته طبيبا ثم كاهنا، وكرس حياته اولا لخدمة النفوس في كرمونا بلده، ثم انتقل

[1] H.O.Evebbet: *The Spirit of the Counter Reformation*, the Birkbeck Lectures in Ecclesiastical History, University of Cambridge, May 1951, p. 9.

الى ميلانو وبالتعاون مع برتولوميو فراري Bartolomeo Ferrari، ويعقوب موريجيا Giacomo Morigia، اسسوا جمعية وافق عليها البابا كليمنضوس الثامن عشر من شباط عام 1533.

اراد المؤسس ان تكون جمعيته مؤلفة من كهنة رهبان Clers réguliers، مهمتهم محاربة الهرطقة البروتستنتية ولكن ليس بالجدال والمناقشات، وانما بالعمل على اصلاح مساوىء الاكليروس، التي يتذرع بها البروتستنت، بالمثال الصالح والوعظ، على مثال القديس بولس، ومنه اتخذوا اولا اسمهم "كهنة القديس بولس"، ثم اطلق عليهم الشعب لقب برنابيت نسبة الى الكنيسة التي اتخذوها في روما مركزا لهم وهي مكرسة على اسم القديس برنابا مساعد بولس الرسول.

عملت هذه الجمعية بكل غيرة في عملية اصلاح الاكليروس والشعب المسيحي. ومن اجل جذب المستمعين للوعظ، فقد عملوا على تزيين الكنائس باهتمام خاص، ومارسوا الاحتفالات الدينية بكل ابهة ولكن بكل تقوى وخشوع، وادخلوا المحاضرات الدينية شبه اليومية للاكليروس. ولم يكتفوا بالوعظ بل قاموا بالمساعدة في المستشفيات لمعالجة المرضى وتضميد الجراح ومساعدة المنازعين. ويعرف عن البرنابيت انهم ادخلوا ايضا السجود الدائم، وقرع الجرس ظهر ايام الجمعة ذكرا لموت المخلص.

مات انطون–ماريا زكريا، الرأس المحرك لهذه الجمعية، رافضا دائما ان يكون رئيسا لهذه الجمعية، مُجهدا في الخامس من تموز 1539 على عمر يناهز السابعة والثلاثين. وقد قام البابا ليون الثالث عشر بتطويبه في 3 كانون اول 1890، واعلن قداسته في 27 ايار 1897. وبعد مماته استمرت الجمعية بالازدهار، واضافت الى مهامها رسالة التعليم وخصوصا تعليم الشباب، ففتحت المدارس والكليات في كل انحاء بلاد اوروبا، وكانت سدا منيعا امام تقدم البروتستنتية.

4) السوماسك Les Somasques: في نفس الوقت تأسست جميعة السوماسك Les Somasques، ويعود تأسيسها الى القديس جيروم امليان 1486–1537. ولد في البندقية وكان والده ممثلا في البرلمان، انضم في شبابه الى الجندية وعاش حياة خفيفة متحررة، وأُسر في احدى المعارك، فاتيح له الوقت للتفكير في حالته، وعند عودته من الاسر، انضم الى جماعة "مصلى الحب الالهي" واتخذ من كارافا مرشدا له.

تعرف على التياتين ونظر باعجاب الى عملهم وغيرتهم وتواضعهم في خدمة المرضى. واثناء انتشار الطاعون في عام 1528، عمل بغيرة على معالجة المصابين، ودفن الموتى، حتى اصابته عدوى التيفوس. وبعد ان شفي، جمع الاولاد اليتامى الذين فتك الطاعون بوالديهم، وفتح لهم اول الميتاتم في البندقية ثم في بريشيا. وافتتح في وبرجامو وبدعم من اسقفها Lippomeno، بيتين احدهما للايتام والاخر للفتيات التائبات.

وعندما اجتمع حوله بعض التلاميذ، استقر معهم جيروم اميليان في بلدة سوماسك Somasque بين ميلانو وبرغامو، وهناك اسس جمعيته الكهنوتية Les Somasques التي استمدت اسمها من اسم البلد.

مارس اعضاء هذه الجمعية الاهتمام بالايتام ومعالجة المرضى والفقراء، واضافوا مهمة اخرى سيعمل القديس جان باتيست ده لا سال على تطوريها بعد قرن من الزمن، وهي مهمة تعليم اطفال الشعب.

5) اليسوعيون Les Jésuites: شكلت جمعية اليسوعيين والى حد بعيد، اشهر هيئة للاصلاح الكاثوليكي. ومع ان مؤسسها لم يقصد بتأسيسها اصلا ان تكون اداة لمحاربة البروتستنتية، الا انها اصبحت وبسرعة قوة كبرى، بل في الحقيقة كانوا في بعض الاوقات اقوى سلاح في حركة الاصلاح الكاثوليكية كلها."

ادرك لويولا ان جمعيته يجب ان تكون نوعا من فرقة عسكرية لتحارب معركة الكنيسة ضد الشكوك والهرطقات، ففضلا عن النذور الرهبانية الثلاثة — الفقر والعفة والطاعة، وضعوا لذاتهم نذرا رابعا هو الطاعة المطلقة للبابا، واوجبوا على نفوسهم اتمام كل ما يأمرهم به والذهاب سريعا حسب توجيهه الى كل مكان يرسلهم اليه بدون تردد. كانت غاية الجمعية كما حددها القانون، نشر وتثبيت الايمان والكنيسة، والوسائل لهذا يجب ان تكون: الارساليات الى الوثنيين والمسلمين والهراطقة، واقامة مؤسسات ومعاهد علمية تهذيبية، والوعظ والاعتراف. وبما انهم كرسوا ذواتهم للنضال ضد مملكة الشيطان فهم بهذه الصفة جنود المسيح، فاعطوا لذاتهم اسم "جمعية يسوع". وثبّت البابا بولس الثالث، الذي رأى في هذه الجمعية سلاحا ممتازا ضد البروتستنت ولاصلاح الكنيسة، قوانين الجمعية في عام 1540. وكما البابا بولس الثالث هكذا خلفاؤه، وخصوصا يوليوس الثالث الذين حافظوا على هذه الجمعية واعطوها حقوقا وامتيازات لم تنلها جمعية من قبل.

نظمت الجمعية نفسها على شكل فرقة عسكرية منظمة بقائد اعلى وضباط مرؤوسين على نمط الخطوط العسكرية. لم يلتزم اليسوعيون بساعات صلاة محددة اوارتداء ثياب بشكل معين مثل الانظمة الرهبنية الاخرى. كل عضو مدرب على استخدام محكم "لرياضات لويولا الروحية". فالطاعة المطلقة هي موضوع نظام اليسوعيين. ويشمل عهدهم الاتي: "في كل ما ليس خاطئا يجب ان اتبع ارادة الرئيس الاعلى وليس ارادتي، لان الله يتكلم على لسان كل رئيس". يجب ان اعتبر نفسي جثة لا ارادة لها ولا شعور.

انجازات اليسوعيين

مارس اليسوعيون نشاطهم على صعيدين: في الخارج بواسطة الارساليات والمرسلين (وسندرس ذلك في فصل اخر)، وفي اوروبا، بالعمل بهمة ونشاط كبيرين في سبيل الاصلاح الكاثوليكي بالرياضات الروحية، وبالتعليم المسيحي، ولكن خصوصا بتربية الشبيبة في الكليات والجامعات، وبهذا وجهت ضربات شديدة الى هرطقات العصر الحديث: البروتستنتية Le Protestantisme، والجنسنية Le Janénisme، والغليكانية Le gallicanisme، والمودرنيزم Le modernisme. وكان اليسوعيون دائما متواجدين حيث ارادهم البابا واحتاجهم للدفاع عن العقيدة الكاثوليكية وحقوق الكرسي الرسولي.

وان لم يكن الهدف الاساسي لتأسيس اليسوعيين محاربة البروتستنتية التي اجتاحت جزءا كبيرا من اوروبا، الا انهم سخّروا لاحقا كل امكانياتهم لمحاربتها بلا هوادة.

فتح البروتستنت المدارس والجامعات والاكاديميات لنشر تعاليمهم الجديدة. فرد عليهم اليسوعيون بان منحوا التعليم المجاني في الكليات الكبرى التي أسسوها، والتي انتسب اليها مئات الطلاب. وكثّف اليسوعيون نشاطهم في الاماكن التي استفحلت فيها هذه البدعة، المانيا، والتي ارسل اليها اغناطيوس منذ عام 1540، بيير لفيفر Pierre Le Fèvre، وكلود لي جي Claude Le Jay، ونقولا بوباديلا Nicolas Bobadilla، ثم انضم اليهم بعد ان غادر بيير لفيفر، بيير كانيزيوس، وفيها عملوا لسنوات عديدة. واخذ كل واحد منهم يتنقل من مكان الى اخر، يعلّم، ويكتب، ويناقش، ويحاضر، ويصلح الاكليروس. ومنهم من ارسلوا ممثلين عن الاساقفة لحضور مجمع ترانت. فاعادوا بغيرتهم ونشاطهم وكفائتهم الكثير من البروتستنت الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية.

وعمل ايضا اليسوعيون بنفس الحماس والغيرة والنشاط في هولندا Les Pays-Bas، حيث حاربوا البروتستنتية والجنسينية بعزم، ويعود اليهم والى جامعة اللوفان Louvain في بقاء القسم الجنوبي من هذه البلاد، المعروف اليوم ببلجيكا، كاثوليكيا.

وفي انكلترة واسكتلندا، نشطوا في العمل على اعادة الكاثوليكية بواسطة مرسلين شجعان، تخرجوا من كلياتهم، ودخلوا انكلترة وسكتلندا متنكرين.

حظى اليسوعيون في باقي انحاء اوروبا التي بقيت كاثوليكية، بتأثير كبير على التعليم العالي، حتى يمكن ان يقال ان التعليم كان حكرا عليهم. ففي روما، حيث اقام اغناطيوس، تم تأسيس الكلية الرومانية Collège Romain، 1551، والكلية الالمانية Collège germanique 1552، ومنهما خرج افواج من الرسل والمرسلين الى المانيا وسائر اوروبا. وفتح اغناطيوس ايضا في روما بيتا لتهيئة المبشرين المخصصين لتعليم التائبين ولهداية اليهود. وفتح دير مريم المجدلية لاستقبال النساء التائبات واللواتي اردن اعتناق الحياة الرهبانية، ودير القديسة مرتا من اجل من لم يرغبن بالحياة الرهبانية، ودير القديسة كاترينا ملجأ لحماية الفتيات، وميتمين احدهما للاولاد والاخر للبنات.

اما في فرنسا فقد واجه اليسوعيون اولا المعارضة. فقد عاداهم البرلمان واصدر بحقهم اوامر اعتقال. ولما اعتلى هنري الرابع عرش فرنسا تحقق له انه من الافضل الاستفادة هو من خداماتهم، بدل ان يرى اسبانيا تستغلهم ضده، واختار معرّفا له من بينهم. فحازوا في جميع البلاد الشهرة والسمعة الجيدة، وامتلأت كلياتهم بالاف الطلاب وخصوصا من بين طبقة الاشراف والبرجوازية.

ضمت جمعية اليسوعيين بين اعضائها واعطت للكنيسة نخبة من اعظم واشهر رجال وقديسي الكنيسة، لمعوا في كل المجالات الدينية وغير الدينية، يضيق بنا المجال لذكرهم، ولكن نكتفي هنا بذكر بعض اهم القديسين الذين انجبتهم هذه الجمعية التي لا تزال حتى اليوم من اكبر واقوى الجمعيات الرهبانية: – القديس اغناطيوس دي لويولا – القديس فرنسوا بورجيا – القديس فرانسيس كسفاريوس – القديس بيير كلافر – القديس رودريغز – القديس جان–فرانسوا ريجيس. وهناك ثلاثة قديسين مات في عمر الشباب وهم القديس ستنسلاس كوستكا المتوفى عام 1568 عن عمر 18 عاما – والقديس لويس غونزاغا المتوفى عام 1591 ، عن عمر 23 عاما – والقديس جان برغمانس المتوفى عام 1621 عن عمر 22 عاما.

ب) اصلاح الرهبانيات القديمة

مما لا شك فيه ان اكثرية الرهبانيات القديمة فقدت من حماسها وحراراتها الاولى. ولكنه ايضا من غير العدل ومبالغ فيه القول ان هذه الرهبانيات خلت من الرهبان الصالحين. الواقع هو ان هذه الرهبانيات خففت من شروط قبول الاعضاء الجدد والمبتدئين كما ضعفت المحافظة على النظم والقوانين الرهبانية، مما ادى الى نوع من التراخي والتراجع والى بعض الانحطاط الذي كان كثير من الرهبان الحقيقيين يتذمرون منه.

ادى هذا الخليط من الرهبان الاتقياء المحافظين والرهبان الفاسدين الى الانقسامات والصراعات داخل هذه الجمعيات مما سبب نتائج سيئة على الحياة الرهبانية. كيف يمكن تصليح هذا الوضع؟ هل، كما فكر البعض، بالاطاحة والغاء الجمعيات القديمة وتأسيس غيرها جديدة؟ ام، كما اعتقد البعض الاخر، وهم على حق، ان الامور لا تستدعي اللجوء الى مثل هذه الاجراءات المتطرفة، وان الداء غير مستعصي الشفاء، ويكمن في اعادة تأهيل واصلاح جماعات رهبانية، بالعودة الى اتباع القانون الاساسي الاول للجمعية بكل امانة وبكل ما فيه من صرامة، تكون مثالا يحتذي للبيوت الاخرى من نفس الرهبانية. هكذا فعلت الرهبانيات المتسولة من الفرنسيسكان والدومنيكان... وهكذا فعلت ايضا رهبانية الاوغسطينيين الذي خرج منها لوثر، والرهبانيات البندكتية...كلها عملت على اصلاح نفسها بالعودة الى قوانين مؤسسها الاولية.

من هذه الاصلاحات الرهبانية يجدر بنا ان نذكر بنوع خاص:

1) الكمالديل Les Camalduls: فكر القديس بول جيوستنياني Paul Giustiniani، باصلاح جمعية الكمالديل التي كان ينتمي اليها، بالعودة الى اتباع القوانين الاساسية. فترك عام 1520 دير كمالدولي Camaldoli، الدير الرئيسي للجمعية، وأسس مع بعض رفقائه من نفس الجمعية ديرا جديدا على جبل كورونه Monte-corone، حيث فرض اتباع نظام القانون الاساسي، وما عتمت ان تبعته، جماعات اخرى، وتوحّدت الجمعية من جديد واتخذت دير Camaldoli من جديد ديرا رئيسيا في عام 1540.

2) الكبوشيون Les Capucins: وهي حركة ولدت داخل الرهبانية الفرنسيسكانية، وادت الى ولادة فرع ثالث لها عرف بالكبوشيين. اسسها ماتيو دي باسيو Matteo da Bascio عام 1525، واراد بها العودة الى قانون القديس فرنسيس الاساسي بكل صرامته، بعيش الفقر التام، والعودة الى الممارسات التقوية الصعبة، والاماتات القاسية، وحتى العودة الى ارتداء الثوب الذي لبسه فرنسيس، ذات اللون البني، وذات القلنسوة[2] Capuchon، ومن هنا تسميتهم بالكبوشيين. لم يهتم الكبوشيون كثيرا بالتعليم، لذلك كانوا اكثر جاذبية للفلاحين بما امتازت به من روح تضحية وانكار الذات، الى جانب الطابع الشعبي في الوعظ. وقد صادفت هذه الجمعية الكثير من الصعوبات في اوائلها وخصوصا من الفروع الفرنسيسكانية الاخرى، وكانت تحت خطر الغائها بعد ان هرب رئيسها العام Bernardino Ochino وانضم الى اللوثريين. الا انهم ثبتوا بالرغم من كل المحن واعطوا الكنيسة مجموعة من القديسين الكبار امثال: القديس لوران دي برندزي Laurent de Brindes (1559-1619)، الذي اصبح احدى معلمي الكنيسة، والقديس فيلكس دي كانتليس Felix de Cantalice (1513-1587)، وهو اخ علماني، والقديس فيديل ده سجمارينجين Fidèle de Sigmaringen (1577-1622)، استشهد على يد الكلفينيين، ويوسف ده ليونسا Joseph de Lénissa (+ 1612) وكان يعد من اكبر الوعاظ في عصره، وسرافين ده مونتغرانارو Séraphin de Montegranaro (1540-1604) المشهور بعطفه ومحبته للفقراء، وانخطفاته المتكررة امام القربان الاقدس، واخيرا واثناء تحضير هذه الصفحات الطوباي الاب بيو Padre Pio.

[2] يقال ان القديس فرنسيس ظهر له عدة مرات قائلا: "اريد ان يُحافظ على قانوني حرفيا حرفيا". وبما انه في كل ظهوراته كان يلبس القلنسوة (capuce) الربعة، فقد تبناها ماتيو لرهبانه.

الفصل الحادي الخمسون

مجمع ترانت او التردانتيني

Le Concile de Trente

اوضحنا في الفقرات السابقة ان الكنيسة لم تنتظر تمرد لوثر واتباعه حتى تبدأ الاصلاح الضروري. واوضحنا ان ظهور الجمعيات الرهبنية الجديدة والقديمة المتجددة، لا يعود الفضل فيها الى ظهور البروتستنتية وكرد فعل لها، بل انها تتجذر في قلب تقوى وروحانية العصور الوسطى.

الا اننا نستطيع ان نقول، وبدون حرج، ان مجمع ترانت هو نتاج مباشر للتمرد البروتستنتي، مع أن بعض المؤرخين يرفضون اعتبار مجمع ترانت "اصلاحا مضادا" لان ذلك يقود الى اعتبار تمرد لوثر اصلاحا. وسيظهر مجمع ترانت ان ما يدعى بالاصلاح البروتستنتي ما هو الا تشويه للعقائد المسيحية وانحراف هرطوقي، وسيعمل المجمع على اصلاح المساوىء التي ادت الى ولادة هذا التمرد دون ان يبرر الانحرافات.

كما وان الاصلاح العفوي الذي قامت به الرهبانيات والقديسون خلق جوا ملائما ومساعدا للاصلاح، الا ان اصلاحا نهائيا شاملا لا يمكن ان يتم دون عقد مجمع. فالمجمع كان بالنسبة الى الكثيرين هو الوسيلة الربانية الكفيلة بالقيام باصلاح الكنيسة. ولكن لماذا تطلب الامر ثمان وعشرين سنة بعد تمرد لوثر في عام 1517 ليتحقق عقد مثل هذا المجمع. لماذا كل هذا التأخير؟

1- موقف البابوات من عقد المجمع: من ليون العاشر وحتى بولس الثالث

البابا ليون العاشر (1513-1521):

لم يأخذ ليون العاشر فكرة عقد مجمع على محمل الجد، اولا لان البابا بيوس الثاني كان قد منع الدعوة الى مجمع، مما جعل دعوة لوثر غير قانونية. كما ان مقررات مجمع اللتران الخامس التي بقيت حبرا على ورق احبطت همة البابا لدعوة مجمع اخر، كما انه لم يأخذ في اول الامر تمرد لوثر بعين الاعتبار، معتبرا اياه "معارك رهبان سكارى"، وعندما اتضحت له خطورة الوضع اعتقد ان حرمان لوثر كاف ليضع حدا لهذا التمرد.

البابا ادريان السادس: 1522-1523

كان ادريان من مؤيدي الاصلاح. وما ان اعتلى الكرسي البابوي حتى بدأ يظهر ذلك بالقول والفعل. فاوقف جميع اعمال الزخرفة في غرف الفاتيكان، وابعد جميع السائسين الاربعمائة الذين كان ليو يستخدمهم في اسطبلاته عدا

اربعة منهم. ولم يبق من خدمه الخصوصيين الا اثنين لا اكثر – كلاهما من الهولنديين – وامرهما ان يخفضا نفقات بيته الى دوقة واحدة في اليوم.

وكان هم ادريان الاول اثناء ولايته ان يعود بالكنيسة من حالها الراهن الى ما كانت عليه في عهد المسيح. ولهذا اتخذ اقصر الطرق دون مجاملة لاصلاح ما استطاع ان يصل اليه من المفاسد الكنسية. فالغى ما لا ضرورة له من المناصب، وقال البابا لاقاربه الذين جاءوه يطلبون ان يعينهم في مناصب دينية ذات مرتبات ان يعودوا ويكسبوا العيش بالعمل الشريف. وقطع دابر الرشاوي ومنح المناصب للاقارب، وتعقب ما في الحكومة البابوية من فساد، وفرض عقوبات صارمة على الرشوة واختلاس الاموال العامة. وعاقب الكرادلة المذنبين بنفس العقوبات التي كان يوقعها على اصغر رجال الدين. وامر الاساقفة والكرادلة ان يعودوا الى مقر مناصبهم، والقى عليهم دروسا في الاخلاق التي يريد منهم ان يتصفوا بها، وكان مما قاله لهم ان سمعة روما السيئة اضحت تلوكها الالسنة في جميع انحاء اوروبا. ولم يشأ ان يتهم الكرادلة انفسهم بالرذيلة، ولكنه اتهمهم انهم يتركون الرذيلة تتفشى في قصورهم دون ان تلقى عقابا.

اصابه المرض ومات في الرابع عشر من ايلول عام 1523. واوصى بتوزيع املاكه على الفقراء، وكان آخر ما اصدره من التعليمات ان تكون جنازته هادئة قليلة النفقة.

كليمنضوس السابع 1523–1534

بدأ عهده احسن بداية، فوزع على الكرادلة جميع المناصب الدينية التي كانت له، والتي كانت تدر عليه دخلا سنويا مقداره 60000 دوقة. وجمع حوله قلوب العلماء والنساخين ونفحهم بالهبات، ووزع العدالة بين الناس، واستمع الى كل من له شكاية، ومنح الصدقات بسخاء، مما دفع سفير بولونيا Bologne لدى البلاط البابوي الى القول: "انه اعطى باول يوم من حبريته اكثر مما اعطى ادريان في كل حياته".

وبما انه لم يكن يبلغ الا الخامسة والاربعين من عمره، تأمل الايطاليون لحكمه ان يكون طويلا ومجيدا. الا انه اتضح سريعا ان البابا كليمنضوس السابع لم يكن على تلك الصورة الباهرة، فقد كان ضعيف الارادة، خائر العزيمة، غير قادر على اخذ القرارات، كثير التردد، لا يتخذ موقفا في الوقت المناسب ولا يملك روح المثابرة في تنفيذ ما تم الاتفاق عليه.

وكان العمل الاول الذي واجه كليمنضوس هو استتباب السلام بين الامراء المسيحيين ليتمكن من مواجهة الخطرين الذين كانا يتهددان الكنيسة في ذلك الوقت: التمرد اللوثري والخطر التركي. واتخذ له من المستشارين جيانماتيو جبرتي Gianmatteo Giberti الذي كان يميل الى فرنسا، ونيقولاوس فن اسكونبرج Bikolaus von Segonberg الذي كان يميل الى الامبرطورية، وترك عقله مشتتا بين الرجلين.

وافق كليمنضوس بعد توقيع معاهدة بولونيا Bologne عام 1530 على دعوة المجمع تحت الحاح الامبراطور، ووافق مجمع الكرادلة ايضا بالاجماع. ولكن البابا وضع خمسة شروط لعقده: 1) ان يتم في هذا المجمع بحث الهرطقة وحرب صليبية ضد الاتراك وليس الاصلاح، 2) ان يحضر الامبراطور المجمع حتى نهايته، 3) ان يتم عقد المجمع في ايطاليا، 4) لا يصوت الا من لهم حق التصويت التقليدي: أي الكرادلة والاساقفة، والرؤوساء العامون ورؤوساء الاديرة، 5) ان يحضر اللوثريون المجمع. وافق الامبراطور على هذه الشروط ما عدا الاخير، ولكن المشروع لم يرى النور بسبب معارضة ملك فرنسا.

سيعود الفضل في تحقيق عقد المجمع الى خليفته السندرو فارنزي Alessandro Farnese، البابا بولس الثالث.

بولس الثالث والتحضير للمجمع 1534–1549

بدا خليفة كليمنضوس لاول وهلة حائزا على جميع شروط الذكاء والخلق، واقر الجميع ان السندرو فارنيزى Alessandro Farnese، الذي اتخذ اسم بولس الثالث، هو الرجل الاصلح لارفع منصب في العالم المسيحي.

ارتقى الى مقام رئيس مجمع الكرادلة، ثم انتخب لكرسي البابوية بالاجماع في عام 1534، وكان يبلغ السابعة والستين من عمره وله اربعة ابناء قبل ان يصبح كاهنا في 1519.

واصل بولس الثالث حبه لحياة الترف والصيد، والتسلية، واستشارة المنجمين. كما وواصل سياسة تفضيل الاقرباء Népotisme التي اشتهر بها بابوات عصر النهضة. فرفع الى منزلة الكرادلة اثنين من احفاده، والثالث اوكتاف فارنزى

اعطاه ولايتين من الولايات البابوية كاميرينو Camerino و نيبي Nepi في عام 1540. واصبغ على ابنه بيير فارنزي المعروف بسمعته الاخلاقية السيئة، لقب دوق برما وبلازنس Duc de Parme et de Plaisance في عام 1545.

جلبت هذه السياسة العائلية لبولس الثالث سمعة سيئة والكثير من المشكلات. ومع ذلك فقد قام بواجب منصبه بطريقة اختلفت عن سابقيه. فقد فهم اهمية الاصلاح في حياة الكنيسة، وفهم ان هذا الاصلاح لن يتم الا بعقد مجمع عام. ولكنه بذكائه فهم ايضا انه لكي ينجح المجمع يجب ان يبدأ الاصلاح من الرأس الى الاعضاء، وفهم ان عليه ان يتم ذلك على مراحل وبكل تروي.

كانت المرحلة الاولى البلاط البابوي، بدأ بالبابا نفسه ثم الكرادلة، معتبرا انه لا يمكن ان يكون هناك تأثير على الرعية دون ان يعطي الراعي المثل اولا. واذا اراد البابا ان يكون صوته مسموعا في المجمع عليه ان يبدأ اولا بمحاربة واجتثاث المساوىء المنتشرة في ادارته. وهكذا لا يكن للمجمع عذر لاتهامه ومن ثم اخذ المبادرة باصلاحه.

بدأ بولس الثالث بدون اضاعة الوقت باصلاح البلاط البابوي فاوصى كرادلته بشدة ان يعيشوا عيشة تليق بدعوتهم، وان يعطوا المثل لمن حولهم بعيشة صالحة وان يستبدلوا الملابس السيادية بالملابس الكنسية. واراد لهذه العلامات الخارجية ان تكون دليلا للشعب عن اصلاح داخلي. وكون لجنتين من الكرادلة، وضع على رأس الاولى مطران اوستي Ostie جيوفاني بكولوميني Govanni Piccolomini، المعروف بصلاحه وكفائته، ووكل اليه واجب مراقبة سلوك الاكليروس في روما. وعلى الثانية وضع اسقف سابين Sabine لورنزو كامبجيو Lorenzo Campeggio ووكل اليه مراقبة ومتابعة الولايات البابوية.

عمل بولس الثالث، وهو الذي لم يكن مشهورا بتقواه، على تشجيع تأسيس وتطوير الجمعيات الرهبانية مثل الكبوشيين Capucins والتياتيين Théatins والبرنابيت Barnabites والسوماسك Somasques والارسيلين Ursulines. ولما وافق على نظام جمعية اليسوعيين اعطى الكنيسة واحدة من اكبر واقوى المؤسسات الكنسية التي ستساهم الكثير في عملية الاصلاح.

وامام خطر تسرب البدعة البروتستنتية في ايطاليا اعاد تنظيم "محاكم التفتيش" تحت الحاح الكردينال كارافا Carafa والقديس اغناطيوس دي لويولا Ignace de Loyola. وأنشأ مكتبا خاصا دعي فيما بعد "بالمكتب المقدس Saint-Office" للسهر على نقاوة الايمان في الكنيسة وملاحقة المرتدين والمشبوهين، دون تفرقة بين الاشخاص والمناصب، اسلم ادارته الى الكاردينال كارافا Carafa.

واتضح لبولس الثالث ان الاصلاح لن يتم بهذه السرعة والسهولة، وانما يتطلب جهدا وصبرا ووقتا، وايقن ان الاصلاح في البلاد البابوي وبين الكرادلة لن يتم الا بجيل جديد من الكرادلة، لذلك قام بتجديد مجلس الكرادلة بتعيين اشخاص كفوئين لامعين بعلمهم واصحاب سيرة صالحة اخلاقيا ودينيا امثال سفير فنسيا جاسبار كونتاريني Gaspar Contarini، والاسقف كارافا Carafa احد مؤسسي جمعية التياتين Théatins (الذي سيصبح البابا بولس الرابع)، وجاك سادوليه Jacques Sadolet اسقف كاربنتراس وعضو قديم في "مصلى الحب الالهي"، وريجنالد بول Reginald Pole الانساني الانجليزي، ابن عم هنري الثامن، ومارسيل شرفيني Marcel Cervini (الذي سيصبح البابا مارسيل الثاني)، والاسقف موروني Jean Morone. وعهد اليهم مهمة اعداد مخططات للاصلاح العام.

2- مجمع ترانت

يتألف تاريخ مجمع ترانت من ثلاثة مراحل: مرحلة الاولى تحت حبرية بولس الثالث (1545-1548)، والثانية تحت حبرية يوليوس الثالث (1551-1552)، والمرحلة الثالثة تحت حبرية بيوس الرابع (1562-1563).

(1) الدعوة الى المجمع

يعود الفضل في دعوة مجمع ترانت الى البابا بولس الثالث. ولتقدير ما قام به هذا البابا من جهود في سبيل انعقاده، علينا ان نعي عِظم العوائق التي جابهها واستطاع التغلب عليها:

- فالامراء كانوا معارضين للمجمع واثاروا امامه الصعوبات الجمة.
- الملك هنري الثامن "المدافع عن الايمان" كان انذاك محروما.
- الملك فرانسوا الاول، بينما كان يعلن تأييده للمجمع، كان يحالف الامراء اللوثريين، ويخاف من المجمع على امتيازات الكنيسة الفرنسية.

– الملك شارل الخامس، كملك اسبانيا، كان يعتبر من اكبر طالبي الاصلاح، ولكنه كامبراطور كان يرغب في مصالحة جميع رعاياه، فلم يكن يرغب بمجمع يدين البروتستنتية.

فكان لا بد للبابا بولس الثالث من تسع سنين من الثبات والعزم حتى تمكن من التغلب على هذه العوائق واصبح بوسعه دعوة المجمع الى الانعقاد في مدينة مانتوا في الثامن من حزيران عام 1536. الا ان الامبراطور شارل الخامس الذي اغضبه اختيار هذه المدينة الايطالية، عمل على ارهاب حاكمها فاعلن انه لا يمكنه ان يضمن الأمان للمجمع، وفي الوقت المحدد لم يحضر احد.

فحول البابا مكان انعقاد المجمع الى مدينة فيشنسا Vicence، وحدد تاريخ الاول من ايار 1538 موعدا لانعقاده. ولم يحضر سوى خمسة اساقفة.

وبعد عدة مداولات ومباحثات تم الاتفاق على مدينة ترانت، المدينة الايطالية اصلا ولغة، والواقعة تحت سلطة الامبراطور. فوافق شارل الخامس، ودعى البابا من جديد الى عقد المجمع، الا انه اضطر الى تأجيل انعقاده من جديد بسبب الحرب التي اندلعت بين فرنسوا الاول وشارل الخامس. ولم انتهت الحرب، تابع البابا امر دعوة المجمع، فاصدر مرسومه Laetare Jerusalem، وفيه دعى الى انعقاد المجمع في مدينة ترانت في الخامس عشر من اذار 1545، وفي الموعد المحدد وامام العدد الضئيل من الحضور، طلب المبعوثون الباباويون من البابا تأجيله الى شهر كانون اول.

(2) المرحلة الاولى 1545–1549

افتتحت الدورة الاولى من مجمع ترانت في 13 كانون اول 1545 متأخرة تسعة اشهر عن الموعد المحدد. كرست الجلسات الثلاثة الاولى للامور التنظيمية، ودارات المناقشات حول بعض الاجراءات العامة وتحديد جدولا للاعمال.

كان حق التصويت في مجمعي كونستانس وبازل متاحا للكهنة والامراء وبعض العلمانيين، كما كان متاحا للاساقفة، وكان التصويت يتم حسب المجموعات القومية. قرر مجمع ترانت ان يكون التصويت بالافراد، واعطاء حق التصويت فقط للكرادلة والاساقفة والرؤوساء العامين ورؤوساء الاديار.

اما تحديد مواضيع المناقشة فكان من اصعب الامور التي تعرضت لها الجلسات الثلاث الاولى. ودارات المناقشات فيها حول المواضيع التي يجب بحثها. فالبابا ومؤيدوه ارادوا البدء بدراسة وتعريف وتحديد العقائد المسيحية Dogmes. واما الامبراطور ومؤيدوه فارادوا البدء باصلاح النظم الكنسية Réforme des abus، املا من الامبراطور شارل الخامس في تهدئة البروتستنت او اضعافهم او احداث مزيد من الانقسام في صفوفهم. واملا من الاحبار الالمان والاسبان في ان تقلل الاصلاحات من سلطة البابا على الاساقفة والمجامع. وقد امكن الوصول الى حل وسط يتم فيه دراسات وتحضير المواضيع في لجان متزامنة حول العقيدة والاصلاح، وان تعرض هذه القرارات على المجمع بالتناوب. وان يتم اولا دراسة المواضيع التي يقررها مبعوثو البابا من قِبَل لجنة من اللاهوتيين والقانونيين في جلسات إما خاصة وإما علنية، ثم تعرض في "جلسة عامة" Assemblée générale على الاساقفة وممثلي الاساقفة وسفراء الملوك الكاثوليك، ومن ثم يقوم آباء المجمع بالتصويت في جلسة احتفالية Assemblée solennelle.

بدأ المجمع اعماله في الجلسة الرابعة في 8 نيسان 1546، بحضور 59 من آباء الكنيسة، بتحديد العقيدة الكاثوليكية حول مصدر الوحي والايمان: الكتاب المقدس. واصدر مرسوما اصلاحيا حول استعمال الكتاب المقدس وخصوصا في الوعظ.

وتم في الجلسة الخامسة 17 حزيران، وبحضور 64 ابا مجمعيا، دراسة وتحديد قضية الخطيئة الاصلية، احدى القضايا التي اثارها لوثر. واصدر قرارا اصلاحيا يجبر الاساقفة والكهنة المسؤولين عن النفوس بالوعظ.

وانتقل المجمع في جلسته السادسة في 13 كانون ثاني 1547، وبحضور 69 ابا مجمعيا، الى دراسة المشكلة الاساسية في تعليم لوثر وهي "التبرير". وبعد مداولات امتدت ستة اشهر تم تحديد الايمان "بالتبرير"، واصدر مرسوما اصلاحيا حول واجب الاساقفة والكهنة الاقامة في ابرشيتهم ورعاياهم[3].

[3] ارتفعت في هذه الجلسة مناقشات عنيفة حول هذه النقطة، وامسك احد الاساقفة بلحية اخر وانتزع منها حفنة من الشعر الابيض. ولما سمع الامبراطور بما وقع، ارسل رسول الى المجمع يقول انه ان لم يهدأ مسيأمر بالقاء نفر من الاساقفة في النهر.

وتم في الجلسة السابعة في 3 اذار 1547، وبحضور 72 ابا مجمعيا، دراسة موضوع الاسرار بنوع عام، وسري المعمودية والتثبيت بنوع خاص. واصدر المجمع مرسوما اصلاحيا حول واجبات الاسقف، ومنعه من جمع المناصب، وحدد واجب الزيارة السنوية لكل الكنائس التابعة له.

نقل المجمع الى بولونيا Bologne 11 اذار 1547

تعرض المجمع اثناء ذلك الى عدة مشاكل منها، كثرة تذمر البلاط البابوي من القرارات الاصلاحية التنظيمية التي اصابته في مصالحه. ومن جهة اخرى اصرار الامبراطور على مزيد من السرعة في مناقشات الاصلاحات التنظيمية، وترك القرارات العقائدية التي من شأنها ان تثير البروتستنت.

امر البابا مندوبيه ان يقترحوا نقل المجمع الى بولونيا، التي تسمح لروما بان تشرف على اعمال المجمع اشرافا اسرع لانها واقعة في الولايات البابوية. وافق الاساقفة الايطاليون، اما الاساقفة الاسبان والامبراطوريون فاحتجوا. وظهر في ترانت طاعون في الوقت المناسب قضى على اثنين من الاساقفة، وانتقلت الاغلبية الى بولونيا. وبقي في ترانت خمسة عشر اسقف.

رفض شارل الاعتراف بدورات بولونيا، وهدد بعقد مجمع منفصل في المانيا. ولم يبحث اباء المجمع في بولونيا في الجسلة التاسعة والعاشرة سوى في بعض الاجراءات البسيطة ولم يتخذ أي قرار في مدة السنتين والنصف التي قضاها في بولونيا، وفعل مثلهم الاساقفة الذين بقوا في ترانت. واستمر اللاهوتيون والقانونيون في متابعة اعمالهم لتحضير مواضيع المناقشات للجلسات القادمة.

تعليق المجمع 17 ايلول 1549

بعد عامين ونصف من الجدل والمناورة، حاول خلالها البابا بولس الثالث الوصول الى اتفاق مع شارل لوضع حدّ لهذه الحالة دون جدوى، اعلن البابا في 17 ايلول 1549، تعليق عمل المجمع. ومات البابا بعد شهرين من هذا الموعد في 10 تشرين ثاني 1549، عن عمر الثانية والثمانين بعد حبرية دامت خمسة عشرة سنة، وكانت واحدة من امجد الحبريات واغناها، لانه بوضعه اسس الاصلاح وعقد مجمع ترانت، دشّن عملية الاصلاح الكاثوليكي.

(3) المرحلة الثانية للمجمع تحت حبرية يوليوس الثالث

1 ايار 1551 وحتى 28 نيسان 1552

اخّرت الصراعات السياسية والقومية، وخصوصا بين الامبراطوريين والفرنسيين، والانقسامات في المجلس الكرادلة المنقسمين الى حزبين، حزب الاصلاحيين، والحزب المعارض للاصلاح، انتخاب بابا خلفا ليوليوس الثالث، وبعد فراغ طويل، تم انتخاب الكردينال دل مونتى Del Monte واتخذ اسم يوليوس الثاني.

لم يكن هذا البابا خاليا من الضعف والنقائص، فقد كان من رجال النهضة، وانجرف هو ايضا مثل اكثرية بابوات النهضة الى الملذات الدنيوية، والى الترف وحب الجمال. كما لم يترفع عن محاباة الاقارب Népotisme. ولكنه كان اكثر من أي شخص اخر على دراية بافكار البابا بولس الثالث، إذ كان من اقرب المعاونين له قبل وبعد المرحلة الاولى من المجمع، حيث اظهر الكثير من المعرفة والمهارة وروح الحزم،.

توصل يوليوس الثالث الى تفاهم مع الامبراطور، ودعا المجمع الى الانعقاد مرة اخرى في ترانت في ايار 1551، وعقد المجمع جلسته الحادية عشرة في الاول من ايار 1551، وكان عدد الحاضرين ضئيلا، فتأجل الى الاول من ايلول. وفي الاول من ايلول، عقد المجمع جلسته الثانية عشرة الا انه لم يتم اخذ أي قرارات في هذه الجلسة.

بحث المجمع في جلسته الثالثة عشر في 11 تشرين اول 1551، وبحضور 52 ابا مجمعيا، عقيدة القربان الاقدس، وحدد التعليم الكاثوليكي بشأنه، وادان تعاليم البروتستنت. وبعد هذا لم يعد هناك جدوى من الاستماع الى البروتستنت. ولكن شارل اصر على هذا، واختار هؤلاء وفدا بروتستنتيا، ووضع ملانكتون بيانا للعقيدة اللوثرية لرفعه الى المجمع. وضمن شارل للمندوبين سلامة المرور، ولكنهم اذ تذكروا مجمع كونستانس وهس، طلبوا ايضا ضمانا لسلامة المرور من المجمع ذاته. وبعد نقاش طويل منحهم المجمع الضمان.

افتتحت الجلسة الرابعة عشر في 25 تشرين ثاني 1551، بحضور 56 ابا مجمعيا، واصدرت قرارات عقائدية حول سري التوبة ومسحة المرضى، وقرارا اصلاحيا تنظيميا حول حقوق الاساقفة في الرسامات الكهنوتية.

وصل في شهر كانون ثاني 1551 المندوبون البروتستنت. وفي الجلسة الخامسة عشر طلبوا تأجيل المداولات حتى وصول اللاهوتيين البروتستنت. وافق آباء المجمع الذين بلغ عددهم سبعين. واستلم المجمع اعترافي ايمان Confessions de foi واحد من ورتنبورج Wurtenbourg كتبه برامز Brenz، والاخر ساكسوني، كتبه ميلانكتون الذي منذ موت لوثر عام 1546، اصبح رئيسا للكنيسة اللوثرية في وتنبورج Wittenburg. واعلن البروتستنت ان على مجمع ترانت تاكيد المراسيم والقرارت التي اصدرها مجمع كونستانس وبازل بشأن تخويل المجامع سلطان اعلى من البابوات، وان يحل اعضاء المجمع الحاضر من عهود الولاء للبابا، وان يعتبر جميع القرارات التي وصل اليها المجمع حتى ذلك التاريخ لاغية، وانه يجب ان يعيد عقد مجمع موسع يمثل فيه البروتستنت تمثيلا كافيا مناقشة الموضوعات من جديد. منع يوليوس الثالث بحث هذه المقترحات، وقرر المجمع تأجيل البت فيها الى 19 اذار، وهو التاريخ الذي يتوقع فيه وصول المزيد من المندوبين البروتستنت.

التعليق الثاني لمجمع ترانت 28 نيسان 1552

طرأت في هذه الاثناء تطورات حربية على نحو غير متوقع. ففي كانون ثاني 1552، وقّع ملك فرنسا حلفا مع البروتستنت الالمان، وفي اذار زحف موريس امير سكسونيا البروتستنتي، مخالفا المعاهدة مع شارل الخامس، على انزبروك Innsbruck. وهرب شارل، وما كان لاية قوة ان تمنع موريس ان شاء الاستيلاء على ترانت والاطاحة بالمجمع. واختفى الاساقفة واحدا بعد الاخر، وفي 28 نيسان 1552، اعلن البابا تعليق المجمع للمرة الثانية. واعطى فرديناند بمقتضى معاهدة باساو (2 اب) الحرية الدينية للبروتستنت المنتصرين حربيا، فلم يعد يهمهم المجمع في شيء بعد ذلك.

حاول البابا يوليوس الثالث طيلة السنوات من 1552-1553 ان يجعل القرارات والمراسيم التنظيمية التي اتخذها المجمع نافذة المفعول، وخصوصا ان بعض الاساقفة البرتغاليين والاسبان اخذوا بتطبيقها في ابرشيتهم بمحض ارداتهم ومبادرتهم، قبل تصديقها من قبل الكرسي الرسولي. وبدأ بتحضر براءة لاعطاء الصفة القانونية لهذه المقررات، ولكن البابا بوليوس الثالث توفى في الخامس والعشرين من شهر اذار 1555، قبل ان يعلنها.

مارسيل الثاني

خلف الكردينال شرفيني Cervini البابا يوليوس الثالث، واتخذ اسم مارسيل الثاني، وكان اقرب الى القديسين، وحياته بلا لوم، وتقواه عميقة، وكان خال القديس روبرت بلارمينو Robert Bellarmino احد معلمي الكنيسة. وكان اختياره للمناصب مثاليا، وجهد لاصلاح الكنيسة مخلصا، ولكنه مات في اليوم الثاني والعشرين من تقلده منصب البابوية في 5 ايار 1555.

بولس الرابع 23 ايار 1555 – 18 اب 1559

خلف جان بيير كارافا Jean- Pierre Caraffa، البابا مارسيل الثاني، واتخذ لنفسه اسم بولس الرابع. وكان قد بلغ التاسعة والسبعين من عمره، محافظا على نشاطه العقلي والجسدي. عرف عنه بقداسة سيرته وصرامة اخلاقه، وثبات ارآئه ورسوخ ارادته. كتب عنه السفير الفلورنسي يقول: "ان البابا رجل من حديد، بل ان الحجارة التي يمشي عليها تنفث الشرر". كان مولده في مقاطعة نابولي، لذلك حمل حرارة جنوبي ايطاليا في دمه.

عرف عنه قبل ارتقائه العرش البابوي انه كان روح حركة الاصلاح في الكنيسة وصوتها، وهو الذي اسس جمعية التياتين Théatins مع جيتانو دي تيان Gaetan de Thienne. وانما اراد اصلاحا على طريقته وعن طريقه فقط او بواسطة اشخاص يختارهم هو. لذلك وبعد انتخابه رفض ان يسمع عن متابعة المجمع. فقد كان يعتقد ان المجمع لا يسير بالسرعة اللازمة لكثرة التدخلات الامبراطورية ومعارضة الملوك والامراء (اسبانيا وفرنسا)، وان المجمع لا يأخذ القرارات الاصلاحية المطلوبة والضرورية. ولكنه في اول خطاب له للكرادلة اعلن انه سيعمل على اصلاح الاكليروس مبتدئا بروما.

حافظ البابا على وعده، وفي 17 تموز 1555، الف "لجنة الاصلاح العام" واليها وكل دراسة الطرق العملية، الاسهل والاسرع، لاصلاح الاكليروس. فاصدر قرارات صد السيمونية ومنع الكرادلة من جمع المناصب. ولم يكتف باخذ القرارات والمراسيم، بل تعداه الى النفي والسجن، كان من نتيجتها انه خلص روما من مئات الاساقفة والكهنة والرهبان الطوافين Vagabonds، واعادهم الى ابرشياتهم ورعاياهم واديرتهم.

وانطلقت محاكم التفتيش تعمل بكل طاقاتها لوضع حد لنشر التعاليم الهرطوقية، ومراقبة اليهود والمسلمين، واللوثريين والكلفنيين الذين تحت ستار التجارة كانوا يروجون تعاليمهم الهرطوقية في كل انحاء ايطاليا. وفي عام 1559

نشر بولس الرابع اول فهرس بابوي بالكتب المحظورة Index ، تم جمعه تحت رعاية الكردينال Ghislieri (القديس البابا بيوس الخامس)، وفيه ثمان واربعون طبعة للكتاب المقدس، واوقع الحرم على واحد وستين طابعا وناشرا. وفرض على كل كاثوليكي الامتناع عن قراءة أي كتاب نشر منذ سنة 1519 دون ان يحمل اسم المؤلف والطابع ومكان النشر وتاريخه. وحرمت قراءة أي كتاب بعد ذلك لم يحصل على اذن كنسي "Imprimatur" بطبعه.

ازداد التذمر ضد اعمال البابا وعندما مات البابا في 18 اب 1559 عن عمر ثلاثة وثمانين سنة وبعد اربع سنوات من الحبرية، كان التذمر قد وصل ذروته، واحتفلت روما بموته باربع ايام من الشغب، حطمت خلالها تمثاله وجرته في الشوارع. ثم اغرقته في نهر التيبر. واحرقت مباني محكمة التفتيش، واطلقت سجناءها، واتلفت وثائقها.

(4) المرحلة الثالثة من المجمع

البابا بيوس الرابع 18 كانون ثاني 1562 – 4 كانون اول 1563

تنفس الناس الصعداء حين اختار مجمع الكرادلة سنة 1559، جوفاني دي مديتشي حبرا اعظم باسم البابا بيوس الرابع. لم يكن من عائلة مديتشي المشهورة وانما ابن جاب للضرائب من ميلانو، اشتغل بالمحاماة ليكسب قوته، وظفر باعجاب بولس الثالث وثقته، فعين كردينالا. واشتهر بالذكاء والميل الى اعمال البر. فلما ارتقى عرش البابوية ابتعد عن الحرب، ولم يقض على محكمة التفتيش، ولكنه اشعر قضاتها انهم "يسرونه اكثر لو باشروا عملهم بلطف السادة المهذبين لا بجلافة الرهبان". واراد اغتياله متعصب حسبه مفرطا في اللين، ولكنه شُلَّ رهبة حين مر به البابا هادئا مجردا من اسباب الدفاع.

لم يترفع بيوس الرابع هو ايضا عن محاباة الاقارب Népotisme، ولكنه اختار الافضل منهم، فعين كردينالا ابن اخته شارل بورروميه Charles Borromée، البالغ من العمر اثنتين وعشرين سنة، ووكل اليه امانة سر الدولة Secrétaire d'Etat. وسيكون شارل المحرك الرئيسي للاصلاح وعونا كبيرا لخاله البابا، وزيادة على ذلك قديسا كبيرا.

اتضح للبابا ومنذ بدء حبريته انه لا يمكن للاصلاح ان ينجح دون اعادة عقد المجمع. فاصدر في عام 1560 براءته البابوية Ad Ecclesiae Regimen، حدد فيها موعدا لاعادة انعقاد المجمع في احد الفصح عام 1562. ودعا اليه جميع الامراء المسيحيين سواء الكاثوليك او البروتستنت الذين رفضوا الدعوة، بينما جلب المندوبون الفرنسيون معهم قائمة رهيبة بالاصلاحات التي ينشدونها: القداس باللغة القومية، والتناول تحت الشكلين، وزواج الكهنة، واخضاع البابا للمجامع العامة...

بعد تأجيلات كان دافعها الروية او الاستراتيجية، التأم شمل الجلسة السابعة عشرة للمجمع في 18 كانون ثاني 1562، بحضور خمسة كرادلة وثلاثة بطاركة، واحد عشر رئيس اساقفة، وتسعين اسقفا، واربعة رؤوساء عامين، واربعة رؤوساء اديار، وخمسة واربعين لاهوتيا، وتخلف الممثلون العلمانيون للامراء الكاثوليك. واستجابة لطلب فرديناند، عَرَضَ ضمان سلامة المرور لاي مندوب بروتستانتي يرغب في الحضور، ولكن احد لم يحضر.

انقضت الجلسات الاولى التي ادارها كالسابق المندوبون الباباويون بالجدال المضطرب لان امبراطور المانيا وملك فرنسا واسبانيا طلبوا بواسطة سفرائهم واساقفتهم البدء باصلاح الكنيسة مع اصلاح البلاط البابوي وتحديد السلطة البابوية. تمكن البابا بواسطة سفارات ومفاوضات ووعود بالاصلاحات الممكنة من خفض مطالب هؤلاء الملوك وصارت اعمال المجمع بهدوء.

انتهاء المجمع 4 كانون اول 1563

تمكن المجمع في جلساته الباقية من الثامنة عشرة وحتى الخامسة والعشرين، من اخذ الكثير من القرارت العقائدية والتنظيمية. وفي الجلسة الخامسة والعشرين، في اليوم الرابع من كانون اول عام 1563، اجمع البابا والامبراطور ان المجمع قد ادى ما عليه، فقام سكرتير المجمع وعمل ان يوقع آباء المجمع الحاضرون والذين بلغ عددهم 6 كرادلة و 3 بطاركة (منهم بطريرك القدس) و 25 رئيس اساقفة، و169 اسقفا، وسبعة رؤوساء عامون، وسبعة رؤوساء اديار، على جميع مقررات المجمع. فاعلن فض المجمع نهائيا وسط ابتهاج المندوبين المرهقين، بعد ان حدد المجمع طريق الكنيسة لقرون قادمة.

3- انجازات مجمع ترانت

اهتم مجمع ترانت في وقت متزامن بالمسائل العقائدية والتنظيمية. واصدر نوعين من القرارات، القرارات العقائدية والقرارات التنظيمية. كانت القرارات العقائدية تتألف عادة من قوانين canons، أي صيغ Formules قصيرة حيث كان يعلن بواسطتها محروما كل من ينكر العقيدة المعروضة في ال Canon. وكانت العقيدة عادة تعرض اما بمقدمة صغيرة او في فصول طويلة تتقدم القانون canons بينما لم يسبق القرارت التنظيمية التي كان الهدف منها اصلاح الكنيسة من المساوىء أي عقاب او حرمان.

(1) القرارات العقائدية

حدد مجمع ترانت عقائد كنسية كانت عرضة لانتقاد وتشويه الهراطقة. وكانت الهرطقة البروتستنتية قد تعرضت الى النقاط التالية: مصادر الوحي، والخطيئة الاصلية، والاسرار، والمطهر، وتكريم القديسين، والغفرانات.

أ) . مصادر الوحي

ردا على تعليم لوثر بان مصدر الايمان هو الكتاب المقدس فقط، اكد المجمع اعتبار التقليد أي كتابات اباء الكنيسة، ومقررات المجامع المسكونية، وتعليم الكنيسة العادي مصادر للوحي والايمان والاخلاق بجانب الكتاب المقدس. ورشق بالحرمان الذين يرفضون التقليد، والذين لا يقبلون الكتاب المقدس بكل اسفاره القانونية، واعلن ان ترجمة القديس ايرونيموس اللاتينية (الفولغاتا) هي الترجمة والنص النهائي للكتاب المقدس، واعطى المجمع الكنيسة الحق دون غيرها في شرح الكتاب المقدس وتفسيره. وبذلك واجهت الكنيسة تعليم لوثر حول مصدر الايمان: "الكتاب المقدس فقط" ، بـ "الكتاب المقدس والتقليد":

> "ان المجمع المقدس يقتدي بالآباء المستقيمي الايمان، فيتلقى ويكرم بنفس التقوى والاحترام، جميع اسفار العهدين القديم والجديد، اذ ان الله هو صاحب هذا وذاك، وكذلك التقاليد المتعلقة بالايمان والاخلاق، كأنها صادرة عن لسان المسيح او مملاة من قبل الروح القدس، ومحفوظة في الكنيسة الكاثوليكية بتعاقب متواصل" (الجلسة الرابعة 1546/4/8).

ب) . *الخطيئة الاصلية:*

خلط لوثر بين الخطيئة والشهوة، ونفى ان المعمودية تمحيها. فقرر المجمع 1) ان آدم بعصيانه لوصية الله فقد البراءة الاصلية واستحق غضب الله والموت، وانه اصبح ضعفيا في جسده ونفسه. 2) وان خطيئته اصابته واصابت نسله واوارثهم ليس فقط العقاب وانما ايضا الخطيئة. 3) وان هذا العصيان لا يتم بالتقليد او المماثلة وانما بالانتشار، وان الخطيئة لا يمكن ان تمحى الا باستحقاقات السيد المسيح المعطاة بواسطة المعمودية. 4) وبالتالي فان العماد ضروري للجميع للاطفال كما للبالغين. 5) وان النعمة الممنوحة بالمعمودية تحل من عقاب الخطيئة وتمحي من النفس "كل ما يحتوى على عناصر الخطيئة".

ج) . التبرير

علّم لوثر ان التبرير يتم بالايمان فقط، أي بفعل ثقة بسيط باستحقاقات السيد المسيح الممنوحة لنا، بدون الحاجة الى الاعمال الصالحة، التي لا اجر لها نظرا لفقدان الحرية. وانه يكفي ان يكون لنا هذه الثقة او الايمان البسيط باستحقاقات المسيح حتى نكون من المخلصين مهما فعلنا. وردا على هذه التعاليم الغريبة، فسر المجمع ان التبرير يتم بالنعمة الالهية التي تنبه الايمان في الانسان. واما الانسان من جهته فانه حر في ان يساعد هذه النعمة بقواته الخاصة. لذلك ثبت المجمع وجوب الاعمال الصالحة لاجل الخلاص:

> "ان قال احد ان الانسان بوسعه ان يتبرر امام الله باعماله التي ينجزها، اما بقوى الطبيعة، واما بتعليم الشريعة، بمعزل عن النعمة الالهية الممنوحة عن يد يسوع المسيح، فليكن مبسلا. ان قال احد ان الانسان، بما لديه من حرية الاختيار (الحرية) ولدى تلقنه الرفعة والحركة من الله تعالى، لا يتعاون قط معه منصاعا الى الله الذي يدفعه ويدعوه الى التأهب لنيل نعمة التبرير وانه ليس بوسعه ان شاء ان يرفض موافقته، بل هو عاجز كل العجز كالكائنات الجامدة عن انجاز أي عمل، ويلبث في حالة السلبية المطلقة، فليكن مبسلا" (الجلسة السادسة).

د) . الاسرار

1) المعمودية والتثبيت: بما ان تعليم الكنيسة عن الاسرار قد تم توضيحه وعرضه من قبل اللاهوتيون السكولاستيك امثال بيير لومبارد وتوما الاكويني، لم ير آباء المجمع ضرورة لاعادة عرض هذا التعاليم في فصول، وانما استكفوا باصدار 13 قانونا حول الاسرار عامة، و14 قانونا حول المعمودية خاصة و3 قوانين حول التثبيت، وادان

الاراء البروتستنتية بشأن هذه الاسرار، وثبت عددها السبعة والطريقة التقليدية للكنيسة الكاثوليكية التي يتم فيها منح هذه الاسرار بدون استثناء:

"ان قال احد ان يسوع المسيح لم ينشيء جميع اسرار الشريعة الجديدة، وان هناك اكثر او اقل من سبعة، وان احد السبعة ليس سرا بالمعنى الحصري، فليكن مبسلا" (الجلسة السابعة 1547/3/3).

2) القربان الاقدس: كان تعليم الكنيسة حول الافخارستيا مع قضية التبرير من اكثر القضايا التي شوهها البروتستنت. فكرس المجمع لسر الافخارستيا ثلاثة من جلساته: الثالثة عشرة، والواحدة والعشرين والثانية والعشرين. فاصدر في الجلسة الثالثة عشرة قرارا في ثمانية فصول و11 قانون، مؤكدا على 1) الحضور الحقيقي والفعلي والجوهري substantielle للمسيح كاملا في كل شكل من الشكلين وفي كل جزء من الشكلين منفصلين (ضد تعاليم كالفن الذي كان يقول بالاستحالة الرمزية للمسيح)، كما واكد على الاستحالة Transsubstantiation (ضد تعاليم لوثر الذي علم بـ Impanation).

وعرض المجمع في جلسته الواحدة والعشرين وفي اربعة فصول المناولة تحت الشكلين ومناولة الاطفال واصدر 4 قوانين يدين فيها كل من يعلم او يعتقد 1) ان المناولة تحت الشكلين هي شريعة الهية وضرورية للخلاص لجميع المؤمنين. 2) وان الكنيسة لم تعتمد على اسباب ضرورية وعادلة لمنع المناولة تحت الشكلين للعلمانيين وللكهنة خارج القداس. 3) وان من يتناول تحت شكل واحد لا يقبل المسيح كاملا. 4) وان المناولة ضرورية لخلاص الاطفال الذين لم يبلغوا بعد سن الرشد.

وفي الجلسة الثانية والعشرين، اصدر المجمع قرارا عقائديا في 9 فصول حدد فيه القداس بانه ذبيحة حقيقية تجدد ذبيحة الصليب وتمنح استحقاقات المسيح. وان المسيح عندما لفظ بكلمات "اعملوا هذا لذكري" رسم الرسل كهنة العهد الجديد، وان القداس هو ذبيحة تكفيرية للاحياء وللاموات ولا تخالف déroge ذبيحة الصليب، وان هذه الذبيحة تقدم لله، مع انه درجت العادة في الكنيسة بتقديمها ايضا تكريما للقديسين. وان قانون القداس خال من كل ضلال. وان الكنيسة انما اضافت الطقوس والاحتفالات المرافقة للقداس لاظهار جلال وعظمة هذه الذبيحة الكبيرة. واخيرا ادان المجمع كل من يرفض استعمال اللغة اللاتينية، ولفظ كلمات التقديس بصوت خافت، ومزج الماء والخمر في الكأس معتبرا هذا مخالفا لذبيحة المسيح.

"ان انكر احد ان سر الافخارستيا يحتوي حقيقة وفعليا وجوهريا، جسد يسوع المسيح ودمه مع نفسه ولاهوته، بل قال انه ليس فيه الا بالاشارة والصورة فقد او بالقوة، فليكن مبسلا" (الجلسة الثالثة عشرة، 1551/10/11).

3) التوبة ومسحة المرضى: رفض لوثر مسحة المرضى وشوه سر التوبه، مقتصرا شروط التوبة والمغفرة على الايمان فقط باستحقاقات المسيح، وناكرا قيمة الاعمال الخارجية كالحلة وافعال التوبة: الندامة والاعتراف والتعويض Satatisfaction. كما واصدر المجمع 15 قانونا ادان فيه تعاليم البروتستنتية حول سر مسحة المرضى.

4) الكهنوت: نشر المجمع في جلسته الثالثة والعشرين قرارا حول سر الكهنوت في 4 فصول و8 قوانين. وحدد المجمع ان تأسيس كهنوت منظور في الشريعة الجديد، نابع من تأسيس ذبيحة القداس، وان هذا الكهنوت اقامه المسيح عندما اعطى تلاميذه وخلافائهم سلطة تقديس جسد المسيح ودمه، وسلطة حل وربط الخطايا، وعندما وكل اليهم مهمة التبشير. وذكر الدرجات المختلفة العليا للكهنوت. واعلن ان الكهنوت هو سر حقيقي اسسه السيد المسيح، ويطبع في الشخص المرسوم ختما لا يمحى كالمعمودية والتثبيت.

وحدد المجمع ايضا انه يوجد في الكنيسة الكاثوليكية سلطة تراتبية Hiérachique، وان الاساقفة الذين يقيمهم الروح القدس لقيادة كنيسة الله ومنح اسرار التثبيت والكهنوت هم اعلى من مرتبة من الكهنة. وادان المجمع كل من يعلم تعليما مخالفة، ويعلم حسب التعليم الجديد ان كل المسيحيين هم كهنة، وان الكهنوت الممنوح بواسطة الاساقفة غير شرعي لانه معطى بدون موافقة الشعب والسلطة الزمنية.

وتجنب المجمع الخوض في قضية معرفة اذا كان الاساقفة يستمدون سلطتهم مباشرة من المسيح او غير مباشرة بواسطة البابا. ايد الاساقفة الاسبان الرأي الاول، بينما ايد الايطاليون الرأي الثاني. في الواقع ان آباء المجمع خلطوا بين سلطة الكهنوت Pouvoir d'Ordre وسلطة الحكم Pouvoir de juridiction، وهذا ما حاول شرحه الكاهن اليسوعي P. Laynez، عندما بيّن لآباء المجمع ان سلطة الكهنوت تأتي مباشرة من الله، ولكن سلطة الحكم اتت مباشرة من الله لبطرس وخلفائه، وايضا بطريقة الامتياز Priviliège للرسل الاخرين، بينما للاساقفة تعطى سلطة الحكم مباشرة من الحبر الاعظم

وغير مباشرة من الله. بالرغم من صواب ارائه الا ان الآباء تجنبوا الخوض في هذا الموضوع، واستكفوا بان اكدوا ان في الكنيسة سلطة تراتبية اقامها الله مؤلفة من الاساقفة والكهنة والشمامسة.

"ان قال احد بأنه ليس في العهد الجديد كهنوت منظور وخارجي او انه لا وجود لسلطان التقديس او لتقريب جسد الرب ودمه الحقيقيين، او لحل الخطايا او ربطها، بل هناك مجرد وظيفة للكرازة بالانجيل وخدمة لاعلان البشارة، او ان الذين ينقطعون عن الوعظ لم يعودوا كهنة، فليكن مبسلا" (الجلسة الثالثة والعشرون 1563/7/15).

5) الزواج: حدد المجمع تعاليمه عن الزواج في جلسته الرابعة والعشرين في فصل قصير عرض فيه الزواج وطبيعته (وحدة وغير قابل الانفصال) والصفات القدسية للزواج في الشريعة الجديدة، تبعه 12 قانونا تدين كل من يقول ان سر الزواج ليس من الاسرار السبعة التي أسسها المسيح، وان الشرعية الالهية لم تمنع تعدد الزوجات، وان درجات القرابة الدموية consanguinité و Affinité الموجودة في سفر اللاويين هي وحدها تشكل موانع للزواج ولا يمكن للكنيسة ان تمنح الحل منها، ولا تملك صلاحية وضع موانع اخرى، وانه يمكن حل الزواج بسبب الهرطقة، ولصعوبة التعايش المشترك، والزنى، وان الزواج غير المكتمل لا يُحل بلفظ النذور الرهبانية.

وادان المجمع ايضا (بالخصوص البروتستنتية) الذين يقولون ان الاكليروس الذي قبل سر الكهنوت والرهبان الذين ابرزوا النذور الدائمة وخصوصا العفة، في امكانهم الزواج زواجا شرعيا، وادانت ايضا من يقول ان الحالة الزوجية هي اسمى من حالة العزوبية والبتولية.

"وان الذين يُقدِمون على عقد زواج بدون حضور كاهن الرعية او أي كاهن اخر فوضه كاهن الرعية او الاسقف، وامام شاهدين او ثلاثة، يصرح المجمع بانهم غير اهل على الاطلاق لعقد زواج وبان مثل تلك العقود باطلة وغير صحيحة" (الجلسة الرابعة والعشرون، 11/11/ 1563).

هـ) المطهر، تكريم القديسين والغفرانات:

اصدر المجمع في جلسته الخامسة والعشرين والاخيرة ثلاثة قرارات:

1) حول المطهر: وجوده على ضوء تعاليم الكتاب المقدس والتقليد القويم للآباء، وامكانية المؤمنين تخفيف عذابات النفوس المطهرية بصلواتهم وبتقديم ذبيحة القداس.

2) حول تكريم القديسين وذخائرهم، وتكريم الصور المقدسة: المسيح والعذراء والقديسين، وحول المساوىء التي يجب اجتنابها في هذا الصدد.

3) حول الغفرانات: السلطة الممنوحة للكنيسة من السيد المسيح لتمنح الغفرانات وضرورتها. وادان المجمع كل من يعلم او يقبل تعاليم مخالفة.

(2) القرارات التنظيمية لمجمع ترانت

اهتم آباء المجمع ايضا وبنوع خاص بالامور والقضايا التنظيمية. اذا كان من اهم اهداف المجمع اصلاح الكنيسة في "الرأس والاعضاء" الذي كان امل ورغبة الكاثوليك والبروتستنت على حد سواء. وصدرت من المجمع قرارات تنظيمية تخص الاكليروس والعلمانيين.

1) الاكليروس:

اصدر المجمع قرارات تنظيمية تشمل السلطة الكنيسة، من الرأس، الرئيس الاعلى للكنيسة، البابا وحتى اصغر وابسط عضو في الاكليروس مبينا واجبات وحقوق كل فئة منهم:

البابا: – ذكّر المجمع البابا ان من واجبات مركزه، السهر والرعاية على الكنيسة الجامعة (جلسة 24). وانه يعود اليه العمل على نزع واستئصال المساوىء من الكنيسة (جلسة 24). وانه لا يمكن تجديد او تغير شيء في الكنيسة بدون اذنه واستشارته (جلسة 25). كما وحفظ المجمع للبابا النظر في الامور المهمة المتعلقة بالاساقفة.

الكرادلة: – قرر المجمع ان يجب اختيار الكرادلة بقدر الامكان من كل الجنسيات والبلاد المسيحية. واوصى ان يعيش الكرادلة حياة بسيطة، بعيدة عن الترف، والابتعاد عن الاباطيل "يجب ان يتحلى الكرادلة، الذين مهمتهم مساعدة الحبر الاعظم بنصائحهم واراشاداتهم ومشوراتهم، في ادارة دفة الكنيسة الجامعة، بالفضائل الظاهرة، والعيشة المستقيمة بشكل يكونون مثالا يحتذي به الجميع" (جلسة 25).

الاساقفة: – شدد المجمع على مبدأ الاقامة والثبات للاسقف في ابرشيته، وان لا يتغيب الا لاسباب وجيهه، واذا تغيب ان لا يكون ذلك اكثر من ثلاثة اشهر. – ومنع منعا باتا غياب الاسقف عن ابرشيته في الازمنة الكبرى: المجيء والزمن الاربعيني... – وقد رأى آباء المجمع في واجب الاقامة والثبات للاسقف وسيلة للاصلاح، اذ بثباته يكف الاسقف عن تجميع المناصب، – والتي هي ايضا منعت في الجلسة السابعة، – كما وراى فى الثبات الوسيلة الوحيدة التي تتيح للاسقف القيام بواجبات وظيفته.

ما هي هذه الواجبات؟

1) واجب تثقيف وتهيئة اكليروس ابرشي فاضل ومتعلم. ومن هنا على الاسقف فتح المدارس وتأسيس الكليات والمعاهد اللاهوتية لدريس اللاهوت والكتاب المقدس. وفي جلسته الثالثة والعشرين، صدرت القرارات بفتح المعاهد الاكليريكية في كل ابرشية.

2) واجب الوعظ: على الاسقف ان يعظ يوم الاحد وايام الاعياد. وفي حالة عدم تمكنه ان يفوض عنه اشخاصا اكفاء. وان يمنع عن الوعظ الاشخاص الذين يشككون ويعلمون تعاليم خاطئة، واخذ الاجراءات القانونية ضدهم. كما ومنع المجمع الرهبان من الوعظ في الكنائس دون اذن الاسقف. كما وعلى الاسقف ان يمنع من الوعظ جابي الصدقات .

3) فرض المجمع على الاسقف ان يقبل الرسامة ثلاثة اشهر بعد تعيينه او انتخابه. كما فرض عليه ان يمنح الرسامات دون مقابل ولاشخاص اكفاء، صالحين، ومستحقين، حائزين على الصفات المطلوبة، وبالغين السن القانوني للرسامات (جلسات 7، 14، 21، 23). كما منع المجمع الاسقف من ان يوكل رعاية النفوس لمن لم يبلغ سن الخامسة والعشرين.

4) كما فرض المجمع على الاساقفة واجب زيارة ابرشياتهم وكنائسهم سنويا، واصلاح وصيانة اماكن العبادة، والاهتمام بالمستشفيات (جلسة 7)، ومنح الاسقف حق فتح الرعايا الجديدة في ابرشيته (جلسة 21).

5) واجب مراقبة الاكليروس ومنع ذوي السمعة السيئة منهم، وغير الاكفاء من مزاولة وظائفهم والسهر على الغاء كل الانحرافات التي تم ادخالها في القداس.

6) واجب عقد مجامع محلية كل ثلاثة سنوات، والسينودسات الابرشية كل سنة (جلسة 24). كما قرر المجمع انه على الاساقفة اعلان قرارات المجمع في السينودسات المحلية والعمل على تطبيقها، وان لا يغالي في استعمال الحرمانات

القانونيون Les Chanoines: – أوصى المجمع ان يتم تأليف مجلس القانونيين من اشخاص حائزين على درجات علمية. وان يواظبوا على المداومة على صلوات الخورس، اذا ما ارادوا الحصول على مخصصاتهم. كما ونظم المجمع حقوق مجلس القانونيين اثناء فراغ الكرسي الاسقفي.

الكهنة: – فرض المجمع على الكهنة، على مثال الاساقفة، الثبات في رعاياهم، وعلى الوعظ ايام الاحاد والاعياد، وعلى تلقين التعليم المسيحي، وان يشرحوا ويفسروا للشعب الكتاب المقدس، والاسرار، والليتورجيا. ولتسهيل الامور على الكهنة اعلن المجمع قرب صدور كتاب التعليم المسيحي الكاثوليكي.

الاكليروس: قرر المجمع انه يجب من الان وصاعدا تهيئة طلاب الكهنوت في معاهد اكليريكية بدل المدارس والكليات العامة.

> "ان الشبان، ان لم يُربّوا تربية حسنة، ينقادون بسهولة الى ملذات العالم. ولذلك، فان لم يُدربّوا على التقوى والدين، منذ نعومة اظفارهم، حيث العادات الرديئة لم تستولِ على الانسان تماما، يستحيل عليهم، بدون حماية كبيرة وخاصة من لدن الله القادر على كل شيء، ان يثبتوا ثباتا تاما على النظام الكنسي. لذلك فان المجمع المقدس يقرر انه يجب على جميع الكنائس، كل واحدة بحسب طاقتها واتساع ابرشيتها، ان تربى في التقوى وتدرب على النظام الكنسي عددا من اولاد المدينة او الابرشية، او الاقليم ان كان العدد قليلا، من مدرسة يختارها الاسقف لهذا الغرض تكون قريبة من الكنائس او في مكان اخر مناسب" (الجلسة الثالثة والعشرون 15/7/ 1563).

الرهبان: – نظّم المجمع الحياة الرهبانية، وامام انحطاط الجمعيات الرهبنية في العصور الوسطى، والذي ظهر في ترك الكثيرين من الرهبان والرهبات الحياة الرهبنية ايام لوثر، عرضت لجنة الاصلاح التي الفها البابا بولس الثالث توصية بالغاء الجمعيات الرهبنية القديمة. الا ان المجمع قرر، دون اللجوء الى هذه التوصية المبالغ فيها، العمل على مداوة الداء قبل الهدم، فاصدر آباء المجمع، قوانين مهمة للحياة الرهبانية: العمر، شروط القبول، انتخاب الرؤساء... ولتجنب

احدى المساوىء الكبيرة، وهي قبول الاطفال في الحياة الرهبانية، قرر المجمع فرض سن السادسة عشرة لقبول النذور الرهبانية للفتيان، وسن الثانية عشرة للفتيات. ومنع الرهبان من امتلاك أي شيء خاص بهم. واعاد الحِصن clôture التام في ادرة الراهبات. ومنع منح رئاسة او ملكية او قيادة او ادارة الاديرة الى العلمانيين. ونظم العلاقات بين الرهبان والاساقفة.

2) العلمانيون

الامراء: – كان تدخل الامراء الدائم والمستمر في الامور الكنيسة سببا رئيسا في المساوىء التي شوهت صورة الكنيسة. فقد اخذ الامراء حق التصرف على هواهم بممتلكات الكنيسة، وحق تعيين او فرض تعيين اشخاص في المناصب الكنسية، ومراقبة اعمال الاكليروس، حتى اصبحت الكنيسة تابعة لهم. فمنع المجمع في جلسته الخامسة والعشرين الامراء من التدخل في الامور الكنسية، وطلب منهم العمل على تنفيذ قرارات المجمع، واحترام والعمل على احترام ممتلكات وحقوق وامتيازات الكنيسة.

الشعب: – دعى المجمع المؤمنين الى الذهاب الى الكنيسة آيام الاحاد والاعياد (جلسة 22). ومنع استعمال المبارزة لفض الخلافات تحت طائل الحرمان (جلسة 25). واعلن بطلان الزواج السري، وقرر ان الزواج الصحيح والشرعي هو فقط الذي يتم بحضور كاهن الرعية او من يفوضه كاهن الرعية وبحضور شاهدين.

4- تصديق واعلان مقررات مجمع ترانت

صادق البابا بيوس الرابع للمرة الاولى على مقررات مجمع ترانت في اجتماع مجلس الكرادلة في 30 كانون اول عام 1563، ومرة ثانية في براءته "Benedictus Deus et Pater" الصادرة بتاريخ 26 كانون ثاني 1564، وحملت امضاءه هو و26 من الكرادلة. وحتى تدخل حيز التنفيذ بقى لهذه القرارات ان تعلن وتطبق.

كان اعلان هذه المقررات يعود في نفس الوقت الى الملوك والى الاساقفة، فالملوك باعلانهم لها يعطونها قوة القانون، والاساقفة يعلنونها لتسري على كنائسهم. وبالواقع فان اهم اعلان هو اعلان الملوك. وبما ان الملوك لم يكونوا راضين تماما عن هذه القرارات، تطلب اعلانها الكثير من الوقت والصبر والدبلوماسية.

قبلت جمهورية البندقية Venise، وملك البرتغال، ودوق سافوى Savoie وجميع الامراء الايطاليين مقررات مجمع ترانت بدون شروط. واضاف ملك اسبانيا تحفظا "على شرط ان لا تتعدى هذه المقررات على قوانين المملكة"، واعلنتها بولندة Pologne في عام 1564، ونشرها ماكسمليان الثاني في المانيا عام 1566.

اما فرنسا وانكلترة قد قبلت المقررات العقائدية دون تحفظ، وعارضت القرارات التنظيمية. فقد تذمرت فرنسا من هذه القرارات، واعتبرت البعض منها تعديا على حقوق وحرية وامتيازات الكنيسة الفرنسية. من هذه المقرارت: حفظ الحكم في القضايا الكبيرة للبابا (محاكمة الاساقفة المتهمين بجرائم كبرى، واقالة الاساقفة غير الثابتين، والنظر في القضايا التي يمر عليها الوقت بدون البت فيها في المحاكم الابرشية، وحرمان الامراء الذين يرجعون الى المبارزة في حل خلافاتهم. كما واعترضوا على اعلان البابا اسقف الكنيسة الجامعة، لانها تجعل من البابا اعلى سلطة من المجامع). لذلك لم يقم أي ملك باعلان مقررات المجمع في فرنسا.

لم يتبع اساقفة فرنسا ،لحسن الحظ، موقف ملوكهم السيء. وحاولوا في مناسبات عديدة اما في اجتماع المجالس الكنسية او البرلمانية، دفع الحكومة على اعلان هذه المقرارات مع بعض التعديلات التي يمكن ادخالها بكل سهولة. واعلن الاساقفة هذه المقررات في عدة مجامع محلية: مجمع كامبريه عام 1565، ومجمع روان عام 1581، ومجمع تور 1583، ومجمع بورج 1584، ومجمع اكس Aix 1585. وقبلت جميع ابرشيات الاساقفة الحاضرين والغائبين، في اجتماع عام للاكليروس الفرنسي بتاريخ 7 تموز 1615، الموافقة على مقررات المجمع.

5- نتائج تعاليم المجمع

اعطت مقررات المجمع ومن ثم تطبيقها النتائج الجيدة والمثمرة على الصعيدين العقائدي والتنظيمي.

1) فعلى الصعيد العقائدي:

قطع المجمع بتحديده الصيغ Formules العقائدية الطريق على كل جدال. فامام تعاليم البروتستنتة المتغيرة في كل قانون ايمان بين احزابها وتشعباتها وشيعها المختلفة، وحتى بين افرادها، عرض آباء المجمع بكل وضوح ودقة تعاليم الكنيسة التقليدية. فقد حدد مجمع ترانت، بعد مجمع نيقية والقسطنطينية وافسس وخلقيدونية، الذين حددوا عقيدة الثالوث الاقدس والتجسد والفداء، حدد مجمع ترانت عقيدة الكنيسة حول الكتاب المقدس، والخطيئة الاصلية، والتبرير، والاسرار. وحافظ على التعبد للعذراء والقديسين والغفرانات وعزوبية الكهنة. ولكنه عمل خصوصا علىجعل الكنيسة ملوكية Monarchie ثابتة ودستورية constituée، باعلانه البابا "راعي الكنيسة العام universel، يملك كل صلاحيات ادارة الكنيسة الجامعة". جاعلة منه الرئيس الاعلى للهيئة الكنسية، اعلى حتى من المجامع.

صحيح ان هذا التعليم الاخير لم يقبل بالاجماع وخصوصا في فرنسا من قِبَل الكنيسة الغاليكانية Gallicans، الذين ارادوا خفض سلطة البابا واخضاعها لسلطة المجامع. ولكن هذا التعليم اخذ يشق طريقه رويدا رويدا حتى الانتصار والقبول التام من الجميع.

بقبول آباء المجمع برئاسة البابا على المسيحية، عملوا على توطيد مبدأ "الوحدة" الذي سيكون واحدا من اقوى عناصر قوة الكنيسة الكاثوليكية. ولتأكيد الحفاظ على هذه الوحدة اراد المجمع وشدد المجمع على الحفاظ على اللغة اللاتينية في القداس، والاعمال التقوية الاخرى كلغة مشتركة وموحدة للكنيسة.

2) على الصعيد التنظيمي

كونت مقرارات المجمع التنظيمية دستورا للقوانين موجها سواء للعلمانيين او للاكليروس، هدفه تحقيق الاصلاح الاخلاقي في الكنسي. والكنيسة في تأسيسها للمعاهد الاكليريكية سيكون في وسعها الحصول على عناصر ليس فقط متعلمة مثقفة، بل مهيئة بالفضائل ومستعدة لنمط الحياة المطلوب عيشه، ويليق بهم كخدام الهيكل. كهنة متعلمون ومهيئون، سيكون لهم فعالية اكبر في التأثير الخلاصي على الشعب والعمل على اصلاح ممارسات الشعب المسيحي.

خرجت الكنيسة من هذه الازمة الرهيبة وربما الاكثر خطورة في تاريخها، والذي فيه خسرت جزءا كبيرا من اوروبا الذي انفصل عنها، خرجت كنيسة المجمع كنيسة منظمة ومطهرة، مليئة بالحياة، والذي ستظهر نتائجه سريعا وتزدهر في القرن السابع عشر في ظهور قديسين ورجال عظماء، واعمال باهرة. بقي علينا في الفصل التالي ان نرى من هم "عمال هذا الاصلاح" الذي وضع المجمع اساسه.

الفصل الثاني والخمسون

عمال الاصلاح الكاثوليكي

تعاونت ثلاثة انواع من العمال، كلٌ في مجاله وبقدر امكانياته في عملية متابعة ومواصلة وانجاح الاصلاح التي بدأت في مجمع ترانت: أ) البابوات ب) الاساقفة ج) الجمعيات الرهبانية.

1) البابوات

يعود الفضل في وجود مجمع ترانت الى ثلاثة بابوات: بولس الثالث ويوليوس الثالث وبيوس الرابع. كان للاول الفضل في تذليل الصعاب التي كان تعترض دعوة وعقد المجمع، وفي ادارة اعماله من خلال جهازين: امانة سر الفاتيكان والمبعوثين البابويين، الذين كانوا على اطلاع دائم على افكار البابا. اما البابا يوليوس الثالث، ولاسباب سياسية وظروف خاصة، فقد أُجبر على تعليق اعمال المرحلة الثالثة للمجمع. اما الثالث، فقد نجح بمهارته وعزمه، في التغلب من جديد على كل الصعاب واتمام المجمع بنجاح.

ترك آباء المجمع مهمة متابعة اعماله والعمل على تطبيق قرارته على الكرسي الرسولي. وسيقوم ايضا ثلاثة بابوات آخرين، بمثابرة ومتابعة متواصلة وبجهد ملفت للنظر، القيام بهذه المهمة الطويلة والشاقة وهم بيوس الخامس، وغريغوريوس الثالث عشر وسكتس الخامس.

ولم يكد المجمع ينتهي (4 كانون اول 1563)، حتى بدأ البابا بيوس الرابع، بدعم كبير من ابن اخته الكردينال شارل بورميه **Charles Borromée**، بالعمل على تطبيق قراراته. فمنع في مرسوم تصديق هذه القرارات "كل تعليق وشروح، وملاحظات، وزيادة على هذه القرارات". ثم انشأ بعد ستة اشهر "مجلس المجمع" Congrégation du Concile، ووكل اليه مهمة السهر والعمل على تطبيق، واذا اقتضى الامر على تأوين القرارات المجمعية. "motu proprio "Alias nos) (2 août 1564. ولمنع انتشار العقائد المضللة، اصدر "الفهرس Index" مكملا لفهرس البابا بولس الثالث، وفيه لائحة بالكتب الممنوعة واضاف اليها القواعد الصحيحة كي يستعين بها المؤمنون في اختيار ومطالعة الكتب الصحيحة.

كان آباء المجمع قد قرروا ايضا ان على الاساقفة وكهنة الرعايا، وبنوع خاص، كل من له مهمة الاعتناء بالنفوس، ان يحلفوا اليمين قبل استلامهم لمناصبهم، بالمحافظة وتطبيق قرارات المجمع، وان يدينوا الهرطقات التي ادانها المجمع، وان يؤدوا قسم الولاء للبابا. ولتسهيل هذه الاجراءات اصدر البابا بيوس الرابع ونشر في 13 تشرين ثاني 1563 "اعتراف ايمان Professio fidei Tridentina"، وجعله اجباريا ليس فقط على المذكورين اعلاه وانما ايضا على معلمي وطلاب اللاهوت في الجامعات.

(1) بيوس الخامس 1566-1572

لتحقيق القرارات الاصلاحية كان لا بد من بابا قديس، يفرض نفسه على العالم المسيحي بقداسة حياته، بابا يكون في نفس الوقت دبلوماسيا وحازما، تساهم هيبته وصرامته على التأثير على الامراء، فيحصل على دعمهم لعملية الاصلاح. وجمع بيوس الخامس هذه الصفات في شخصه. ومع ذلك فقد فوجئ اهل روما بانتخابه[4].

[4] يقال ان البابا بيوس الخامس قال عندما علم ان اهل روما تفاجأوا اكثر مما فرحوا بانتخابه "ساعمل على ان يأسف اهل روما على موتي اكثر مما أسفوا على انتخابي".

سيتخذ بيوس الخامس برنامجا اصلاحيا لولايته ينص على ان 1) يحارب المساوىء في الاخلاق وفي القوانين الكنسية والليتورجيا 2) ان يعمل على توطيد الوحدة في الكنيسة الكاثوليكية بمحاربة اعداء الكنيسة.

بيوس الخامس المصلح

ظهر توجه بيوس الخامس الاصلاحي منذ الايام الاولى من حبريته. فبدل ان يقدم للكرادلة والسفراء مأدبة كبيرة للاحتفال بانتخابه، كما كانت العادة، وزع على الفقراء المبلغ الذي كان سيصرفه على ذلك. مقتصدا وليس بخلا، اهتم بصالح شعبه، فقام باعمال عامة من تصليح قنوات المياه، وتابع اعمال بناء كنيسة مار بطرس، وكرس مبالغ كبيرة للخدمات الصحية ولكل اعمال البر والاحسان.

وعلى الصعيد الروحي، عمل على ابعاد المومسات من روما، وحدد لليهود الاقامة في مجمعاتهم، وامرهم بتخفيض الفائدة على الديون، وفتح نوعا من بنوك الاقراض ليحد من التجاء الناس الى المرابين. وعمل على نقل التماثيل العارية المخدشة للحياء من القصور البابوية بعيدا ووضعها في المتاحف. واراد ان يلغي بعض الاحتفالات الشعبية كسباق الخيول امام كنيسة مار بطرس، واحتفال الكرنفال المثير للحواس. الا انه امام احتجاجات الشعب، استكفى بان اصدر الاحتجاجات ضدها، وانعزل اثناء الاحتفال بها في دير سانت سابين Ste Sabine الدومنيكاني، مكرسا هذه الايام للصلاة.

حارسا يقظا على الايمان كما على الاخلاق، اثار حماس مفتشي المحاكم على عقاب المجديفين ومدنسي يوم الاحد، واعاد الى الحياة احدى قرارات مجمع اللتران عام 1215، الذي يجبر الاطباء على اعلام مرضاهم بخطورة مرضهم، ويحثونهم على قبول الاسرار، تحت تهديد منع الخدمة الطبية عنهم ان رفضوا.

وجه البابا بعد ذلك همه الى محاربة المساوىء التي استعلمها الاعداء حججا لانتقاد البابوية. فبدأ باكبر المساوىء واقدمها في الكنيسة "محاباة الاقارب Népotisme"، مع انه عيّن ابن اخته مشيل بونلي كردينالا وسكرتيرا وامينا للسر، استجابة لطلب مجلس الكرادلة الذي رأى في هذا التعيين ضرروة لحفظ اسرار العلاقات الدبلوماسية، لم يعين احدا اخر من اقاربه لأي مناصب ولم يمنحهم أي شيء من ممتلكات الكنيسة. بل واصدر في 29 اذار 1567، مرسوما مشهورا ""Admonet وفيه منع مستقبلا منح أي من ممتلكات الكنيسة لاحد، وقرر وجوب اعادة الممتلكات التي تم منحها في الماضي الى الكنيسة بعد موت الاشخاص الممنوحة لهم. وكان هذا المرسوم، الذي كان على كل كردينال او بابا جديد ان يقسم عليه، من اقوى الحواجز التي وضعت للحد من "محاباة الاقارب".

ومن المساوىء الاخرى التي قاومها بشدة، جشع القضاة. اراد ان يمنح القضاة عدلا مساويا للجميع، للفقراء كما للاغنياء، واستأجر محامين للدفاع عن من لا قدرة لهم. وكرس كل اخر اربعاء من الشهر كجلسات محاكم عامة مفتوحة، ترأسها هو وكردالته، ليسمع مطالب المشتكين. وكان يسمع لهم بصبر مهما طالت تشكياتهم. ودافع عن الصغار والضغفاء ليس فقط في ولايته بل وحتى في البلاد المسيحية الاخرى.

عمل بيوس الخامس ايضا بحماس وبدون تهاون على تطبيق قرارات مجمع ترانت في ولاياته البابوية وفي كل البلاد الكاثوليكية. فاخذ الاجراءات ضد الاساقفة الذين لم يحافظوا على الاقامة والثبات، فعزل المعاندين، واصدر مرسوما قرر فيه ان على المرشح للاسقفية ان يحصل على ثلثي اصوات الكرادلة ليتم تنصيبه اسقفا. وحث بواسطة مبعوثين الملوك والامراء على العمل على اعلان قررات المجمع والسهر على تطبيقها في بلادهم. ولم تلق دعوته هذه القبول الكبير لديهم.

من اهم انجازات البابا بيوس الخامس والتي عهد اليه المجمع اتمامها اصدار، هي اصداره عام 1566 كتاب "التعليم الروماني Le Catéchisme Romain"، وكتاب "الفرض الروماني Le bréviaire romain" المجدد عام 1570، وفي عام 1678 اصدر كتاب "القداس الروماني Le Missel romain". واعلن القديس توما الاكويني معلما للكنيسة في 11 نيسان 1567.

محاربة اعداء الكنيسة

كان الهدف الثاني في برنامج البابا بيوس الخامس اعادة الوحدة الكاثوليكية بمحاربة تقدم البروتستنتية والاتراك.

(1) محاربة تقدم البروتستانتية

عمل بيوس الخامس بعزم على محاربة الهرطقة في البلاد التي توطدت فيها: المانيا وانكلترة وسويسرا وهولندا. ولم تتأثر الكاثوليكية في بلاد بقدر ما تأثرت في المانيا، اذ استغل الامراء الصعوبات السياسية التي كان يتخبط بها الامبراطور

(حروبه مع فرنسا وخطر الاتراك)، فعملوا على توسيع وتطوير مناطق نفوذهم. ولم يكن البابا بيوس الخامس ليتهاون في هذا الموضوع. ولكونه انسانا خلا من الطموحات السياسية، فما ان ارتقى الكرسي الرسولي حتى ارسل الى مجلس الامة المنعقد في اوغسبورغ عام 1566، طالبا منهم الطاعة لقرارات مجمع ترانت، وعدم وضع البروتستانتية والكاثوليكية على قدم المساواة. وكان له ما اراد. واظهر بيوس الخامس نفس السلطة مع مكسيمليان، الذي كان ميالا في مجلس الامة في سبير Spire بمنح البروتستانت تنازلات اخرى، لحاجته الى مساعدتهم لمحاربة الاتراك. وبنفس الوقت عمل على تشجيع المرسلين الذين بدأوا العمل على اعادة الكاثوليكية الى المانيا.

وفي انكلترة، حرم البابا الملكة اليزابيت (1570) وحل اتباعها من طاعتها، وشجع الكاثوليك وزعيمهم دوق نورفولك في صراعه ضد الملكة.

وفي سويسرا ايد الدوق دي سافوى Duc de Savoie في سعيه لاستعادة جينيف من الكلفينيين.

وفي هولندا، ايد الاجراءات الشديدة التي اتخذها دوق دالب Duc d'Albe ضد المتمردين البروتستنت.

(2) غريغوريوس الثالث عشر 1572–1585

خلف الكردينال هوغو بونكوباني Hugo Buoncompagni البابا بيوس الخامس واتخذ له اسم غريغوريوس الثالث عشر. وبما انه كان يبلغ الواحد والسبعين من عمره، لم يُنتظر منه ان يقوم بالشيء الكثير، الا انه اظهر نفس الحزم والعزم في مواصلة الاصلاح كسلفه، ولكن بروح اكثر اعتدلا.

منجزات البابا عريغوريوس الثالث عشر

عمل غريغوريوس على متابعة ومواصلة الاصلاح على الصعيدين: التعليم والاصلاح الليتورجي .

اصلاح التعليم: تتطلب اعادة الكاثوليكية ومحاربة البروتستنت تطوير المؤسسات التعليمية لتصبح اهلا لتحضير المرسلين ولم يسبق احد غريغوريوس في هذا المضمار. فاعاد احياء الكلية الرومانية والكلية الالمانية، وصرف المبالغ الطائلة في سبيل توسيعهما وتجميلهما. واراد للكلية الرومانية – التي ستصبح فيما بعد وحتى اليوم الجامعة الغريغورية Université Grégorienne – ان تكون جامعة لكل الشعوب والجنسيات، فبلغ تعداد طلابها في عام 1584 ما يقارب الثلاثة الاف طالب من كل البلاد. ومن هذه المؤسسة سيخرج البابوات والكرادلة والاساقفة ومئات الكهنة والمرسلين. واعطى للكلية الالمانية التي تركها البابا بولس الرابع بدون مال ولا مدخول، قوة دفع جديد جعلت منه المؤسس الثاني لها، وزودها بالمال بسخاء. كما واهتم ودعم كلية اخرى لتعليم الانكليز الكاثوليك الذين اضطروا للنزوح عن انكلترة تحت اضطهاد اليزابيت. كما وفتح كليات اخرى منها واحدة لليونان واخرى للموارنة. واخيرا وبفضل سخاءه تم فتح اكثر من عشرين كلية في الخارج وعهدت ادارتها الى اليسوعيين.

الاصلاح الليتورجي: استدعى اصلاح الفرض وكتاب القداس الذي اتمّه بيوس الخامس، اصلاحا اخر للتقويم الكنسي والمرتيرلوج (كتاب حياة الشهداء).

أوصى مجمع نيقية (325) الاحتفال بعيد الفصح بحسب التقويم القمري بحيث يكون هناك انسجام بين السنة المدنية والسنة الليتورجية والسنة الفلكية. الا ان هذا الانسجام لم يكن حاصلا. وكان التقويم اليولياني الذي تم اعتماده سنة 46 قبل المسيح من قِبَل يوليوس قيصر، والذي كان لا يزال قيد الاستعمال، قد حدد السنة المدنية بـ 365 يوما، وست ساعات، مما اعطى ايضا ان تكون هناك سنة كبيسة كل اربع سنوات. الا انه اتضح ان السنة الفلكية تمتد على 365 يوما وخمس ساعات و49 دقيقة و12 ثانية. من هنا ظهر ان مع انتهاء القرن السادس عشر كان هناك نقص قيمته عشرة ايام بين السنة المدنية والسنة الفلكية. كيف العمل على تلافي هذا النقص؟ اهتمت عدة مجامع بهذا الموضوع منها مجمع كونستانس وبازل والليتران الخامس، واعيد دراسته ايضا في مجمع ترانت. وفي عام 1577 انشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر لجنة من العلماء وعهد اليها مهمة ايجاد حل لهذه المشكلة، واستلهمت هذه اللجنة حلا كان قد توصل اليه العالم الفلكي لويجي ليليو Luigi Lilio، والذي ينص على انه لاعادة التوافق بين السنة المدنية والفلكية يكفي حذف عشرة ايام من السنة الجارية، ولتجنب مثل هذا التفاوت في المستقبل في السنة المدنية، من المجدي اتخاذ قرار يجعل سنة واحدة من القرون الاربعة الاولى 1600، 1700، 1800، 1900، سنة كبيسة على ان تكون هذه السنة التي فيها ينقسم الرقمين الاولين على اربعة. واعلن البابا، بعد ان استشار عدة جامعات وحاز على رضى وموافقة البلاط الملكي في البلاد الكاثوليكية، في منشوره Inter gravissimas بتاريخ 13 شباط 1582، ان يوم 4 تشرين

اول سيصبح الخامس عشر منه[5]. ورفض البروتستانت "التقويم الغريغوري" كأنه صادر من "عدو المسيح" ولم يتبعوه الا في اواخر القرن الثامن عشر، ولا يزال المسلمون والارثوذكس يرفضونه.

على الصعيد السياسي. واجه البابا غريغوريوس الثالث عشر على الصعيد السياسي بعض النكسات. فقد فشل كسلفه في توحيد الاسبان واهل البندقية في حلف مقدس ضد الاتراك فتوصل كل واحد منهم على حدة الى اتفاقية سلام مع السلطان. ولم ينجح في جر الامراء الكاثوليك ورائه ضد اليزابيت ملكة بريطانيا.

الا ان اكبر النكسات كانت في اداراته لولاياته البابوية. فامام المصاريف الباهظة للقيام بكل الاصلاحات وبناء المؤسسات، اصبحت خزينة الكرسي الرسولي في عجز. ولم يكن امام البابا الا فرض ضرائب جديدة او استعادة املاك الكنيسة التي وزعت او اعطيت او تم اقتطاعها. فاختار الثانية والف لجنة تعمل على اعادة هذه الاملاك الى الكرسي الرسولي، إما بعد موت من آلت اليه، وإما بسبب عدم تنفيذ بنود الاتفاق من قبل من كانت هذه الاملاك تحت تصرفه.لم تلق هذه الاجراءات قبول الاشخاص المعنيين، فقامت ضد الكرسي الرسولي الدعاوى الكثيرة في المحاكم، والف الاقطاعيون عصابات تحت قيادة صغار الاسياد وانتشرت الفوضى والاضطراب والمذابح في الولايات البابوية.

واستولى الحزن على البابا الذي رأى نفسه عاجزا عن وضع حد لهذه الفوضى فمات في العاشر من نيسان 1585 بعد ان ناهز التسعين من عمره، وهو يصلي ان يرحم الله كنيسته: "انهض ايها الرب وأراف بمدينتك صهيون".

(3) البابا سكتس الخامس (1585–1590)

يقال ان الضرورات صانعة الرجال، وقد صنعت هذه الضرورة من فليتشي بيرتي رجلا من اعظم البابوات واجلهم قدرا. ولد فليتشي في الثالث عشر من تشرين الاول عام 1521 في جروتامارى، قرب انكونا، في كوخ كان سقفه مهلهلا حتى نفذت منه اشعة الشمس، قال وهو كبير وعلى سبيل المزاح انه "ولد في بيت منير". تعلم في دير للفرنسيسكان بمونتالتو، وحصل على دكتوراة في اللاهوت من بولونيا وفيرارا، ثم ارتقى سريعا بفضل بلاغته واعظا وكفايته اداريا. فلما اختير لكرسي البابوية وهو في الرابعة والستين، كان الدافع لهذا الاختيار ان مجمع الكرادلة تبين فيه الشخصية الصلبة التي تتطلبها سلامة الدويلات البابوية وكفايتها المالية.

بيد ان اقاربه تزاحموا من حوله يمدون اليه اكفهم فلم يقو على ردهم، وهكذا عادت محاباة الاقرباء ترفع عقيرتها، ولكنه في غير ما يتصل باسرته كان رجلا صلبا لا تلين له قناة. كان في منظره ذاته ما يستوقف النظر: رجل قصير القامة، عريض المنكبين، متين البنية، واسع الجبين، ولحية بيضاء كثيفة، ضخم الحاجبين، له عينان نفاذتان قادرتان على اسكات المعارضة دون كلمة. وكان وجهه المتورد ينسجم مع عنف طبعه، ورأسه الكبير يوحي بارادة لا تنثني. على انه مع كل صرامته كان يملك روح الدعابة والفكاهة الذكية. وكان قليل النوم شديد العكوف على العمل.

منجزات البابا سكستس الخامس

اعادة الامن والنظام في روما والولايات البابوية: عقد العزم اولا على الضرب على ايدي قطاع الطرق[6]. فبدأ بتنفيذ حظر مفروض على حمل الاسلحة الفتاكة. وفي اليوم السابق لتتويجه قُبض على اربعة شبان لانتهاكهم هذا الحظر، وامر سكتس بشنقهم فورا. والتمس اقرباؤهم العفو عنهم او تأجيل التنفيذ، فاجاب "ما دمت على قيد الحياة فلا بد ان يموت كل مجرم اثيم". وما لبثت ان تدلت اجسادهم من مشنقة نصبت على مقربة من جسر سانتانجيلو، وسط احتفالات التتويج، فكان هذا بمثابة الخطاب الافتتاحي لسكستوس والبيان لسياسته في امر الجريمة. وامر البابا النبلاء بطرد افراد عصابتهم المأجورين، ووعد كل قاطع طريق يسلم اليه آخر حيا او ميتا بالعفو عنه ومكافأته، اما المكافأة فتدفعها اسرة اللص الاسير او موطنه. فاذا اذاع لص منهم تحديه للامر، امر سيكستوس اسرته ان يعثروا عليه ويأتوا به او يلقوا الموت جزاء لهم. وقد ارضى دوق اوربينو البابا، عندما حمل بغالا طعاما مسموما وامر سائقيها بالمرور بمخبأ قاطع طريق، وسرق اللصوص الحمل واكلوا الطعام وماتوا. ولم يكن هناك أي اعتبار للمراتب الكهنوتية او الاجتماعية، فالمذنبون من الاسر الشريفة يعدمون دون رحمة او تأجيل، وكان بين المشنوقين كاهن خارج على القانون. تعرض البابا للتذمر بسبب قسوته، الا ان السفراء اخبروه انهم "اينما ساروا في دويلاته كانوا يجتازون بلدا يرفرف عليه السلام والامن".

---

[5] لذلك ماتت القديسة تريزيا الافيلية في الرابع من تشرين اول عام 1582، ودفنت في الخامس عشر منه.

[6] يقال ان عدد افرادا العصابات التي كانت تعيث فسادا وخوفا في روما والولايات البابوية بلغ بين 12 و25 الف رجل.

تنظيم مالية الكرسي الرسولي: استلم البابا سكستس الخامس وضعا ماليا سيئا، سببه تبذير سلفه. فبفضل اقتصاد حكيم، وتخفيضات في المصاريف ونفقات البلاط البابوي، وبفضل زيادة في الضرائب، استطاع سكستس الخامس ان ينظم المالية، ويضمن في خزينتها مبالغ كبيرة سمحت له القيام باعمال كثيرة في اصلاح وتجميل روما، وفي دعم الامراء الكاثوليك ماليا في صراعهم ضد الهراطقة.

تعمير وتجميل مدينة روما: كان هم سكستس ايضا ان يؤمّن لسكان روما العيش اللائق، وجعل من مدينتهم روما اجمل المدن من الناحية الفنية. فقام بالكثير من الاعمال العامة الكبيرة والصغيرة من بناء قنوات لجلب المياه، وشق الطرق والطرقات، وبناء الاحياء الجديدة، والمستشفيات. وانهى بسرعة الاعمال التي كانت قائمة في كنيسة القديس بطرس، وهو الذي رفع في وسط ساحتها المسلة المصرية، ووضع في قمتها الصليب، علامة انتصار المسيحية على الوثنية. ونفخ الحياة في جامعة روما فنشطت بكل قوتها. ورغبة في تدبير المكان الكافي للعدد المتعاظم من الكتب كلف دومنيكو فونتانا بتصميم بيت جديد فخم يضم مكتبة الفاتيكان، وزودها بمطبعة لطباعة اعمال المجامع وآباء الكنيسة. واشرف بنفسه على طبعة منقحة من ترجمة القديس ايرونيموس اللاتينية للكتاب المقدس، تضارع في روعتها الترجمة الانجليزية للكتاب في عهد الملك جيمس الاول.

على الصعيد الاصلاح الديني: لم ينس سكتس الخامس، في غمرة هذه الاعمال الكبيرة قضية الاصلاح. فقد وجد الوقت للحكم والاصلاح. فانهى حرب المصادرات التي خاضها غريغوريوس الثالث عشر مع الاشراف. ووفق بين عدوين قديمين هما الى اورسيني وآل كولونا اذ وحد بينهما بالزواج. واعاد تشكيل مجلس الكرادلة، بمرسومه Postquam verus ille، بتاريخ 3 كانون اول 1586، حيث حدد عدد الكرادلة بسبعين، موزعين على ثلاثة انواع: 6 كرادلة-اساقفة، و خمسين كردينالا-كاهنا، واربعة عشر كردينالا-شماسا، يتم اختيارهم من جميع امم العالم، من بين رجال اكفاء جديرين بهذا المركز. كما اعاد تنظيم الكوريا البابوية Curie Romaine بمرسومه Immensa aeterni Dei، بتاريخ 22 كانون ثاني 1587. وأنشأ خمسة عشرة جمعية Congrégations، مهمتها مساعدة البابا في ادارة وحكم الدولة البابوية والكنيسة. وامر رجال الاكليروس باتباع جميع قرارات الاصلاح الصادرة عن مجمع ترانت، وطلب من الاساقفة تفقد الاديرة دوريا واصلاحها.

على الصعيد السياسي: اما شغله الشاغل فكان السياسة الخارجية. فهو لم يفقد الامل قط من اعادة انجلترة والمانيا الى الحظيرة الكاثوليكية وتوحيد كلمة العالم المسيحي ضد الاسلام. اعجبته كفاية اليزابيت في السياسة والحكم، ولكنه مد يد العون للمؤمرات التي استهدفت خلعها. ووعد بالمساهمة في نفقات الارمادا الاسبانية، ولكنه ارتاب في تباطؤ فيليب، واشترط في دهاء ان تكون معونته رهنا بنزول الجيوش الاسبانية فعلا على ارض انجلترة. وكانت فرنسا مشكلته الكبرى. فالهيجونوت الذين افترض انهم ابيدوا عام 1572 كانوا يزحفون على باريس بقيادة هنري نافار الذي لا تكلّ له عزيمة. وكان فيليب الثاني يمول الحلف لينقذ فرنسا من براثن البروتستنتية ويحفظها للكاثوليكية ولاسبانيا. وكان على سكستس ان يختار بين امرين: اما ان يترك فرنسا تنحرف الى البروتستانتية، واما ان يعين فيليب على تحويل فرنسا الى ولاية اسبانية. ولكن توازن القوى بين فرنسا واسبانيا بدا امرا لا غنى عنه للبابوية ان ارادت التحرر من سلطان القوى الدنيوية. وفي عام 1589 وعد سكستس بالاشتراك في حرب ضد هنري، ولكنه انسحب من هذه الخطة حين تعهد هنري باعتناق الكاثوليكية. وهدد فيليب بسلخ اسبانيا من واجب الطاعة للبابا، ولكن سكستس لم يهتز، فاستقبل سفير هنري بالترحاب، وتبين آخر الامر انه على حق في ثقته بهنري، وقد انقذت الكنيسة فرنسا، واستمرت فرنسا ميزان قوة ضد اسبانيا.

وكان هذا آخر انتصاراته، ولعل الجهد الذي بذله فيه اضناه. فمات في السابع والعشرين من اب 1590على اثر حمى قوية.

(4) البابا اربانوس السابع 15-27 ايلول 1590

مات البابا اربانوس السابع – الكردينال جان باتيست كستانيا Jean-Baptiste Castagna- بعد انتخابه باثنى عشر يوما وقبل تتويجه.

(5) البابا غريغوريوس الرابع عشر

(5 كانون اول 1590 – 15 تشرين اول 1591)

ملك هذا البابا عشرة اشهر وعشرة ايام. اشتهر بتقواه وتقشفه. ابتعد عن سياسة الحياد التي اتبعها سكستس الخامس، واتخذ موقفا معاديا لنهري دي نافار وحرمه، وانضم الى الحلف المعادي له ودعمه بالمال والجيوش. اما في مجال الاصلاح، فقد أنشاء لجنة لمراجعة ترجمة الكتاب المقدس المعروفة "بالفولغاتة السكستية".

(6) انوسنت التاسع

29 تشرين اول – 30 كانون اول 1951

ملك هذا البابا مدة شهرين، واتبع سياسة سلفه بالنسبة لفرنسا.

(7) كليمنضوس الثامن (1592–1605)

خلف انوسنت التاسع، الكردينال الدوبرنديني، في العشرين من كانون ثاني 1592، واتخذ اسم كليمنضوس الثامن. ولد في عام 1536، في مدينة فانو Fano من اعمال مقاطعة فلورنسا. رقاه البابا سكستس الى درجة الكاردينالية. عُرف عنه تقواه، فقد كان يعترف كل مساء، وحياة التقشف، حيث كان يكتفي بالقليل على مائدته، وحيث كان يدعو اليها الفقراء ليشاركوه اياه، كما وعُرف عنه نشاطه وحبه للعمل.

على صعيد الاصلاح: اختار البابا كليمنضوس الثامن كرادلة اكفاء امثال بارونيوس Baronius، وبلارمن Bellarmin، وتوليه Tolet، وغيرهم. واتم مراجعة الفولغاتا التي عهد البابا غريغوريوس الرابع عشر الى لجنة لمراجعتها، فمنع في برأته Ad perpetuam memoriam عام 1592، نشر وقراءة الترجمة السكستية، واصدر الترجمة الكليمنتية La Bible Clémentine، التي ظلت الترجمة الرسمية للكنيسة، حتى عهد البابا بيوس العاشر. ونشر طبعات جديدة لكتاب الفرض، والقداس، والفهرس وكتب المراسيم"Pontifical et Cérémonial وحدد القواعد الليتورجية التي يجب على كنيسة الروم الكاثوليك اتباعها. وأنشاء "مجلس المساعدة Congrégation de Auxiliis"، بهدف الحكم وانها الجدل القائم بين الدومنيكان واليسوعيين حول النعمة الفعلية La Grâce actuelle".

على صعيد السياسية الخارجية: اتبع في البداية سياسة اسلافه ودعم الحلف المعادي لفرنسا. ولكن عندما اتضح له صدق ارتداد هنري نافار الى الكاثوليكية من الكالفينية في عام 1593، منحه الحل من الحرمان، ورفع عنه المنع في عام 1595. واستطاع بهذا التقارب مع فرنسا وبمساعدة هري نافار ان يعيد مقاطعة فرارا الى ولاياته، واستطاع ايضا ان يقرب بين فرنسا واسبانيا في معاهدة فرفان Traité de Vervins في عام 1589. واحتفل في عام 1600 باليوبيل الكبير، الذي جلب الى روما ما يقارب الثلاث ملايين حاج. ومات في 3 اذار عام 1605.

(8) ليون العاشر 1 نيسان – 27 نيسان 1605

انتخب مجلس الكرادلة، الكردينال Alexander Octavius de Medicis، رئيس اساقفة فلورنسا، ليخلف البابا كليمنضوس الثامن، تحت التأثير الفرنسي، واتخذ لنفسه اسم ليون العاشر. ولكنه لم يملك سوى 27 يوما.

(9) بولس الخامس 1605–1621

انتخب مجمع الكرادلة وبالاجماع في السادس عشر من ايار 1605، الكردينال كاميل بورجزى Camille Borghese، الذي اتخذ اسم بولس الخامس.

ولد هذا البابا في روما عام 1552، عمل محاميا، ومبعوثا بابويا في اسبانيا. عُرف بتقواه وحسن سيرته واخلاقه، كما واشتهر بسعة علمه في القانون، وبمهارته السياسية. وكان يُنتظر منه ان يكون المواصل لحبرية سكستس الخامس وكليمنضوس الثامن، ولم يخيب الامال. فعلى مثالهما، بذل نشاطا كبيرا على صعيد ادارة ولاياته، وعلى الصعيد الروحي في الكنيسة، وكذلك على الصعيد السياسي.

على صعيد ادارة وحكم الدولة البابوية: سار على منوال البابا سكستس الخامس، فوجدت فيه العلوم والفنون نصيرا كبيرا. فامر بتنفيذ اعمال كبيرة في تجميل مدينة روما، ومد القنوات لجلب المياه اليها، وبنى وجدد الكثير من الكنائس، وعمل خصوصا على انهاء العمل في كنيسة القديس بطرس، واغنى مكتبة الفاتيكان بالمخطوطات والكتب.

على صعيد الروحي في الكنيسة: سهر على تطبيق مقررات مجمع ترانت. وشدد على واجب الاقامة Résidence، واجبر جميع الكرادلة والاساقفة المقيمين في روما، على الالتحاق بابرشياتهم او الاستقالة. ومنع استعمال مدخول الكنيسة في اداء مصالح شخصية. وشجع همة رعاة النفوس في الاهتمام بتعليم المؤمنين. واعطى دفعة كبيرة لحركة الارساليات والتبشير. واعلن قداسة كل من الكاردينال شارل بورمييه، وفرانسوا رومين، كما واعلن تطويب اغناطيوس دي لويولا، وفيليب نيري، وتوماس دي فليلانيف، وتريزيا الافيلية ليكونوا مثالا للمؤمنين يحتذى به. وثبّت تأسيس عدة جمعيات رهبانية جديدة. وبدأت على زمنه قضية غاليلو.

على الصعيد السياسي: كان الصراع مع البندقية اهم حدث سياسي على زمنه. فقد تحدت البندقية البابا، واعترفت بالملك هنري الرابع ملكا على فرنسا، بالرغم من حرمانه، ورفضت اعلان مقررات مجمع ترانت، كما منعت بناء الكنائس والاديرة والمستشفيات، او شراء ممتلكات تعود الى العلمانيين بدون اذن مسبق من السلطات المدنية. واخيرا ارادت محاكمة رجال الاكليروس ان تكون امام المحكمة المدنية ولا امام المحكمة الكنسية، كما نصت عليه الاتفاقيات. فكر البابا باعلان الحرب على البندقية، بعد ان لم تنفع فيها العقوبات الروحية من حرمان ومنع. الا ان تدخل ملك فرنسا وتواسطه بين البندقية والبابا، ادى الى حل القضية بدون حرب. كما تدخل البابا في انكلترا ومنع الكاثوليك من اداء يمين الولاء للملكة اليزابيت. كما دُعي البابا الى الانضمام الى الحزب الكاثوليكي في حرب الثلاثين عاما، التي بدأت في عام 1618، وبعد تردد، احتفل في 8 تشرين ثاني 1620، باول انتصار للكاثوليك. وفي اثناء الاحتفال اصيب بنوبة صرع، مات على اثرها بعد ثلاثة اشهر في 28 كانون ثاني 1621، بكل مشاعر التقوى والاستسلام لمشيئة الله.

(10) غريغوريوس الخامس عشر 1621-1623

انتخب مجلس الكرادلة في التاسع من شباط 1521، الكردينال السندرو لودوفيزي Alessandro Ludovisi، رئيس اساقفة بولونيا Bologne، بابا، بعد ان تنازل كل من الكادرينال بلارمني وفردريك بورميه، عن قبول عن الشرف.

ولد هذا البابا في بولونيا عام 1554، وكان عند انتخابه متقدما في السن، قصير القامة، منهكا من المرض، الا انه كان يشتعل بنار الغيرة الدينية. وبفضل مساعدة ابن اخيه، الكاردينال لودوفيزي، البالغ من العمر خمسة وعشرين عاما، استطاع ان يحقق في مدة حبريته القصيرة، سنتان ونصف، انجازات كبيرة وهامة على الصعيدين الديني والسياسي.

على الصعيد الديني: حقق البابا غريغوريوس الخامس عشر على الصعيد الديني عمليين رئيسيين: تحديد قوانين انتخاب البابا، وانشاء "مجلس نشر الايمان Congrégation de la Propagande".

أ) تحديد قوانين انتخاب البابا: كان يتم انتخاب البابا حسب مرسوم البابا نقولا الثاني عام 1059، من قِبَل سبعة كرادلة- اساقفة، يقوم بعدها الاكليروس والشعب بالموافقة عليه، ثم يقدم للامبراطور للتصديق عليه. الغى مجمع اللتران الثالث عام 1189، ضرورة الحصول على موافقة الاكليروس والشعب، وتصديق الامبراطور، وقرر في حالة عدم اتفاق الكرادلة على مرشح ان يتم الحصول على ثلثي الاصوات. اراد البابا غريغوريوس الخامس عشر، والمعروف بعلمه القانوني، ان يحدد قانون بوضوح طريقة انتخاب البابا، واصدر في 15 تشرين اول عام 1521، مرسوما Aetrerni Patris، حدد فيه ان انتخاب البابا ممكن ان يتم باحدى الطرق التالية:

1) *الهتاف او السجود L'acclamation ou adoration*: وذلك عندما يقوم الكرادلة، وبالهام من الروح القدس، بتسمية البابا عفويا بدون انتخاب. هكذا كان مثلا بالنسبة للبابا غريغوريوس السابع. وحتى يكون هذا الاختيار سليما وصحيحا valide، يجب ان يحوز على اجماع الكرادلة.

2) *الاتفاق Compromis:* عندما لا يتوصل الكرادلة الى اتفاق على مرشح، يتم الالتجاء الى التحكيم. هكذا كان بالنسبة لكليمنضوس الرابع، وغريغوريوس العاشر، وكليمنضوس الخامس، ويوحنا الثالث والعشرين. وحتى يكون الاختيار سليما وصحيحا، يجب ان يقبل الكرادلة بالاجماع قرار التحكيم.

3) *الانتخاب او بالارتقاء Scrutin ou accession*: وهي الطريقة العادية، حيث يكتب كل منتَخب اسمه واسمه مرشحه على ورقة. ويجب على المرشح الحصول على ثلثي الاصوات. وفي حالة عدم حصول أي من المرشحين على ثلثي الاصوات، يمكن ان يتم انتخاب احدهم بالارتقاء، أي عندما يسحب بعض المنتَخِبين اصواتهم ويعطوها الى مرشح اخر يمكنه ان يحصل بذلك على ثلثي الاصوات.

ب) انشاء "مجلس نشر الايمان": بلغت عملية التبشير اوجهها في بداية القرن السابع عشر، الا انه كان ينقصها التنظيم والاموال. اراد البابا غريغوريوس الخامس عشر ان يسد هذين النقصين، فأنشاء "مجلس نشر الايمان" عام 1622، المؤلف من ثمانية عشر كردينالا وبعض الاساقفة، وعهد اليه الاهتمام بالمسائل المتعلقة بنشر الايمان والتبشير وارتداد الهراطقة وعودة المنشقين. وبفضل كرم البابا وابن اخيه الكردينال لودوفيزي، وبفضل عظات الواعظ الشهير جيروم دي نارني Jérome de Narni، استطاع هذا المجلس ان يحصل على الاموال اللازمة، مكنته من اعطاء دفعة جديدة للعمل التبشيري.

وظهرت ايضا غيرة البابا الدينية، بتشجيعه للجمعيات الرهبانية وخصوصا الجديدة منها. واظهر تقديره لليسوعيين، الذين تعلم على ايديهم، باعلان قداسة كل من اغناطيوس دي لويولا، وفرانسوا كزافييه، وتطويب كل من لويس دي غونزاغا، ستانسلاس كوستكا. كما واعلن قداسة فيليب نيري، وتريز الافيلية وغيرهم. وشجع التعبد للقديس يوسف، وبدون ان يتخذ موقفا من الحبل بلا دنس، منع أي جدال ومنع ان ينفي احد سواء علانية او بالاجتماعات الخاصة، الاعتقاد العام حول هذا الامتياز المريمي.

على الصعيد السياسي: استطاع البابا غريغوريوس الخامس عشر بمهارته السياسية ان يحصل على نتائج ايجابية على الصعيد السياسي في المانيا وفرنسا.

تدخل في المانيا بحرب الثلاثين عاما، ودعم بالاموال الامبراطور فرديناند الثاني. فبعث هذا اليه بجزء من مكتبة الامير المختار المهزوم لمقاطعة البلاتينا Palatinat، وعُين الامير مكسمليان دي بافير الكاثوليكي اميرا منتخبا لهذه المقاطعة، مما زاد في الاصوات الكاثوليكية في مجلس الامة الالماني: خمسة على سبعة.

وارتبط بعلاقات حسنة مع الملك الفرنسي لويس الثالث عشر، عندما رقى كرسي اسقفية باريس الى رئاسة اسقفية مستقلة. وحظى على استحسان ورضى الملكة الوصية على العرش ماري دي مديتشي، بتعيينه كردينالا لمرشدها، ارماند ريشليو Richelieu، الذي سيدير دفة السياسة الفرنسية. وحصل بواسطة هذه العلاقة الطيبة ان تقوم فرنسا بحماية مسيحي الشرق بعد اغتيال السلطان عثمان الثاني ودخول تركيا في فوضى دموية.

مات البابا غريغوريوس الخامس عشر في الثامن من تموز 1623.

(11) اربان الثامن 1623–1644

خلف غريغوريوس الخامس عشر، الكاردينال مافيو بربيريني Maffeo Barberini، واتخذ اسم اربان الثامن. ولد في عائلة كبيرة من فلورنسا في عام 1568، فكان في السن الخامسة والخمسين عند ارتقائه الكرسي البابوي. تلميذا لليسوعيين، اشتهر بثقافته العالية، الا ان طبعة الشخصي والمسيطر، سبب له الكثير من المشاكل مدة حكمه الذي دام واحد وعشرين عاما، مما سبب في خفض هيبة الكرسي الرسولي.

على الصعيد الديني: اظهر اربان الثامن الكثير من الغيرة، في تصليح المساوىء وانجاح مقررات الاصلاح. فاعاد مراجعة المرسوم In Coena Domini، الذي اعلن مقررات مجمع ترانت، واعطها شكلها النهائي بمرسومه Pastoralis Romani Pontificis vigilanda، في نيسان 1627، وامر بقراءته كل سنة في يوم خميس الاسرار.

اظهر اربان الثامن ايضا اهتماما كبيرا بالارساليات، فمدد في امتياز "مجلس نشر الايمان" وبنى عمارة خاصة مركزا لهذا المجلس مع كلية لاهوتية Collège Urbain، لتحضير وتهيئة وتثقيف اكليريكيين من كل انحاء العالم ومن كل الالوان والجنسيات، وارسالهم الى حقول التبشير المختلفة في البلدان المختلفة.

اعلن البابا اربان الثامن، قداسة اليزابيت البرتغالية، واندريا كورسيني، وطوّب فرانسوا دي بورجا، وجيتان دي تيين، واندريا افيليني.

وفي المجال الليترجي، عمل على مراجعة كتاب الفرض الالهي، وادخل اليه الكثير من القديسين، وجدد الكثير من الاناشيد.

على الصعيد الزمني: كانت سياسة اربان الثامن وخيمة العواقب وسيئة لسلطة الكرسي الرسولي وللمصالح الكاثوليكية.

فحتى يحد من توسع قوة وسلطة ال هابسبورج، التي رأى فيها خطرا على ايطاليا والولايات البابوي، وبدافع من انحيازه الى السياسة الفرنسية التي قادها ريشليو، فقد شجع تقريبا انتصار الحزب البروتستنتي في حرب الثلاثين عاما،

واثار عليه غضب الامبراطور فرديناند الثاني، الى درجة التهديد بغزو روما. وفي اواخر حكمه، اثار البابا عليه لا غضب الامبراطور فقط، بل وغضب ريشليو الذي دخل معه في صراع حول موقفه من حرب الثلاثين عاما. وساءت علاقته مع جمهورية البندقية، ومع ملك البرتغال الذي رفض الاعتراف به خوفا من اسبانيا.

وحدثت في اواخر حكمه حادثتان اسهمتا في تكدير حياته وعملت في تسريع موته في السابع من تموز 1644، وهما قضية غاليلو، وما دعي "بحرب كاسترو" التي جرته اليها عائلته ال بربيريني التي اظهر نحوها الكثير من الضعف.

(12) انوسنت العاشر 1644–1655

انتُخِب الكاردينال جان باتيست بامفيلي Jean-Baptiste Pamphili، خلفا للبابا اربان الثامن في الخامس من ايلول 1644، واتخذ اسم انوسنت العاشر. وكان هذا البابا كهلا في السبعين من عمره، سهل التعامل، ذا طبع مرح، وقلب كبير كريم، مما جعل له شعبية كبيرة بين مواطنيه.

على الصعيد الديني: تابع انوسنت العاشر بكل غيرة عملية الاصلاح. فسهر على تطبيق مقررات المجمع، وشجع الوعاظ على الوعظ والتعليم لاعادة تجديد الكاثوليكية بين الاوساط الشعبية. وادان اثناء حكمه البنود الخمسة للجنسينية Jansénisme.

على الصعيد الزمني: عمل بحزم وشدة على اعادة الهدوء والنظام في روما والولايات البابوية الاخرى، التي عكرت صفوها سياسة البابا اربان الثامن العائلية في اواخر حياته. واقام المحاكم ضد عائلة باربيريني، التي بدافع من الجشع والطمع، اثارت حولهم الكثير من الحقد. ولما رأى الشعب انه تم ايقافهم وتجريدهم من كل ممتلكاتهم ومناصبهم، صفق استحسانا لصرامة البابا ضد المستغلين. الا ان عائلة باربيريني استطاعت ان تهرب الى فرنسا، واستجارت بحكومتها، فاوقفت المحاكم، واستعادت عائلة برباريني تقريبا كل ممتلكاتها. وكان البابا في ذلك الوقت بحاجة الى من يغض النظر عنه، اذ كان قد اغدق بعطاياه الكثير من افراد عائلته.

كان انوسنت العاشر محبا للفخامة، فتابع اعمال البابا بولس الخامس، بان امر بتنفيذ مشاريع كبيرة في سبيل تجميل روما. وعهد الى برنيني Bernini، مهمة تزيين داخل كنيسة مار بطرس، وبناء الاعمدة الضخمة في ساحة القديس بطرس، وجدد ايضا كنيسة القديس يوحنا للتران وجملها وزينها. وفي عهده تم تشييد قصر دوريا، والنبع الرئيسي في ساحة نافونا، وكنيسة القديسة اغنيس.

اما في السياسة الخارجية، فتم في عهده توقيع اتفاقية "سلام وتسفليا La Paix de Westphalie" (1648)، التي انهت حرب الثلاثين عاما، وجاءت في اكثرية بنودها الدينية ضد موقف الكنيسة الكاثوليكية. واعلنت في بندها الخامس، مساواة جميع الطوائف المسيحية، وتفوق السلطة الزمنية، وهما مبدأن معارضان لتعليم الكنيسة. ووضعت الحكومات هذه البنود حيز النفيذ، وقامت هي بأخذ المبادرة بتنفيذ الاصلاح، فدبرت مشكلة املاك الكنيسة بدون الرجوع الى البابا، واعطت الامراء البروتستنت حق تملك الكثير من املاك الاديرة والكنائس، والغاء الكثير من الاسقفيات التابعة لسلطة البابا.

اعترض البابا بشدة على هذه البنود واعلنها "باطلة، وغير صحيحة، وظالمة، ومرفوضة... كل بنود الاتفاقية التي تسيء الى الديانة الكاثوليكية، وللعبادة الالهية، وللكرسي الرسولي الروماني، ولكل الكنائس التابعة له" (مرسوم Zelus Domus meae سنة 1648).

ولم يُسمع احتجاج البابا كثيرا في الخارج لعلم الجميع بمشاكله الداخلية. فقد اصبح البابا تحت تأثير امرأة وابناء اخيه، واثار "بمحاباة الاقارب" استنكار الاحزاب القديمة، وخصوصا عائلة برباريني، ولم يحظ حتى ولا على عرفان جميل هؤلاء الاقارب، اذ عندما توفي في السابع من كانون ثاني 1655، رفضت زوجة اخيه وابناؤها، ان يتكفلوا بمصاريف جنازته.

2) الاساقفة

وجد البابوات في نخبة كبيرة من الاساقفة معاونين اكفاء مخلصين في عملية الاصلاح الكاثوليكي. ومن بين الذين لعبوا دورا رئيسا في هذه العملية يجدر بنا ان نذكر: 1) الكردينال البولندي، ستانسلاس هوسيوس Stanislas Hosius (1504–1579)، الذي جعل منه البابا بيوس الرابع احد رؤوساء مجمع ترانت، وكان من اقوى المدافعين عن الايمان الكاثوليكي في بولندة وبروسيا، بنشاطه الرعوي وكتابته اللاهوتية. 2) القديس توما دي فيلانيف Thomas

de Villeneuve (1488-1555)، رئيس اساقفة فلانز، الذي عمل بقوة للاصلاح، لدرجة انه دُعي "الرسول الجديد لاسبانيا". اختاره شارل الخامس واعظا للبلاط الملكي، فترك كتابات وعظية رائعة. 3) برتولومى دي مارتير Barthélemy des Martyrs (1514-1590)، وكان في الفترة الثالثة من مجمع ترانت، من انشط الاعضاء في العمل على اصلاح الاكليروس. وهناك جوقة من الاساقفة من كل انحاء العالم الكاثوليكي التي عملت اما على الصعيد الكنسي اما على الصعيد الفردي، وساهم كل واحد منهم بقدر ما في عملية التجدد الكاثوليكي. من كل هؤلاء نكتفي هنا بالحديث عن اثنين من اشهرهم:

1) شارل بورميه St. Charles Borromée

ولد شارل في ايطاليا في مدينة ارونا Arona في الثاني من تشرين اول 1538. وكان الابن الثاني للكونت جيبرتو Giberto ومارغريتا دي مديتشي Margherita de Medici اخت البابا بيوس الرابع. ومع انه تنقصنا المعلومات عن سنين حياته الاولى، الا انه عُرف عنه منذ صغره تقواه ووداعته، كان تحضير الهيكل وتقليد الكهنة في احتفالتهم الدينية التسلية المفضلة لديه.

دخل في سن الثامنة السلك الاكليريكي، واصبح بمقدوره ان يحصل على منصب يدر عليه مدخولا. وتنازل له عمه جوليو بورميه في عام 1550 عن منصبه كرئيس دير سان غراتسيانيانو وفيلينو Sts. Gratianiano et Felinio بهذا اصبح وهو على عمر 11 عاما مدبرا لدير مهم واظهر في ذلك كفاءة عالية وهمة لا تعرف الكلل وضمير حي، ومحبة بلا حدود، واذ ما عمل على جعل ايراداته اكبير انما ليعطي الفقراء اكثر.

دخل في عام 1552 جامعة بافيا Pavie وتخرج منها بعد سبع سنوات دكتورا في العلوم القانونية. وعندما أُنتخب عمه بعد ذلك ببعض اسابيع (31 كانون ثاني 1560) بابا باسم بيوس الرابع، استقدمه الى روما، وجعل منه كردينالا وامينا لسره، ثم عينه بالتوالي رئيس اساقفة ميلان، ومبعوثا الى بولونيا Bologne، وعضوا في اللجنة التي أنشأها البابا لمساعدته في اداراة الدولة البابوية. لم تفأجيء تكديس هذه المسؤوليات والمناصب على شاب لم يبلغ بعد العشرين عاما، في عصر اشتهر "بمحاباة الاقارب". الا ان هذه المرة كان المعين على قدر كبير من المسؤولية. ورأينا العمل الكبير الذي قام فيه مع عمه البابا بيوس الرابع في سبيل متابعة ومواصلة اعمال مجمع ترانت وفي اعداد قراراته وخصوصا في نشر كتاب التعليم المسيحي التريدنتيني.

نلقي في هذه الصفحات نظرة على ما قام به هذا الاسقف القديس بعد اختتام مجمع ترنت.

عاد الاسقف شارل بورميه في الثالث والعشرين من ايلول 1565 الى ابرشيته، واتخذ من ميلانو مقرا دائما، معطيا بذلك المثل على الاقامة والثبات، وهي احدى قرارات المجمع. ودشن عمله بدعوة الى عقد مجمع اقليمي حضره احد عشر من اساقفته المساعدين Suffragants، اعلن في خلاله قرارات مجمع ترانت. ثم بعد غياب عدة اشهر قضاها قرب عمه البابا بيوس الرابع المريض، الى ان لفظ انفاسه، وبعد ان ساهم في انتخاب خلفا له البابا القديس بيوس الخامس، عاد من جديد الى ابرشيته الواسعة والشاسعة، حيث كانت تضم بجانب الجزء الايطالي جزءا من سويسرا ومن جمهورية جنوى، وكانت تضم 15 اسقفية تابعة. وفي هذا الحقل الواسع عمل شارل مدة 19 عاما على اصلاح الاكليروس العلماني والرهباني وعلى تقويم اخلاق الشعب المسيحي.

(1) عمل هذا الاسقف القديس اولا على احاطة نفسه بكهنة صالحين ليعمل معهم في عملية الاصلاح. عرف هذا الرجل القديس اهمية الاعتماد على نخبة من المعاونين الاكفاء المخلصين لادارة ابرشية. وذهب في البحث عنهم في كل مكان، ولم يستنكف في بعض المرات عن اختطافهم من الابرشيات الاخرى. واتصل بالخصوص بجمعيات الاكليروس الرهباني الجديدة والشابة، كالتياتين والبرنابيت واليسوعيين ليجد عندهم مثل هذه العناصر والتعاون. وفي عام 1565، سلم الى اليسوعيين ادارة الاكليريكيات الصغرى التي أنشاها في عدة مناطق من ابرشيته، كما وسلم اليهم فيما بعد الاكليريكية الكبرى.

(2) اعترف ايضا هذا القديس باهمية وجود اكليروس صالح محضر ومهيأ، فلم يبخل بشيء في سبيل تجنيد واختيار وتهيئة الاكليروس الابرشي. وأنشأ في سبيل ذلك "كلية بورميه" في بافي، و "كلية ارونا" لتأمين الاكليروس لسويسرا، وفي ميلانو الاكليريكية Helvétique.

(3) وعرف هذا القديس ايضا ان لا يكتفي بان يحيط نفسه بمعاونين اكفاء مخلصين، ولا بتهيئة اكليروس، وانما يلزم ايضا ان يعهد لهم الوظائف الملائمة وان يلزمهم باعطاء اكبر قدر من النتائج والثمار. من هنا لزوم مركزية الادارة مع حملات تفتيشية متكررة لشحذ همم وغيرة الكهنة ولابعاد وتجنب كل اهمال. فجمع الثمانمئة رعية في ستين مركزا doyennés، وضع على رأس كل واحدة منها نائبا اسقفيا، مهمتهم السهر في مقاطعتهم على تطبيق مقررات المجامع المحلية. ولم يكتف شارل بورميه بالاستعانة بهؤلاء النواب وانما قام هو بنفسه بزيارة رعايا ابرشيته الشاسعة، حتى اصغر وابعد رعية منها، مستفسرا عن احوال واحتياجات الشعب والمؤمنين، مطلعا على التقدم الحاصل. وعقد خمسة مجامع اقليمية واحد عشر مجمعا ابرشيا اصدر خلالها القرارات التي رآها ضرورية ومهمة لابرشيته وتقدمها الروحي والمادي.

بهذا نرأى ان نشاطه توجه دائما نحو نفس الهدف وهو تحقيق الاصلاح اولا لدى من هم مدعوون لأن يكونوا المثال والدليل للشعب المؤمن.

(4) اهتم أيضا الاسقف شارل بورميه بأن يتم الاصلاح ليس فقط في الاكليروس الابرشي، وانما ايضا في الاكليروس الرهباني. فقد رأى ان الكثير من الاديرة اصابها روح التراخي، وخصوصا لدى اديرة النساء. وبما ان مجمع ترانت كان قد قرر ان يتم "اشباك" صالات الاستقبال لجميع اديرة الراهبات وترك فتاحات صغيرة يتم من خلالها محادثة الزائرين، فقد امر شارل بتنفيذ هذا القرار، مضطرا في بعض الاديرة وضع هذا "الاشباك" على حسابه الخاص امام ترددها ورفضها.

لاقي الاسقف شارل بورميه في هذا المهمة الصعوبات ودخل في صراعات مع الرهبان. وبالخصوص مع رهبنية "المتواضعين Humiliates"، الذين كدسوا الاموال واصبحوا من الاثرياء واخذوا يعيشون عيشة البذخ، فرفضوا الانصياع الى اوامر الاسقف، الذي طلب منهم العودة الى اصول الحياة الرهبانية، وحرم عليهم الامتلاك الفردي، الى حد ان احدهم اطلق النار على الاسقف وهو يصلي فجرحه جرحا بسيطا، ولكن ذلك زاد من احترام وتقدير الناس له، مما اعطى دفعا اكبر للاسقف لتخطى الصعاب ومواصلة عمله الاصلاحي.

(5) كان هدف شارل بورميه من التشديد على الاهتمام بالاكليروس كهنة ورهبانا وراهبات، رغبته في ان يكونوا ادوات تقديس للشعب المؤمن. اظهر هو نفسه ذلك من خلال عيشة مثالية، اتصفت بالتقشف والصلاة وبذل الذات وتفان بلا حدود. وكان يواظب على الوعظ والتعليم المسيحي، مؤسسا لذلك "مدارس التعليم المسيحي"، حيث كان يجتمع في ايام محددة وساعات محددة بابناء الرعايا كل في رعيته، وكان كاهن الرعية يلقي خلالها دروسا في العقيدة المسيحية باسلوب سهل وواضح. واراد شارل ان تكون هذه المدارس ايضا واسطة لجذب المؤمنين لممارسة الاسرار المقدسة وخصوصا المناولة، التي ارادها ان تكون يومية، وواسطة لتهذيب اخلاق الشعب بالفضائل والاخلاق المسيحية، ويبعدهم عن اللهو البذيء من مسارح ورقص واحتفالات تنكرية وخصوصا حفلات الكرنفال.

(6) في عام 1578، حقق شارل بورميه فكرة كانت تراوده من مدة، وهي تأسيس جمعية كهنوتية خاصة به. اذ وجد ان الجمعيات الرهبانية التي التجاء اليها بهدف مساندته ومساعدته، لم تتجاوب معه بالشكل الصحيح والكافي، وانها حافظت تجاهه على كثير من الاستقلالية[7]. فعمل على جمع نخبة من كهنته في نوع من الاخوية، هدفها مساندته في اعادة الحياة الدينية في ابرشيته. دعيت هذه الاخوية اولا باسم Oblats de St. Ambroise وبعد موته سميت باسمه Oblats de St. Charles. وكان اعضاء هذه الاخوية الكهنوتية، يتعهدون – بدون نذور دائمة – بعيش المشورات الانجيلية، وقسم يمين الطاعة الكاملة للاسقف، الذي في استطاعتة ان يعتمد على غيرتهم وحماسهم لاية مهمة يعهدها اليهم.

هذه باختصار بعض اعمال هذا الاسقف القديس الذي مات ولم يكد يبلغ بعد السادسة والاربعين. ففي اواخر شهر تشرين اول عام 1584، وبعد رياضة روحية قضاها في مزار فرالو الشهير (Varallo)، اصابته نوبات من الحرارة، مات على اثرها في الرابع من تشرين ثاني من السنة نفسها، منهكا من ثقل المسؤوليات التي القيت عليه، تاركا ذكرى حياة مليئة بالاعمال الجليلة، والتي ظهرت نتائجها، ليس فقط في ميلانو وايطاليا، وانما ايضا في العالم المسيحي وخصوصا فرنسا، حيث كان بريل Berulle وبوسييه Bossuet والقديس فرانسيس دي سالس François de Sales من اكبر المعجبين به.

اعلنه البابا بولس الخامس قديسا في الاول من تشرين ثاني عام 1610.

2) القديس فرنسيس السالسي اسقف مدينة جنيف 1567–1622

St. François de Sales

ولد فرنسيس في بلاد سافويا، في قصر سالس، في الحادي والعشرين من شهر آب سنة 1567. وكان والداه من اشراف تلك البلاد. وكا ابوه يدعى فرنسوا ويُلقب بامير سالس، اما والدته فرانسواز فكانت ابنة الامير دي بوازي، وكانت امرأة فاضلة تقية، واميرة كريمة غنية بالصدقات والاعمال الصالحة.

بدأ فرنسيس دروسه في مدرسة قريبة من قصر والديه، ثم ارسل الى المدرسة الاعدادية في انسي Annecy حيث بقي خمس سنوات، واظهر من النبوغ ما جعله يتفوق دائما على اقرانه في العلم والفضيلة. ومن أنسي ارسله ابوه الى باريس الى مدرسة كليرمون التي كان يديرها الآباء اليسوعيون، حيث اكب على درس البيان والفلسفة فلمع بذكائه وادبه وتقواه. فاحبه الجميع، وكان كلما ازداد علما ازداد فضيلة. وكانت في المدرسة اخوية على اسم العذراء مريم، وكانت تضم خيرة التلاميذ، فاشترك فرنسيس فيها واضحى من اكثر الشبان عبادة واكراما ومحبة للعذراء. وسوف يبقى طول حياته الابن الكثير الحب لمريم البتول، بل سوف يكون الرسول الغيور على نشر عبادتها، وحمل الشعوب على كرامها والالتجاء الى حمايتها.

[7] لاحظ ان الجمعيات التي ائتمنها على اكليريكياته كانت تعمل على جذب وتحويل العناصر الجيدة الى جمعياتهم.

في هذه الفترة مرَّ فرنسيس بتجربة قاسية، وهي تجربة اليأس والقنوط. فقد انتشرت فكرة البروتستنت عن الاختيار وادت الى ازمات ضمير بين الكثير من اصحاب الضمائر الحية. فصار فرنسيس يرى نفسه من الهالكين، لا امل له في السماء. وصار يتخبط في دياجير ليل حالك، لا يدري كيف ينجلي عنه. الا انه رغم مخاوفه واضطرابه وذبول صحته، كان امينا مثابرا على الصلاة والاماتات، وكان على الاخص يبتهل الى العذراء ام الله لكي تشفع له لدى ابنها، وتخلص نفسه من الامها ومن قيودها. ومن فرط حبه لله كان يقول: "يا الهي، اذا كنت تحرمني محبتك في الابدية بسبب خطاياي وجهالات حياتي، فاعطني على الاقل ان تحبك نفسي في هذه الحياة الدنيا قبل مماتي". الا ان نعمة النجاة من هذه الازمة الخطيرة اتته من مريم العذراء ام الرجاء. لانه ما كاد يسجد امام تمثالها وينذر لله حفظ البتولية على الدوام ويعدها بتلاوة المسبحة الوردية كل يوم اكراما لها، حتى شعر في داخله بتغيير فجائي، وعادت اليه صحته رويدا رويدا، وعاد الى مألوف عاداته وعبادته وقراءته.

وبعد ان اتم فرنسيس علومه في باريس واكمل تهذيب قلبه واخلاقه على يد كبار رجال الرهبانية اليسوعية، عاد الى بيت ابيه شابا مكملا مزينا باجمل مزايا العقل والقلب. فاشار عليه ابوه ان يدرس الحقوق، فتنفتح امامه ابواب الوظائف الرئيسية في الدولة. فذهب الى مدينة بادوفا، وفيها درس الحقوق واللاهوت، واكب على مطالعة مؤلفات توما الاكويني وبونفنتورا، مع كتب الآباء الاقدمين، ونال فيها شهادة الدكتوراة في الحقوق، وعاد الى ذويه وكان قد صار ابن خمس وعشرين سنة.

فرنسيس الكاهن

اراد له والده ان يدخل في السلك الحكومي حالما له بمستقبل كبير. الا ان فرنسيس اختار ان يسمع لدعوة الله. فعبر عن رغبته في ان يصبح كاهنا، وكان ابوه رجلا مؤمنا، فرضخ لارادة الله. وبما انه لم يكن هناك اكليريكيات في مقاطعة سافوى بعد، استعد فرنسيس لقبول الرسامة الكهنوتية برياضة روحية استمرت شهرا واحدا في قصر سالس، قَبِل على اثرها الروتب الصغرى، ثم سيم كاهنا في 18 كانون اول 1593. وحالا بعد رسامته، بدأ فرنسيس حياته الرعوية. فكان يزور المرضى ويساعد المحتاجين ويعزي المتألمين ويغفر للتائبين الذين امّوا كرسي الاعتراف الذي كان يشغله. ولكنه بالاخص كان يعظ.

كانت مدينة جنيف في تلك الايام معقل الشيعة البروتستاتنتية الكلفينية. وكانت البلاد التي تجاورها قد فقدت الكثير من ايمانها الكاثوليكي. فرسم الاب فرنسيس لذاته خطة رسولية كبرى وراح يحققها. كان عليه ان يحيي الايمان المقدس في قلوب المؤمنين، وان يرد الى حظيرة الرب الوف البعيدين عنها من المسيحيين. فبدأ بالقاء المواعظ الرسولية اولا في مدينة آنسي، وفي القرى المحيطة بها. فبرع في الخطابة وصار الناس يقبلون اليه معجبين، مغرمين بفصاحته وقداسته.

كانت مقاطعة "الشبلة" Chablais الواقعة الى جنوب مدينة جنيف قد هاجمها البروتستانت الكليفنيون سنة 1536 ايام الحرب التي قامت بين ملك فرنسا وامير سافويا، وخربوا كنائسها وهدموا اديارها وشتتوا كهنتها، وفرقوا المؤمنين الكاثوليك فيها. ثم بثوا قسوسهم في كل مكان وابادوا الايمان الكاثوليكي في تلك البلد. فلما عاد هذا الاقليم من جديد الى امارة سافويا، رغب الدوق شارل عمانوئيل الى اسقف جنيف ان يبعث بمرسلين غُيُرُ الى تلك البقاع، ليعيدها الى الايمان الكاثوليكي. وكانت المهمة خطرة اذ كان الكاثوليك معرضين للقتل من قبل العصابات الكلفينية. ولم علم فرنسيس ان الاسقف يطلب مرسلين متبرعين لتلك المهمة الخطرة والشاقة، قدم نفسه. وسافر يرافقه ابن عمه لويس دي سالس، ولم يأخذ معه سوى كتاب الصلاة وبعض الكتب الدفاعية.

اخذ فرنسيس يصوم ويصلي ويُلقي المواعظ في كل مكان في القرى والارياف، وعلى الاخص في مدينة تونون، حصن الشيعة الكلفينية. ورغم كل ما بذله من الجهود، قضى اشهرا طوالا بلا فائدة، وكمن له يوما ما بعض الاشرار ليوقعوا به، ويتخلصوا من مواعظه، لكنه نجا منهم برباطة جأشه، وعذوبة كلامه. الا انه لم يقنط ولم يجزع، بل بقي متوكلا على الله، مثابرا في عمله. قرر فرنسيس ان يستعمل اسلوبا اخر، فبدأ بتحرير منشورات، اجاب فيها على اعتراضات البروتستنت، وعلقها في المدينة، ووزعها على البيوت. واخيرا بدأت ثمار اعماله تظهر، عندما ارتد عن الكلفينية اثنان من الطبقة الارستقراطية: البارون دافلاى Baron d'Avelay والمحامي بونسة Poncet، تبعهما رئيس المجلس Syndic السيد فورنييه Pierre Fournier. ولما احس بنفسه القدرة على مجابهة علماء البروتستنت، دعى الى محاورة علانية بينه وبين القسيس البروتستانتي. وافق هذا اخيرا مرغما بعد عدة محاولات تهرب. كانت نتيجة هذه المحاورة التي دامت ثلاث ساعات واجاب فيها فرنسيس على كل التساؤلات، لصالحه. وما كادت تنتهي السنة الرابعة على تلك الرسالة الشاقة، حتى كان الاب فرنسيس يقول: كنت لا اجد في اقليم الشبلة لدى وصولي اليه سوى خمسة عشر نفرا من الكاثوليك، ولا اكاد اجد فيه اليوم خمسة عشر من البروتستانت الكالفينيين".

فلما رأى اسقف جنيف ما كان من نجاح الاب فرنسيس، طلبه من دوق سافوى معاونا له في ادارة ابرشيته. فارسله الى روما واصحبه برسائل الى الحبر الاعظم ليستلم منه وثيقة التصديق. سُرَّ البابا كليمنضوس الثامن لسماع ما عمله فرنسيس واعجبته وداعته وتقواه وعلمه، فعمل هو بنفسه له الامتحان اللازم قبل القبول الاسقفية، ثم عينه، رغم ممانعته، معاونا لاسقف جينيف في ادارة ابرشيته، على ان ينال الدرجة الاسقفية ويخلفه بعد وفاته. وتعرف فرنسيس في روما على بعض كبار كتبة ومفكري ذلك العصر، امثال برونيوس المؤرخ الكبير، وبلرمينوس اللاهوتي الشهير، وغيرهما، وتوثقت بينه وبينهم عرى صداقة قوية صادقة دامت مدى الحياة.

وعاد فرنسيس الى اسقفه، وقام بأعباء المهمة التي وُكلت اليه، بما عُرف به من تقوى وغيرة ونشاط. وارسله اسقفه الى بلاط ملك فرنسا هنري الرابع، لتسوية بعض الامور، ونجح نجاحا كبيرا في مهمته، ودُعي مرارا الى الخطابة في كنائس العاصمة الفرنسية، وامام الملك، واعاد الى حظيرة الايمان الكاثوليكي اناسا كثيرين من علية القوم.

فرنسيس اسقف جنيف

توفي الاسقف غرانيه، اسقف جينيف، فخلفه فرنسيس، وقبل الرسامة الاسقفية يوم الاحد 8 كانون الاول عام 1602. واكب بكل قواه على العمل الرسولي في تلك الابرشية الكبيرة الصعبة المترامية الاطراف الكثيرة المشقات. ومن اهم اهتماماته:

(1) التعليم: كان تعليم الشعب احدى الاعمال المحببة والمفضلة لفرنسيس. ولم يكتفي بان اسس في كل ابرشيته دروس الدين المسيحي، وبان وصى كهنته، وحتى الرهبان منهم، ان يكونوا على استعداد دائم لمؤازرة كهنة الرعايا في تعليم الدين، بل قام هو بنفسه بهذه المهمة بكل غيرة. كان كل يوم احد، يدعو سكان مدينة انسي، اغنياء وفقراء، للحضور لسماع دروس التعليم المسيحي، التي كان يلقيها باسلوبه البسيط الجذاب، الممزوج بالقصص والحكايات والتشابيه والاسئلة التي كان يوجهها بكل لطافة ونعومة للاطفال. ولاقى اسلوبه هذا ودروسه اعجاب ورضى الكثيرين، وجذبتهم الى المداومة على هذه الدروس وباعداد كبيرة.

(2) تنشئة الاكليروس: اهتم فرانسيس ايضا وبكل غيرة على تنشئة الكهنة. وبما انه لم يكن يملك الوسائل المادية لفتح معاهد الاكليريكية في ابرشيته، حاول التعويض عن ذلك بوسائل اخرى: كالمحادثات الروحية، والاعترافات، وفحص دعوة المرشحين رافضا بكل شدة من اراد التقدم من الكهنوت بهدف ارتقاء المناصب او كسب الاموال. وقام هو بنفسه بفحص فضائل وعلم المرشحين للكهنوت. وشدد على التعليم لدي الكاهن فقال في ذلك: "الجهل عند الكهنة اكثر خطورة من الخطيئة. لانه بالجهل لا يفقد الكاهن نفسه، بل ويحط من شأن الكهنوت... العلم عند الكاهن هو بمثابة السر الثامن في الكنيسة. ومن اكبر مآسي الكنيسة جاءت من كون العلم كان في ايد غير ايدي الكهنة... واذا كان الهراطقة قد عاثوا فسادا في الكنيسة، ذلك يعود الى استغلالهم لاهمالنا باننا حتى الان لم نفهم الكتب المقدسة". ونفذ قرار مجمع ترنت، بجعل منح المناصب الكهنوتية يتم بالمسابقة بين المرشحين لتجنب الوساطات والدسائس.

وقام فرانسيس ايضا يطوف المدن والقرى، يعلم وينشر، ويلقي المواعظ، ويرشد النفوس، ويساعد الفقراء، ويصلح احوال الاديرة معيدا اليها تقواها القديمة ونشاطها، وينشيء الاخويات التقوية والجمعيات الخيرية. فاخذ المئات من البروتستانت يعودون الى احضان الكنيسة الكاثوليكية.

القديس فرنسيس السالسي والقديس حنة دي شنتال

التقي القديس فرنسيس سنة 1604 في مدينة ديجون بالبارونة حنة دي شانتال، وكانت سيدة شابة ذات ثقافة عالية وتقوى نيرة، وفكر سديد. فما كادت هذه السيدة تسمع القديس فرنسيس يلقي اول عظة من مواعظ الصوم الاربعيني حتى اعجبها اسلوبه وتقواه. وشعرت في نفسها ان الله ارسله اليها ليكون مرشدا لحياتها. فالتجأت اليه، وكاشفته بمكنونات قلبها وضميرها. سُرَّ فرنسيس لدى رؤيته الكنوز الثمينة المخبأة في ذلك القلب، ووجد فيها ما كان ينشده من زمان بعيد، في امرأة فاضلة يستطيع ان يكل الى عنايتها مشروع انشاء رهبانية للنساء وللبنات، على اسم زيارة العذراء. وغايته من ذلك ان يسهل الحياة الرهبانية للارامل وللبنات المسنات، ويؤلف منهن جمعية تتخصص لمساعدة المرضى الفقراء، فتزورهم وتساعدهم في امراضهم وشدائدهم. ففاتح البارونة دي شنتال في ذلك، فرضيت بلا تردد ان تكون ساعده الايمن في هذا المشروع الجليل. ولما كانت ارملة، وحرة طليقة، فانها رتبت امور بيتها واولادها، وخصصت قواها ومواهبها واموالها لهذا المشروع العظيم، فنشأت رهبانية "الزيارة" Les Soeurs de la Visitation، وكانت مدام دي شنتال رئيستها الاولى. ونجحت هذه الرهبانية بفضل وقداسة فرنسيس والسيدة دي شنتال، وانتشرت وكثر عدد راهباتها وتعددت اديرتها. وقد جمعت راهبات الزيارة ارشادات الاسقف فرنسيس السالسي في كتاب دعونه "المحادثات الروحية" Entretiens spirituels. وثبت الحبر الاعظم البابا بولس الخامس هذه الرهبانية سنة 1618، وصادق على قوانينها وفرائضها المستوحاة من قوانين القديس اوغسطينوس. ومنها خرجت القديسة مرغريتا مريم الاكوك ناشرة عبادة قلب يسوع.

كتابات القديس فرنسيس السالسي

وضع هذا الاسقف العالم تأليف شائقة حملت الحبر الاعظم البابا بيوس التاسع على ان يضعه في مصاف "معلمي الكنيسة" في سنة 1877. واهم كتاباته:

1. التوطئة في الحياة الروحية L'introduction à la vie dévote وقد صادف هذا الكتيب نجاحا باهرا واثار في الكنيسة موجة من التقوى. ولا يزال الكثير من النفوس المكرسة تستعمل هذا الكتاب. وقد نُقل الى العربية بعنوان "مدخل العبادة".

2. بحث في محبة الله: Traité de l'amour de Dieu وهو من عيون الكتب اللاهوتية والروحية.

وفاته واعلان قداسته

كانت الاتعاب والاسهار والاسفار قد اضنت جسمه واضعفت قواه، اذ كان لا يزال في مقتبل العمر. ففي شتاء سنة 1622 دعاه الامير دوق دي سافويا لمرافقته الى مدينة افنيون. فلبى الدعوة رغم اوجاعه. وفيما كان عائدا من تلك السفرة الشاقة وصل الى مدينة ليون، واصيب هناك بمرض الفالج. وفي اليوم التالي رقد بالرب في 27 كانون اول سنة 1622، ولم يكن له من العمر سوى خمس وخمسين سنة. فحُمل جسده الى مدينة انسي، بحسب وصيته الاخيرة، ودفن في كنيسة "راهبات الزيارة". اما قلبه، فارسل الى ليون، الى اول دير لرهبانية زيارة العذراء. ومن هناك نقلته الراهبات معهن الى البندقية، الى الدير الذي انشأنه فيها من بعد الثورة الفرنسية. واعلن البابا الكسندروس السابع قداسته في سنة 1665.

3- الجمعيات الرهبانية

ساهمت الجمعيات الرهبانية القديمة منها والحديثة والتي ستنشأ بعد المجمع، في عملية التجديد في الكنيسة الكاثوليكية، حسب مقررات مجمع ترانت.

كانت الجمعيات الرهبانية من اكثر المؤسسات الكنسية التي تعرضت لنقد الثورة الدينية التي قام بها لوثر في بداية القرن السادس عشر. وحتى قبل لوثر، كان الاصلاح في الكنيسة يقتصر على اصلاح الاديرة، اذ كانت مساوىء وشكوك الرهبان في الاديرة اكثر المساوىء انتقادا.

الا انه يتضح للمؤرخين، ان الاصلاح في الجمعيات الرهبانية، بغض النظر عن ثورة لوثر بل وحتى قبل لوثر، كان قد بدأ بدافع من الغيرة الدينية لدى بعض الاشخاص، في بعض الجمعيات القديمة، وفي تأسيس الجمعيات الرهبنية الجديدة، كما رأينا في بداية هذا الفصل.

ستساهم مقررات مجمع ترانت في مواصلة تجديد واصلاح الجمعيات الرهبنية الجديدة، كالبندكتية، والفرنسيسكانية، والاغسطينية وغيرها، كما وستواصل الجمعيات التي ظهرت قبل او اثناء مجمع ترانت، في تطورها ونموها، وستثبت بتثبيت قوانينها وطرق عملها الرسولي، بدعم من البابوات، كما وستظهر جميعات جديدة اخرى لتتجاوب مع متطلبات الحقبة الجديدة من فترة ما يسمى بما "بعد مجمع ترانت".

أ) الجمعيات القديمة

من الجمعيات القديمة التي ستعمل على اصلاح نفسها وستساهم في العمل في تجديد الكنيسة:

الرهبانية الكرملية والقديسة تريزيا الافيلية 1515-1582

Ste Thérèse d'Avila

كان تجديد الرهبانية الكرملية، التي أنشئت اساسا للحياة التأملية والصلاة، من اوائل الرهبانيات التي خضعت للتجديد، لتتجاوب مع متطلبات عصر ما بعد مجمع ترانت، الا وهو اعطاء الحياة التأملية والصلاة الاولوية من جديد في حياة الكرمل دون اهمال الجانب الرسولي. هذا ما يتضح من دستور الكرمل المجدد (1661): "ان الهدف الاساسي للمؤسسة (الكرملية) هو حياة التأمل، ومحبة الامور الالهية، والهدف الثاني، هو العمل، خصوصا فيما يتعلق بخلاص النفوس".

وكانت القديس تريزيا الافيلية هي التي عهدت اليها العناية الربانية في ان تكون المصلحة الكبيرة لرهبانيات الكرمل.

حداثتها

وُلدت القديس تريزيا في مدينة افيلا، احدى مدن مملكة كستيليا في اسبانيا في الثامن والعشرين من اذار سنة 1515. وكان ابواها الفونس دي سيبيدا وبياتريس دي اهومادا، من اشراف تلك البلاد. تربت تريزيا هي واخوتها تربية مسيحية حسنة، حتى انها منذ نعومة اظفارها، كانت قد تعودت ان تجلس مع اخيها الصغير في احد اركان بيت ابيها، وتطالع واياه سيَر الشهداء والابرار القديسين، وتتأمل طويلا في صورهم وادوات عذاباتهم، واكواخ نسكهم. فحملتها تلك القراءة على شيء كثير من العبادة وعلى الرغبة في ان تسفك دمها هي ايضا لاجل المسيح، لتحظى نظير الشهداء باكليل الانتصار في السماء. وفي ذات يوم خرجت خلسة من البيت برفقة اخيها الصغير، وسارت واياه ممسكة بيده تريد بلاد المغرب طمعا في ان يموتا من اجل المسيح وينالا اكليل المجد. ولكن ما كاد الولدان يخرجان من المدينة حتى لقيهما عم لهما. فدهش لرؤيتهما لوحدهما في تلك الارض. فلم علم منهما ما عزما عليه ضحك وطيب خاطرهما، واعادهما بلطف الى البيت. فلما رأيا ان قد حبط مسعاهما،

رغبا في ان يعيشا عيشة النساك الابرار بحسب ما كانا قد قرآ عنهم في سير حياتهم. فاتخذا لهما زاوية صغيرة في الحديقة، وجعلاها منسكا يأويان اليه، وينصرفان فيه للصلاة والعبادة. وامتازت تريزيا منذ حداثتها بعبادة بنوية لوالدة الاله، فكانت تتلو السبحة كل يوم مع اخيها في منسكها.

وما كادت تبلغ العاشرة من عمرها حتى كانت فتنة للناظرين بجمال طلعتها واعتدال قوامها. واخذت امها تعنى بزينتها، فصارت هي تبالغ في اظهار جمالها ومواهبها، حتى فقدت تقواها، وجعلت جل اهتمامها في تجعيد شعرها وتعطير ثيابها وامتاع عقلها بقراءة سير ابطال الحب والحروب.

ثم ماتت والدتها وتركتها ابنة اثنتي عشرة سنة. فحزنت جدا على فقدها، وذهبت وانطرحت عند قدمي البتول، وصلت بحرارة ودموع، وطلبت اليها ان تكون هي امها. ولكن سرعان ما انقضت ايام الحزن حتى صار البعض من ابناء عمها، ويترددون لها ويقضون الاوقات الطويلة بصحبتها. فاستسلمت للهو وضياع الوقت. وتزوجت اختها الكبرى فارسلها ابوها الى دير للراهبات الاوغسطينيات، وهناك عادت اليها تقواها وحرارتها ورصانة حياتها. واثرت فيها تأثيرا عميقا قراءة رسائل القديس ايرونيموس، وعزمت عزما اكيدا على الزهد في الدنيا وغرورها، وعلى انتحال العيشة الرهبانية.

تريزيا الراهبة الكرملية في دير التجسد

دخلت تريزيا دير التجسد لراهبات الكرمل في مدينة افيلا سنة 1535، وكان لها من العمر ثمان عشرة سنة. ولما كانت ذات طبيعة رصينة كريمة، كثيرة العواطف شديدة الارادة، عزمت عزما اكيدا على ان تكون لله بكل قواها. الا ان حياة الكرمل في تلك الايام كانت حياة هينة. كانت الراهبات لا يأنفن من السعي وراء ما يروق لهن من الملابس والمأكل والاجتماعات وقبول الزيارات والخروج من الدير. وكانت لهن الحياة الرهبانية حياة تقوى عادية، لا تتجاوز ما يمارسه عامة الناس الاتقياء، ما عدا البتولية. اما الحياة الرهبانية الصحيحة المبنية على التجرد والامانة والتواضع والتفرغ للصلاة العقلية والطاعة الكاملة، فكانت شيئا نادرا، خاصا ببعض الافراد. فعاشت تريزيا تلك الحياة الهنيئة الهينة مدة اثنتين وعشرين سنة. واوشكت تلك الحياة العادية ان تعرضها للتراخي والسقوط.

ومرضت تريزيا مرضا شديدا اوشكت من جرائه على الموت، ولم تنجُ منه الا باعجوبة وبشفاعة القديس يوسف. وكان ايضا لها نسيبة راهبة تقية فاضلة، فكانت تردعها عن كثرة قبولها للزيارات وعن تعلقها بالخلائق. وقيض الله لها ان قرأت كتاب اعترافات القديس اوغسطينوس، فانفتحت عيناها للحقائق الابدية، وبدأت حياة الحرارة والتواضع والامانة والتجرد، والموت الكامل للخلائق، لتكون لله وحده دون سواه.

بدأ الله يظهر لعقلها وقلبها بايحاءات وانوار سماوية، ويعلمها كيف تصلي، وكيف تتأمل، وكيف تمارس الصلاة العقلية التي سوف تصبح فيها المعلمة الكبرى. فصارت تجد عزاءها في تلك الصلوات، وتقضي في ممارستها الساعات الطوال، حتى انها خشيت ان تكون تلك اللذة القلبية والراحة الداخلية التي تشعر بها من عمل الشيطان، مريدا بذلك ان يغرها ويخدعها ويُسقطها. لكن مرشدها القديس فرنسيس دي بورجيا، من الرهبانية اليسوعية، طمأنها بقوله انها ما دامت تسير في طريق التواضع وتبدأ صلاتها بالنظر الى يسوع المصلوب، فلا خوف عليها من الغرور.

واخذ الرب يسوع يظهر لها تارة بنوع حسي، وتارة بانوار الهية يفيضها في عقلها وفي قلبها، حتى ظن من كان آنئذ يرشدها انها مغرورة. فصار مرشدوها يشددون عليها، ويعنفونها، ويمنعونها من الانصراف للصلاة العقلية. فكانت تخضع لاوامرهم، وتنقاد بكل سذاجة لارشاداتهم. لكن الرب يسوع كان يتراءى لها ويقويها، ويؤكد لها ان ما تشعر به، وما تراه، وما تسمعه، انما هو آت حقا منه. وانها مع ذلك حسنا تصنع بطاعتها وانقيادها لاوامر رؤسائها ومرشديها.

الا ان الفادي الالهي ما لبث ان اضرم في قلبها نار حبه الالهي، وصب في نفسها شوقا عظيما الى رؤيته، حتى ان حياتها على الارض اضحت موتا متكررا متواصلا مستديما. ومع ذلك كانت تشعر بلذة قلبية وطمأنينة داخلية لا توصف. ومرارا عديدة كانت تشاهد احد الملائكة السرافيم يدنو منها ويطعنها بحربة نارية كانت تخترق احشاءها وتضرمها بنار من الحب لا تكاد تحتمل لظاها. فكانت تذوب من الالم ومن الحب ومن العذوبة القلبية في آن واحد. وقد حكم اربعة من كبار علماء الروح في اسبانيا ان ما تشعر به تريزيا من الآلام، وما يثور في دواخلها من العواطف، وما تنعم به من العذوبة القلبية العميقة، وما يتصعد من قلبها من الاشواق المضطرمة فيرفع حتى جسدها عن الارض ويتركه احيانا قائما في الفضاء، انما هو آت من قوة مفاعيل نعمة الروح القدس. وكانت هي تسير بارشادات هؤلاء العلماء القديسين: القديس لويس برتران، والقديس بطرس القنطاري، والاب بوحنا دافيلا، والاب لويس الغرناطي.

عمل تريزيا في اصلاح رهبانية الكرمل

بدأت دعوتها الى حمل رآية الاصلاح تتضح حوالي عام 1560، على اثر رؤية، رأت فيها جمهورا كبيرا من الناس يُجَرون الى جهنم نتيجة تعاليم لوثر، وحياة الرهبان السيئة، التي ان لم تكن السبب في تمرد لوثر، على الاقل كانت الحجة التي تذرع بها. وحملتها محبتها للسيد المسيح على اعادة رهبانية الكرمل الى فرائضها الاولى وجمالها القديم، من فقر كامل، وامتناع دائم

عن اكل اللحوم، وحياة الوحدة والصلاة. فاندفعت في هذا الميدان الخطير، وقامت تحقق ذلك العمل العظيم. فلاقت من المصاعب اهوالا. فكان هذا دليلا جليا على ان عملها هو الهي سماوي. فاضطهدها الناس، وناصبها الشيطان العداء ليعرقل مساعيها ويهبط عزائمها. لكنها مضت في سبيلها بارادة جبارة، معتمدة على الصلاة والصيام والدموع والتواضع، والطاعة لارشادات رجال الله القديسين الذين ارسلهم اليها الله ليسددوا خطاها، ولا سيما بعض الآباء الدومنكيين واليسوعيين، وخصوصا الفرنسيسكاني القديس بيير دالكانترا Pierre D'Alcantara. فنجحت في عملها نجاحا عظيما. فانشأت اولا ديرا في افيلا، دير القديس يوسف عام 1562. وقامت تدير شؤونه وترشد راهباته في طرق الكمال الكرملي بحسب الفرائض القديمة الشديدة.

اخذت تريزيا تنتقل من مدينة الى مدينة في بلاد اسبانيا الواسعة، وتنشىء الاديار، وتدير شؤونها بكل غيرة وعناية ومحبة، ولكن بكل تواضع وصبر وطول اناة وسداد رأي، ومضاء عزيمة، وثبات، وحكمة فاقت مشاهير الرجال. وكانت رغم اشغالها الوافرة، ومهامها الشاقة لايفارقها فكر الله، ولا يسلاه قلبها لحظة واحدة. وكانت تحافظ على الفرائض والصيامات في اسفارها وحلها وترحالها بكل دقة وامانة، كما لو كانت بين اسوار دير من اديارها.

وظهر لها الرب يسوع وشجعها في عملها، وشكر لها اعادة رهبانية "سيدة الكرمل" الى بهائها القديم ورونقها الجميل. ووضع على رأسها اكليلا من الذهب. ثم تراءت لها البتول مريم وجعلت عليها وعلى بناتها رداءها، وسترتهن به للدلالة على انها تأخذهن جميعا تحت كنف حمايتها.

وهي التي نشرت في اديرتها اولا، ثم في الكنيسة جمعاء، العبادة البنوية للقديس يوسف. وعلى اسمه شيدت اول دير من اديرة اصلاح الكرمل، ومن بعده اكثر الاديرة.

وما لبث الرؤساء ثم الاحبار الرومانيون ان وافقوا على هذا العمل الجليل. فتعددت الاديرة من هذا النوع للنساء، ثم للرجال، حتى ملأت بلاد اسبانيا، ومن هناك امتدت في حياة تريزيا، الى سويسرا والمكسيك، ومن بعدها الى جميع انحاء العالم. ولقد دعاها التاريخ "معلمة الصلاة العقلية". فقد مارستها في كل انواعها، وعلمتها لراهباتها، وكتبت عنها كتابة شائقة ضارعت بها كبار المعلمين الروحيين.

وفاتها وكتاباتها

كانت القديس تريزيا ابنة سبع وسبعين سنة عندما دعاها الله اليه، في الرابع من تشرين اول 1583، ودفنت في اليوم الثاني 14 تشرين اول (بسبب تغيير التقويم الغريغوري). وكانت قد اسست 32 ديرا منه 17 ديرا للراهبات و15 للرهبان. وقد اعلن قداستها البابا كليمنضوس الخامس في عام 1622.

تركت القديسة تريزيا الافيلية كتابات كثيرة جعلتها في مصف كبار الكتبة الكنسيين، وائمة معلمي الروحيات القديسين. منها تاريخ حياتها، وطريق الكمال، وتاريخ انشاء الاديرة التي بنتها، وكتاب "القصر الداخلي" وهو ابدع ما خرج من قلبها ومن قلمها، ورسائل عديدة،وايضاحات كثيرة عن النعم التي نالتها. اما كتاباتها الروحية فلم تكتبها الا بامر رؤسائها ومرشديها.

القديس يوحنا الصليبي الكرملي 1542-1591

St. Jean de la Croix

كان القديس يوحنا الصليبي الكرملي مرشد القديس تريزيا الافيلية، ومشجعها وتلميذها ورفيقها في الجهاد. فما كاد يسمع من تريزيا ما عزمت عليه من اصلاح الحياة الرهبانية في الكرمل، واعادتها الى رونقها السابق، حتى انضم اليها، وسار تحت لوائها، وبدأ هو باصلاح فرع الرجال.

نشأته

ولد يوحنا في فنتيبورس من اعمال كستيليا القديمة، في اسبانيا، سنة 1542. وكان ابواه من عامة الناس، ولكن جدوده كانوا من اشراف القوم في ايامهم. فقضى حداثته بين المدارس الابتدائية والاشغال اليدوية. واضطر لكي يعيش ان يتعاطى تارة الحياكة، وتارة النجارة والنقش. وكان كثير العبادة، وكانت امياله تدفعه دائما الى حياة اسمى واكمل. فدخل مدرسة الآباء اليسوعيين في مدينة "الكاميو" وبقي ست سنوات يتبع فيها الدروس الاعدادية حتى برع فيها. ولما بلغ العشرين من عمره ترك الدنيا، وذهب فانتحل العيشة الرهبانية في دير للآباء الكرمليين في تلك المدينة عينها.

يوحنا الراهب

وقضى يوحنا سنتين في الابتداء في الرهبانية الكرملية، وكانت قد تركت الشيء الكثير من فرائضها الاولى ومن كمالاتها الاصلية. فكانت نفس يوحنا تتوق الى حياة كمال افضل من حياة الكرمل.

فلما نذر نذوره، ارسله رؤساؤه الى مدينة سلمنكا، ليتعلم اللاهوت في جامعتها الشهيرة. وما كاد يتمم درس اللاهوت حتى رُسم كاهنا. حينئذ اخذ يفكر بجد في ترك رهبانية الكرمل، لكي يذهب فيدفن نفسه في صومعة من صوامع الآباء الكرتوزيين، فلا يعيش الا لله وحده ولا يتحدث الا معه.

وفي غضون ذلك كانت القديسة تريزيا الافيلية قد بدأت باصلاح رهبانية الكرمليات. وكانت تفكر في نشر ذلك الاصلاح في اديرة الرهبان ايضا. وكانت تصلي وتطلب الى الله ليرسل لها الرجل الذي يختاره للقيام بهذا العمل العظيم. وكانت قد سمعت بالاب يوحنا وبروح الكمال الذي يمتاز به. فلما اجتمعت به وجدت فيه ضالتها المنشودة. فقالت له: "يا ابت وابني، دعك من الرهبانية الكرتوزية، وتعال نُصلح رهبانيتنا الكرملية". فرضي الاب يوحنا بما عرضته عليه الام تريزيا، وبدأ بالاصلاح، اعنى باتباع فرائض الفقر والصلوات والاماتات القديمة. فاتخذ له ولاثنين من رفاقه بيتا حقيرا خربا فجعله ديرا، وقام يمارس معهما اسمى الكمالات الكرملية. وكان ذلك برأي وسماح الرؤساء، ثم بتشجيعهم.

الاب يوحنا واصلاح الكرمل

وارسل الله اليه تلاميذا حذوا حذوه، فانتعشت بهم رهبانية الكرمل الاصلية،. وقد ساعد الاب يوحنا بالاكثر على عمله ما دبرته له العناية الالهية من حياة الاختلاء، بالقرب من القديسة تريزيا. لان هذه المصلحة الكبيرة لرهبانية الكرمل، لما تسلمت رئاسة دير التجسد في مدينة افيلا، طلبت ونالت ان يكون الاب يوحنا مرشدا روحيا لراهبات ذلك الدير. وهكذا قضى في الخلوة خمس سنوات، كان فيها تلميذا لتلك التي كان يسمع اعترافاتها، فارشدته هي الى اسمى درجات القداسة والاتحاد بالله.

ولما رأى بعض رهبان ورؤساء الكرمل ان طريقة الاصلاح سائرة بخطى جبارة، خافوا على انفسهم ان يتلاشى كيانهم. فثاروا على الاب يوحنا زوبعة هوجاء وهاجموه ذات ليلة من ليالي كانون الاول المظلمة الباردة من سنة 1577، وانتزعوه من خلوته واختطفوه قسرا وذهبوا به الى مدينة طليطلة Tolède، حيث سجنوه في غرفة ضيقة مظلمة في دير لهم هناك، ووضعوا الحرس على بابه لئلا يفلت من بين ايديهم. وظنوا انهم في عملهم هذا يخنقون الاصلاح في مهده.

فقضى يوحنا في ذلك السجن سبعة اشهر، كانت نفسه في اثنائها تسبح في بحر من التعزية القلبية والتسلية الروحية، فوضع اذ ذاك قصائده الروحية التي سوف يشرحها في خلوة اخرى، في مؤلفات بديعة ستخلد اسمه الى الابد، وتفيد النفوس.

لكن الرؤساء عادوا فاطلقوه، وانشأوا اقليما رهبانيا خاصا بالاصلاح، مستقلا عن سائر الاقاليم الكرملية ذات الفرائض المخففة. الا ان اديار الاصلاح تعددت، وجموع رهبانها تكاثرت، الى حد ان الكنيسة فصلت بسلطانها الاعلى بين فرع اصلاح والفرع الآخر، وجعلت لكل منهما رئاسته العامة، وادارته الخاصة، سنة 1593، على عهد البابا كليمنضوس الثامن، بعد وفاة الاب يوحنا بسنتين قط.

سنواته الاخيرة وكتاباته وموته

قضى الاب يوحنا الصليبي بقية ايامه يتقلب في الوظائف الرهبانية. فكان تارة رئيس المدرسة اللاهوتية في يائيزا، وطورا رئيس غرناطة وسيغوفية، واخرى نائب رئيس اقليمي. ولكنهم عمدوا دائما الى اقصائه عن الوظائف الكبرى العالية، اما لانهماكه في الروحيات، واما لانهم وجدوا بين الاشخاص اللامعين الذين حملتهم القديسة تريزيا على انتحال طريقة الاصلاح، من كان اقدر على تحمل مسؤوليات الرئاسة والادارة.

ولما تسلم الاب دوريا الرئاسة العامة على الرهبانية، اقصى الاب يوحنا عن كل وظيفة، واعاده الى صف الرهبان العاديين. فانزوى هذا الاب الوديع المتواضع من جديد في صومعته، وقام يمارس اعمال النسك والتأليف بكل راحة قلب، وطمأنينة فكر، وحرية عمل. فكانت له تلك الوحدة ولرهبانية الكرمل، وللكنيسة جمعاء، ينابيع نعم وانوار. لانه تفرغ فيها لوضع مؤلفاته الرائعة عن الطرق الروحية العالية، والكمالات الرهبانية، التي وضعته بين كبار اساتذة الروح، وحملت الكنيسة على تسميته معلما من معلميها. ومن مؤلفاته الرائعة: "الصعود الى جبل الكرمل La montée du Carmel" و"النشيد الروحي La Cantique Spirituel".

لم يعمر طويلا لان الاصوام والسهر والاسفار في سبيل انشاء اديرة الكرملين والكرمليات كانت قد انهكت قواه. فرقد في الرب وهو في عزلته، في بلاد الاندلس، سنة 1591، ولم يكن قد تجاوز التاسعة والاربعين من عمره.

ب) الجمعيات الجديدة

قبل ان نتكلم عن الجمعيات الجديدة التي ظهرت في بداية العصور الحديثة (القرن السادس عشر)، يجدر بنا ان نلقي نظرة على النقاط الرئيسية التي ميزت هذه الجمعيات الجديدة.

مميزات الجمعيات الجديدة

1) أنشئت تقريبا اكثرية هذه الجمعيات بهدف الرسالة L'Apostolat. لم تجر العادة في العصور الاولى للكنيسة، أن تنشأ جمعيات الا على طراز الحياة الرهبانية التوحيدية او الجماعية، بغية حياة النسك والتأمل والصلاة، وبهدف خلاص نفس الناسك او الراهب. اما العصور الوسطى، فقد قطعت هذا التقليد الطويل، بأنشاء جمعيات جديدة وبروح جديدة، عُرفت "بالجمعيات المزدوجة Ordes mixtes" التي جمعت بين الحياة التأملية والعملية. من هذه الجمعيات "الرهبانيات المتسولة Les Ordres Mendiants" كالدومينيكان والفرنسيسكان.

اما الجمعيات الجديدة التي بدأت تنشأ في منتصف القرن السادس عشر، فقد أنشأت تقريبا كلها بهدف الرسالة بجميع اشكالها. ويمكننا ان نصنّف اهداف الرسالة هذه في ثلاثة انواع: 1) تهيئة الاكليروس والتبشير، 2) تربية وتعليم وتهذيب الشبيبة، 3) اعمال المحبة (مستشفيات، ملاجىء، مياتم...).

2) ومن فكرة الرسالة اتت الميزة الثانية، وهي ان هذه الجمعيات الجديدة ، ليست جمعيات رهبانية بالمعنى الحصري، وانما جمعيات اكليروسية–رهبانية Clercs Réguliers، كالتياتين، والبرنابيت، واليسوعيين، نوع وسط بين الرهبان moines وبين الاكليروس العلماني او الابرشي prêtres séculiers. وكوّنت بعض هذه الجمعيات جمعية ابرشية Congrégations séculières، أي مجرد مجموعات من الكهنة، اتحدوا لتقديس نفوسهم ونفوس غيرهم، والعمل بمثالهم وتعليمهم على تجديد وتهيئة الاكليروس. وتجنبت كل هذه الجمعيات ان تركز بيوتها او اديرتها، كما كان يفعل الرهبان قديما، في المناطق النائية، طلبا للوحدة والهدوء، بل اختاروا اديرتهم في المدن والقرى، واقرب ما يكون الى الناس، ليعيشوا حياتهم، حتى يستطيعوا ان يأثروا على المجتمع، ويقودوه ويحموه من الفساد ومن تأثيرات الهرطقات السيئة.

3) تميزت هذه الجمعيات ايضا بميزة ثالثة، وهي انهم حاولت في سن قوانينها، ان تتجنب قدر المستطاع ما من شأنه ان يعرقل او يأخر او يتنافى مع عملها الرسولي. فمثلا تم الغاء صلاة الفرض الجماعية، التي تربط الكاهن وتمنعه من حرية الحركة، والفقر الكامل، الذي يمنع تطور هذه الجمعيات ومؤسساتها. واجتناب المظاهر الرهبانية التقليدية والملفتة للنظر في اللباس او طريقة العيش، وذلك للتقرب اكثر من حياة الاكليروس الابرشي، ومشاركته في حياته ما عدا المساوىء، ولبس لباسه، اذا ما ارادت تحقيق هدفها الرئيسي وهو اصلاح الاكليروس وتنشئته ليكون على مستوى دعوته الكهنوتية ورسالته الراعوية.

1) جميعة "الاوراتوريين" أي كهنة المعبد: القديس فيليب دي نيري 1515–1595

St. Philippe de Néri

الحداثة

ولد فيليب في مدينة فلورنسا، عاصمة الفنون الجميلة في ايطاليا، في 26 تموز سنة 1515. كان ابواه فرنسوا دي نيري ولوكريسيا سولدي من اشراف البلاد، ومن الناس الاتقياء الصالحين. وامتاز فيليب منذ سني الطفولة بوداعة الطبع ونعومة الخلق حتى لُقِّب بالطفل اللطيف. وماتت امه قبل ان يبلغ سن الرشد، فتزوج ابوه ثانية، فاحبته امرأة ابيه لوداعته ولطافته، فاعتنت به كأنه ولدها. وكان ابن ثماني و تسع سنوات لما وقاه الله باعجوبة من خطر الموت، اذ سقط من مكان مرتفع هو وفرس لابيه محملة اثمارا فجاء تحتها. فظنوه قد هلك، فركضوا اليه، فوجدوه سالما ولم يُصب بأذى. فرأى فيليب في ذلك يد الله، فقال: اراد الله ان يحفظ لي حياتي، فسوف اجعلها وقفا على محبته وخدمته. وصار يتردد على رجال الله والرهبان في مدنية فلورنسا ويأخذ عنهم. فشغف بطريقة حياتهم، وصار يتوق الى عيشة الصلاة وخدمة القريب نظيرهم.

ولما كبر وانهى دراساته الاولية في دير القديس مرقس للآباء الدومنيكان، ارسله ابوه الى مدينة "القديس جرمانس" بجوار جبل كاسينو ليتخرج في طرق التجارة عند خال له كان من اصحاب الثروات الضخمة، ولم يكن له ولد. فسُحر هذا الخال باخلاق ابن اخته الوديعة الناعمة، فاحبه، وعُني عناية كبرى به، وجعله وريثه، ووضع بين يديه امواله. لكن فيليب كان يصبو الى غير هذا الغنى، وخاف ان تضيع ايامه في اللهو والغرور، فترك بيت خاله سرا، وسافر مشيا على الاقدام يريد مدينة روما (1533). ولكي يعيش صار يستعطي على الطريق، فرحا في ان يكون فقيرا. فلما وصل الى ابواب العاصمة الخالدة دبر له الله احد مواطنيه، رجلا يدعو غاليوتو غاكيسا، فاضافه بضعة ايام، ثم ترك له مخدعا في بيته ليقيم فيه على الدوام. فاتخذ فيليب تلك الحجرة الصغيرة منسكا قام يمارس فيه اسمى الكمالات الانجيلية. فبدأ بالاماتات والاصوام، فصار لا يأكل سوى الخبز الناشف، ولا يشرب سوى الماء. وكان في ايام الآحاد والاعياد يضيف الى كسرة الخبز قليلا من الاعشاب، او حبات معدودة من الزيتون. ومرارا كان يقضي اياما متتابعة من غير ان ياكل شيئا. وصار يخصص للصلاة اكثر ساعات الليل.

بدأ في روما دراسة الفلسفة على يد اقدر الفلاسفة الماهرين، وتعلم اللاهوت باتباعه الدروس العلنية التي كانت تلقى في كلية الآباء الاوغسطينيين. فنال من تلك العلوم حظا وافرا. ثم اكب على دراسة الكتاب المقدس، وعلى التامل في آياته.

الا انه، فجأة، عام 1538، وعلى عمر 23 سنة، قرر ان يترك الدراسة ليكرس حياته، على حسب ما وعد به الرب، بالخدمة الرسولية، وكان لا يزال بعد علمانيا. قام فيليب يخدم الله في شخص القريب، بكل ما أوتي من شباب وقوة ونشاط وعلم وتقوى وعاطفة. وَجَدَّ في خدمة ومساعدة المرضى والفقراء والخطأة والجهال والاحداث والشبان، لا يوفر لنفسه او لراحته ذرة من وقته. فصار يقضي ايامه في زيارة المرضى في المستشفيات وفي البيوت، يؤاسيهم ويخدمهم. وكان يسهر على المنازعين ويقوي عزائمهم، ويعينهم في ساعاتهم الاخيرة الاليمة، ويهيء نفوسهم للمثول امام منبر المسيح. وكان يطلب الشبان البعيدين عن الله، ويرشدهم بلطف، ويعيدهم الى واجباتهم. وكان يتفانى في مساعدة البنات الفقيرات، ويوجد لهم المال اللازم لجهازهن وزواجهن.

اما عنايته الخاصة فكان يوجهها الى الشبان والاولاد. فكان مع الشبان الرفيق الطيب المعشر، والصديق اللذيذ الحديث، يبث فيهم روح الرب، ويبعدهم عن اخطار العالم. وكان يجد نعيمه في مخالطتهم والاجتماع معهم. فكان يطوف شوارع روما ويجمعهم ويشاطرهم العابهم، ويتفنن في استنباط انواع التسليات لهم، حتى اذا تمكن من ثقتهم به ومحبتهم له، عمد الى زرع بذور الفضائل المسيحية في قلوبهم، واعدهم لحياة الجهاد والصلاح. فتألفت حولة اسرة روحية كبرى كانت موضوع اهتمامه اليومي. وكانت هي تتراكض اليه فتجد فيه الاب الحنون العطوف. وكان يبذل ما في وسعه ليجد للفقراء من اولئك الاحداث ما يكفيهم لسد عوزهم، ويضع بعضهم في المدارس على نفقته، وبعضهم في مصانع الشغل، ليكفل لهم مستقبل الحياة.

ولما كان يخيم المساء كان يأوي الى مخدعه، ويقوم يناجي الفادي الالهي بالصلاة العقلية والتأمل، ويقضي هكذا ساعات طوالا من الليل يغذي نفسه، وينشط قواه، ليعود عند الصباح الى متابعة اعمال رسالته. وكان يبدأ النهار بحضور القداس وتناول جسد الرب، ثم يذهب الى عمله وتفانيه وغيرته.

فيليب الكاهن الغيور

فلما رأى مرشد فيليب ما كان عليه من الفضائل والعلم الصحيح والغيرة الرسولية، اوعز اليه ان يقبل الرسامة الكهنوتية، لتكون اعمال غيرته ومحبته اوقع في القلوب، واكثر فائدة للنفوس. فدخل فيليب في سلك الكهنوت عام 1551، وكان له من العمر ست وثلاثون سنة. ودخل فيليب في جميعة كهنة القديس ايرونموس او "جمعية المحبة". وكانت تتألف من كهنة غُير، لا تربطهم ببعضهم بعض سوى روابط الغيرة الكهنوتية، بغية توحيد القوى الرسولية وتوجيهها الى غاية معينة، للوصول الى الهدف المبتغي. فوكلوا اليه التفرغ لسماع الاعترافات. فصار يقضي الساعات الطوال كل يوم في منبر التوبة، يصالح جمهور المؤمنين مع الله. فصار تلاميذه واصدقاؤه والمعجبون بعلمه وفضائله يفدون اليه، ويطرحون همومهم واوزراهم بين يديه. كما وتابع اعمال غيرته القديمة مع المرضى والفقراء.

فرجع الى الله على يده مئات من الخطأة ومن الهراطقة ومن الملحدين. وحمل الكثيرين من الشبان على ان يقفوا حياتهم لله ويدخلوا في احدى الرهبانيات. وكان القديس اغناطيوس دي لويولا مؤسس الرهبانية اليسوعية يعجب به ويجله. وعمل كثيرا ليضمه الى جمعيته. لكن فيليب كان لا يجد في نفسه الكفاية ليكون واحدا من اولئك الرهبان. فكان القديس اغناطيوس يسميه "الجرس المقدس"، يريد بذلك ان فيليب كان يحمل الاخرين على الدخول في الاديرة فيما كان يبقى هو خارجها. فذاع صيته في روما، وصار الناس من كل الطبقات يأتون اليه طالبين انواره. واهتدى على يده ثلاثة من كبار الملحدين. فسرت في روما كلها موجة سرور واعجاب لا توصف حتى ان الحبر الاعظم البابا كليمنضوس الثامن نفسه، لشدة فرحه بهم، منحهم بيده سر العماد المقدس.

كان فيليب على استعداد دائم لقبول الناس، في الليل وفي النهار وفي اية ساعة من الساعات. وكان لا يأنف ان يترك الصلاة والتأمل لسماع اعتراف هذا او ارشاد ذاك، او للخروج مع فرقة من الاولاد او الشبان الى النزهة واللعب. لانه كان من عادته ان يقول: "لا بأس علينا ان نترك الله لاجل الله". واعتاد الشبان ان يجتمعوا عنده ويغشوا مخدعه، ويملأوا الارض من جلبتهم. فكان لا يأنف من ضوضائهم، بل يجد لذة موسيقية في اصواتهم وضجيجهم. ولما سأله احد اصدقائه كيف يستطيع ان يحتمل مثل تلك الجلبة اجابه فيليب على الفور: ما داموا لا يهينون الله، يطيب لي ان ينشروا الخشب على ظهري.

تأسيس جمعية الاوراتوريين

ولما تكاثر عدد تلاميذه ومريديه، صار يجمعهم كل مساء في معبد صغير Oratoire فيتلو الصلوات معهم، ثم يقوم يرشدهم. وكان كلامه مشبعا بروح الوداعة المسيحية والعذوبة الانجيلية. فاشتهر في روما ذلك المعبد وذلك الاجتماع، وصار الرومانيون، من كل الطبقات، يذهبون اليه قائلين بعضهم لبعض: "هيا بنا الى "المعبد". فلما رأى بعض الغيُر على خلاص النفوس هذا الاقبال الكبير على اجتماعات "المعبد" ورأوا ما تجنيه فيه الجماهير من ثمار الخلاص، حركتهم نعمة الروح القدس ليكونوا من العملة المجدين في هذا الحقل الرسولي، ويساعدوا فيليب في عمل تلك الرسالة المجيدة. فتتلمذوا له، ووضعوا بين يديه قواهم ومواهبهم. وهكذا نشأت جميعة "الاوراتوريين" أي كهنة المعبد، وظهر بين صفوفها اناس اعلام قديسون، اشتهر بينهم الكردينال بارونيوس، المؤرخ الكنسي الكبير. ووضع فيليب لجمعيته قانونا حكيما قال فيه بارونيوس انه مستقى مما جاء

في رسائل القديس بولس الى اهل كورنتس من الفرائض والوصايا. وصادق البابا غريغوريوس الثالث عشر على هذا القانون في 15 تموز 1575.

يتضح من هذه القوانين ان فيليب لم يكن ينوي تأسيس جمعية جديدة، بقدر ما كان يريد ان يمنح الكهنة العلمانيين Prêtres séculiers، امتيازات الحياة الجماعية، وان يجدوا افضل الوسائل ليعملوا بكل حرية وبكل قواهم، لتقديس تفوسهم ونفوس الاخرين. فلم يكن الاوراتوريين مربوطين بأي نذر، بل بامكانهم مغادرة الجمعية بأي وقت، الا ان فيليب شدد على ان طالما كان الكاهن منضما الى هذه الجمعية عليه ان يحافظ على نظامها بكل دقة وبامانة.

موت فيليب نيري

وبلغ فيليب شيخوخة جليلة. ولما دنت منيته علم برؤيا سماوية ان سراج حياته لن يلبث ان ينطفىء، استعد لذلك اليوم، ولما جاء اليوم المعين، احتفل عند الصباح بالقداس الالهي، وكان السرور باديا على محياه. ثم سمع اعتراف بعض الحاضرين، وناولهم جسد الرب بيده. فكان هذا العمل الرسولي آخر اعماله. لان الدماء انفجرت بعد قليل من صدره واشرف على الموت. فاجتمع حوله اولاده، فباركهم واسلم الروح بهدوء وسلام في 26 ايار سنة 1595. واجرى الله على ضريحه عجائب كثيرة وباهرة. وبعد وفاته بسبع سنين وجد جسده كاملا صحيحا، ولم يكن قد اعتراه شيء من الفساد. وفي سنى 1622 رفعه البابا غريغوريوس الخامس عشر الى مصاف القديسين.

2) الجمعية اللعازرية: القديس منصور دي بول 1576–1660

St. Vincent de Paul

اسس القديس منصور دي بول جمعية "كهنة الارساليات" او اللعازريين في عام 1674، بهدف تبشير الارياف. الا اننا سنرى، ان اللعازريين تعدوا هذا الهدف، وتخصصوا في ادارة الاكليريكيات، وفي التبشير في بلاد الارساليات.

ولد منصور في قرية بوّي Pouy القريبة من مدينة دكس، في الجهات الجنوبية الغربية من فرنسا، على حدود التلال المطلة على مدينة بوردو، في 24 نيسان سنة 1576[8]. وكان ابواه يوحنا دي بول وبرتراندە دي موراس، من عامة الناس الذين الذين ياكلون خبزهم بعرق جبينهم. لكن مخافة الله واعمال التقوى كانت ثروة كبرى لهم، وبقي منصور حياته كلها يذكر وضاعة نشأته، ويعيد على مسامع الناس ولا سيما في ايام مجده ورفعته، انه فلاح ابن فلاح، وانه كان يرعى الخنازير في حداثته. وجُبل منصور من رقة وحنان وعاطفة سخية.

وعني ابوه يوحنا بتعليمه فارسله الى مدرسة الآباء الكوردلييه Cordeliers في مدينة دكس. فامتاز بتقواه ونباهته واجتهاده. ونجح في الدروس نجاحا كبيرا، فكلفه احد المحامين ان يدرّس اولاده. فعاش في بيته ولم يعد عبئا على والديه. وبقي يعلم اولئك الاولاد، ويتابع هو دروسه، حتى صار ابن عشرين سنة. وكان ما اتصف به من الرصانة والتقوى والحنان على الفقير وحسن القيام بواجباته قد كسب له عطف من عرفه. لكنه عاف ضوضاء العالم ومطامعه، وشعر في نفسه ان الله يدعوه الى خدمته. فعزم على الدخول في سلك الكهنوت، والتفرغ لخدمة الله والنفوس. فقبل في عام 1596 الرتب الصغرى، وغادر الى مدينة تولوز لمواصلة دراسته.

منصور دي بول الكاهن

درس منصور الفلسفة واللاهوت مدة سبع سنوات على اساتذة مدينة تولوزا في فرنسا ومدينة سرقسطة Saragosse في اسبانيا. وفي سنة 1600 رُقي الى درجة الكهنوت المقدسة. ولما كانت ثقافته عالية ومتينة عينه رؤساؤه استاذا في الكلية اللاهوتية في تولوز. وهكذا بدأ حياته الرسولية بالتعليم.

وذهب الاب منصور في عام 1605 الى مدينة مرسيليا على شاطى البحر الابيض، ليتسلم ميراثا كان يعود اليه. وعند عودته سلك طريق البحر. واذا بالقراصنة ينقضون على المركب الذي هو فيه ويسرقونه بماله ورجاله وركابه الى مدينة تونس في افريقيا الشمالية. وهناك باعوه هو ورفاقه بيع العبيد الارقاء. فصبر هذا الكاهن الجليل على محنته هذه الشديدة الاليمة، وسلم امره الى الله، وقام بخدم نظير سائر العبيد في بيوت ومزارع اسياده. ثم اشتراه احد قدماء المسيحيين، وكان من الذين جحدوا دينهم وانتحلوا الاسلام، والتحقوا بامراء تلك البلاد. فاعاده منصور الى الايمان المسيحي وحمله على هجر البلاد التونسية والعودة الى فرنسا مسقط رأسه. فعادا كلاهما معا، ودعاهما وكيل السفير البابوي في افنيون الى زيارة روما بصحبته ليقابلا البابا.

[8] يعزو بعض المؤرخين اليوم مولد منصور الى عام 1581 وانه سيم كاهنا عل عمر 19 سنة.

واقام في روما ردحا من الزمن في ضيافة الوكيل البابوي. ولما كان خالي من الاشغال تفرغ من جديد للدرس والمطالعة، ولا سيما للصلاة.

ومن روما ارسله البابا بولس الخامس الى باريس، الى الملك هنري الرابع، في مهمة ذات شأن. فقام بها خير قيام. وحظى باعجاب الملك فعينه مرشدا لامرأته السابقة مرغريت دي فلوا Margatite de Valois. طلب منصور من الآباء الاوراتوريين ان يقبلوه في ديرهم بصفة ضيف عندهم، فقبلوه وكان رئيسهم اذ ذاك الاب دي بيرول Mr. De Bérulle، الكاهن القديس والمعلم الجليل في الروحيات. فاتخذه منصور مرشدا له.

خادم رعية كليشي 1612–1613

كليشي قري صغيرة قريبةمن باريس تعد 600 نفسا كلهم فلاحون على كثير من التدين. خدمها من 2 ايار 1612 ال ايلول 1613، نزولا عند رغبة الاب دي بيرول ، الذي استدعى خادمها الاب بورغوان لينظم معه شؤون جمعية الاوراتور. عمل الاب منصور في هذه الرعية على اصلاح الكنيسة وتوسيعها، وكرس معظم وقته في التعليم الديني ومساعدة الفقراء والاعتناء بالمرضى وتأسس الاخويات.

الاب منصور عند عائلة دي غوندي 1613-1625

اوجد له الاب دي بيرول وظيفة لدى الجنرال فيليب عمانوئيل دي غوندي. وكان هذا الجنرال مدير السجون البحرية Les Galères، واخ الكردينال دي ريتز De Retz رئيس اساقفة باريس. وكان من الرجال العظام، تميز باخلاقه وآدبه وتقواه وشجاعته، عينه الملك ايضا قائدا اعلى للاسطول الملكي. فاسكنه هذا في بيته ووكل اليه تهذيب وتثقيف اولاده. وكان للجنرال زوجة تقية فاضلة، وكانت رغم وجودها في البلاط الملكي، ومخالطتها للسيدات الشريفات المستسلمات لانواع اللهو والغرور، قد حافظت على عبادات وتقوى حداثتها. فلمحت هذه السيدة الشريفة ما كان عليه الاب منصور من ثقافة عالية، وتقوى راهنة، وروح رسولية صادقة، وتواضع عميق، فاتخذته مرشدا له، وسلمت اليه ادارة نفسها واعمال رحمتها. فانفسح الافق امام القديس منصور وبدأ منذ ذلك الحين حياته الرسولية الكبرى، حياة الرحمة التي دعاه الله اليها.

اوائل حركة التبشير Les Missions

كان الاب منصور يرافق عائلة غوندي الى اراضيهما الواسعة وقراهما العديدة، فلمس في تلك الزيارات لمس اليد حال الشعب الروحية البائسة.

وزار في احد المرات في قرية "غان Ganes" احد القرويين، وكان مشرفا على الموت وقد رغب في ان يعترف. كان في الستين من عمره وكان معروفا عند الجميع بالفضل والتقوى. حثه الاب منصور على الاعتراف العام، ففعل. ولما حضرت السيدة دي غوندي قال لها امام الجميع: "سيدتي! لو لم يعّرفني الاب منصور لكنت هالكا لا محالة. كان ضميري مثقلا بخطايا فظيعة استحيت دوما من ان اقولها للكاهن. اشكر فضلك سيدتي وفضل الاب منصور". كان ذلك في اوائل كانون الثاني سنة 1617.

بلغ من السيدة التأثر حدا جعلها تقول للاب منصور: "ما هذا يا ابت؟ ماذا نسمع؟ اذا كان المعروف عنهم بالفضل والتقوى في هذه الحال، فما عساها تكون حال الكثيرين ممن يعيشون بعيدا عن الله والاسرار؟ كم من النفوس تهلك ولا من يقيها شر الهلاك! فما الدواء لهذا الداء؟". وطلبت من الاب منصور ان يعظ في يوم الاحد حول الاعتراف العام. وفي 25 كانون الثاني 1617، الواقع فيه عيد اهتداء مار بولس، القى منصور في كنيسة فولفيل Folleville عظة في الاعتراف العام، واظهر لهم اهمية هذا العمل وفوائده "فبارك الله كلامي، من اجل سلامة قلب تلك السيدة، ومن اجلي انا الخاطىء الكبير. عاد كلامي بالمنفعة على الجميع فارادوا كلهم ان يقوموا باعتراف عام. فاضُطررت ان ابقى عندهم لاعلمهم وارشدهم واسمع اعترافاتهم. كنا كاهنين ولكننا، بالنظر الى الاقبال العظيم، عجزنا عن ان نقوم وحدنا بتلك المهمة. فطلبنا النجدة، فاتانا بعض الآباء اليسوعيين من مدينة اميان. وبعد فولفيل انتقلنا الى غيرها من القرى، وكان الله يبارك جميع اعمالنا" (من محاضرة القاها في 25 كانون الثاني سنة 1655، محادثات روحية صفحة 123). ورأى بعض المؤرخين في هذا البداية البعيدة لتأسيس كهنة التبشير Les Prêtres de la Mission".

منصور كاهن رعية شاتيون 1617

وفجأة غادر منصور عائلة غوندي، واستلم العناية باحدى الرعايا الصغيرة البعيدة Châtillon Les-Dombes. كانت هذه الرعية قد تُرِكت في حالة مزرية. فقد خربتها الحروب الدينية ماديا، وعاث الهراطقة البروتستنت فيها فسادا روحيا، بحيث اختفت منها كل مظاهر الحياة الكاثوليكية. وصل الاب منصور دي بول اليها في الاول من آب 1617، وفي مدة خمسة اشهر، استطاع ان يعيد الامور الى نصابها. اكتفى في البداية ان يكون هو ومعاونه الاب لويس جيرار مثالا صالحا للجميع. فرأت شاتيون كهنة يعيشون حياة جماعية، لا هَمَّ لهم الا الخدمة الكهنوتية، يزورون الرعية لا سيما المرضى، يدرسون ويطالعون مؤلفات كنيسة، ويقيمون حفلات دينية متقنة وفخمة وجميلة وخاشعة. ونظم النشاطات الرعوية من وعظ وتعليم مسيحي،

ولمساعدة المحتاجين ماديا، اسس "اخويات المحبة" والتي منها ستخرج مستقبلا جمعية "راهبات او بنات المحبة Les Filles de la Charité". ولم يطل الزمن حتى انقلبت الاوضاع وامتلأت الكنيسة وكثُرت الاهتداءات.

منصور دي بول ومشاريعه الكبرى

لم يمض عام على ذلك حتى عاد الاب منصور الى باريس تحت الحاح مدام دي كوندي، التي لم ترض عن فقدان مرشدها ومربي اولادها. وكرس منصور هناك وقته بجانب وظيفته كمربي، في الاعمال الراعوية. فاتبع زيارته للمرضى والفقراء والمرضى، واسس اخويات المحبة على جميع الاراضي التابعة لعائلة كوندي. واسس في عام 1619 اول اخوية محبة للرجال.

منصور مرشدا للسجون 1619

ولما رأى الجنرال دي كوندي ما كان عليه هذا الاب الغيور من المزايا الرفيعة والصدر الرحب والعاطفة الفياضة، عينه مرشدا روحيا اول للسجون البحرية، ووكل الى غيرته الرسولية اسعاف السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة على المراكب البحرية الشراعية، لان حالة هؤلاء التعساء كانت تدعو الى الشفقة والرحمة. فبرز الاب منصور في عمل الرحمة هذا، فبنى للمرضى من سجناء المراكب مستشفى في باريس وآخر في مرسيليا. وتبنى هؤلاء التعساء واخذ على عاتقه تخفيف مصائبهم واثقالهم. وصار يزورهم ويُعنى بامرهم ويقبل قيودهم، ويسلي همومهم ويعيد الى قلوبهم عواطف الايمان والصبر والتسليم. ويُحكى انه اطلق يوما واحدا منهم ليعود الى امراته واولاده، وقام هو مكانه، وحمل قيوده.

منصور المؤسس

(1) جمعية كهنة الرسالة او التبشير Les Prêtres de la Mission

ذكرنا ان زوجة الجنرال دي كوندي، سلمت ادارة نفسها الى يد القديس منصور دي بول. فقادها هذا الربان الحكيم في طريق الرحمة نحو القريب، والاحسان الى البائس المسكين. فصارت تنثر الحسنات على يده بسخاء حاتمي. وكان هو يُصحب الدرهم بكلمة طيبة روحية تسحر القلوب وتقودها صاغرة الى اقدام العلي.

فقادته ملكة التفكير، ومزية الابتكار، وعاطفة الشفقة، الى عمل التبشير Les Missions في الارياف، حيث يسود الاثم ويكثر. فنجحت هذه الرسالات الروحية نجاحا كبيرا، واقبل الناس عليها بشغف، واخذوا يتذوقون عذوبتها ويتعودون الاقتراب الى الاسرار، لدى سماعهم مواعظها.

واوقفت زوجة الجنرال المحسنة الكبيرة مبلغا كبيرا من المال لكي يرصد ريعه على عمل الرسالات في كل القرى التابعة لامارة زوجها. وارسل الله الى الرسول منصور كهنة غُيرا، وضعوا علومهم وقواهم في خدمة تلك الرسالات. وهكذا نشأت "جمعية كهنة التبشير Les Prêtres de la Mission" وانتشرت في 17 نيسان 1625. وسرعان ما حظي هؤلاء المرسلون برضى الاساقفة، لا سيما رئيس اساقفة باريس. وبعد مرور سنتين على تأسيس الجمعية، اصدر الملك لويس الثالث عشر براءة ملكية تمنح الجمعية صفة شرعية (ايار 1627).

كانت الغاية الاولى من هذه الجمعية القاء المواعظ في الارياف. ثم تعددت اعمالها، واتسعت مشاريعها، وامتدت اغصانها في الدنيا كلها. وهي اليوم من كبريات الجمعيات الرسولية في بلاد كثيرة. ويدعى هؤلاء الآباء اليوم "الاباء اللعازريين" نسبة الى البناية الكبرى التي كانت على اسم "القديس لعازر" بين باريس وسان دنيس، والتي قدمها اصحابها للقديس منصور لتكون مسكنا له ولكهنته في اول امرهم، فقطنوا فيها ودرج اسمها عليهم، فاضحى لقبا لهم.

اسس القديس منصور جمعيته على روح الايمان والاتضاع والتضحية والشفقة، وهي الفضائل الكبرى التي امتاز بها في حياته كلها. وكان قد اعتاد ان يدعو جمعيته هذه "الجمعية الصغرى" "الجمعية الحقيرة". وكان يوصي كهنته ان يروا الفادي الالهي في شخص من يخدمونه في روحياته او في زمنياته، لكي تنتصر خدمتهم على المصاعب البشرية ويكون ثوابها الوحيد في الحياة الابدية.

(2) اخوية سيدات المحبة Les Dames de la Charité

انتشرت اخويات المحبة في جميع انحاء فرنسا، وتأسس بعضها في ايطاليا: شبكة متشعبة ومترامية الاطراف، فكان لا بد من هيئة ادارية مركزية تخطط وتدبر، تجمع وتوزع. وهكذا كانت فكرة اخوية "سيدات المحبة". وكان الاب منصور قد اسسها، في البداية، للاعتناء بامور مستشفى اوتيل دو في باريس، اذ كان في حال يرثى لها من حيث سوء الادارة، واهمال القائمين عليه، وعدم الاهتمام اللازم بالمرضى في اجسادهم وفي انفسهم.

تألفت الاخوية من بعض النساء والانسات الغيورات والمنتميات الى الاسر الشريفة والغنية. وما ان انتشر خبر هذه الاخوية، حتى انهالت على الاب منصور طلبات الانضمام حتى اصبح عدد المشتركات، في اقل من اربعة اشهر، مئة وعشرين،

وكان اغلبهن من العائلات النبيلة. منهن سيختار الاب منصور اعضاء الهيئة الادارية المركزية التي ستدير جميع اعماله الخيرية في سبيل البؤساء والسجناء واللقطاء والمنكوبين... وكان الاب منصور رئيسها الاعلى، يحضر كل الاجتماعات، يصغي الى التقارير، يصحح، يوجه، يحرض، يأمر. ما من استغاثة الا وجده متجاوبا.

(3) راهبات المحبة 1633 Les Soeurs de la Charité

اخاف ذلك التهافت الغريب من قبل سيدات المحبة الاب منصور، وزرع في قلبه التخوف من ان لا يكون ذلك الا اندفاعا سطحيا، وولعا بموضة، يدوم ما يدوم الولع وما تدوم الموضة. اذا بدأت تأتيه اخبار عن سيدات اخذن يخجلن من حمل الاكل الى المرضى في البيوت، او يتذرعن بالانشغال في البيت، ويرسلن عنهن الخادمات!... فرأى الاب منصور انه من الضروري جدا ان يعين لخدمة المرضى ممرضات قرويات لا يخجلن من خدمتهم، بل ويتفرغن كليا لذلك، فيجمعهن في اخوية او جمعية منظمة، لا بل يجعلهن راهبات من طراز جديد، راهبات غير محصنات، راهبات في وسط العالم. وتقدمت فتاتان مرغريت نازو Naseau وماري جولي Joly، وعهد امر ادارة هذه البداية الى لويز دي مرياك، التي تفرغت بعد موت زوجها لخدمة الفقراء وزيارة المرضى، تم تبتهما اربع صبايا، ثم غيرهن...

ينص القانون الذي وضعه الاب منصور بالاشتراك مع لويز دي مرياك، على ان تحفظ "الراهبات" لبسهن البسيط، الذي كان لهن في العالم، وان يكن بلا نذور رهبانية، ولا تحصن، وان يقال عن اديرتهن "بيوت"، وعن زمن الابتداء "اختبار" وان لا يكن لهن معابد خاصة بل تكون كنيسة الرعية معبدهن، وان تُدعى المسؤولة لا رئيسة بل "الاخت الخادمة".

اصلاح الاكليروس

اراد منصور دي بول ان يقدم للشعب خبز الروح فكانت "كهنة الرسالة" والرسالات. واراد ان يقدم خبز الجسد فكانت اخويات المحبة. هذه الاخويات استدعت جمعية "سيدات المحبة". سيدات المحبة استدعت "راهبات المحبة".

اما مشروع الرسالة (التبشير) فكان لا يزال ناقصا لافتقار الكنيسة الى اكليروس كفؤ. كان الاكليروس، ولا سيما في الارياف، في حال يرثى لها من الجهل والانحطاط. كانت الحياة الاكليريكية مهنة يمارسها من لا مهنة له، او من كان يطمح باموال الكنيسة. كان بعض الكهنة يذهبون الى الخمارة بعد الكنيسة وهم لا يزالون في حلة القداس، لا يطيعون الاساقفة، يجهلون صورة الحل في الاعتراف، يقدسون كل على هواه فيغيّرون ويبدّلون ويخترعون.

(1) الرياضات الروحية التحضيرية للمرشحين للكهنوت Excercices pour Ordinands

استخدم الله القديس منصور بول وكهنته اللعازريين ليصلح بهم رجال الاكليروس في بلاد فرنسا، لان القديس منصور بدأ بمشروع جليل باشارة اسقف بوفة Beauvais، فصار يجمع الاكليريكيين قبل رسامتهم الكهنوتية باسبوعين او ثلاثة، يقوم هو وكهنته بارشادهم وتوجيه قواهم الى خدمة العلي. وكانت هذه الرياضات تشمل على احاديث روحية تليها حلقات نقاش، ثم دروسا ملخصة في اللاهوت الادبي والليتورجيا والرعائيات والروحانيات. وامتدت عادة هذه الرياضات الروحية الى العلمانيين، ولاقت اقبالا كبيرا. فصاروا يجتمعون في دير الآباء اللعازريين، ويقضون بضعة ايام في الاختلاء. وكانت تتلاقى هناك كل طبقات المجتمع.

(2) محاضرات الثلاثاء Conférences du mardi

كان تحضير المرشحين للكهنوت وتهيئتهم للعمل الرعوي، واظهار عظمة ومسؤولية الكهنوت لهم، بالنسبة للاب منصور امرا ضروريا ومهما، الا انه لم يكن كافيا. يجب العمل على ان يستمر الكهنة ويثبتوا على هذه الاستعدادات الطيبة. فنظم الاب منصور للاكليروس ابتدأ من سنة 1633، "محاضرات الثلاثاء" ، حيث كان يجمع نخبة من الكهنة في دير القديس لعازر ويُشغلهم ببرنامج عمل معين: حلقات دراسية حول حياة الكنيسة، يليها جلسة عمة للتداول في الوسائل الفعالة للتمرس بالفضائل الكهنوتية. ومن باريس انتقلت "محاضرات الثلاثاء" الى سائر المدن الفرنسية، باشراف "مجاضرات" باريس ورئاسة الاب منصور العامة.

(3) ادارة الاكليريكيات Direction des Séminaires

كانت الرياضات للمرشحين تدوم خمسة عشر يوما، وما كانت تكفي لتهيئة كهنة اكفاء. فقرر الاب منصور وضع مقررات مجمع ترانت موضع التنفيذ، وخصوصا التي تقضي فيها بتنشئة الطلاب الاكليريكيين منذ سن الثانية عشرة، متذكرا كلام صديقه ادريان بوردواز Bourdoise القائل: "الرسالات في القرى والجبال مفيدة، ولكن المدارس الاكليريكية اكثر افادة. الرسالة مائدة يوم واحد متنوعة الاطعمة تُمَد لفقير يتضور جوعا. اما المدرسة الاكليريكية فهي مطعم دائم. فمتى ما قدسنا الشعب ولقناه قواعد الدين والواجبات، يبقى ان نوكل امرهم الى كهنة افاضل وقديسين. وهذا لا يمكن ان يحصل دون المعاهد الاكليريكية". واستنادا الى ذلك فتح منصور دي بول سنة 1636، ابواب مدرسة Bons-Enfants لاستقبال عدد من الفتيان

الذين كان قد تبين عندهم دلائل الدعوة. كان وكهنته يهتمون بتعليمهم وتثقيفهم وتربيتهم. ولكنه سرعان ما انتبه الى ان هذا لعمل غير كاف وغير مرض. اذ ان خلط طلاب الكهنوت والطلاب العاديين كان يجعل الكثيرين منهم يعدلون ويتركون بعد تحصيلهم بعض العلم. كما كان اسلوب التربية يختلف ما بين طلاب عاديين، وبين طلاب يستعدون للكهنوت. فقرر منصور ان يفصل بين هذين النوعين من الطلاب. وأنشأ فرعا ثانيا في مدرسة بونزنفان للطلاب الاكليريكيين الكبار (1642) ضم في البداية 12 طالبا، ثم انضم اليهم غيرهم. وارسل الاكليريكيين الصغار الى مدرسة سان لازار Saint Lazare، وراحت تلك المدارس تنتشر في سائر الابرشيات. وانشأوا المدارس الاكليريكية في ابرشياتهم، وسلموا ادارتها الى الآباء اللعازريين كهنة القديس منصور دي بول.

هذه بعض ما قام به الاب منصور دي بول، وهناك ايضا اعمال ومشاريع لا تقل اهمية، ولكن لا يسمح لنا المجال هنا ان نتكلم عنها باسهاب نكتفي بتسميتها: "ديوان الضمير" حيث كان منصور عضوا فيه، ومهمته اختيار الاساقفة لتولي الابرشيات، خدمة اللقطاء (1638)، خدمة السجناء، خدمة المتسولين، مساعدة المناطق المنكوبة، اصلاح طرق الوعظ، المياتم، المدارس الصغيرة للاحداث...

وفاة القديس منصور

عمّر القديس منصور دي بول حتى بلغ خمس وثمانين سنة، واضحى آية دهره والمرجع الاكبر للكنيسة ورجالها واعمالها الروحية والخيرية في بلاد فرنسا وسواها. وسقط هذا الجندي الكبير في ساحة القتال وهو يجاهد جهاد الابطال في 27 ايلول سنة 1660. اعلنت الكنيسة قداسته في 16 حزيران سنة 1737.

ج) جمعيات اخرى

الاوراتوار دي فرانس L'Oratoire de France: – اصلاح الكهنة، كان السبب الرئيسي لتأسيس بيير دي بيرول Pierre de Bérulle، اوراتوار دي فرانس عام 1611، والذي انتشر ليعم ما يقارب الاربعين مدينة، وساهم لمدة ثلاثة قرون في تجديد روحانية الاكليروس الفرنسي.

جمعية يسوع ومريم – الاديست Les Eudistes: – أسسها القديس جون ايد Jean Eudes (1601–1680)، مؤسس العبادة لقلب يسوع. كان من اعضاء الاوراتوار دي فرانس قبل ان يؤسس عام 1643 جمعية يسوع ومريم المعروفة اليوم بالاديست، المكرسة للتبشير الشعبي، وادارة المعاهد الاكليريكية.

السلبيسين Compagnie de Saint-Sulpice: – اسس هذه الجمعية عام 1642، كاهن رعية سان سلبيس Saint-Sulpice، الاب جان–جاك اولييه Jean-Jacques Olier (1608–1657)، تلميذ القديس منصور دي بول، حيث قام بتأسيس معهد اكليريكي في رعيته، كان بداية مؤسسة كبيرة من الكهنة، تخصصت في ادارة المعاهد الاكليريكية وتهيئة الاكليروس.

كهنة العقيدة المسيحية Les Pères de la Doctrine Chrétienne: – المعروفين باسم Doctrinaires. اسسها في افنيون عام 1592، المكرم قيصر دي بو César de Bus (1544–1607)، بهدف التعليم المسيحي في المدارس والكليات.

الكامليان Les Camilliens: – اسسها في روما عام 1584، القديس كاميل دي ليلس Camille de Lillis (1550–1614) للعناية بالمرضى.

كهنة ام الله Les Clercs Réguliers de la Mère de Dieu: – اسسها في ايطاليا عام 1583، القديس جان ليوناردي Jean Leonardi (1541–1609) لتعليم الاولاد، الوعظ والتبشير.

البياريست Les Piaristes: – اسسها في روما عام 1597، الكاهن الاسباني يوسغ كلزانس Joseph Calasanz (1556–1648)، بهدف التعليم المسيحي، وتعليم اولاد الفقراء.

البرتلميت Les Barthélemites: – اسسها في البافيير Bavière في المانيا عام 1640، برتلميو هولزهاوسر Barthélemy Holzhauser، وهي مجموعة من الكهنة توحدوا لتقديس نفوسهم وتقديس الاكليروس.

جمعية رهبان سان جان دي ديو Saint-Jean de Dieu: – المعروفين Fate-bene-fratelli. اسسها في اسبانيا عام 1540، الكاهن البرتغالي جان دي ديو Jean de Dieu (1495–1550) للعناية بالمرضى وخصوصا في المستشفيات. يتعهد اعضاء هذه الجمعية بالنذور الثلاث التقليدية: الفقر والعفة والطاعة، ونذر رابع هو العناية بالمرضى.

د) الجمعيات الرهبانية النسائية

لاقت الجمعيات الرهبانية النسائية انطلاقة قوية في النصف الاول من القرن السادس عشر، ظهر في الاصلاحات التي تمت في الجمعيات القديمة، وخصوصا في الاديرة الكرملية والبندكتية، كما رأينا في بداية هذا الفصل، وفي ظهور جمعيات جديدة، باسلوب جديد، ولغايات جديدة، كالتربية والعناية بالمرضى. من هذه الجمعيات:

راهبات الزيارة Les Visitandines: – (راجع ص. 199).

راهبات المحبة Les Filles de la Charité: – (راجع ص. 212).

الاورسلين Les Ursulines: – اسستها في بريشيا (ايطاليا) عام 1535)، القديس انجيلا مريشي Angela Merici، للاهتمام باعمال المحبة وتعليم البنات. وضعوا انفسهم تحت حماية القديس اورسولا Ursula.

راهبات ضيافة المحبة نوتردام Les Soeurs Hospitalières de la Charité de Notre-Dame: – اسستها في فرنسا عام 1624، المكرمة فرانسواز دي لا كروا Françoise de la Croix، على مثال جمعية سان جان دي دي Saint Jean de Dieu، للاعتناء بالمرضى في المستشفيات.

راهبات سيدة الملجأ Les Soeurs de Notre Dame de Réfuge: – اسسها ايضا في فرنسا عام 1644، القديس جون ايد John Eudes للعناية بالبنات المنحرفات.

السيدات الانكليزيات Les Dames Anglaises: – اسستها في فرنسا عام 1609 مع مجوعة من السيدات الانكليزيات ثم امتدت الى انكلترا والمانيا والنمسا، الراهبة الكرملية سابقا ماري وارد (1585-1645)، بهدف الاهتمام بتعليم الشبيبة على مثال اليسوعيين.

الفصل الثالث والخمسون

الارساليات والتبشير

LES MISSIONS

ان الكنيسة الكاثوليكية التي فقدت الكثير من اعضائها، بسبب الانشقاقات البروتستنطية، اخذت على عاتقها التعوض عن ذلك. فاظهرت في القرن السابع عشر نشاطا تبشيريا لا مثيل له، سواء في البلاد المسيحية او غير المسيحية، بشكل يسمح بوصف هذا القرن بحق "قرن الارساليات Le Siècle de l'Apostolat". وفتح هذا القرن الطريق للقرون التالية. وتنافست بكل حماس في حمل هذه الرسالة التبشيرية الرهبانيات القديمة والجديدة: الفرنسيسكان والدومنيكان واليسوعيون والكبوشيون وكهنة الاوراتور واللعازريون والاديست. وبذلك استطاعت ان تكسب في هذه البلاد ما خسرته في اوروبا. وساهمت البابوية بقسط كبير في هذا النشاط: ففي سبيل تنظيم حملات التبشير واعطاء المبشرين الغيورين توجيهات عامة ومشتركة، اسس البابا غريغوريوس الخامس عشر، سنة 1622و "مجمع التبشير Congrégation de la propagande"، وبعد عدة سنوات، سنة 1927، بنى البابا اوربان الثامن، كلية سماها "الكلية الاربانية Urbanianum"، الذي اصبح معهدا لتحضير المبشرين. تبع تلك الكلية كليات اخرى مثل "Séminaire des Missions étrangères" سنة 1663، و "Séminaire du Saint-Esprit" سنة 1703، والاثنتان في باريس.

1) الارساليات والتبشير في البلاد المسيحية

كانت غاية التبشير في البلاد المسيحية محاربة الجهل الديني وفساد الاخلاق، وفي مناطق كثيرة محاربة الهرطقات والانقسامات.

فرنسا:

شهدت فرنسا اكبر وانشط حركة تبشير قام بها الرهبان اليسوعيون والكبوشيون والاوراتوريون واللعازريون والاديست. ومن اشهر هؤلاء الوعاظ، اليسوعي القديس جان فرانسوا رجيس Jean-François Régis، الذي استطاع مدة حياته القصيرة (43 سنة) ان يرد الى الكنيسة الوف البروتستنت. وقام الكبوشيون بحملة تبشير ووعظ في كل انحاء فرنسا، ونجحوا في غرب فرنسا، حيث الاكثرية البروتستانتية، الى اعادة ما يقارب الخمسين الفا منهم الى حضن الكنيسة الكاثوليكية. وساهم اللعازريون ايضا بشكل فعال في هذه الحركة، اذ ينسب الى مؤسسهم القديس منصور دي بول، تأسيس هذه الحركة التبشيرية بتأسيسه "كهنة التبشير"، والذين دعيوا في ما بعد باللعازريين. وكان من انشط الوعاظ ومن اشهرهم الاب لوجين Lejeune (1592-1672)، الذي فقد نظره وهو في سن التاسعة والثلاثين، وعوّض عن ذلك بحياة امتازت بالتقوى والصلاة وببلاغة في الوعظ وحماس للرسالة، لدرجة انه شُبه بالقديس فرانسوا رجيس. وقام الاديست بالتبشير في منطقة النورماندي وبريتاني Normandie et Bretagne، وكان مؤسسهم القديس جون ايد Jean Eudes من اشهر الوعاظ المبشرين.

ولمع ايضا بعض الكهنة الابرشيين Séculiers، في حركة التبشير، واشهرهم الاب مشيل دي نوبلتز Michel de Nobletz. وكان مبشرا وواعظا مبتكرا، ادخل اساليب جديدة على الوعظ والتعليم. فالف في لغة البلاد ترانيم واغان دينية، حوت العقائد المسيحية، كما وابتكر الصور الملونة لشرح حياة المسيح. وتابع بعده تلميذه اليسوعي الاب Maunoir اسلوب معلمه، بتنظيم التطوفات مع اناس يمثلون الشخصيات والحوادث الانجيلية وخصوصا الصلب، وبعد ان يلفت نظر الناس بهذه التظاهرات ويلتفون حوله كان يعظ فيهم ويعلمهم.

سويسرا: رأينا سابقا في دراستنا للقديس فرانسيس دي سالس، ان منطقة الشبلة Chablais، التي كانت قد انتقلت الى الكلفينية، قد تمت اعادتها الى حضن الكنيسة الكاثوليكية، بوعظ وتبشير القديس فرانسيس دي سالس.

كورسيكا La Corse: تم تبشير كورسيكا عل يد اثنين من اليسوعيين، وهم لانديني Landini ومونته مايور Monte Mayor عام 1553، وخصوصا على يد القديس اسكندر سأولي Alexander Sauli، الذي بشر فيها مدة عشرين سنة من عام 1571-1591. وعندما اصبح اسقف الريا Aleria، ضاعف عمله بعقد السينودسات الابرشية، وفتح المدارس والمعاهد الاكليريكية.

المانيا: تم اعادة قسم من المانيا الى حضن الكنيسة الكاثوليكية بواسطة الآباء اليسوعيين والكبوشيين. فقد ارسلت الجمعية اليسوعية، بعد مدة قصيرة من تأسيسها، مرسليها الى المانيا، ففتحوا الجامعات والكليات، واصبحوا معلمي ومربي ومرشدي ومعرفي الامراء الالمان الكاثوليك. وحدثت عملية تجديد كاثوليكية كبيرة بدعم من البابوات المصلحين للمرسلين والمبشرين.

هولندا: كانت هولندا باكلمها قد انضمت الى الكلفينية في اواخر القرن السادس عشر. فجاء اليها اليسوعيون والدومنيكان والفرنسيسكان، وقاموا بعملية من التبشير والوعظ استطاعوا كسب قسم من ما خسرته الكنيسة. الا ان هذه الحركة التبشيرية أُوقِفت، في اواخر القرن السابع عشر، بسبب هجرة البروتستنت الفرنسيين، الذين التجأوا الى هولندا بعد منشور نانت (1675)، وبسبب النزاعات الجنسينية التي قسّمت الحزب الكاثوليكي. ولم تعاود حركة الارتدادت الا في القرن التاسع عشر.

2) الارساليات والتبشير في البلاد غير المسيحية

بينما كانت الكنيسة تخسر امما وشعوبا في اوروبا بسبب حركة الاصلاح، اذ بها تتعوض عنها باكتساب شعوب جديدة في الشرق والغرب لا سيما بعد اكتشاف افريقيا والصين والهند وامريكا.

ادت السفرات البحرية التي قام بها العديد من المستكشفين الى اكتشاف ما دُعي بالعالم الجديد. وأدت السفرات الاولى الى احتلال اراضي واسعة من هذه البلاد. ففي عام 1500، استطاع كريستوفر كولمبوس مع رفاقه احتلال جزر الانتيل. وفي عام 1500، نزل المستكشف البرتغالي الفارز كبرال Alvarez Cabral، بلاد البرازيل. واستولى الاسباني دياز دي سوليس Diaz de Solis على لابلاتا La Plata عام 1516. وفتح فرديناند كورتز Ferdinand Cortez، المكسيك عام 1519، واسس فيها مدينة فيرا كروث Vera Cruz (الصليب الحقيقي). واستولى الاسبان على بعض البلاد الى الجنوب من المكسيك: يكوتان Youcatan، وجويتمالا، وهندوراس، ونيغراغوا (1523-1526). واخضع فرانسوا بيزار François Pizarre البيرو في عام 1531، وفتح مساعداه، الماغرو Almagro ولوقا Luque، التشيلي في نفس الوقت.

وهكذا في اقل من نصف قرن استطاع الاسبان والبرتغال ان يفتحوا ويُخضِعوا تحت سلطتهم كل امريكا الوسطى وامريكا الجنوبية.

ولم يتأخر المرسلون في الحضور الى هذه البلاد حاملين معهم البشرى الانجيلية.

3) تنظيم الارساليات

1) الوصاية

خلال القرن الخامس عشر، منح الكرسي الرسولي ملك البرتغال، في سلسلة من البراءات، الولاية الزمنية والروحية على الاراضي المكتشفة والتي ستكتشف. فأدى اكتشاف البلدان الهندية الغربية (امريكا) على يد كريستوفر كولمبوس سنة 1492، الى حالة من التوتر بين البرتغال واسبانيا. وفي سنة 1493، حُكّم البابا اسكندر السادس بين الطرفين، فحدد حقل الاكتشافات: الغرب للاسبان والشرق للبرتغاليين. وتخلى البابا، لصالح الملكين، كل في اراضيه، عن مسؤولية تنظيم الكنيسة: من تحديد الابرشيات، وتعيين الاساقفة، فاصبح الملكان الى حد ما، رئيسي الكنائس الجديدة. واكتفى البابا بالتصديق على التعينات، من دون ان يتدخل مباشرة. جميع هذه التنازلات تشكل حق الوصاية، ولا شك ان هذه الوصاية لم تكن تخلو من الجوانب السيئة. فقد كان التبشير يخضع لتقلبات الاستعمار والسياسة. ولقد اظهر البلدان حرصا وغيرة على حقوقهما، حتى يوم كانا عاجزين عن القيام بواجباتهما. كان عدد سكان البرتغال مليونا ونصف المليون فقط، فلم يكن بوسعه ان يلبي احتياجات الكنيسة في نصف العالم. ومع ذلك كان الزاميا على جميع المرسلين الاجانب ان يمروا بلشبونة. اما ملوك اسبانيا فكانوا اشد وسوسة. لكن عددا كبيرا من الامم الاخرى كفرنسا، اندفعت الى فتح العالم، فكان فرانسوا الاول يقول متهكما: "اود ان أرى في وصية آدم البند الذي يستبعدني عن تقاسم العالم".

2) مجمع انتشار الايمان

جعلت هذه المتاعب الكرسي الرسولي يتولى زمام التبشير، فانشأ سنة 1622، مجمع انتشار الايمان، وكلفه ايضا بهداية المسيحيين المنفصلين في اوروبا وفي الشرق الاوسط. ومع ذلك، كان عدول الدول عن حقوق الوصاية امرا عسيرا، فازداد عدد الخلافات في ما يتعلق بالولاية الكنيسة.

كان مجمع انتشار الايمان عبارة عن وزارة تهتم بالارساليات. وبمبادرة من امين سره الاول، اطلق عملية تحقيق واسعة عن النشاط الارسالي في العالم، وقدم للارساليات بعض الامكانيات: مطبعة متعددة اللغات واكليريكايات وجامعات. كما أنشأ نظام "النواب الرسوليين"، وهم اساقفة مرسلون مرتبطون مباشرة بالبابا.

3) عوائق التبشير

لاقى التبشير في هذه البلاد الجديدة عوائق وصعوبات كثيرة وصعبة ، من اهمها:

(1) عادات واعتقادات هذه الشعوب:– عبادة الاصنام، تعدد الزوجات، التضحيات البشرية، اكل لحوم البشر. عادات كان من الصعب استئصالها بسهولة وتبديلها بعادات واخلاق الانجيل.

(2) تصرف الفاتحين والمستوطنين مع اهالي البلاد الاصليين:– مما لا شك فيه ان بعض هؤلاء جاؤوا بدافع من الغيرة الدينية ولايصال البشرى الانجيلية لهذه الشعوب. الا ان القسم الاكبر لم يكن عنده هذه النوايا النبيلة. فكان معظمهم من المغامرين، الذين جاؤوا وراء المغامرة، وجمع الذهب، والاغتناء السريع، بدون وازع ولا ضمير، وانما بالسيف والعنف. فاستعملوا لتحقيق هذا الهدف كل اساليب العنف، من قتل ومذابح جماعية، واغتيال، بحجة التغلب على مقاومة الهنود سكان البلاد، ومن ثم لاستغلالهم واستعبادهم للعمل في زراعة الاراضي التي استولوا عليها، او العمل الشاق في المناجم. فلا عجب ان قابل الهنود بالرفض والازدراء حضارة وثقافة وديانة هؤلاء المستوطنين.

(3) طبيعة البلاد: – كما وساهمت طبيعة البلاد الجبلية الوعرة الواسعة، ذات المساحات الشاسعة والادغال الكثيفة، والتي يقطنها مئات القبائل المختلفة، والبعيدة عن بعضها البعض، وذات لهجات ولغات مختلفة، في صعوبة ايصال الرسالة الانجيلية.

4) بلاد الارساليات

1) تبشير امريكا الوسطى والجنوبية

بالرغم من هذه العوائق التي ذكرناها وغيرها، الا ان المسيحية انتشرت في امريكا الوسطى الجنوبية، وتكللت مساعي وجهود المرسلين بالنجاح، ولكن ليس بدون التضحيات الكثيرة والمصاعب وحتى الاستشهاد. وتنافست في البداية ثلاث جمعيات رهبانية في هذه الرسالة، الدومنيكان والفرنسيسكان اولا في النصف الاول من القرن السادس عشر، ثم اليسوعيون في النصف الثاني منه. استعملوا في سبيل هداية الوثنيين، الوسيلتين العاديتين: التعليم والمؤسسات الخيرية. فبدأوا بفتح المدارس الابتدائية، ومن ثم الثانوية، حيث كان ابناء المستوطنين الاسبان وابناء اهل البلاد الاصليين، يتلقون بجانب مبادىء الديانة المسيحية، الدروس العادية، والاعمال اليدوية. ومن ثم اقاموا الجامعات في المدن الكبرى: مكسيكو، وليما، وقُردوبا...واعطى المبشرون ايضا اعمال المحبة والرحمة دورا هاما، فاسسوا المؤسسات الخيرية من مستشفيات وملاجىء للمسنين وميامّ للاطفال. واضاف اليسوعيون عند مجيئهم وسيلة ثالثة، هي التجمعات Réductions التي هي اشبه بالقرى التعاونية.

جزر الانتيل

رافق كرستوفر كولمبوس في رحلته الاولى (1493–1496) مرسلون برئاسة، برنارد بول Bernard Boyl البندكتاني، الذي قلده البابا اسكندر السادس سلطة النائب البابوي. فشيدوا في عام 1494 اول كنيسة مسيحية في "جزر الاسبنيول" (هايتي–سان دومنيك، كوبا...). وفي رحلته الثالثة (1498–1500)، رافق كولمبوس هذه المرة الآباء الفرنسيسكان، وتبعهم في عام 1510 الدومنيكان. وفي عام 1511، كان التبشير قد وصل في جزر الانتيل درجة كافية لتأسيس اسقفيتين في جزيرة هايتي في سان دومنيك، والكونسبسيون دي لافيغا Conception de la Vega، وثالثة في سان جوان Saint-Juan في جزيرة بورتوريكو Puerto Ricco. وأسس الدومنيكان في عام 1512، اول دير لجمعيتهم، اصبح مقرا ومركزا للمرسلين الاسبان. واصبحت جزر الانتيل نقطة انطلاق المرسلين الى سائر انحاء امريكا.

المكسيك

بشر الآباء الفرنسيسكان والدومنيكان المكسيك، التي تم اكتشافها عام 1519. وفي منتصف القرن السادس عشر، كان عدد المسيحيين يربو على الستة ملايين، وعدد الاسقفيات خمسة. وساهم في نشر المسيحية، ظهور العذراء مريم، في مظهر بنت هندية، على صخرة Tepeyac، قرب مكسيكو عام 1531، حيث اقيم لاحقا مزار العذراء "سيدة غودالوبة" Notre-Dame de Guadalupe، الذي جذب سنويا الاف الحجاج.

ومن اشهر المرسلين الى المكسيك: 1) الفرنسيسكاني جوان دي زمارغا Juan de Zumarrga، الذي اصبح اسقف مدينة مكسيكو، ودافع بشدة عن حرية الهنود، اهل البلاد الاصليين، ضد تسلط المستوطنين. 2) الدومنيكاني برتلماوس دي لاز كازاز Barthlémy de Las Casas، اشهر مرسلي المكسيك. كان اولا من المستوطي نين، ثم اصبح راهبا دومنيكيا، واصبح من اكبر المدافعين عن حرية اهل البلاد الاصليين. عَبَرَ المحيط ستة مرات ليذهب الى اسبانيا، ويدافع عنهم امام مجلس الملك، فسانده الملكان شارل الخامس وفيليب الثاني، واصدرا تعليمات صارمة في هذا الشأن الى الحكام، مما اثار ضده الحكام والمستوطنين، فاضطر الى التخلي عن منصبه الاسقفي. وادى الدفاع عن اهل البلاد الاصليين، الى جلب المستوطنون بدلا منهم، ايدي عاملة اخرى، وهم العبيد الافارقة.

ومن المكسيك انتقلت المسيحية الى البلاد المجاورة: في الشمال، كاليفورنيا، والى الجنوب، جوتيمالا، وهندرواس، ونيغارغوا.

جرنادا الجديدة (كولومبيا) وفنزويلا

بشر هذه البلاد اولا الدومنيكان ثم الفرنسيسكان. فقد خرجت مجموعة من الدومنيكان بقيادة الاب توماس اورتز Thomas Ortiz، من سان دومنيك عام 1525، بصحبة البحارة الاسبان. واتجهوا الى الجنوب الغربي، واكتشفوا ارضا جديدة، سُميت بسانتا مرتا Santa Martha، وبنوا مدينة، رفعها البابا كليمنضوس السابع فورا الى مركز اسقفية، مع اورتز كاول اسقف عليها.

من اشهر المرسلين الذين بشروا *جرنادا الجديدة (كولومبيا اليوم)*: 1) توماس دي تورو Thomas de Torro اول اسقف لمدينة كارتاجين Carthagène، واشتهر بدفاعه عن اهل البلاد الاصليين. 2) لويس برترن Louis Bertrand، الذي ميزه الله بمواهب اللغات والعجائب والتنبؤ على مثال القديس فرانسيس كسفاريوس، والذي في سبع سنوات من 1562-1569، رد اكثر من مئة وخمسين الف هندي من سكان البلاد.

اما *فنزويلا*، فقد بشر فيها اولا الفرنسيسكان ثم اليسوعيون. ومن اشهر المرسلين اليها الاب ساندوفال Sandoval والقديس بيير كلافر Pierre Claver المدافعين الشجعان ورسولا حماية وتحرير العبيد.

البيرو

كان الدومنيكان والفرنسيسكان من اوائل المبشرين ايضا في البيرو. فأسس الدومنيكان في عام 1532، اول كنيسة كاثوليكية في سان مشيل دي بيورا Saint-Michel de Piure. وفي السنة التالية، جاءت دفعة اخرى من الدومنيكان، بقيادة الاب جان دي اولياس Jean de Olias، ذهبت مجموعة منهم وبشرت شمال البيرو، بينما اتجهت مجموعة اخرى نحو الجنوب وبشروا هناك، فحولوا في مدينة Cuzco الهيكل الوثني الى كنيسة وتوابعه الى دير. وتوطن الدومنيكان مع الآباء الفرنسيسكان في عام 1535، في مدينة ليما، المبنية حديثا، والتي ستشتهر بالفضائل البطولية للقديس روزا دي ليما Rosa da Lima (+ 1617)، والقديس مارتن دي بورس Martin de Porres (+1639)، الذي كرس حياته لخدمة العبيد الافارقة.

ومن اشهر مرسلي البيرو القديس الفونس توريبه Saint Alphonse de Turibe، اسقف مدينة ليما، الذي في مدة اسقفيته التي استمرت من عام 1580-1606، زار ثلاث مرات ابرشيته الواسعة الشاسعة، وعقد ثلاث مجامع اقليمية، واربعة عشر سنودسا ابرشيا، وبنى الكنائس، وانشاء المعاهد الاكليريكية والمستشفيات، ولُقب بجدارة "القديس شارل بورميه لبيرو". كما وكان من المدافعين المتحمسين عن الهنود.

الاكوادور

اصطدم المرسلون في هذه البلاد مع قبيلة Jibaros المحاربة، التي قاومت التبشير بشدة. الا ان المرسلين استطاعوا ان يردوا الكثير من سكان البلاد الاصليين. من اشهر المرسلين في هذه المنطقة، الدومنيكاني، الفونس دي مونتنغرو Alphonse de Montenegro، الذي بشر Guayaquil وكويتو Quito. وستشتهر الاكوادور في بداية القرن السابع عشر بفضائل البتول الشابة الدومنيكانية، الطوباوية ماريان ليسوع دي باردس Marianne de Jésus de Paredes (1618-1645)، التي لُقبت "بزنبقة كويتو Lis de Quito"، والتي امضت حياتها في تلقين الاطفال التعليم المسيحي.

التشيلي

لم يكن تبشير التشيلي أسهل من الاكوادور بسبب وحشية القبائل التي سكنتها. وكان الدومنيكان من اوائل المبشرين، الذين اسسوا من عام 1540 الى عام 1550، في كل من كونسبسيون Conception، وفيلا ريكا Villa-Ricca،

وازورو Osoro، اديرة اصبحت مراكز ارساليتهم. واستشهد الكثير منهم على ايدي قبائل Araucanos. وصادف الفرنسيسكان ايضا، الذين جاؤوا بدورهم عام 1560، نفس العناء في تبشير بعض القبائل. وتابع اليسوعيون في اواخر القرن السابع عشر عمل الدومنيكان والفرنسيسكان، ودفعوا الثمن غاليا بالارواح، الا انهم حصلوا على نتائج كثيرة ودائمة.

البرازيل

بشر الفرنسيسكان البرازيل منذ بداية القرن السادس عشر، الا ان النتائج الفعلية لم تبدأ تعطي ثمارها الا بمجيء اليسوعيين في عام 1549. جلبت معها هذه الجمعية عناصر شابة متحمسة، وادخلت في عملية التبشير في امريكا الجنوبية اساليب جديدة، ومن اهمها: "التجمعات Réductions".

البراغواى والاوروغواي *Le Paraguay et l'Uruguay*

تم تبشير هذين البلدين التي تم اكتشافهما في الثلث الاول من القرن السادس عشر، بواسطة الآباء الفرنسيسكان، دون نجاح يذكر. استدعى الاسقف اليسوعيين، فجاءت مجموعة منهم عام 1588، وبعد ان عملوا مدة دون نتيجة، توصلوا الى ان التبشير لن ينجح الا اذا ما تم اولا الغاء العوائق التي تعترض قبول الانجيل. وتشمل هذه العوائق عادات واخلاق اهل البلاد الرُحّل، وطبعهم الميال الى الخمول والكسل. ومن الناحية الاخرى تصرفات العنيفة والقاسية واللاخلاقية للمستوطنين الاسبان والبرتغاليين، الذين ارادوا استعباد السكان الاصليين لخدمتهم، ومن ثم هجمات القبائل المتوحشة، اكلة لحوم البشر. ورأى اليسوعيون ان الحل يكمن في تجميعهم في تجمعات مغلقة، يمنع دخولها على المستوطنين وعلى أي غريب، وتثبيت هذه القبائل الرُحّل على ارض معينة، وتشجيعهم على العمل، وتعليمهم الحرف الضرورية لمعيشتهم، وطريقة استعمال السلاح للدفاع عن انفسهم ضد المعتدين.

قدمت هذه الدراسة حول "الجمهورية المسيحية" الى البلاط الملكي الاسباني في عام 1610، ووافق عليها الملك فيليب الثاني، وسلّم اليسوعيين السلطة كحكام مدنيين وروحيين لهذه التجمعات تحت حماية ملك اسبانيا. فأسس اليسوعيون نحو الثلاثين من هذه التجمعات، احتوت ما يقارب 120000هندي. وقام اليسوعيون بتثقيفهم، فتعلموا بناء مساكنهم، واستعمال السلاح، وزراعة الارض.

كان السكان الاصليون معتادين على الحياة الجماعية، فتم تنظيم هذه التجمعات على شكل "اشتراكية جماعية"، حيث كان المنتوج الزراعي والصناعي، يبقى ملكا للجماعة، يوزع على كل واحد حسب احتياجاته بواسطة موظفي الدولة، الذين كانوا المرسلين انفسهم. وكرست بعض الاراضي ودُعيت "مسكن الله Domaine de Dieu" حيث كان السكان يقومون بالعمل فيها، كل واحد حسب دوره، ورصد مدخول هذه الاراضي للاعمال الخيرية. وكان لكل مجتمع مدارسه ومستشفياته الخاصة.

الارجنتين

بشر الدومنيكان والفرنسيسكان الذين اتوا من تشيلي، الارجنتين في بداية القرن السابع عشر. ومن اشهر المرسلين اليها، الفرنسيسكاني، القديس فرانسوا سولانو François Solano، الكاهن النشيط النابغة، الذي استطاع ان يتعلم اللغات العامية لهذه القبائل المختلفة، والف في لغاتهم الترانيم والصلوات، ووضع لها الموسيقى، ورنمها هو بمصاحبة القيثارة. الا ان التبشير لم يعطي ثماره الا في منتصف القرن السابع عشر، عندما جاء اليها اليسوعيون، ووضعوا لها نظام "التجمعات".

2) امريكا الشمالية وكندا

تبع اكتشاف امريكا الجنوبية بوقت قصير اكتشاف امريكا الشمالية. وكان الفرنسي جان شابو Jean Chabot، والبرتغالي كورته ريال Corte Real، قد بدأ باكتشاف جزيرة الارض الجديدة Terre-Neuve، وسواحل اللابرادور Labrador، لحساب انكلترا. الا ان الانجيل لم يدخل هذه المناطق الا بعد ذلك بكثير.

كانت كندا من اوائل البلاد التي نجح فيها التبشير واستمر. وكان اكتشاف هذا البلد الواسع الشاسع، يعود للفرنسي جاك كرتيه Jacques Cartier، الذي قام من عام 1533 الى عام 1543، بثلاث رحلات استكشافية، فاكتشف منطقة سان لوران Saint Laurent، والاراضي التي قامت عليها فيما بعد المدن كويبك Québec، ومونتريال Montréal. الا ان التبشير لم يبدأ في هذه المناطق الا في القرن السابع عشر. وسيكون هذه المرة على ايدي المرسلين

الفرنسيين. فقد دعى مشيل شمبلان Michel Champlain، بعد ان اسس كويبك عام 1608، المرسلين Récollets، وفي عام 1615، اليسوعيين، وتبعهم بعدها الكثير من المرسلين الفرنسيين بتشجيع من الكردينال الوزير ريشليو Richelieu.

ولم تكن مهمتهم اسهل من امريكا الجنوبية، فقد واجه المرسلون قبائل لا تقل وحشية مثل ال Hourons و Algonquis، و Montagnais، وخصوصا قبيلة ال Iroquois الاكثر وحشية. وبدأ اليسوعيون بتبشير قبائل الهورون، الحَضَر، المزارعين، وكانوا متعددي الزوجات ويمارسون السحر، ويؤمنون بالخرافات. وكانوا يرون دائما في المرسلين السبب لكل ما يحل بهم من كوارث. وللتقرب منهم قام المرسلون ببناء مستشفى في كويبك، واحضروا اولا راهبات Hospitalières de Dieppe، للاهتمام بالمرضى، وراهبات الاورسلين Les Ursulines، لتعليم البنات. واسس بنفس الوقت اليسوعيون في كويبك اول كلية.

ومن كويبك، التي اصبحت مركزا للارساليات، انطلق اليسوعيون، لتبشير باقي القبائل الرحل، الذين كانوا يعيشون من صيد الحيوانات والسمك والغزو. واستعملوا اسلوب التجمعات لتوطين الهنود قرب التجمعات الفرنسية، واسسوا اول مدينة Saint-Joseph de Sillery.

وكانت مدينة مريم او مونتريال من اهم المدن التي أُسست. فقد قام اولييه Olier، مؤسس السلبيسيين Les Supliciens، مع مجموعة من العائلات الفرنسية بتأسيسها في جزيرة مونتريال على نهر سان لوران، واحضر الراهبات للعناية بالمستشفيات والمدارس.

ولم تتم عملية التبشير بدون شهداء. ومن اهمهم القديس Isaac Joques والقديس Jean de Brébeuf.

بعد مجيء السلبسيين بسنتين، كان التبشير قد وصل الى مرحلة متقدمة، كافية لتبدأ روما بتأسيس السلطة الكنسية فيها. فعين البابا اسكندر السابع في عام 1659، المونسينيور دي مونتمرنسي لافال Mgr. Montmorency-Laval، نائبا بابويا في كندا. ففتح هذا المعاهد الاكليريكية الصغرى والكبرى، واسس بعض الرعايا خارج كويبك.

لم تمنع الصعوبات المرسلين، ولم تقف حركة التبشير، بل استمرت الى اكثر من قرن، حتى وضعت "اتفاقية باريس" (1763) كندا تحت سيطرة انكلترا البروتستنتية. فدخلت العناصر البروتستنتية في صراع مع العناصر الكاثوليكية الفرنسية، الا ان الكاثوليك ظلوا متمسكين بايمانهم وتقاليدهم وبانتمائهم الى فرنسا.

وانتقل التبشير من كندا الى مناطق عديدة من امريكا الشمالية. فاستوطن في عام 1634، الكاثوليكي الانكليزي لورد بلتمور Lord Baltimore، مع بعض العائلات الانكليزية، منطقة اطلق عليها اسم ماريلند Maryland، ارض مريم. الا ان مستوطنته الكاثوليكية سقطت تحت اضطهاد البروتان او التطهريين Les Puritains الانكليز البروتستنت.

واكتشف الكاهن اليسوعي ماركت Marquette في عام 1673 لويزيانا Louisiana وجزر المسيسيبي Iles de Mississippi. وبعد عشرين عاما جاء اليها المرسلون واسسوا ولاية اورليان الجديدة Nouvelle Orléans في عام 1717.

3) اسيا

كانت اسيا في القرن السادس عشر قارة معروفة من مدة طويلة لدى الاوروبيين. فقد دخلها المرسلون الفرنسيسكان منذ القرن الثالث عشر. وعندما اكتشف البرتغاليون الطرق البحرية التي تقود الى الشرق الاقصى، وباقاماتهم المستوطنات، ساعدوا على تسهيل الوصول الى هذه المناطق، وساهموا في تسهيل وصول المرسلين الذين بدأوا يتوافدون عليها. ففي بداية القرن السادس عشر، بدأ الاخوة الاصاغر بالتبشير ولاقوا نجاحا باهرا، واستطاعوا ان يأسسوا جماعات مسيحية في كل من غوا Goa، Cochin، Calicut، Cranganor، واصبح في عام 1532، الفرنسيسكاني Jean d'Albaquerque اول أسقف على غوا.

الا ان عملية التبشير لاقت عوائق اهمها المثل السيء للفاتحين البرتغاليين، الذين كان معظمهم من حثالة الشعب، مغامرين دون ايمان ولا قانون، جاؤوا يركضون سعيا وراء الغنى والربح والتفتيش عن الذهب، فعاشوا حياة استهتار، ومارسوا تعدد الزوجات والزنى والطلاق. وجد الاباء الفرنسيسكان انفسهم عاجزين عن التبشير بالاخلاق المسيحية في هذا المحيط المسيحي السيء. عند ذاك التجأ الملك جون الثالث، ملك البرتغال الى جميعة اليسوعيين المؤسسة حديثا، ولا يزال اعضائها من الشباب المتحمس الغيور. فعين اغناطيوس دي لويولا فرانسيس كسافريوس، رئيسا لهذه الحملة التبشيرية. وسيصبح كسفاريوس من اكبر المبشرين اطلاقا في العصر الحديث، وستجعله سفراته الثلاث الى الهند واليابان والصين، وقداسته وقوة عجائبه وعظمة عمله الكبير، على مستوى القديس بولس.

القديس فرانسيس كسفاريوس St. François Xavier (1505–1552)

خرج القديس فرنسيس كسفاريوس من اسرة اسبانية شريفة، من مملكة نفار، وكان سادس اخوته. وكان ابوه يوحنا مستشارا في مجلس المملكة. فلما ثارت الحرب بين فرنسا واسبانيا، امتاز اخوة فرانسيس ببسالتهم. ولما وضعت الحرب اوزارها، سنة 1525، كان فرانسيس قد صار ابن تسع عشرة سنة، فذهب الى باريس، وتخرج على اساتذتها، وبرع في شتى العلوم، ونال شهادة الفنون العالية من جامعتها، مع المأذونية بالتعليم العالي. وما لبث ان حصل على كرسي للتدريس فيها.

كانت العناية الالهية قد دبرت لكسفاريوس اكاليلا مجيدة غير اكاليل الدنيا. فارسلت اليه الى باريس اغناطيوس دي لويولا. فما كاد يلقى فرانسيس هناك ويجتمع به حتى عرف ما هي الكنوز الثمينة المخبأة في ذلك القلب الكبير. فاراده الله لا للدنيا. فبدأ بمهاجمته، ولكن بنوع لطيف... وكان حينا بعد حين يكرر عليه ويقول: "ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه" (متى 16: 26).

كان كسفاريوس في بادىء الامر يسمع له ولا يكترث لكلامه. ثم اخذ يستسيغ حديثه. ثم جعل يفكر تفكيرا عميقا بما كان اغناطيوس يقول له. وبقي اغناطيوس يحاصره وينازله ثلاث سنوات متوالية، ووالدته تدعو له وشقيقته الراهبة تقدم الابتهالات الى الله لاجله، حتى ظفروا به. فترك الدنيا وانضم الى الفرقة التي كان اغناطيوس بدأ يؤلفها ليهاجم بها الدنيا، ويقودها الى طاعة المسيح.

وفي الخامس عشر من شهر آب يوم عيد انتقال السيدة الى السماء، سنة 1534، كان كسفاريوس ساجدا امام هياكل كنيسة مون مرتر Montmartre، يلفظ نذوره مع اغناطيوس ورفاقه، ويبدأ معهم الجمعية اليسوعية التي سوف يكون لها الشأن العظيم، ويكون لها في الدنيا الاثر الذي لا يزال الى يومنا هذه حيا قويا ساطعا جبارا.

ثم اجتمعت تلك الفرقة في مدينة البندقية، لتقلع من هناك الى الاراضي المقدسة الفلسطينية، وتخدم مصالح المسيحيين الروحية في تلك البلاد النائية. لكن الحرب التي كانت اذ ذاك مستعرة بين البندقية والسلطنة العثمانية، منعتهم من السفر. فتفرغوا لخدمة المرضى في المستشفيات. وكان كسفاريوس شعلة غيرة وتفان، حتى ان المرضى الذين كان يهرب الجميع من نتانة قروحهم، كان هو يركض اليهم ويخدمهم ويقبلهم. فكانت ايامه ولياليه مقسمة بين الصلاة والخدمة والصوم وكل انواع الاماتات.

كسفاريوس الرسول

ذهب اغناطيوس وكسفاريوس وسائر الرفاق الاثني عشر الى روما، لينالوا تثبيت الحبر الاعظم في رسالتهم في بلاد الشرق. فاستقبلهم البابا بولس الاول بعطف ابوي وشجعهم، وثبتهم في دعوتهم. فعادوا الى البندقية للابحار منها الى بلاد فلسطين. وفي غضون ذلك قَبِل كسفاريوس الرسامة الكهنوتية، ثم قام يستعيد لاقامة الذبيحة الالهية الاولى. فقضى اربعين يوما في خلوة عميقة، صائما مصليا متضرعا الى الله والى البتول مريم لكي يؤهلاه للاحتفال بقداسه الاول. ثم خرج من خلوته وتفرغ مدة شهرين لخدمة المرضى ليقرن الحياة العقلية بالحياة العملية.

وفي سنة 1539، طلب يوحنا ملك البرتغال الى الحبر الاعظم ان يعطيه بعضا من آباء الرهبانية اليسوعية الجديدة، ليرسلهم الى بلاد الهند الشرقية، بغية نشر بشارة الانجيل في تلك المستعمرات البرتغالية القاصية. فوقع الاختيار على كسفاريوس. فذهب الى البرتغال ليقلع من هناك الى الهند على المراكب الملكية. فمر في طريقه بالقرب من قصر والدته واخوته، فاشار عليه سفير الملك ان يعرج عليهم ويودعهم. الا انه ابى ذلك، مضحيا بتلك التعزية القلبية الكبرى في سبيل استنزال بركة الرب على عمله الرسولي الجديد. وكان يعلم العلم اليقين ان لا عودة له الى بلاده من بعد ذلك السفر الطويل، ولا امل له برؤية اهله وذويه من بعد في هذه الدنيا. وقبل السفر اتاه من الحبر الاعظم براءة بابوية بها يعينه سفيرا بابويا في بلاد الشرق كلها.

الى الهند

وفي السابع من شهر نيسان سنة 1541، اقلع اسطول برتغالي مؤلف من خمسة مراكب الى بلاد الشرق الاقصى. وكان نائب الملك والاب كسفاريوس على المركب الرئيسي الاول المدعو القديس يعقوب Santiago. وبعد ستة اشهر، رست السفينة في مياه المزامبيق لفترة قصيرة قبل ان تعاود ابحارها. اغتنم خلالها فرانسيس الفرصة لتبشير اهل الموزامبيق. واضطر فرانسيس الى ملازمة فراش المرض بين شهري آب 1541 وشباط 1542 بسبب اصابته بالحمى. وعندما اضطر للمغادرة ترك فيها رفيقيه على ان يلحقا به في اول فرصة سانحة. ورافق الحاكم على متن سفينة تجارية، متجهة الى الهند. رست السفينة في مرفأ ميلند Mélinde، حيث تعرف فرانسيس للمرة الاولى الى الدين الاسلامي. ومنها

غادرت السفينة ورست في مياه سوكوتورا للتزود بالماء. وكان يعيش في المدينة عدد كبير من المسيحيين الاميين الذين لا يملكون أي ثقافة دينية، اذ كانوا يجهلون تلاوة الصلوات وماهية الاسرار، رغم وجود عدة كنائس وقام فرانسيس يعلمهم قواعد الايمان المسيحي، ويشرح لهم الكتاب المقدس، فطلب اليه الاهالي البقاء معهم، لكن الحاكم اصر على الرحيل، واصطحاب فرانسيس معه على متن السفينة التي وصلت اخيرا الى غوا Goa في 6 ايار 1542. وفور وصول السفينة، زار فرانسيس اسقف المدينة وقدم له اوراق اعتماده بصفته سفيرا بابويا، ووضع نفسه تحت تصرفه بوصفه مبشرا.

غوا Goa

كانت غوا مدينة مسيحية في الظاهر فقط. فقد كانت مدينة يعمها الفساد ويخلط سكانها بين عبادة الاله الواحد وعبادة الاوثان. وراح فرانسيس يعمل فيها دون كلل، فكان يجتاز الساحات والاماكن العامة، وهو يحمل بيده جرسا صغيرا لم يفارقه طوال رسالته، داعيا الناس لسماع تعاليمه. وقد دفع هذا الاسلوب الطريف العديد من اهالي غوا الى الالتفاف حوله، واللحاق به الى الكنيسة حيث كان يعلمهم الاناشيد والصلوات الاساسية. وعلى الصعيد الانساني، كان فرانسيس يهتم بالجيش والبحارة ويشاطرهم همومهم، كما كان يزور المرضى في المستشفيات ويعزي الحزانى ويساعد الفقراء ويدفن الموتى... وفي كل يوم احد، كا يحتفل بالذبيحة الالهية امام المصابين بالبرص.

الكوموران

استمرت اقامته الاولى في غوا خمسة اشهر، ثم اضطر الى مغادرتها بناء على طلب النائب الاسقفي الذي رغب في ارساله الى ساحل الصيادين في الكوموران، الواقعة في جنوب الهند، حيث يقيم سكان البارافير، وهم طبقة منبوذة في الهند، يعمل افرادها في البحر حيث يغطسون لصيد الجواهر الثمينة. وفي نهاية ايلول 1542، اتجه فرانسيس الى ساحل الصيادين، يحمل الانجيل المقدس، وكتاب الصلاة، وشمسية تقيه الحر القوي، يرافقه ثلاثة رهبان اسيويون كمترجمين. وهناك وجد فرانسيس نحو ثلاثين الفا يعبدون فيشنو، وهو اله صنم له ثلاثة رؤوس تمثل ذكاءه، واربعة اذرع ترمز الى قوته، وستة ارجل تشير الى سيطرته على الفضاء. وفي منطقة الكوموران، ولاكثر من سنة كاملة، بقي فرانسيس وحيدا يبشر في ثلاثين قرية اناسا يتحدثون لغة لا يستطيع فهمها. ووجد نفسه رجلا ابيضا منعزلا وسط عالم ملون بالشمس والرمل. وانكب على درس المالابارية حتى استطاع مخاطبة السكان المحليين بلغتهم، ولكنه عانى كثيرا من خدمة نحو عشرين الف وثني وهداهم الى المسيحية، وكان عليه وحده ان يعطيهم خبز الحياة، وخصوصا انه وجدهم متعطشين الى الايمان الحق. واحبه الصيادون لانه كان يعيش معهم، كواحد منهم، يفترش الارض مثلهم ويكتفي بتناول السمك المجفف واللبن.

الارخبيل الكبير

نزولا عند رغبة الاسقف، قرر فرانسيس ان يبحر الى جزر الارخبيل الهندي لمتابعة اعلان البشرى. ودامت الرحلة نحو شهر كامل. وفي 15 شباط 1546، وصل فرانسيس الى جزيرة امبوان Amboine، ومكث فيها شهرين. وفي 17 ايار 1546 ابحر الى جزيرة ترناتا Ternate، ومكث فيها ثلاثة اشهر، غادرها من ثم الى جزر المورس Mores، او جزر الموت، حيث يتواجد اكلة لحم البشر، ويتفق الوثنيون والمسلمون، بالرغم من خلافاتهم الكثيرة، على اضطهاد المسيحيين واغتيالهم بالسم. وفي هذه الجزر، كان فرانسيس يعمد اربعمائة وثنيا في الشهر، وهدى سبع قرى الى المسيحية. وعلى الرغم من المخاطر الكبيرة، كان يتجول حافي القدمين ويشفي المرضى ويعزي الحزانى.

تعرض فرانسيس خلال رسالته في الهند وجزرها الى مخاطر حقيقية. ففي رسالة الى الاب اغناطيوس في روما، كتب يقول: "... على الصعيد المناخي، الحياة قاسية جدا هنا، فالحرارة مرتفعة الى درجة عالية في الصيف، والرياح والامطار عاتية في الشتاء... وعلى الصعيد الروحي، الهندي مغمور بالروحانيات الشرقية، ومن الصعب جدا ان يرتد الى ديانة اخرى... ويحتاج المبشر هنا الى امتلاك الكثير من الفضائل، لا سيما الطاعة، كي يصبح محبوبا لدى مختلف السلطات الدينية، والعلمانيين الذين يحكمون البلاد، بحيث لا يلحظون في شخصه أي نوع من الكبرياء، بل الكثير من التواضع، مما يحملهم على محبتنا... وبالنسبة الى المسيحيين الجدد، هنالك مخاطر كثيرة على المرء ان يتحملها. فالخروج عن الديانة الهندوسية يدفع طائفته الى حرمه، فليس هناك من ديانة اشد تطرفا واكثر وطنية في الوقت نفسه من الهندوسية... والطلب من الهندي ان يتعمد امر يجرح كرامته". لكن فرانسيس حمل الى الشرق قلبه الكبير المفعم بالمحبة والخدمة، فكان يخبر الناس عن اله محبة يختلف تماما عن الهتهم المتعددة. لذلك آمن بالهه كثيرون، خصوصا بعدما كان هؤلاء شهود عيان لعدد من العجائب التي اجترحها، خاصة وان الهندوسي يعتقد ان العجائب ضرورية لاظهار قداسة الانسان، الى أي ديانة انتمى.

ولأن ايمان فرانسيس كان بحجم حبة الخردل، كانت العجائب في الهند وجزرها تحصل على يديه بالعشرات امام الناس، اذ كان يقيم الموتى، ويشفي المرضى... ولعل اغرب اعجوبة هي اعجوبة سرطعان البحر. ففي اثناء مغادرته جزيرة اميوان الى ترناتا، هبت في البحر عاصفة قوية كادت تغرق المركب والركاب، فوقف فرانسيس بهدىء من روعهم، فحمل صليبه وانحنى على حافة المركب يلامس به الامواج الهائجة حتى هدأ البحر، لكن الصليب افلت من يده وغرق في القعر. وحزن فرانسيس حزنا قويا، وبكر في صباح اليوم التالي نحو الشاطىء يفتش عن الصليب قبالة الموضع الذي سقط فيه. وفجأة رأى على الشاطىء سرطعانا بحريا يهرع اليه حاملا الصليب المفقود، فاقترب فرانسيس وجثا على ركبتيه وتناول منه الصليب، وعاد السرطعان من حيث اتى.

اليابان

عاد فرانسيس الى مالاكا بعد قضاء ثلاثة اشهر في "جزر المو". وفي مالاكا قابله شاب ياباني يدعى انجيرو قصده ليراه ويسمع كلامه ويتوب الى الله على يده، نادما على خطاياه، فعمده فرانسيس وسماه بولس. وبعد حديث طويل شائق قرر فرانسيس ان يذهب مع انجيرو ليبشر في اليابان، واتفقا على ان يقوم انجيرو بترجمة التعاليم المسيحية الاساسية الى اللغة اليابانية.

وقبل ان يرحل فرانسيس الى اليابان، جمع عددا من الرجال التقاة الذين كرسهم في الهند، ووزعهم لخدمة المسيحيين في المناطق التي عمد سكانها. وفي كل منطقة من هذه المناطق عين مسؤولا وزوده بتوجيهات واضحة حول اساليب المحافظة على الرعية وادارتها. اما في غوا فقد عين اثني عشر خادما برئاسة انطونيو غوميز.

ابحر فرانسيس الى اليابان في 15 نيسان 1549، وكان يرافقه في الرحلة كوسماس دو توريس، وهو كاهن من فالنسيا التحق حديثا بالرهبانية اليسوعية، والاخ خوان فرناندیز، وثلاثة شبان اهتدوا الى المسيحية، وصيني تعمد تحت اسم مانويل، ومسيحي من ساحل الصيادين يدعى امادور.

وفي القرن السادس عشر، لم يكن احد يعرف تاريخ اليابان، على عكس الصين التي كان الغرب قد قرأ شيئا عنها بفضل كتابات ماركو بولو. وقد وصلت المعلومات الاولى عن اليابان الى الغرب بواسطة رسائل فرانسيس كسفاريوس. وربما كان فرانسيس اول شخص يعطي الغرب فكرة واضحة عن اليابان، حين وصفها بانها عبارة عن "مجموعة جزر"، وكان وصفه اكتشافا جغرافيا في تلك الفترة.

في اليابان، نزل فرانسيس ورفاقه في ضيافة عائلة اوتجيرو. وفي تلك الفترة، كانت البلاد مقسمة الى مناطق نفوذ مستقلة، يسيطر عليها ستة حكام كبار.

وبعد فترة من الراحة، قرر فرانسيس زيارة الحاكم الياباني في مياكو، فاستقبله غو–نارا–تينو Go-Nara-Tenno وهو الحاكم الخامس بعد المئة من سلالة الشمس، وسمح له بالتبشير، لكن فرانسيس ورفاقه لم يلقوا أي نجاح لا في الساحات العامة ولا في الجامعات بسبب المعارضة الشرسة التي واجههم بها الرهبان البوذيون. ولما انتقلوا الى ياماغوشي، اعادوا الكرة لكنهم لاقوا الاخفاق نفسه.

وفي تلك الفترة، كان اليابانيون ينظرون الى المسيحية والحضارة الغربية نظرة ملؤها الكره والبغض. وهم يعتبرون، مثل البراهمانيين، ان الارتداد الى المسيحية يشكل انحطاطا خلقيا، فيما كان عدد من اليابانيين يحسبون المسيحية شيعة من الشيع البوذية، يستطيع ان انسان ان يعتنقها اذا ما اقتنع بها.

وعلى الرغم من عدم نجاح التبشير في اليابان، ابدى فرانسيس اعجابا شديدا بالشعب الياباني. وفي 25 تشرين الثاني 1549، وجه الى اخوته في روما رسالة بلغ عدد كلماتها نحو عشرة الاف كلمة، وهي الرسالة الاطول التي كتبها في حياته، ومما جاء فيها: "...اعتقد انه، من بين غير المؤمنين، لا نجد مثل اليابانيين. اذ يملك هذا الشعب عادات نبيلة جدا، فرجاله يتعاملون بكل طيبة وبدون خبث. انه شعب يملك احساسا مدهشا بالشرف، ويقدر الاحترام اكثر من أي شي".

لم ييأس فرانسيس من متابعة الرسالة في اليابان، فذهب هذه المرة برفقة بولس الى كوكوبو، على بُعد 15 ميلا من كاغوشيما، بناء على طلب الحاكم تاكاشيزا، احد الستة الكبار، الذي استدعاه بعدما وصلته اصداء البشارة الجديدة، فاختار فرانسيس لهذه الزيارة نهار 29 ايلول، عيد مار مخائيل، باعتباره الد اعداء الاصنام. وقد اصطحب فرانسيس رفيقه بولس لزيارة الحاكم. وحول هذه الزيارة كتب فرانسيس: "كان الحاكم لطيفا مع بولس، فسأله عن البرتغال والمسيحية، واجابه بولس بطريقة ارضت فضوله. وكان بولس يحمل معه لوحى للسيدة العذراء وهي تحمل طفلها، فتأثر الحاكم كثيرا حير رآها، وسجد امامها مظهرا احتراما عظيما. ثم جاءت والدة الحاكم وابدت دهشتها

امام اللوحة. وبعد مرور عدة ايام على الزيارة، ارسلت الوالدة احد النبلاء الى بولس تطلب منه موجزا عن العقيدة المسيحية".

اتصل فرانسيس، هذه المرة، بالرهبان البوذيين بواسطة بولس. وفي رسالة الى اخوته في روما قال: "... كان البوذيون يبدون دهشتهم حين يعلمون اننا اتينا من البرتغال لنحدثهم عن الرب الاله ونبشرهم بان الشعوب لا تخلص الا بعد ايمانها بالسيد المسيح".

وغالبا ما كان فرانسيس يجلس على رصيف احد الاديرة البوذية ويقرأ بصوت عال ترجمة بولس لعدد من التعاليم المسيحية. وكان البعض يسخر من لكنته واخطائه اللغوية، وآخرون كانوا يشفقون عليه، لكن عددا من بينهم كانوا يبدون دهشتهم حتى ولو لم يفهموا شيئا مما كان يود ان يوصله اليهم.

مع الوقت شعر الرهبان بخطر فرانسيس على ديانتهم، فاقنعوا الحاكم بطرده واعطاء اوامره بوقف الارتداد الى المسيحية تحت طائلة الموت، وكذلك نظموا حملة قوية لاضطهاد البوذيين المرتدين والعمل على اعادتهم الى البوذية.

في هيرادو، وفي كاغوشيما، كما في ياغاموشي، لم تنجح حملة فرانسيس كما يأمل، فقرر الذهاب الى كيوتو حيث يقيم اقوى حكام اليابان. وكان فرانسيس يحلم ان هذا الحاكم سيقنع اليابانيين كلهم بالارتداد الى المسيحية. وحصل اللقاء ولم يتحقق الحلم. فقرر العودة الى الهند، تاركا بولس في كاغوشيما. وهناك رواية تفيد ان بولس سقط شهيدا على ايدي الرهبان البوذيين بعد مرور ستة اشهر على مغادرة فرانسيس المدينة.

الصين

وصل فرانسيس الى غوا، فاستقبله الناس بفرح عظيم. ودعاه احد حكام "البونغو" الى زيارته، ولبى فرانسيس الدعوة وبشر في بلاده، وعمّد الكثيرين، الا ان الحاكم لم يقبل سر العماد الا بعد مضي 27 سنة على دخول المسيحية بلاده. وقد اتخذ اسم فرانسيس وساهم بقوة في انتشار المسيحية في بلاده.

ومع مرور الايام، اخذ فرانسيس يفكر انه اعطى ما يكفي في الهند واليابان، فشرع يستعد للتبشير في الصين. وقبيل سفره اليها، عرج على غوا، ثم قرر الابحار الى الصين في 17 نيسان 1552، تاركا وراءه عشر سنوات من العمل المضني في الهند واليابان واندونيسيا. واخذ فرانسيس قبل ذهابه رسائل توصية من الحاكم ومرسوما بتعيينه رئيسا على بعثة رسمية لزيارة امبراطور الصين. وفي بداية ايلول 1552، وصلت السفينة سانتا كروز الى جزيرة سانسيان Sancian على بُعد عشرة كيلومترات من شاطىء الصين. واخذ ينتظر وصول مركب يبحر الى داخل الصين.

وفاة كسفاريوس

بانتظار حضور مركب مبحر الى الصين، وقع فرانسيس طريح الفراش اثر احتفاله بالصلاة عن نفس روح شخص مات حديثا في الجزيرة. وقويت عليه الحمى، فاخذه تاجر برتغالي الى غرفته، وهو يحتمل الله بكل هدوء وصبر. وعلى الفراش رفع صوته عاليا يخاطب السيد المسيح، بمختلف اللغات التي يعرفها، وعيناه نحو السماء. وبقي على هذه الحال حتى الاثنين في 28 تشرين الثاني. وفي اليوم الثامن لمرضه، فَقَدَ النُطق، وبقي صامتا طوال ثلاثة ايام حتى ظهر الخميس، حيث لم يعد يتعرف على احد، ولا يأكل أي شيء.

استعاد فرانسيس وعيه يوم الخميس، ولم يكن يتكلم الا ليذكر المسيح والعذراء والروح القدس. ثم ردد قائلا: "يا يسوع ابن داود، ارحمني". واضاف: "ايتها السيدة العذراء ام الله اذكريني". وبقي يردد هذه العبارات طوال ليل الجمعة. ورقد بالرب في اليوم الثالث من كانون الاول 1552، وله من العمر ست واربعون سنة فقط. وفي 17 شباك 1553، وبعد مرور عشرة اسابيع على دفنه، اعاد البرتغاليون الجثمان على متن احد المراكب ووصلوا به الى مالاكا في 22 اذار، حيث لاقى ترحيبا حارا، واصطحبته الجموع الغفيرة الى كنيسة العذراء، وبقي الجثمان فيها مدة خمسة اشهر. فهرع صديقه القديم خوان ده بيرا، الى الجزيرة لينقل الجثمان الى مدينة غوا. فدخل واصدقاؤه ليلا الى الكنيسة على ضوء الشموع وحملوا الجثمان سرا الى منزل بيريز ووضعوه في تابوت مغلف بالحرير الصيني.

وفي 25 تشرين الاول 1619، اعلن البابا بولس الخامس فرانسيس كسفاريوس طوباويا، ورقاه البابا غريغوريوس الخامس عشر الى درجة القداسة مع رئيسه ورفيقه اغناطيوس دي لويولا في 12 اذار 1622. وفي فترة لاحقة منحه البابا بندكتوس الرابع عشر لقب شفيع الهند والشرق، ثم اصبح شفيع الارساليات كلها.

مواصلة التبشير بعد كسفاريوس

في الهند:– تابع اليسوعيون والفرنسيسكان والدومنيكان عمل كسفاريوس التبشيري، فوصل عدد المؤمنين في النصف الثاني من القرن السادس حوالي 300000 شخص. ورفعت منزلة غوا الى منزلة رئاسة اسقفية يتبعها مجموعة من الاسقفيات المساعدة. الا انه بالرغم من نجاح التبشير، فقد بقي محصورا في الطبقات الوسطى والسفلى، ولم ينجح في الوصول الى الطبقات العليا من المجتمع الهندي.

فمن المعروف ان مجتمع الهند كان ينقسم الى عدة طبقات Castes، ولكل طبقة اتباعها وقوانينها وامتيازاتها وطقوسها الخاصة. وكانت هذه الطبقات مغلقة الواحدة على الاخرى، لا يستطيع احد الدخول فيها ولا ان يرتبط معها برباط، ولا حتى بتناول الاكل معها.

كان الهندي من الطبقة العليا، من جهة اخرى، يزدري الطبقات الوسطى والسفلى، كما كان يزدري الاوروبيين والمرسلين لاختلاطهم بالطبقات السفلى، ويأكلون من طعامهم، فيتنجسون باتصالهم بهم.

ما العمل لايصال بشرى الانجيل والحقائق المسيحية لكل هذه الطبقات؟ ما العمل لكي يقبل هؤلاء الاخلاق والتعاليم المسيحية، التي تنادي ان كل البشر هم ابناء الله ومتساوون وهم اخوة فيما بينهم؟ كان هذا الموضوع خطير وبحاجة الى حل. وكان الاب نوبلي Nobili اليسوعي اول من وجد حلا، وان لم يكن كاملا، على الاقل كان جيدا بما فيه الكفاية لاحراز النجاح.

طريقة الاب نوبلي Nobili التبشيرية

كان الاب روبرتو نوبلي من اسرة شريفة من روما، وهو ابن اخت الكردينال بلارمينو. عمل مبشرا يسوعيا في مملكة مادوره Maduré، حيث توصل الى اقتناع الى وجوب ايصال البشرى الانجيلية ايضا الى الطبقات العليا من المجتمع الهندي، اذ ما أُريدَ للتبشير بالانجيل ان يستمر ويثمر. وتوصل الى انه لتبشير هذه الطبقات، يجب ان يصبح المبشر واحدا منهم، وان يعيش على نمط حياتهم، فاتشح برداء البراهمة Brahmas، واصبح هندوسيا بين الهندوس، وتبنى عادات طبقة المتعفيفين (saniassis/continents)، اكثر طبقة احتراما، واختلى باحدى الاكواخ، وعاش فيها كناسك، ممتنعا عن اكل اللحم وشرب الخمر، مستكفيا باكل الخضار وشرب الماء، متجنبا مجتمع الطبقات الوسطى والسفلى. وتعلم لغة السنكريت Sancrit، ودرس الكتب المقدسة والتقاليد الهندوسية. ولم يلبث ان حصل على قسط واسع من هذه العلوم، اصبح بواسطتها على مقدرة ان يجادل العلماء البراهمة.

انجذب البراهمة الى دماثة اسلوبه وطريقة معاملته وبفصاحته والاستشهادات من كتبهم المقدسة، التي كان يتلوها عن ظهر قلب بكل دقة، وبدأوا يأتون اليه لاستشارته وللتحدث معه وعرض مشاكلهم ولطلب ايضاحات وتفسيرات حول بعض النقاط الغامضة في معتقداتهم.

لاحظ الاب نوبلي في احدى قراءاته في كتبهم المقدسة "الفداس Védas" ان احدى تعاليمهم تقول بوجود اربع طرق للوصول الى الحقيقة وللخلاص. وكان الطريق الرابع مفقودا. فاعلن لهم انه بواسطة دراسته استطاع ان يكتشف هذا الطريق. وعلى مثال القديس بولس مع اهل اثينا و"الاله المجهول"، فسر نوبلي للبراهمة ان الطريق الرابع هو المسيحية. لاقى هذا التفسير القبول لدى الكثير منهم، وفي سنة 1609، كان حوالي السبعين من هؤلاء البراهمة قد ارتدوا الى المسيحية، وعلى مثالهم ارتد الكثير من جميع طبقات المجتمع في مادوره وفي ممالك اخرى. وسمح لهم نوبلي بالحفاظ على الكثير من عاداتهم الدينية غير موسومة بالخرافات او بعبادة الاصنام، معتبرا اياها عادات محلية وطنية.

لم يرق اسلوب الاب نوبلي للمرسلين الاخرين وخصوصا الفرنسيسكان وحتى بعض اليسوعيين، واعتبروا التنازلات التي اعطاها نوبلي للبراهمة في الحفاظ على عاداتهم تنازلات مبالغ فيها، فرفعوا الامر الى روما. وبعد دراسة مستفيضة اعطى البابا غريغوريوس الخامس بمرسومه Constitutio Romanae Sedis الصادر بتاريخ 31 كانون ثاني 1523، موافقته على اسلوب نوبلي وشجعه علىمواصلة اسلوبه وقتيا. وتم تطوير هذا الاسلوب، بتأسيس نوعين من المرسلين: – البراهمة Brahmas — للطبقات العليا، واخرين — Padras — للطبقات السفلى. وعندما توفي الاب نوبلي كفيفا، عام 1656، بعد خمسين عاما من الرسالة، كانت ارسالية مادوره تعد اكثر من مئة الف مسيحي.

تابع يسوعيون اخرون عمل نوبلي بعد وفاته، وكان اهمهم الطوباوي جون دي بريتو Jean de Britto، من نبلاء البرتغاليين، اذ كان ابوه نائب ملك البرازيل، فوصل الى مادوره عام 1665، وعمل بغيرة كبيرة، وحصل على نجاح كبير، اثار عليه حفيظة الوثنيين، فقطعوا رأسه في 4 شباط عام 1693.

في اليابان: – تواصل عمل التبشير الذي بدأ به فرانسيس في اليابان على يد يسوعيين آخرين، وتم تأسيس جماعات مسيحية في مدن مختلفة من اليابان. وارتد عام 1560، خمسة عشرة من الرهبان البوذيين – البونز Bonzes – كما وتبعهم مجموعة من الزعماء Daimyos مع عائلاتهم واتباعهم. وازدادت عملية التبشير ابتدأ من عام 1565، بعد اعتلاء الامبراطور Nobunga الحكم، فاظهر عطفا على المرسلين، وتسامحا نحو المسيحية، دون ان يرتد هو نفسه. وبفضل هذه الحماية تطورت كنيسة اليابان، واصبح عدد اعضائها يناهز ال 200 الف في 300 كنيسة، وفتح اليسوعيون لهم اديرة، وبدأوا بالعمل على تأهيل اكليروس محلي.

وفجأة بدأت حملة من الاضطهادات على المسيحيين، قام بها الامبراطور Taicosama، الذي اطاح بـ Nobunga، واستولى على الحكم. فامر جميع المرسلين الاوروبيين بمغادرة اليابان في مدة عشرين يوما، وهدم ستين كنيسة. وكان الدافع وراء هذا الاضطهاد هو رد فعل ضد سياسة التسامح التي انتهاجها الامبراطور السابق، وثانيا خوفا من استيلاء الاجانب على الحكم في اليابان، وثالثا لان فتاتين يابانيتين مسيحيتين رفضتا ان تكونا ضمن حريم الامبراطور. واجه اليسوعيون هذه الموجة من الاضطهادات بحكمة ومهارة، فتركوا اماكن عملهم، الا انهم لم يتركوا اليابان، بل التجاؤا الى بعض الزعماء Daimyos، الذين اظهروا عطفا نحوهم، وانتظروا هناك بصبر الى حين مرور العاصفة. ثم عمل الاب Valignano على الحصول على لقب سفير نائب الملك في الهند، وحضر امام الامبراطور وقدم له الهدايا الثمينة، وعمل على تبديد شكوكه ومخاوفه. فاعاد عملية التبشير، واعطت ثمارا كبيرة نظرا لما تحلى به المرسلون والمسيحيون من صبر وجلد امام الاضطهاد. وفي نهاية القرن السادس عشر كان عدد المسيحيين قد جاوز ال 300000 يديرهم 134 راهبا.

اندلعت الاضطهادات مرة ثانية عام 1596، وكانت اعنف من الاولى. اثار هذه الموجه الثانية من الاضطهادات التصرف غير الحكيم للمرسلين الفرنسيسكان، وللتصرف غير المسؤول للتجار الاسبان. فقد حضرت الى اليابان مجموعة من الاخوة الاصاغر، قادمة من جزر الفليبين، وبدأوا بالتبشير بصورة ظاهرة وعلانية في المدن الكبيرة، لدرجة لفتت اليهم نظر اعداء الكنيسة. وفي نفس الوقت، جنحت سفينة اسبانية على احد شواطىء اليابان، وحاول القبطان منع اهالي البلاد من الاستيلاء على حمولة السفينة الغارقة كما كانت تقتضي العادة في ذلك الوقت. ولارهاب اليابانيين، اخذ يعلن ان ملك اسبانيا يستعد للاستيلاء على اليابان كما استولى على عدة بلاد في آسيا، وان المرسلين ما هم الا عملاء للتحضير لهذا الغزو. ولما علم الامبراطور بهذا استشاط غضبا، واعطى امرا بعمل لائحة باسماء المسيحيين، وصلب 23 فرنسيسكانيا و3 يسوعيين في الخامس من شباط عام 1597. ولم تهدأ هذه الحملة من الاضطهادات الا بموت الامبراطور في السنة التالية، مما اتاح فترة من الهدوء من 1598-1612، جاهد فيها المرسلون لكسب المزيد من الارتدادات بلغت المئة الف.

اندلعت موجة ثالثة من الاضطهادات وهي الاطول والأعنف، حوالي عام 1613، واستمرت مع بعض فترات من الهدوء حتى سنة 1660، وفاقت في وحشيتها اضطهادات القرون الاولى. اثار هذه الموجة من الاضطهادات هذه المرة البروتستنت الهولنديون والانكليز، الذين بدافع المنافسة التجارية، دفعوا اليابانيين الى طرد الاسبان والبرتغاليين من البلاد بحجة ان هؤلاء انما يأتون تحت ستار التجارة والتبشير استعدادا للاستيلاء على البلاد. فقام الامبراطور بطرد جميع المرسلين وهدم الكنائس، وفرض على المسيحيين انكار دينهم تحت طائل عقوبة الموت. وكانت حصيلة الشهداء لعام 1624 فقط ما يقارب الثلاثين الف، والكثير من المرسلين الدومنيكان والفرنسيسكان واليسوعيين احرقوا احياء. وزادت حدة هذا الاضطهاد في عام 1637، عندما اتهم البروتستنت الهولنديون المسيحيين بانهم يأتمرون ضد الامبراطور. فطرد هذا المسيحيين المحليين من البلاد، ومنع دخول الغرباء لليابان. وسمح فقط للتجار الهولنديون بدخول البلاد، ولكن تحت الشرط المذل بعدم القيام بأي شعائر دينية مسيحية وبالدوس على الصليب[1].

في الصين: – رأينا سابقا كيف ان القديس كسفاريوس توفى وهو على ابواب الصين في عام 1522. وبعد ذلك باربع سنين استطاع الدومنيكاني كسبار دي لا كروا Gaspard de la Croix الدخول اليها، ولكن تم طرده منها مباشرة. لذلك سيعود الفضل الى اليسوعي ماتيو ريتشي، ليكون اول رسول لهذه الامبراطورية الشاسعة.

ماتيو ريتشي Mathieu Ricci (1552–1610)

[1] لاجبارهم على الدوس على الصليب، رسم اليابانيون رسم الصليب على ارصفة جميع الموانىء بحيث لا يمكن لأي مسافر المرور دون ان يمشي ويدوس على الصليب، وكان هذا العمل في نظر اليابانيين بمثابة انكار الدين.

ولد ماثيو ريتشي في السادس من تشرين اول عام 1552، من عائلة نبيلة من مدينة ماشراتا Macerata، احدى الولايات البابوية. دخل عام 1571 جمعية الآباء اليسوعيين، وكان استاذه الاب Valignano الذي اثار فيه حب الارساليات. اكتشف رؤساؤه عنده موهبته للعلوم، فقرروا ان يدرس بجانب الفلسفة واللاهوت، الرياضيات، وعلم الكون cosmographie ، وعلم الفلك. ولما انهى دروسه أُرسِل مع يسوعي آخر الى الصين عام 1583.

كانت الصين ومنذ ثلاث قرون واقعة تحت حكم طبقة "المثقفين Lettrés". فاراد ريتشي ان يكسب هذه الطبقة اولا كما فعل الاب نوبلي في اليابان مع طبقة البراهمة. وادرك الاب ريتشي انه لكي يكسب هذه الطبقة المتكبرة والتي تعتقد باقتناع انه لا يوجد أي حضارة في العالم تساوي حضارتهم، عليه ان يضاهيها ويجذبها بروعة العلم والمعرفة. فدرس ادابهم وعاداتهم وسلوكهم، وبرع في لغتهم، وترجم اول ست كتب لكليد Euclide، وكتب نوعا من التعليم المسيحي في اللغة الصينية العامة، وقام باختراع الساعات الزمنية، والساعات الشمسية، ورسم خرائط للكرة الارضية واخرى للصين ارقى وادق من تلك التي عملها المثقفون. ثم قام وقدم هذه الاعمال هدية للامبراطور. فأثارت اعجابه وسمح لهم بالاقامة في عاصمته (1600). فاعتنم الاب ريتشي عطف وترحيب الامبراطور وبدأ فورا في التبشير.

اسلوب ريتشي بالتبشير

كانت طبقة المثقفين علماء، فعمل ريتشي على ان يقدم لهم الانجيل دون ان يجرح كبريائهم ودون ان يتعرض او يهاجم معتقداتهم. وبنى اسلوب تبشيره على فكرتين: الاولى، عرض العقيدة المسيحية مبتدئا بالعقائد الاسهل قبولا. والثانية، ان يتسامح مع عقائد وعادات وطقوس اهل الصين والتي لا تتعارض او التي يمكن ملائمتها مع العقيدة المسيحية.

كان في الصين آنذاك ثلاثة اديان رئيسية:

1) التويزم Taoisme: وهي عبارة عن ديانة متعددة الالهة وخليط من الخرافات.

2) البوذية Boudisme: وتتميز بعقيدتها الملحدة والغنوصية.

3) الكنفوشوسية Confucianisme: والتي كانت اقرب الى فلسفة اخلاقية منها الى ديانة، وترتكز طقوسها على عبادة كنفوشيوس وتكريم الاجداد.

وبما ان طبقة المثقفين كانت تنتمي باكثريتها الى الديانة الكنفوشوسية، وكانوا على عداء مع الديانات الاخرى، هاجم الاب ريتشي وقاد حربا مفتوحة على هاتين الديانتين، واظهر كثيرا من التسامح نحو الديانة الكنفوشوسية، وحاول تقريب عقائدها من المسيحية، مبينا ما في الديانتين من تشابه ومشترك. وقَبِل ريتشي عادات وبعض طقوس الكنفوشوسية، اذ بعد دراسة وافية لها، توصل الى ان هذه الطقوس من سجود وتبخير وتحيات، ليست اعمال سجود بالمعنى الحصري، وانما عبارة عن حركات تدل على التقدير والاحترام البنوي للآباء والاجداد. فترك للمرتدين الحرية في الاشتراك بالاحتفالات على شرف كنفوشيوس والاجداد معتبرا اياها عادات وطنية اكثر منها طقوس دينية.

بفضل هذا التسامح الذي اظهره الاب ريتشي استطاع ان يجعل الديانة المسيحية اكثر قبولا. وعندما توفي في عام 1610، منهكا من العمل العقلي والجسدي، استطاع ان يرد الى المسيحية حوالي الالفين من الصينيين، وعددا من المثقفين ومن كبار الموظفين الصينيين. وتابع من بعده اليسوعيون عمله التبشيري ولاقوا النجاح الكبير.

مشكلة "الطقوس الصينية"

تعرض نجاح تبشير اليسوعيين لمجادلات حول ما دُعي "بالطقوس الصينية". كان الاب لونغباردي Longobardi خليفة الاب ريتشي، قد عارض تنازلات الاب ريتشي، فمنع باسلوب حذر، دون اثارة ضجة، الموعوظين الجدد من الاشتراك في الاحتفالات او الطقوس الكنفوشوسية، فمر هذا المنع دون اثارة مشاكل. ولكن عندما وصل عام 1631، مرسلون من الجمعيات الاخرى، وخصوصا الدومنيكان والفرنسيسكان، وارساليات باريس الاجنبية Les Missions Etrangères، رأوا في قبول تلك الطقوس تنازلا لصالح عبادة الاصنام. فرفعوا الامر الى الكرسي الرسولي، فاصدر "مجمع الايمان" مرسوما، صدّقه البابا انوسنت العاشر في 12 ايلول 1645، منع فيه هذه الممارسات. الا ان اليسوعيين تابعوا النضال، وقدم الاب اليسوعي مارتن مارتيني Martin Martini، القضية بشكل اوضح لحكم البابا اسكندر السابع، وحصل من "المجمع المقدس" مرسوما، يميز بين الطقوس المدنية والطقوس الوثنية، سامحا بممارسة الاولى، وناهيا عن الثانية. الا ان المجادلات استمرت حول هذا الموضوع الى منتصف القرن الثامن عشر، عندما ادان ومنع البابا بندكتوس الرابع عشر ممارسة الطقوس الصينية، في مرسومين الاول عام 1742 والثاني 1744.

4) التبشير في انحاء اخرى من آسيا

فيتنام كمبودج وسيام

لم يقتصر التبشير على الهند والصين واليابان، بل تعداه الى مناطق اسيوية اخرى. فلما اضطهد اليابانيون اليسوعيين، اتوا فاقاموا في كوشنشين Cochinchine وكمبودج وسيام. واخذ اليسوعيون يهتمون بهذه المناطق ابتدأ من سنة 1615. فكتبوا اللغة الفييتنامية بالاحرف اللاتينية. وعلى مدى عشرين سنة (1525-1642)، كانت فيتنام في مقدمة اهتمامات اليسوعي الكسندر دي رودس Alexander de Rhodes، مع انه لم يستطع ان يقيم فيها باستمرار. وكان دي رودس يرى ان أُسس التبشير هي اتقان اللغة وتدريب ملقني التعليم المسيحي الذين يؤمّنون الاستمرار المسيحي، وحسن تفهم العادات وأنشأ اكليروس محلي.

جزر الفليبين

بدأ التبشير في جزر الفليبين، التي اكتشفها مجالان Magellan عام 1521 لحساب اسبانيا، عام 1577 على يد الآباء الدومنيكان، واهمهم الاب Dominique de Salazar، الذي اصبح اول اسقف محلي على مانيلا Manille عام 1579. وفي اواخر القرن السادس عشر كان عدد المعمدين الفليبنين يناهز ال 400 الف شخص. ازداد هذا العدد عندما حضر مرسلون آخرون من جمعيات اخرى كالفرنسيسكان والاغوسطينيين واليسوعيين.

كنيسة علمانية في كوريا

في القرنين السابع عشر والثامن عشر، اكتشف بعض المثقفين الكوريين الدين المسيحي انطلاقا من كتب اتت من الصين. وفي سنة 1784، كان احدهم مارا ببكين، فقبل سر المعمودية. وعند عودته الى كوريا، اعد مع مثقف اخر علم لاهوت مسيحي، انطلاقا من التقليد الكنفوشي، ونظم هو نفسه جماعة مسيحية، بما فيها المعمودية والاعتراف والقداس. لكن الشك استولى عليه، فطلب كاهنا من بيكين. الا ان الاضطهاد قضى على هذه الجماعة الاولى من المسيحيين الكوريين.

اسيا الروسية

بفضل الانتشار نحو الشرق والفتح التدريجي لسيبريا، تمكنت الكنيسة الروسية الارثوذكسية ان تبشر البلدان النائية. ففي القرن السادس عشر، هدى رؤوساء اساقفة كازان القبائل التترية التي كانت تحيط بالمدينة. ثم ارسل متروبوليت توبولسك Tobolsk فيلاريتس بعض المرسلين الى كمتشاتكا Kamtchatka (1705) والى ياكوتسك Yakoutsk (1724). كما واوفد بعثة الى الصين (1714). شكل الاسرى الروس في بيكين، منذ سنة 1689، جماعة ارثوذكسية. وفي نهاية القرن الثامن عشر، اقام بعض رهبان بحيرة لادوغا Ladoga في الاسكا وأنشأوا جماعة فيها.

5) افريقيا

جاء الانتشار البرتغالي على طول شواطىء افريقيا استمرار للفتوحات الغربية، فامتد من افريقيا الشمالية (المغرب، الجزائر، تونس وليبيا سنة 1425)، الى رأس الرجاء الصالح (1486) والى موزمبيق (1498) فالكونغو (1491) والحبشة ومدغشقر (1644).

1) افريقيا الشمالية

كانت افريقيا الشمالية، ومنذ القرن السابع تقبع تحت الحكم الاسلامي. عمل الدومنيكان والفرنسيسكان، ابتداء من القرن الثالث عشر، بغيرة، على تبشير هذه المناطق، بدون جدوى، ولم يحصلوا سوى على كوكبة من الشهداء. وفي القرن السابع عشر، اهتم المرسلون اكثر بالاعتناء بالاسرى المسيحيين، والحيلولة دون نكرانهم دينهم. اذ من المعروف ان سفن العرب المسلمين كانت تجوب البحار، وتهاجم السفن، وتستولي على حمولتها، وتأسر ركابها لبيعهم كعبيد، او تتركهم في السجون. وكان هؤلاء التعساء يفضلون امام حالتهم السيئة ومعاملة اسيادهم القاسية، اما الانتحار واما الانضمام الى الاسلام. وكان مثل هؤلاء المرتدين يعدون بالمئات في الجزائر وتونس وطرابلس الغرب. وقد تعرف القديس منصور دي بول على هذا الوضع عندما أُسر. فارسل ومنذ عام 1645، كهنة الارساليات، واستوطنوا المدن الرئيسية،

حيث كانت اكثرية العبيد المسيحيين. وبفضل الدعم الذي حصلوا عليه من القناصل الفرنسيين، استطاعوا ان يقوموا برسالتهم، اما بتثبيت المسيحيين على ايمانهم، واما بالتعاون مع الرهبنة الثالوثية Trinitaires ورهبنية الرحمة Mercédaires في اعتاق هؤلاء العبيد مقابل مبالغ من المال

2) الكونغو

كانت مملكة الكونغو، لمدة من الزمن، محط اكبر الامال، فقد عمّد المرسلون البرتغاليون الملك سنة 1491، وازدهرت الكنيسة الكونغولية في عهد افنسو Afonso الاول (1506-1545)، فنظم الملك مملكته على غرار البرتغال، وكان ابنه اول اسقف اسود (1521). وفي سنة 1596 اصبحت العاصمة سلفادور كرسيا اسقفيا. واراد ملوك الكونغو ان يحافظوا على استقلالهم السياسي والاقتصادي، فارسل سفيرا كونغوليا الى روما (1612). لكن البرتغاليون دخلوا في نزاع مع الملك انطونيو الاول، وقطعوا رأسه (1665)، ثم تركوا الكونغو، لكن التبشير استمر بصورة متقطعة، وارسل مجمع انتشار الايمان الكبوشيين لمواصلة التبشير وتركوا تقارير كثيرة عن نشاطهم فيها. الا ان تجارة العبيد شوهت وجه التبشير الى اقصى حد.

3) مدغشقر

انطلق المرسلون الفرنسيون بدورهم في القرن السابع عشر، فجاء المرسلون اللعازريون الى مدغشقر وبشروا فيها. الا انهم لم ينجحوا في الاقامة طويلا فيها (1648-1674)، بسبب طقسها غير الصحي.

4) موزمبيق

بشرها الفرنسيسكان والاغسطينيون والدومنيكان واليسوعيون بدون أي نجاح يذكر. وبعد مرور القديس فرانسيس كسفاريوس وتوقفه فيها، اثناء مروره الى الهند، فتح الآباء اليسوعيون لهم عدة منازل، الا انهم كانوا ضحايا للتعصب الاسلامي.

5) الحبشة

بشر القديس Frumentus الحبشة عام 330، وكان هذا القديس تلميذا للقديس اثناسيوس. ثم اعتنقت الحبشة في القرن الخامس الهرطقة المونوفيزية. ولّما ساعدت البرتغال الحبشة في التحرر من الحكم الاسلامي، سادت بينهم علاقات ودية، خصوصا بين الاسر المالكة لكلا البلدين. فارسل القديس اغناطيوس دي لويولا كهنة من جمعيته، منهم الاب Nugenz، الذي مُنح لقب البطريرك (1555). واستقبلتهم الحبشة بكل حفاوة. فعمل هؤلاء بكل حماس وغيرة على اعادة المونوفيزيين الى الاتحاد مع الكنيسة الكاثوليكية. ولكن بعد نجاحات وقتية، لاقى عملهم معارضة من الامبراطور كلود، احد اكبر مؤيدي المونوفيزية. استطاع الاب Pierre Paez بعد ذلك بثلاثين عاما حصد ثمار عمل الآباء اليسوعيين (1582-1622)، اذ كان هذا اليسوعي الاسباني ذا علم واسع، يتكلم لغة البلاد بكل طلاقة، جعلت بوسعه ان يدير مجادلات لاهوتية مع لاهوتي المونوفيزية، استطاع ان يكسب عطف الامبراطور Za-Denghelk، وجعله ينكر الهرطقة المونوفيزية (1589). واستمرت منذ ذلك الوقت وكثرت الارتدادات، وزادت على زمن ابنه Socinios، الذي حلف يمين الولاء للبابا امام اليسوعي Alphonse Mendez، الذي عينه البابا غريغوريوس الخامس بطريركا لاثيوبيا (1624)، واعطى هذا الامبراطور كل الحرية لليسوعيين لممارسة نشاطهم التبشيري. فعاد مئات الالوف من الهراطقة الى الايمان الكاثوليكي.

وعندما اراد البطريرك مندز ان يغيّر في الليتورجيا الاثيوبية المستعملة، واعادة سيامة الكهنة لعدم صلاحية رسامتهم، وفرض العزوبية عليهم، والغاء بعض العادات كالختان وحفظ يوم السبت، قامت ثورة عارمة، اعتزل الامبراطور على اثرها، ونفى خليفته، زعيم المعارضة، الامبراطور Basilide، البطريرك مندز وكل اليسوعيين، واغلق بلاده امام كل المرسلين اللاتين، مما سبب فشل الاصلاح الكاثوليكي في اثيوبيا.

6) المرسلون في الشرق الاوسط

بعد جلاء الصليبيين عن الشرق، بقي الآباء الفرنسيسكان كحراس للاراضي المقدسة سنة 1230. ومنذ سنة 1525 اقام الملك فرانسوا الاول علاقات دبلوماسية مع الباب العالي مما كان له الاثر الكبير على مسيحي الشرق الاوسط. فوصل اليسوعيون الى القسطنطينية، ثم الى اورشليم وقبرص سنة 1553. وتبعهم الكبوشيون الى حلب سنة 1625 حيث وصل ايضا الكرمليون سنة 1626. ولحق بهم الفرنسيسكان.

انما النهضة التي عرفتها الارساليات اللاتينية ظهرت في القرن السابع عشر على يد مجمع نشر الايمان الذي تأسس سنة 1622 وعلى يد ريشيليو Richelieu اذ كانت فرنسا على علاقات طيبة مع الباب العالي.

انتشر الكبوشيون من اليونان الى ايران، فساعدهم ريشيليو من جهة والسفارات الغربية من جهة اخرى، حيث اعطاهم السلطان والشاه حرية التنقل بين البلدان الخاضعة لهم، شرط الا يبشروا المسلمين. فاهتموا بالكنائس الارثوذكسية والارمن ولم يحالفهم الحظ دائما.

منذ سنة 1600 اقيمت قنصليات لفرنسا في هذ البلدان فكان لها تأثير خاص في بطريركية انطاكية. ولم يكن هناك قوانين واضحة بالنسبة الى عمل المرسلين قبل القرن التاسع عشر، فكان المسؤولون المحليون يتصرفون بحسب اهمية الرشاوي.

جميع هؤلاء المرسلين عملوا لاجل اتحاد الكنائس. سنة 1644 فتح اليسوعيون مدرسة في دمشق حيث قامت نواة لكنيسة ملكية كاثوليكية. عادت كنيسة انطاكية الملكية الى الاتصال بروما، بعد ان كان الحكم العثماني قد قطع كل صلة بين الكنيستين. اما الموارنة فبقوا على علاقة بالكرسي الرسولي بالرغم من الصعوبات والحواجز التي اقامتها الدولة العثمانية. وقد كانت لهم اليد الطولى في استقبال اخوانهم الشرقيين الذين اتحدوا بروما من سريان وروم كاثوليك وارمن.

لم يكن عمل المرسلين مثمرا دائما. كما انهم اضفوا السمة اللاتينية على الكنائس الشرقية، فيما يتعلق بالليتروجية والقوانين والانظمة. لكن ذلك لا ينقص من اهمية رسالتهم التربوية والتعليمية التي لا نزال نقطف ثمارها الى اليوم.

الفصل الرابع والخمسون

الحروب الدينية[1]

كان الاصلاح الديني في اوروبا حدثا من الحوادث الرئيسية الهامة في تاريخ القرن السادس عشر. فقد قاومت الكنيسة جميع هرطقات العصر الوسيط، غير انها ما لبثت ان تمزقت دون مقاومة. ولا شك في ان الاصلاح الكاثوليكي اتى متأخرا وبطيئا، ولكنه افاد الكاثوليكية، وادخل في حظيرة الكنيسة قسما من المحتجين، او على الاقل، ابقى وحافظ على البلاد التي ما زالت تعتنق الكاثوليكية دينا. وبالرغم من ان مجمع ترانت سجل نقطة انطلاق في نشاط الكنيسة الكاثوليكية وفي استرداد ما فقدته من قوة، فقد اخذت الاوضاع الدينية تتعارض مع بعض، وقامت الخلافات المسلحة وسط غليان الافكار واصطدام العقائد والمذاهب وتنافس الاطماع، وانبثقت عنها الحروب الدينية.

بلغت شدة هذه الحروب منتهى العنف والفظاعة، وأصاب فرنسا ما أصابها من اخطار جسيمة مع انها لم تكن عاملا وموطنا لها. كان لوثير المانيا، وكان كالفن فرنسيا، غير انه وان كتب بالفرنسية ويعتبر من اكبر الكتاب باللغة

[1] من كتاب "تاريخ عصر النهضة الاروبية" للدكتور نور الدين حاطوم، ص. 238-257).

الفرنسية، ففي جنيف، أي في خارج فرنسا، كان مركز عمله وقطب انتشار مذهبه. ولقد اجتاحت العاصفة الدينية فرنسا ولكنها تماسكت و"ظلت ابنة الكنيسة البكر".

1) بوادر الحروب الدينية

لم تمض ثلاث سنوات على توقيع معاهدة كاتو-كامبريزي الا ودخلت فرنسا في حروب اهلية فظيعة، مبعثها الاهواء والاحقاد الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت، او كما كانوا يسمون انفسهم بابويين وهوغنوت[2]. وقد دامت هذه الحروب اكثر من ثلاثين عاما من (156201593).

لم تنفع سياسة الردع الصارمة التي انتهجها هنري الثاني على القضاء على الكالفينية، بل انتشرت هذه الهرطقة بسرعة في فرنسا، واعتنقت هذا المذهب الاصناف المتواضعة والبورجوازيون مع عدد عظيم من الاشراف وخاصة في جنوب فرنسا وغربها. واعتناق النبلاء فكرة الاصلاح يعتبر حدثا عظيم الاهمية، لان العمال والصناع والبورجوازيين لا يمكنهم مقاومة الاضطهاد الا بالاستسلام والرضا بالامر الواقع. اما النبلاء، وهم جنود من ولادتهم، فيقاومون بالسيف. وبعد ان توطد السلام بين فرنسا واسبانيا قل نشاطهم الحربي واصبحوا بدون عمل. وباعتناقهم الكالفينية دينا اصبح الحزب الكالفيني حزبا سياسيا عسكريا متهيئا للحرب في سبيل الذود عن ايمانه. ومن هنا نشأت الحروب الدينية.

وفي مثل هذه الظروف القلقة المضطربة كانت فرنسا بحاجة الى ملك قوي الشكيمة، ولكن بعد ان توفى هنري الثاني فجأة عام 1559، شهدت فرنسا عهدي وصاية متواليين، ذلك لان فرانسوا الثاني كان صغير السن وله من العمر عشر سنين. ولا شك ان في هذه الظروف توقظ حتما الاطماع والتنافس والمكايد لتملك السلطة وتشكل الاحزاب التي تمثل المنافع الشخصية والسياسية الدينية. وقد وجدت آنذاك ثلاث اسر كانت تدعى باسهامها في حكم الملكى، وهي: آل بوربون، آل منمورانسي، آل غيز.

اما *آل بوروبون Bourbons* فهم من نسل القديس لويس (لويس التاسع) أي امراء بالدم. وكان كبيرهم انطون بوربون ضعيف الشخصية متردد الطبع، وقد اصبح ملك نافار بزواجه من جان دالبريت بنت مارغريت انغوليم. وكان الابن الثاني شارل مطران روان وكردينالا. وكان الثالث لويس طموحا مشاغبا يلقب بأمير كونده وقد اعتنق واخوه انطون الكالفينية منذ عام 1558.

وكان *آل مونمورانسي Montmorency* عريقين في نبلهم وثروتهم وعلاقاتهم الزوجية ويؤلفون اعظم اسرة واقواها بين أسر الامراء في المملكة ويسمون انفسهم باعتزاز وفخر "بارونات المسيحية الاوائل". وزعيم هذه الاسرة القائد العام مونمورانسي الشيخ، وكان مستشارا للملك فرانسوا الثاني الذي كان يسترشد برأيه ويعمل بنصيحته، وكذا الحال في عهد هنري الثاني. وكان هو واولاده كاثوليكيين متحمسين وغيورين على كاثوليكيتهم. غير ان اثنين من ابناء اخيه وهما الاميرال كوليني Coligny واندبلو زعيم المدفعية العام اشتهرا بحبهما للجندية واعتنقا، كأمير كونده واخيه انطون، المذهب الكالفيني (1558).

وكان *آل غيز Guises* احفاد ادواق اللورين، من اصل اجنبي، لان اللورين كانت مرتبطة بالامبراطورية الجرمانية، ولكن اراضيهم كانت في فرنسا، وامهم من آل بوروين اميرة بالدم، وسبق لابيهم ان خدم فرانسوا الاول بشجاعة وبسالة. وكسب كبيرهم فرانسوا غيز مجده بالدفاع عن ميتز واخذ كاليه. وكان اخوه الاصغر منه شارل، كاردينال اللورين مطران رنس، ويعتبر اغنى حبرا في فرنسا. وقد تقاسم الاخوين مع مونمورانسي ثقة الملك هنري الثاني. وكانا شديدي التعلق بالكاثوليكية ولا يقل طموحهما الشخصي عن هواهما الديني. وقد قربت وحدة الايمان آل بوروبن من كوليني، واعترف بهم الكالفنيون زعماء عليهم. كما ان وحدة الايمان كان يمكن لها ان تقرب آل مونموراسي من آل غيز، غير ان تنافس الاطماع حال دون هذا الاتحاد. وكان لكل اسرة سياستها الدينية. وقد ظهر آل غيز منذ البدء كاثوليكيين متعنتين، وآل مونمورانسي على الاكثر معتدلين متسامحين.

فرانسوا الثاني ومؤامرة آمبواز

جعل اعتلاء فرانسوا الثاني ابن هنري الثاني عرش المملكة آل غيز سادة فرنسا. فقد تزوج فرانسوا الثاني من ماري ستيوارت قريبتهم، واستطاعت هذه ان تسيطر على الملك فترك الى عميه الدوق والكاردينال التبعة في كل شيء. وكان آل غيز يطبقون المراسيم الصارمة الشديدة ضد البروتستانت. فمن ذلك ان آن بورغ، احد المستشارين في برلمان باريس، ندد بسياسة الاضطهاد في حضرة هنري الثاني، وتجرأ على لومها بشجاعة، فكان جزاؤه الشنق والحرق. غير ان

[2] ان كلمة هوغنوت Huguenots لقب اطلق على البروتستانت من اتباع كالفن، وهو مأخوذ من الكلمة الالمانية Eindgenossen وتعني "المتحدين".

البروتستانت لم يستسلموا للاضطهاد بلا مقاومة، ودبروا مؤامرة يتزعمها شريف بسيط يدعى لا رينودي La Renaudie، وزعيمها السري امير كونده، وكانت هذه المؤامرة ترمي الى خطف فرانسوا الثاني لاقصائه عن نفوذ آل غيز. وقد علم كالفن بمجريات الامور في هذا المشروع، وعبثا حاول ايقافه، وقال في هذا الصدد "ان نقطة الدم التي تسفك ستسيل منها انهار تغمر فرنسا". وبالرغم من ذلك فان هذا المشروع ظل حيا، ولكنه اخفق بسبب خيانة احد المتآمرين. وعند ذلك وضع آل غيز الملك في قصر آمبواز آمنا وقبض على المتآمرين واغرق من اغرق وقتل من قتل (1560). وسلك آل غيز سياسة صارمة ليقطعوا دابر كل خطر يهدد بالحرب الاهلية، واوفقوا كونده، واحالوه الى المحكمة، فحكم عليه بالموت للخيانة العظمى، ولم ينج الا بموت الملك الذي توفى اثر مرض مفاجيء على عمر خمسة عشر عاما (كانون الاول 1560).

سياسة المصالحة

احدث هذا العمل استياء عاما وهدم سلطة آل غيز. وكان الملك الجديد شارل التاسع، الابن الثاني لهنري الثاني، صغير السن وله من العمر عشر سنوات. واستطاعت الملكة الام كاترين دوميدتشي بحذاقتها ان تقصي امير النسب، انطون بوربون، وتستولي على الوصاية. وحتى هذا التاريخ لم تلعب كاترين دوميدتشي أي دور سياسي، وكان لها من العمر اربعون سنة وتتمتع بشهرة طيبة، ولكنها كانت تحب السياسة التي أُبعدت عنها ولا تعرف للدين أي وازع ولا رادع. وكانت عاطفتها المسيطرة عليها وحبها الاموي وارادتها تدفعها الى جعل كل شيء في مصلحة اولادها، وارادت ان تؤمّن لنفسها كل ذلك بهدوء فسلكت سياسة التوازن، واعتمدت على آل بوربون ضد آل غيز وقربتهم اليها بعفوها على امير كونده. وادركت من جهة ثانية أن الاهواء الكالفينية والاهواء الكاثوليكية يمكن ان تهدد السلطة الملكية، فحاولت ان تسلك سياسة مصالحة وتساهل. وكان مستشار الملكة في هذه السياسة الجديدة مشيل دولوبيتال Michel de l'Hôpital، وكان رجلا عاقلا معتدلا انضجته السنون وحنكته التجارب، مخلصا للملكة. وجعل همه توطيد احترام السلطة الملكية.

حوار بوازي Le Colloque de Poissy 9 ايلول – 18 تشرين اول 1561

ولتهيئة المصالحة الدينية عقد الاساقفة والرعاة مجمعا دينيا في بواسي (ايلول 1561). وكان ممثل الكالفنيين تيودور دي بيز صديق كالفن، وممثل الكاثوليك كاردينال اللورين. غير انهم اختلفوا على نقطة اساسية تتعلق بالعقيدة الافخارستية، فجعلت كل تفاهم غير ممكن. ومع هذا فقد اذاعت كاترين مرسوم التسامح في (كانون الثاني 1562)، وبموجبه منح البروتستنت حقوق الاحتفال علانية بعبادتهم خارج المدن وفي الارياف.

مذبحة فاسي Vassy (1 اذار 1562)

لكن سياسة الاعتدال لم تنجح ايضا كسياسة الشدة والصرامة، فضلا عن ان فكرة التسامح والتساهل كانت غريبة ولم يرض عنها عدد كبير من الكالفنيين والكاثوليك. ونسي زعماء العائلات الكاثوليكية نزاعتهم، وألفوا حلفا ثلاثيا (Triumvirat) بهدف ايقاف تقدم الكالفينية، والحد من تنازلات الحكومة، التي رأوا فيها ميلا نحو الكالفينية. اما البروتستانت فقد رأوا ان سياسة التسامح لا تمنحهم ما يكفي من الحقوق، فاظهروا اعتدادا بالنفس، وعداوة وعنفا اكثر نحو الكاثوليك، وذهب بعضهم ابعد من ذلك بالهجوم على الكنائس واعاقوا الاحتفالات الدينية فيها، وقاطعوا العظات، ونهبوا ما وصلت اليه ايديهم، وحرقوا الصور وهدموا التماثيل واتلفوا الذخائر. ففي جنوب فرنسا، حيث كانت الاكثرية بروتستانتية، اعمل الكالفنيون القوة ضد الكاثوليك. ففي مونبليه دنسوا الكنيسة واغلقوها وقتلوا فيها نحو ثلاثين شخصا (تشرين الاول 1561)، وكانت المشادات الدموية تقوم في كل مكان. وبعد شهر تقريبا من اعلان مرسوم التسامح الانف الذكر، مر دوق غيز في فاسي في مقاطعة الشامبانيا، فقامت مشادة بين رجال حاشيته وجماعة من الكالفنيين كانوا يحتفلون بعبادتهم في احدى القرى. وما لبثت هذه المشادة ان انقلبت الى مذبحة وقع فيها اكثر من مائة كالفني بين قتيل وجريح. ومذبحة فاسي، التي احتفل بها الكاثوليك كنصر وظفر لهم، اثارت الاحقاد والكراهية وكانت بادرة للحرب الاهلية.

2) الحروب الدينية الثمانية صفات الحروب الدينية

يقدر عدد الحروب الدينية بثماني حروب: اربع منها في حكم شارل التاسع (من 1562 الى 1574)، واربع منها تحت حكم هنري الرابع (من 1574 ال 1593) وكانت هذه الاخيرة اكثر تعقيدا من الاولى لان القضايا السياسية والسلالية تدخلت في القضية الدينية.

كانت هذه الحروب، وخاصة الاولى، فظيعة وفي منتهى الهمجية والفظاعة. لان كلا من الجانبين كان يحاول ان يثأر لنفسه ولم يتوان عن ارتكاب القتل دون اشفاق، وكانت هذه الاعمال تقوم فيها بشكل مذابح وشنق وقتل اكثر منها واقعة حربية حقيقية. ومن جهة ثانية كانت لهذه الحروب الدينية صفة سياسية، لان مبدأ السلطة الملكية اختلف فيها واصبح منازعا، ففي بعض مناطق الجنوب كانت الحركة البروتستانتية في الوقت ذاته حركة حرة ديمقراطية. وعندما تشكلت العصبة قامت افكار مماثلة عند الكاثوليك وزعموا بانهم يريدون ان يعيدوا الى المملكة حرياتها القديمة.

واندفعت الاهواء الدينية فبلغت ذروة اختفت امامها العاطفة القومية. لان كلا الجانبين كان يدعو الاجنبي لنجدته، وذلك اما بطلب معونة الملوك مثل اليزابيت وفيليب الثاني وامراء المانيا، واما باستئجار المرتزقة الايطاليين والسويسريين والالمان ممن لا يبالون بالدين ولا يتورعون من الانتقال من معسكر لآخر في سبيل اجر اعلى. ففي واقعة ايفري كان نصف فرقة الفرسان في الجيش الكاثوليكي يتألف من فرسان من الفلامانيديين والايطاليين والالبان والاسبان ومطلقي الرماح الفاللون والالمان.

ولم تؤد أي حرب من حروب الدين الى نتائج حاسمة لأن كلا الخصمين لم يكن في حالة يستطيع معها الاجهاز على الخصم وضربه الضربة القاضية. فقد كان الكالفنيون اقلية ولم يستطيعوا ان يظفروا على سواد الامة الكاثوليكية. ولم يستطع الكاثوليك ان يقضوا على الكالفنيين لان هؤلاء كانوا موزعين في كل انحاء فرنسا. وكان جنوب فرنسا، يضم حوض اكيتانيا واللانغدوك، موطن مقاومتهم الاصلي. وفيما عداه نجدهم في الاوفيرن وبورغونيا ونيفرنيه. ولم يكن هنالك مركز حيوي يمكن لضربة واحدة ان تقضي عليهم. وهذا ما ساعد على استمرار المقاومة.

الحرب الاولى

دامت الحرب الاولى عاما من 1562 الى 1563. وفيها شايعت كاترينا دوميدتشي حزب الكاثوليك وطلبت مساعدة ملك اسبانيا. كما طلب زعيما الجيش البروتستانتي، كونده وكوليني، نجدة اليزابيت ملكة انكلترا، ومقابل هذه المساعدات اخذت ميناء لوهافر في ايلول 1562. وجرت العمليات الاساسية بين نهر السين واللوار. اما ملك نافار فقد ارتد الى الكاثوليكية واصابه جرح وقضى نحبه في حصار روان. ووقعت الواقعة الكبرى في درو Dreux وكان غيز فيها غالبا ووقع كونده اسيرا.

وبعد بضعة اسابيع وبينما كان فرانسوا غيز يحاصر اوليان رماه بروتستانتي اسمه بولترو دو ميره بسهم فارداه قتيلا، وقام هنري غيز ابن الضحية واتهم كوليني بتدبير هذه الجريمة، فاحتج كوليني مستعليا ولم يمنعه هذا من الفرح بموت خصمه. وانتهت الحرب بمرسوم آمبواز (اذار 1563)، وكان هذا المرسوم اقل حرية من مرسوم كانون الثاني الذي سبق ذكره، الا انه جعل فرنسا تتمتع بالسلام مدة اربع سنوات. ولتوثيق الصلح بين الكاثوليك والبروتستانت اندفع الجانبان لاسترجاع لوهافر من ايدي الانكليز.

الحرب الثانية 1567-1568

غير ان الحسد بين الزعماء الكاثوليك والبروتستانت وسوء ظنهم ببعضهم البعض في البلاط الملكي ادى في العام 1567 الى معاودة الحرب. وقتل مورنموراسي في واقعة سن دوني St. Denis لتخليص باريس بعد ان حاول كونده حصارها. وعاد السلام في العام 1568.

الحرب الثالثة 1568-1570

وما لبث ان انفصمت عرى هذا السلام، وتجمع الكالفنيون هذه المرة في جنوب غربي نهر اللوار وغُلِبوا على امرهم مرتين في جارناك وفي مونكونتور 1569. وظلت الحرب دون نتيجة. وقد جرح كونده في جارناك واستسلم، الا ان ضابطا من ضباط دوق آنجو اخو الملك شارل التاسع، قتله. ولكن كوليني بقى متين الاعصاب متماسكا واصلح جيشه وعاود الحرب. ثم حصل اعياء تام، وملت كاترينا فعادت الى سياسة السلام. وفي 8 آب 1570، وقعت مرسوم سان-جرمن خولت بموجبه البروتستانت اربعة مواقع امينة يقيمون فيها حامياتهم وتسمى "مواقع الامن"، واهمها مونتوبان ولاروشيل التي اصبحت عاصمة فرنسا الهوغنوتية.

ويبدو ان كلا الطرفين جنح لسياسة التسامح والسلم، وجرت مفاوضات ادت الى عقد زواج مارغريت فالوا اخت الملك وابنة كاترين بالملك الشاب هنري نافار زعيم الحزب الكالفيني وله من العمر خمسة عشر عاما. واستدعى الملك شارل التاسع كوليني الى مجلسه. واستطاع هذا بما اوتيه من خبرة سياسية وحنكة في الحروب وبُعد نظر، ان يزيد في نفوذه لدى الملك الشاب.

وكان من جملة المشاريع التي كان يغذيها كوليني لدى الملك، المشروع الذي يرمي الى معاودة النضال ضد آل هابسبورغ. اشار كوليني على الملك ان يلقي بجنوده في ارتوا والفلاندر ويضع يده بيد الثوار في هولندا التي كانت تناضل في سبيل استقلالها. فلقي هذا المشروع رضى شارل التاسع. الا ان المشروع الذي اخاف كاترين اكثر من ذلك، هو انها فقدت كل نفوذ على ابنها كما فقدت سلطتها. فاتفقت مع هنري غيز عدو كوليني الالد ولم تتردد في الالتجاء الى الجريمة في القضاء على هذا الخصم. وفي يوم الجمعة الموافق 22 آب 1572 أي بعد اربعة ايام من زواج هنري نافار بمارغريت فالوا اطلق عيار ناري على الاميرال كوليني الا انه اخطأه، فحنق الملك على هذا العمل واقسم ان ينتقم له دون رأفة او رحمة.

مذبحة سان بارتلمي

وعن محاولة الاغتيال هذه خرجت جريمة من افظع الجرائم التي عرفها التاريخ. فقد امر الملك باجراء تحقيق للكشف عن المسبب بالضرر، وخافت كاترينا ان يصل اليها التحقيق فلم تر بُدّا، للخلاص من هذه المشكلة، من مذبحة عامة لزعماء البروتستانت. ووسوست للملك حتى جعلته يعتقد ان الهوغنوت يدبرون المؤامرة عل حياته وان السلام غير ممكن ان لم يبدهم جميعا. وبعد ان قاوم الملك طويلا انتهى به الامر الى ان قال "اقتليهم جميعا حتى لا يبقى احد منهم يؤاخذني على ذلك". وعندئذ اتفق دوق غيز مع بلدية باريس واتخذ جميع الاستعدادات الضرورية على ان تبدأ المذبحة في الساعة الرابعة صباحا من يوم الاحد قي 24 آب 1572، يوم عيد القديس بارتلمي. وفي الليل، حوالي الساعة الثانية صباحا، ارتاب بعض البروتستانت من حركة الجنود، التي كانت تجري، فاقتربوا من قصر اللوفر، فاطلقت عليهم النار وكانت هذه اشارة الخطر.

وفي اللوفر امر شارل التاسع بقتل اشراف البروتستانت الذين كانوا في ضيافته لحضور زواج هنري بوربون دونافار بمارغاريت فالو اخت الملك. وسيق هنري نافار الى غرفة شارل التاسع وخيّر بين الموت والكاثوليكية فارتد لانقاذ حياته. وكانت الخطة مدبرة لقتل الزعماء الا ان الاوباش من الشعب انضموا الى الجنود واعملوا القتل بالبروتستانت واصبحت المذبحة عامة، ولم يستثن منها النساء والاطفال. وما حل وقت الظهر الا وبلغ عدد القتلى الالفين وصحب النهب والسلب اعمال القتل. وحاول الملك عبثا ايقاف هذه الفظائع التي دامت الى يوم الثلاثاء في 26 منه.

وحذت المدن الاخرى حذو باريس: فقد دام القتل في اورليان ثلاثة ايام. وفي ليون كان عدد القتلى بين 700 و 800 قتيل. ومن الصعب تحديد عدد القتلى جميعا، ولكن عددهم تجاوز ثلاث الاف ضحية. على ان بعض حكام الملك رفضوا تنفيذ اوامره فحالوا دون سفك الدماء.

الحرب الرابعة

ولكن هذه المذابح لم تأت بالنتيجة المتوخاة منها وهي القضاء على الحروب الاهلية. وبالرغم من ان الكالفنيين حرموا من زعمائهم فلم ييأسوا، بل شكوا السلاح ودافعوا عن انفسهم واضطر شارل التاسع الى ان يعقد معهم الصلح ويمنحهم الحرية الدينية (1573). وبعد ذلك بعام واحد أي في 30 ايار 1574 توفى شارل التاسع، اثر نزاع بينه وبين نفسه من جراء مذبحة بارتلمي التي بقي تحت ضغط كابوسها، وهدد السل كيانه حتى قضى عليه.

هنري الثالث

وبعد وفاة شارل التاسع اعتلى العرش هنري الثالث، ثالث اولاد هنري الثاني، وهو دوق آنجو سابقا، وكانت كاترين ميدتشي تفضله على غيره من اخوته. وقد انتخب ملكا على بولونيا، وعندما علم بنبأ وفاة اخيه غادر كراكوفيا بسرعة وعاد الى فرنسا واخذ اسم هنري الثالث. كان عمر هنري الثالث آنذاك ثلاثا وعشرين سنة. كان ذكيا متحدثا لبقا معروفا بذوقه السليم وثقافته الفكرية، الا انه كان جشعا، لا حول له ولا قوة، متنقلا من حياة التقوى والزهد الى حياة الخلاعة والمساخر، وقد ادت رقة طباعه ووقاحة محظييه الذين يسمون "مينيون" الى كره الناس له واحتقارهم اياه.

الحرب الخامسة

بالرغم من نصائح كاترين ميدتشي، فان المملكة وقعت في ظل هذا الملك الضعيف في فوضى تامة. وزادت الامور تعقيدا منذ مذبحة سان برتلمي وانفجرت عن حرب دينية خامسة (1574-1576).

فمن جهة نظم الكالفينيون قواهم ليحسنوا الدفاع عن انفسهم، والتفوا حول "الاتحاد الكالفني". وكان هذا الاتحاد ينقسم الى عدة "حكومات" ولكل حكومة زعيمها الحربي ومجلسها المكلف بادارتها وجباية ضرائبها. وهنالك مجالس عامة تعقد لتأمين الارتباط بين مختلف الحكومات. وكان البروتستانت على هذا النحو، يؤلفون في داخل المملكة، نوعا من جمهورية اتحادية. وكما قال من بعد ريشليو "دولة داخل دولة".

ومن جهة ثانية، انقسم الكاثوليك ال قسمين: فالى جانب الكاثوليك المتعنتين Intransigeants، الذين يوجههم آل غيز ويريدون ابادة البروتستانت، قام كاثوليك آخرون معتدلون اثارتهم المذابح وخافوا على المملكة من الدمار والخراب من وبال الحروب الاهلية. وكان هؤلاء الوطنيون المتبصرون بعواقب الامور يرغبون العودة الى نظام التسامح والسلام الديني، فألفوا حزب المستائين او السياسيين، ومن زعمائهم احد ابناء مونمورانسي واسمه دامفيل حاكم اللانغدوك، وفرنسوا دوق آلنسون آخر اخوة هنري الثالث.

و تألب الساسيون والبروتستانت واشتد ساعدهم واستطاعوا ان يفرضوا على هنري الثالث مرسوم السلم في بوليو Beaulieu (1576) وبموجبه يخول البروتستانت حرية العبادة في كل فرنسا، عدا باريس وثمانية مواقع، على ان يكون عددهم في البرلمانات نصف عدد الكاثوليك. وفوق ذلك قلد هنري نافار حكومة غوبين، وامير كونده الشاب حكم بيكارديا. كما حصل دوق آلنسون على آنجو وتورين وبيري.

العصبة الكاثوليكية La Ligue Catholique

وما ان علمت اكثرية الكاثوليك بمرسوم بوليو حتى اعتبرته مجحفا وضارا بمنافع المملكة ومصالح الدين. فمن ذلك ان سكان بيكارديا اعتصبوا ليحولوا دون دخول كونده وتولي حكم لمقاطعة، ودعوا في الوقت ذاته جميع كاثوليكي فرنسا لتأليف "الاتحاد المقدس" المسيحي لخدمة الله المقدسة وطاعة صاحب الجلالة". وهذا هو اصل تشكيل العصبة (1576).

واستجيب لدعوة عصبة بيكارديا. وشكلت الرابطات في كل مكان وتكتلت في اتحاد فدرالي، وكان زعيم العصبة هنري غيز فارسا لامعا وزعيما صالحا وقد لقب ب "الاشج" اثر جرح اصابه في وجهه خلال الحرب السابقة. غير ان هنري الثالث راى من الحكمة ان يعترف بالمنظمة الجديدة وينادي بنفسه زعيما لها. ومما لا شك فيه ان تشكل هذه العصبة يؤلف خطرا على المملكة، لأن رجال العصبة الفوا حزبا سياسيا يرمي الى تحديد السلطة الملكية وتهديم الحكم المطلق. وكانت لهم منظمتهم العسكرية وزعماؤهم المختارون وقد بايعوهم على الطاعة التامة، وحاولوا كالبروتستانت تأليف "دولة داخل دولة".

الحرب السادسة والسابعة

في اجتماع مجلس الامة المنعقد في بلوا Blois في 6 كانون اول 1576، كان النواب الحاضرون وعددهم 392 كلهم من العصبة الكاثوليكية، واعلنوا انهم لا يقبلون الا "بايمان واحد وقانون واحد"، وطلبوا الغاء مرسوم بوليو Beaulieu. كان هذا سببا للحرب السادسة. استأنف هنري الثالث القتال ضد البروتستانت دون حماس. وكان على رأس هؤلاء البروتستانت الملك الشاب هنري نافار، فقد فر من البلاط، في شباط 1576 بعد تهديده، وارتد الى الكالفنية وكان عمره آنذاك ثلاثا وعشرين عاما وعنده من الشجاعة والقوة والجرأة ما يجعله الزعيم المنشود دون منازع.

وكان من الصعب الحفاظ على الاتحاد بين البروتستانت والسياسيين وقامت حرب سادسة (1577) وسابعة (1579-1580) دون نتيجة. واضطر البروتستانت الى قبول سلم اقل فائدة من مرسوم يوليو. ومع هذا فقد دام السلم اربعة اعوام. غير ان موت دوق آلنسون عام 1584 اثار جميع الاهواء. وبموته اصبح هنري نافار الهرطوقي المرتد وريثا شرعيا للتاج، واضطرب لهذا الاحتمال جميع الكاثوليك.

وبالمقابل نمت "العصبة" من جديد وعظم شأنها واخذ سكان المدن بتأثير الدعاة يدخلون فيها افواجا. واخذ هنري غيز على عاتقه امر تنظيمها وادارتها وعارض الوريث البروتستنتي بوريث شرعي كاثوليكي وهو الكردينال بوربون.

اما في الواقع فكان غيز يحلم بالتاج لنفسه. واخذ ينشر لوائح يذكر فيها صلة القرابة البعيدة بين امراء اللورين وشارلمان، وان الكابسيين مغتصبين. وفي الوقت ذاته كان غيز يفاوض فيليب الثاني وعقد معه حلفا سريا، واستحصل من البابا سيكست الخامس على مرسوم يصرح فيه ان هنري نافار غير اهل لتسلم عرش فرنسا. واخيرا ارسلت العصبة الى الملك انذرا واجبرته على منع الديانة الكالفينية في فرنسا (1585).

الحرب الثامنة ويوم المتاريس

انطلقت من هذا الانذار الحرب الثامنة والاخيرة ودامت ثماني سنين (1585-1593) وتدخل الاجنبي فيها بصورة نشيطة. ولم تمر فرنسا منذ حرب المائة عام بأزمة كهذه الازمة التي اجتازتها لان وحدتها واستقلالها وسلامتها القومية كانت عرضة للخطر.

وما فتىء نفوذ هنري غيز وشعبيته في ازدياد عظيم. وقد قال احد المعاصرين "ان فرنسا كانت مأخوذة بهذا الرجل، ومن القليل جدا ان نقول انها كانت عاشقة له". وقد ظفر هنري نافار على جيش الدوق جويوز Joyeuse احد محظيي الملك في واقعة كوترا (1587)، الا ان هنري غيز احرز انتصارين على البروتستانت في شامبانيا ومجده الفرنسيون كأنه "المكابي الجديد وسند الكنيسة".

وفي باريس خاصة، حيث كان العصبويون كتلة قوية، فكر الكثير منهم بخلع هنري الثالث. وقد احس الملك بالخطر فمنع الدوق من المجيء الى باريس ولكن انصاره دعوه سرا. وتخطى غيز منع الملك، واستقبلته باريس استقبال الظافرين. وعندما اتى الملك بجنوده وادخلهم المدينة قامت فيها مشادة حقيقية. ففي 12 ايار 1588 الذي سمي "يوم المتاريس" حمل الباريسيون السلاح واقاموا المتاريس في الشوارع واحاطوا بجند الملك وقتلوا منهم ما يقرب من ستين رجلا ودفعوا بمتاريسهم حتى ابواب اللوفر. واضطر هنري الثالث، لتهدئة الحالة، الى الاستنجاد بدوق غيز، ثم فر من باريس وذهب الى شارتر.

وفقد الملك نفوذه على عاصمته واعيته الحيلة امام قوة منافسه بعد ان اخذ شأن هذا الاخير يعظم يوما عن يوم. ولم يكن في وسع هنري الثالث الا ان يلجأ الى الخداع وان يطلب الصلح، وسمى دوق غيز نائب المملكة العام.

كان هنري بحاجة الى المال فاضطر الى دعوة مجلس المملكة العام في بلوا (تشرين الاول 1588). وبدا فيه هنري غيز ملكا حقيقيا. وكانت اخته السيدة مونبانسية تظهر، كما يقولون في كل مناسبة، المقص الذي ستجز به ناصية هنري الثالث يوم خلعه واسكانه الدير. وشاعت اقوال عن خطف الملك ونقله الى باريس. غير ان هنري الثالث وجد انه لا يستطيع الامان على نفسه الا بالجريمة. وقبل وقفة عيد الميلاد، في 23 كانون الاول، دعا هنري غيز الى مجلسه فقام اليه اشراف حرسه وطعنوه بخنجر ارداه قتيلا، وفي اليوم التالي قُتِل اخوه الكردينال لويس دي غيز.

مقتل هنري الثالث

وفي يوم الجناية كتب هنري الثالث الى مفوض البابا "انا الملك الآن وقد صممت الا احتمل السباب والاذى والاكراه". وفي مساء اليوم قامت ثورة باريس وتألفت فيها حكومة ثورية من ستة عشر عضو يمثلون احياء المدينة وعقدوا مجلسا اعلنوا فيه سقوط هنري الثالث الخانث، القاتل، المجدف، الهرطوقي، السيموني، الساحر، مبدد الخزينة العامة وعدو الوطن، واعترفوا بالكاردينال بوربون ملكا، ولما كان هذا سجينا عند هنري الثالث، عينوا اخ هنري غيز، دوق مابين Mayenne، نائب المملكة العام. وانضم القسم الاعظم من المقاطعات الى هذا القرار الذي اتخذه (1589).

ولم يبق امام هنري الثالث الا ان يتصالح مع هنري نافار وانضم الى الحزب البروتستنتي، وتم الاتفاق بينهما واتى الملكان لحصار باريس. وفي غرة آب 1589 تقدم راهب متعصب اسمه جاك كليمان ودخل على هنري الثالث وطعنه طعنة نجلاء في بطنه كانت القاضية. واعتبر هذا الجرم ثأرا للعصبة.

وبموت هنري الثالث انطفأت اسرة فالوا. واعترف الملك قبيل وفاته بأن وارثه الشرعي هو هنري بوربون ملك نافار. وقد اخذ الناس يتساءلون أي العاطفتين اقوى واعلق في نفوس الفرنسيين: التعلق بالملك الشرعي او التعلق بالديانة التقليدية.

هنري الرابع والعصبة

حاول الملك الجديد، هنري الرابع عبثا، بتصريح رسمي اعلن فيه عزمه بقاء الديانة الكاثوليكية والاستئناس برأي "مجمع صالح شرعي". فتخلى عنه كثير من الامراء الكاثوليك، كما تخلى عنه نظرا لتصريحه، قسم من الكالفنيين. وتناقص عدد جيشه فبلغ النصف واضطر الى رفع الحصار عن باريس.

كان خصمه، فيليب الثاني، يدعم العصبة ويقدم لها الجنود والمال، فاصبحت اقوى من قبل. وكانت الى جانبها باريس ومعظم المدن الكبرى في المملكة مع البرلمانات. ولكن هنري الرابع لم يكن الرجل الذي يدخل اليأس قلبه. فقد كان يضم، الى صفاته الروحانية والحربية، حسا دبلوماسيا ناعما وجرأة عسكرية، واستطاع ان يتغلب على اكبر المصاعب بفضل قوته وصبره واعتداله ومرونته.

فكر هنري الرابع اولا بالانسحاب نحو الجنوب حيث كانت قوى الكالفنيين الاساسية. غير ان احد ضباطه قال له: "ومن يظنكم ملك فرنسا، عندما يرى ارادتكم مؤرخة في ليموت؟" وعندها انسحب الى نورماندیا. وهذا ما جعله في متناول المساعدات الانكليزية، وفي متناول باريس ايضا، لأن امتلاكها كان اساسيا بالنسبة اليه لانها عاصمة المملكة وحصن خصومه.

ولاحقه دوق مابين الا انه كُسر في آرك بالقرب من دبيب (ايلول 1589) وحاول بعدها ان يهجم على باريس الا انه اخفق. وفي السنة التالية (آذار 1590) احرز نصرا مبينا في ايفري، وفي حملة شديدة خرق صفوف مابين وجعله في حالة لا يستطيع معها القتال. وهذا الظفر ساعد هنري الرابع على التقدم لمحاصرة باريس. ورأى أخذ المدنية بقطع طرق المواصلات وتهديدها بالمجاعة. غير ان جنوده كانوا قليلي العدد لفتحها عنوة. ودام الحصار اربعة اشهر، ولم يكن لدى الباريسيين من المؤن ما يكفيهم سوى شهر واحد فاستماتوا في الدفاع، وهذا ما ساعد دوق بارما الكسندر فارنيز على المجيء من البلاد المنخفضة مع جيش اسباني لنجدة الباريسيين، الامر الذي اضطر هنري الرابع الى الانسحاب الى نورماندیا مرة ثانية.

ولم يكن كل من الحزبين على درجة كافية من القوة ليستطيع بها سحق الآخر، ودامت العمليات العسكرية مدة عامين. واستفاد الاسبانيون من ذلك فاقاموا في فرنسا. وبطلب من مجلس الستة عشر اقاموا حامية في باريس (1591). وقام الكسندر فارنيز بحملة ثانية ضد هنري الرابع في نورماندیا واجبره على رفع الحصار عن روان (1592)، ولكنه لم يستطيع ان يفيد منه بشيء حاسم وجرح في واقعة كودیبك ومات متأثرا بجراحه. وظلت الحالة مضطربة. مات ملك العصبة، شارل العاشر، كاردينال بوربون في عام 1590. وعمل فيليب الثاني ما في وسعه للمناداة بابنته ايزابلا ملكة، وكانت هذه حفيدة هنري الثاني. وانقسم رجال العصبة على انفسهم امام هذه المزاعم الاجنبية. فقد كان المتعصبون يقدمون الدين على الوطنية، ولكن الاكثرية لم تر هذا الرأى.

ارتداد هنري الرابع الى الكاثوليكية (25 تموز 1593)

على ان المزاعم الاسبانية كان منها ان اذكت العاطفة القومية وقسمت رجال العصبة. فاستفاد من ذلك هنري الرابع. وعندما انعقد مجلس المملكة العام في باريس عام 1593، بناء على دعوة مابين ليقيموا خلفا لشارل العاشر، رأى هنري الرابع ان يفيد من هذه الفرصة السانحة. وبينما كان فيليب الثاني متعنتا في دعوته الى انتخاب ايزابلا ولم يقبل بزواجها بامير فرنسي قبل ان تتوج ملكة، قام هنري الرابع واعلن، على لسان مطران بورج، عزمه على اعتناق الكاثوليكية. وفي 25 تموز 1593 ارتد علنا بين يدي مطران بورج في كنيسة سن دوني St. Denis.

وبدَّلت الردة كل شيء، فقد هدمت آمال فيليب الثاني واحدثت الاضطراب في صفوف العصبة. اما فرنسا فلم تكن لتريد شيئا اكثر من السلام، وما كان منها الا ان رحبت بهذا الخبر السار، واعترف قسم كبير من المملكة بالملك هنري الرابع. وقد رأى هذا الا يستمر في القتال واشترى خضوع الباقين بالمال ولو كلفه غاليا. فمن ذلك ان دوق بريساك حاكم باريس سلمه المدينة مقابل عصا الماريشالية ومئتي الف ليرة، ودخل هنري الرابع باريس دون حرب.

اما فيليب الثاني فلم يحارب في فرنسا حتى الآن الا كمساعد للعصبة، ولكنه اخذ بعد ذلك يقاتل على حسابه الخاص. فاعلن هنري الرابع عليه الحرب. وانقلبت الحرب الدينية الى حرب نزاع بين البيت الفرنسي والبيت النمساوي، ودامت هذه الحروب ثلاثة اعوام وكانت ميادينها بورغورنيا ثم بيكارديا. وبالقرب من ديجون Dijon، رد هنري الرابع حملة الاسبان المستبسلين (1595)، غير ان الجيش الفرنسي غلب في دوللان في بيكارديا. ونضبت قوة الخصمين، ولم يعد بالامكان متابعة القتال للحصول على نصر حاسم، ففضلا المفاوضة وعقدا معاهدة فيرفن Vervins (2 ايار 1598) التي وطدت من جديد بنود معاهدة كانو-كامبريزي.

3) السلام الديني ومرسوم نانت

ولكن القضية الدينية ما زالت بحاجة الى حل. وكانت تسويتها من اصعب المشاكل، لانه كان من الصعب تهدئة الخواطر داخل المملكة بعد اربعين عاما في الحروب الاهلية والكره والقتل والدماء. وانفض الاتحاد الكالفيني من حول هنري الرابع، بعد ان ارتد عن دينه، ووقف منه موقفا معاديا. وبعد مفاوضات شاقة دامت طويلا توصل هنري الرابع الى اقناعه بقبول مرسوم نانت.

لقد اذيع المرسوم قبل صلح فيرفن بشهر أي في 13 نيسان 1598. وهو يضمنن للبروتستانت حرية الوجدان وحرية العبادة في جميع المملكة، والمساواة المطلقة مع الكاثوليك في الوصول الى جميع الوظائف، وايجاد مجالس نصفية في البرلمانات مؤلفة من قضاة نصفهم كاثوليك والنصف الاخر بروتستانت.

وتنازل هنري الرابع للبروتستانت عن ضمانات سياسية وعسكرية. فقد ترك لهم الحق، خلال ثمانية اشهر من احتلال مائة موقع حصين لهم، وعقد مجالس عامة للحزب. وهذه الامتيازات، التي لم تذكر في مرسوم نانت، لا تخلو من الخطر لانها كانت تساعد الكالفنيين على بقائهم حزبا منظما في قلب المملكة.

ولقد قيل عن مرسوم نانت انه يستحق ان يعتبر تاريخا في تاريخ العالم لأنه دشن عهد التسامح والتساهل الديني. وفي الواقع ان الرعايا في جميع الدول: في المانيا وانكلترة واسبانيا كانت مضطرة، تحت طائلة النفي، ان لم يكن تحت طائلة الموت، ان تدين بديانة مليكها كاثوليكية كانت ام بروتستانتية. اما فرنسا فكانت الاولى التي تبنت نظام الحرية الدينية ولقد قبلت فرنسا بهذا النظام، لا عن احترام حقيقي لحقوق الضمير، بل لانها كانت مضطرة لقبوله بحكم العقل والفطنة اللذين امتاز بهما هنري الرابع. على ان مرسوم نانت، وان كان عادلا وموفقا في احكامه الاساسية، الا انه لم يلق حسن القبول من كثير من الكاثوليك، حتى ان هنري الرابع بذل كل ما في وسعه من رجاء وتهديد لدى البرلمانات حتى حصل على حق التسجيل لهذا المرسوم. واضطر ان يمنح الكاثوليك امتيازات، كما هي الحال في عام 1601 عندما استدعى اليسوعيين الى العودة الى المملكة بعد ان طُردوا منها.

الفصل الخامس والخمسون

حرب الثلاثين عاما 1618-1648

كانت حرب الثلاثين عاما اخر واهم الحروب الدينية، وكان سببها الوضع الديني والسياسي للامبراطورية الالمانية، ما بين 1555، تاريخ معاهدة "سلام اورغسبورج" وبين عام 1618 تاريخ بدء الحرب.

1) الاسباب الدينية

كانت اهم الاسباب الدينية التي اثارت حرب الثلاثين عاما، هو البغض العميق الذي اثار الكاثوليك والبروتستانت ضد بعضهم البعض، ويعود في اصوله الى تاريخ بدء الاصلاح، الا ان اسبابا اخرى ومختلفة، ادت ومنذ عام 1556، الى اذكاء نار هذا التباغض.

1) كانت معاهدة السلام التي وُقعت في اوغسبورج تحتوي في ذاتها على بذور التفرقة والتنازع، وخصوصا فيما يختص ببند "المحمية الكنسية" Réservat Ecclésiastique، والتي منعت فيه الاستيلاء على املاك الكنيسة، والزمت أي حاكم او اسقف او كاهن، يتحول الى البروتستانتية ان يتنازل عن حكمه او منصبه الى الكنيسة التي تركها. ولم يقبل البروتستانت هذا البند الا مرغمين. لذلك لم تتم مرعاة هذا البند، ولم يمتنع البروتستانت عن الاخلال به، تحت حكم كل من فرديناند الاول (1556-1563) ومكسمليان الثاني (1564-1576)، بسبب اظهارهما الكثير من التعاطف نحوهم، ولكنهم خسروا هذا التعاطف في عهد الامبراطورين رودولف الثاني (1576-1612)، وماتياس (1612-

1616)، المؤيدين للكاثوليكية، مما ادى الى ظهور صراعات محلية خرج البروتستانت منها مهزومين. وهذا ما حصل مثلا لرئيس اساقفة كولون Cologne جبرهارد Gebhard Truchsess، الذي انضم الى الكلفينية في عام 1574، واراد الحفاظ على منصبه كناخب Electeur، وقام الكاثوليك بطرده.

ومن جهة اخرى كانت معاهدة اوغسبورج قد منحت حرية العبادة للوثريين، ومنعت الحركات والشيع الاخرى: الكالفينية والهوسيية واللامعمدانية وغيرها. الا انه وفي منتصف القرن السادس عشر، انتشرت الكلفينية سريعا على حساب اللوثرية، خصوصا، ابتداء من عام 1562، عندما اعتنق الكلفينية، فردريك الرابع التقي Frédéric IV le Pieux، حاكم مقاطعة البلاتان Palatin، واصبح الكالفنيون اكثر تطلبا، فطالبوا بالحصول على نفس الحقوق كاللوثرين، مما زاد النزاع والانقسام بين اللوثرية والكلفينية.

2) الا ان السبب الذي اثار اللوثرين اكثر هو التقدم الكبير الذي احرزه الاصلاح الكاثوليكي، وكان اليسوعيون العمال النشطين لهذا الاصلاح. فلما تمض مدة قصيرة على تأسيس هذه الجمعية الرهبانية، حتى ارسلت مرسلها الى المانيا، ففتحوا الجامعات والكليات، واصبحوا اساتذة ومعلمي ومربي ومعرفي الامراء الكاثوليك. وبدعم وتشجيع البابوات المصلحين، وبفضل نشاط الرهبان، تمت عملية اعادة تجديد وانتعاش كاثوليكية نشطة ادت الى ثمار كبيرة.

في غداة معاهدة سلام اوغسبورج كان الجزء الاكبر من المانيا قد انضم الى اللوثرية، وحتى في البلاد المجاورة لها كالنمسا، وبافاريا ومقاطعات كولون وماينز وتريف، التي كان حكمها كاثوليك، كانت الافكار اللوثرية قد وجدت الكثير من المؤيدين.

الا انه وفي اواخر القرن السادس عشر، استطاع المرسلون ليس فقط على ايقاف الغزو البروتستنتي، وانما على اعادة جزء كبير من الاراضي التي انفصلت. كما واستعاد الامبراطور رودولف الثاني سلطته وبالتالي اعاد الديانة الكاثوليكية الى بعض المقاطعات التي كانت تعتبر مقاطعات وراثية لعائلة هابسبورغ الكاثوليكية.

ادرك البروتستانت، امام تقدم الكاثوليكية، ان انقساماتهم الداخلية هي السبب في خسارتهم، فألف عدد من الامراء البروتستانت اتحادا من الاقاليم البروتستانتية (1608)، عُرف باسم "الاتحاد الانجيلي"، لحماية انفسهم ومواقعهم، واتخذوا زعيما لهم حاكم مقاطعة البلاتان، فردريك الرابع التقي. وبقي حاكم الساكس اللوثري خارج الاتحاد بسبب كرهه للكلفينية. وتعهد الملك هنري الرابع ملك فرنسا بدعمهم في أي عمل يقومون به ضد الامبراطور رودلف الثاني.

وفي عام 1609، الف عدد من الحكام الكاثوليك، يتزعمهم مكسمليان الاول دوق بافاريا، اتحادا كاثوليكيا، عُرف "بالحلف الكاثوليكي" او "الحلف المقدس"، انضمت اليه كل الدويلات الكاثوليكية، وعرضت اسبانيا ان تقدم لهذا الحلف المعونة العسكرية.

2) الاسباب السياسية

كانت حرب الثلاثين عاما ايضا نتيجة طموحات سلالة هابسبورج الكاثوليكية، التي حلمت ان تعيد سلطتها المطلقة على المانيا، وتحويلها من امبراطورية انتخابية واقطاعية، الى امبراطورية وراثية مركزية على مثال فرنسا. وسيحاول فرديناند الثاني 1609-1637، تحقيق هذا الهدف بفضل الصراعات الدينية. وعندما اصبح امبراطورا بعد موت الامبراطور ماتياس عام 1619، بدأ بتحقيق هذا الحلم. وبما ان اكثرية الامراء كانوا قد انضموا إما الى اللوثرية وإما الى الكلفينية، فقد رأى في الصراع ضد الهرطقة حجة لهدم استقلال هؤلاء الامراء، ومن ثم استخدامهم لاعادة السيادة المطلقة لعائلة هابسبورج في كل اوروبا.

اثار هذا الطموح مخاوف البلاد المجاورة مثل فرنسا، مما دفعها الى تأييد الامراء البروتستانت، وتحويل حرب الثلاثين عاما، الالمانية والدينية، الى حرب سياسية واوروبية.

3) السبب المباشر لحرب الثلاثين عاما

كان حادث القاء مندوبي الامبراطور من النافذة في براغ عام 1618، الشرارة التي اشعلت حرب الثلاثين عاما. فقد تم اختيار فرديناند الكاثوليكي عام 1617، ليخلف الامبراطور ماتياس حاكم بوهيميا، لانه لم يكن له وريث شرعي.

وكانت بوهيميا ارضا خصبة لتغلغل الافكار اللوثرية بسبب تحضيرها بتعاليم جون هوس. فاحرزت اللوثرية تقدما كبيرا في بوهيميا واعطاهم رودولف الثاني، ليضمن انتخابه امبراطورا، امتيازات خاصة في رسالة سُميت "رسالة الجلالة Lettre de Majesté"، اعترف فيها لهم بحرية الضمير، وببناء المعابد، وفتح المدارس وانتخاب 24 نائبا، يدعون "حامي الايمان" ليتابعوا الحفاظ على هذه البنود وتطبيقها من قِبَل الحكام.

تغير الوضع بعد موت رودولف واعتلاء ماتياس العرش. فقد حاول الحكام وجميعهم من الكاثوليك المحافظين، الحد من تقدم اللوثرية، وفسروا وطبقوا بنود "رسالة الجلالة" بشكل لا يوافق اللوثريين. وللحفاظ على حقوقهم عقد اللوثريون اجتماعات للتداول، وانتخبوا زعيما لهم، احد الاشراف الطموحين، الكونت هنريك فون ثورن Conte de Thurn.

وفي عام 1618، القى البروتستانت مندوبي ماتياس من نافذة القلعة مع سكرتير لهم، فسقط ثلاثتهم نحو خمسين قدما، لكنهم وقعوا على كومة من الاقذار، فتلوثوا اكثر مما تأذوا. وكان هذا الالقاء من النافذة تحديا للامبراطور وللملك الكاثوليكي. وطرد ثورن رئيس الاساقفة واليسوعيين، وشكل حكومة ثورية، ودعا كل حلفائه في الخارج لمساندته. وعندما مات ماتياس في السنة التالية (1619)، انتخب البوهيميون فردريك الخامس ليكون حاكما لبوهيميا. وسيصطدم البوهيميون مع خصم عنيد هو فرديناند الثاني الذي انتخب امبراطورا في 26 آب 1619. واتخذ فرديناند حجة النزاعات الدينية، لفرض الوحدة الدينية كأساس للوحدة الوطنية.

مرّت الحرب التي نتجت عن هذه الحوادث في اربع مراحل:

(1) المرحلة البوهيمية اوالبلاتينية La Période Palatine 1618-1623

كان اطراف هذه الحرب الامبراطور فرديناند ومعه مكسمليان ملك بافاريا من ناحية، وفردريك ومعه البوهميون من الناحية الاخرى.

وفي تموز عام 1620، عبر جيش امبراطوري قوامه 25 الف رجل النمسا الى بوهيميا بقيادة جوهان تللي، والتقى بالجيش البوهيمي بالقرب من الجبل الابيض، الى الغرب من براغ، وهزمهم هزيمة نكراء. وهرب فردريك مع حاشيته، واحتل مكسمليان براغ، وسرعان ما اعيدت الكاثوليكية، واعيد وضع الصور والتماثيل في الكنائس. واستدعى مكسمليان اليسوعيين، ووضع التعليم تحت اشرافهم، لم يسمح الا الديانة الكاثوليكية واليهودية.

(2) المرحلة الدانمركية la période danoise

جرت معارك هذه المرحلة ما بين 1625 و 1629. وكان هدفها حماية المقاطعات الشمالية البروتستانتية في المانيا من المصير الذي لاقته بوهيميا. جاء ملك الدنمراك كريستيان الرابع تحدوه الرغبة في ضم مناطق جديدة لنفوذه الى جانب رغبته في مساندة البروتستانتية، ولكنه لقى هزيمته على يد قوات الامبراطور فرديناند الثاني بقيادة القائدين الماهرين تللي والنشتاين Telly et Walenstein.

واصدر الامبراطور مرسوما يقضي باعادة الوضع الى ما كان عليه. وامر بان يعاد تسليم اراضي الكنيسة الكاثوليكية التي استولى عليها البروتستانت عام 1552، وبأن يطرد البروتستانت من المناطق الخاضعة لحكم الامراء الكاثوليك.

(3) المرحلة السويدية La période Suédoise

كان لدخول غوستاف ادولف ملك السويد مسرح الاحداث سببا لنجاح البروتستانت. كان غوستاف يعتبر القائد الاول في عصره، وألف جيشا من الطراز الاول، فاق الجيوش الاخرى بالنظام والادارة والانضباط. وكان لوثريا متحمسا، وكان يرى في الحرب حملة صليبية للدفاع عن الايمان. وكملك طموح اراد ان يوسع اراضيه بشكل يؤلف في المانيا الشمالية امبراطورية بروتستانتية يكون هو رئيسها.

وفي معركة جرت في لوتزن Lutzen في 16 تشرين ثاني 1632، هزم البروتستانت قوات الامبراطور فرديناند الثاني، بقيادة النشتاين، الا ان مقتل الملك جوستاف في هذه المعركة، ادى الى فوضى بين قواته، استغلها الامبراطور، واستعاد من السويديين مقاطعات في جنوب وغرب المانيا، كان السويديون قد احتلوها سابقا. وحصلت السويد على المناطق التي كانت تريد الحصول عليها في شواطىء بحر البلطيق.

(4) المرحلة الفرنسية

وكانت المرحلة النهائية للحرب. وجرت ما بين 1635-1648، وشهدت تدخل فرنسا الكاثوليكية في صف البروتستانت، حيث كان ريشيليو يطمع في ضم اراض جديدة الى فرنسا. وكان يريد بنفس الوقت مضايقة ملك اسبانيا الذي كان يحكم ايضا الامبراطورية الرومانية المقدسة.

4) معاهدة صلح وستفاليا Westphalia

بدأ الامبراطور فرديناند الثالث، الذي اصبح امبراطورا بعد موت والده عام 1637، وامام خطر احتلال عاصمته من قِبَل الجيوش الفرنسية-السويدية، يفكر بعقد اتفاقية سلام وانهاء الحرب.

وكان البابا اربان الثامن قد عرض منذ عام 1636 وساطته بين الدول المتحاربة لانهاء الحرب، الا ان البروتستانت رفضوا هذه الوساطة.

توصلت جمهورية البندقية وملك الدنمراك عام 1641، الى اتفاق مبدئي بعقد مؤتمر مزدوج، واحد في مونستر Munster، تلتقي فيه فرنسا مع الامبراطورية لمعالجة مشاكلهما في ظل وساطة البابا والبندقية، واخر في اوسنابروك Osnabruck، على بُعد ثلاثين ميلا من مونستر، تلتقي فيه فرنسا والامبراطورية مع السويد في ظل وساطة كريستيان الرابع ملك الدانمرك.

وبسبب عدم وجود نية طيبة بين الاطراف، ونتيجة اجراءات الامن وقواعد البرتوكول، لم تبدأ هذه المفاوضات الا في عام 1641. وتلكأ المندوبون في المفاوضات او عجلوا بها، على قدر ما كانت جيوش كل فريق تنتصر او تهزم، لكي يتسنى لكل فريق ان يعرض الشروط التي تناسبه اكثر.

وقعت معاهدة وستفاليا اخيرا في مونستر وانسبورك في نفس الوقت في 24 تشرين اول 1648. واستمر سفك الدماء تسعة ايام اخرى، حتى وصلت الانباء الى جهات القتال، وتعالت هتافات "الشكر لله" من الوف المدن والقرى.

واجهت هذه المفاوضات مشكلات معقدة، ولكنها عملت على تسوية المطالب المتعارضة، بقدر ما سمحت به الكراهية والغرور والكبرياء والقوة والسلطة التي سيطرت على المجتمعين.

احتوت هذه المعاهدة، التي اعادت تشكيل اوروبا من جديد، على ثلاثة انواع من القرارات: اقليمية وسياسية ودينية. نكتفي بعرض القرارات الدينية التي تهمنا في موضوعنا هذا.

5) القرارت الدينية لمعاهدة وستفاليا

- ثبتت معاهدة وستفاليا، بنود معاهدة "سلام اوغسبورغ" ووسعتها. واعترفت بحرية الضمير والعبادة ليس فقط للوثرية وانما ايضا للكالفينية، شريطة ان لا يمنع الامراء ممارسة شعائر العبادة للكنائس الاخرى في مقاطعاتهم، حسب ما كان عليه سنة 1624، التي اعتبرت السنة الاساسية او العادية[2] Normale، ومن لم يكن له حقوق قبل سنة 1624، ولا يريد ان يتبنى العبادة الرسمية، عليه ان يهاجر.

- قررت معاهدة وستفاليا ان تتخلى الكنيسة عن اعادة الاملاك الكنسية التي استولى عليها البروتستنت، وان تعود الى الوضع الذي كانت عليه ممتلكاتها في عام 1624.

- وضعت معاهدة وستفاليا جميع الكنائس المسيحية على قدم المساوة.

- قررت هذه المعاهدة في فقرة صغيرة من البند السابع تفوّق السلطة المدنية على السلطة الدينية، عندما اعلنت ان الامراء يملكون بجانب الحق على الارض، الحق ايضا على اصلاح الدين le jus reformandi، والذي كان يخالف مقررات مجمع ترانت الذي اعلن ان للسلطة الدينية وحدها وبنوع خاص للمجامع القانونية، ان تصلح الاخلاق وصيغ الايمان.

فلا عجب اذن ان رفض ممثل البابا الكاردينال Chigi ان يوقع المعاهدة. وفي 20 تشرين ثاني 1648، اعلن البابا انوسنت العاشر في براءته Zelo domus Domini، ان المعاهدة "غير شرعية، وغير ملزمة، ملعونة، بغيضة، ليس لها أي اثر او نتيجة على الماضي او الحاضر او المستقبل". وتجاهلت اوروبا هذا الاحتجاج.

---

[3] طلب الكاثوليك ان تكون سنة 1629، هي السنة الاساسية او العادية، لانها تاريخ مرسوم الاعادة Restitution، واراد البروتستانت ان تكون سنة 1648، وتصولوا اخيرا الى سنة 1624 كحل وسط بين التاريخين.

المراجع

1) مراجع في اللغة العربية

الدكتور عزت زكي: *"تاريخ المسيحية" الجزء الثالث" المسيحية في عصر الاصلاح"* ، دار االتأليف والنشر الاسقفية، القاهرة، 1977، 200 ص.

جون لوريمر – ترجمة عزرا مرجان: *"تاريخ الكنيسة"* الجزء الرابع، دار الثقافة، القاهرة 1990، 335ص.

جون لوريمر – ترجمة عزرا مرجان: "*تاريخ الكنيسة*" الجزء الخامس، دار الثقافة، القاهرة 1992، 213ص.

الاب جان كمبي: "*دليل تاريخ الكنيسة*"، دار المشرق، بيروت، 1986، 405 ص.

القس لبيب مشرقي: "*حديث مع جون كالفن*" دار نوبار للطباعة، 1985، 172 ص.

القس فايز فارس: "*اضواء على الاصلاح الانجيلي*"، دار الثقافة، القاهرة، 1984، 100 ص.

هاري ايبرتس – ترجمة وليم وهبة بباوي: *"مصلح في المنفى، جون كلفن"*، دار الثقافة، 1982، 202 ص.

القس حنا جرجس الخضري: "*المصلح مارتن لوثر حياته وتعاليمه*"، دار الثقافة، 1983، 187 ص.

ايرل كيرنز: "*المسيحية عبر العصور*"، الناشر ICI، نيقوسيا، 1981، 610 ص.

القس حنا جرجس الخضري: *"جون كلفن"*، دار الثقافة، 1989، 256 ص.

الاب جميل السقلاوي العازري: *"مار منصور 1581-1690"* ، 1981، 216 ص.

القس منيب يونان: *"اقرار اوغسبورغ"* ، القدس، 1993، 130 ص.

الابوان صبحي حموي وانطوان الغزال (ترجمة): "*تاريخ الكنيسة المفصل*" 2003، الجزء الثالث9 ص9-62).

2) مراجع في اللغة الفرنسية

Daniel Oliver et Alain Patin: *"Luther et la Réforme*", Ed. De l'Atelier, 1997,. 186 p.

Goerges Tavard: "*Le Protestantisme",* je sais-je crois, Ed. Fayard, 1958, 119 p.
Chanoine Cristiani: *"Brève Histoire des Hérésies*", Je sais-je crois, Ed. Fayard, 1956, 124 p.
O. De LA Brosse et autres: *"Histoire des Conciles Oecuméniques* " Tome 10 et 11, Ed. De l'Orante, Paris, 1975.
C. Bihlmeyer – H. Tuchle: *"Histoire de l'Eglise",* Tom III, Ed. Mulhouse et autres, 588 p.
Daniel-Rops*:"L'Eglise de la Renaissance et de la réforme: La Réforme Catholique*", Ed. Fayard, 1955, 569p.
Daniel-Rops*:"L'Eglise de la Renaissance et de la réforme: La Réforme Protestante*", Ed. Fayard, 1955, 615p.
J.M.Mayeur et autres*: "Histoire du Christianisme"* Tome 7, Desclée, 1994, 926 p.
Georges Blond: *"Les Engragés de Dieu*", Ed. Grasset, Paris, 1970, 379 p.
Fliche et Martin: *"Histoire de l'Eglise: La crise religieuse du XVIe siècle"* Tome 16, Ed. Bloud & Gay, 1950, 461 p.
Fliche et Martin: *"Histoire de l'Eglise: Concile de Trente*" Tome 17, Ed. Bloud&Gay, 1948, 495 p.
Fliche et Martin: *"Histoire de l'Eglise: La Restauration catholique"* Tome 18, Ed. Bloud & Gay, 1960, 488 p.
Bernard de Vaulx*: "Les Missions: leur histoire*", je sais-je croix, Ed. Fayard, 1960, 126 p.
Chanoine Cristiani: *"L'Insurrection protestante*" Je sais-je croix", Fayard, 1961, 124 p.
Emile G. Léonard: *"Histoire Générale du Protestantisme*, Tome 1, La Réformation", Ed. Presses Universitaires, 1961, 402p.
L'Abbé A. Bolenger: *"Histire Générale de l'Eglise: Tome III, Vol. VII, La Réforme protestante",* Paris, Librairie Catholique Emmanuel Vitte, 1938, 290 p.
L'Abbé A. Bolenger: *"Histire Générale de l'Eglise: Tome III, Vol. VII, La Réforme Catholique",* Paris, Librairie Catholique Emmanuel Vitte, 1940, 729 p.
Robert Grimm: "Luther et l'expérience sexuelle", 1999, 431p.

3) مراجع في اللغة ا9لايطالية

Federico Alessandro Rossi: *"Lutero cinque secoli dopo",* Ed. NED, 1998, 160 p.
Jacques V. Pollet: *"Zwingli, Biografia e Teologia",* Ed. Morcelliana, 1994, 150 p.
James Atkinson: *"Lutero la parola scatenata, L'uom e il pensiero*", 1992, 488 p.
Alister E. McGrath: *"Il penseiro della Riforma"*, 1995, 400 p.

4) مراجع في اللغة الانكليزية

Hilaire Belloc: *"How the Reformation happened",* Ed. Tan Books and publishers, 1992, 180 p.